

# النَّسَاءُ فِي النَّفْسِ

الجزء الثاني

النساء - لله نفع

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيها القرأت

السيد / بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

محمد بدر الدين الحوثي

عبد الله بن محمد الغزي



مؤسسة المصطفى الثقافية

### التفسير في التفسير

تأليف العالم الرباني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه

تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي

الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة ©

قياس القطع: (٢٤×١٦,٥)

عدد المجلدات: (٧)

الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى الثقافية

إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠١٣/٣٢٥م)



مؤسسة المصطفى الثقافية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة المصطفى الثقافية

اليمن — صعدة

جوال: (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٧٦٢) - (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩١٢٧٧) - (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٧٥٩)

بريد: [hbbhd@gmail.com](mailto:hbbhd@gmail.com) - [almostafa.ye@gmail.com](mailto:almostafa.ye@gmail.com)





التفسير في التفسير



سورة النساء





## سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا

تفسير (سورة النساء) وهي (مدنية)

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ هذا خطاب عام للناس أمرهم الله بتقواه، فقال: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ ليذكروا أنه مالكم الذي تجب عليهم طاعته.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فأصلكم واحد فلا تتظالموا، فمن التقوى تقوى الله من بعضكم في بعض ﴿و﴾ خلق من النفس الواحدة التي هي آدم عليه السلام ﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي أم بني آدم ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ من آدم وزوجه في أقطار الأرض ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وذلك دليل على قدرته ورعايته لخلقه ورزقه لهم حتى كثروا، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يهملهم فهو إعداد لما يأتي في السورة من التكاليف على بعضهم لبعض.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ لعلمكم أنه رقيب عليكم، ومعنى ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ يقول بعضكم لبعض: «أسألك بالله» ﴿و﴾ اتقوا ﴿الْأَرْحَامَ﴾ أن تقطعوها في الموارث أو غيرها.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ في الحال والماضي فيما قد ظلمتم فيه النساء واليتامى وقطعتم فيه الأرحام وغير ذلك.

أَلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾  
وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ  
وَتِلْكَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ  
أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ مَخْلَّةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ

﴿٢﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا  
أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ فِي حَالِ  
إِنْفَاقِهَا عَلَيْهِمْ، وَعِنْدَ إِنْسَانٍ رَشِدِهِمْ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ، وَالْخَبِيثُ: الْحَرَامُ،  
وَالطَّيِّبُ: الْحَلَالُ، فَقَدْ يَرَى الرَّجُلُ شَيْئًا مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ يَسْتَحْسِنُهُ وَيَرْغِبُ فِيهِ،  
فَيَأْخُذُهُ لِنَفْسِهِ وَيَجْعَلُ لِلْيَتِيمِ بَدْلَهُ لِيُزْعِمَ أَنَّهُ هُوَ نَصِيبُ الْيَتِيمِ وَقَدْ غَشَّ نَفْسَهُ؛  
لأنه تبدل الخبيث بالطيب.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ بضم مال اليتيم إلى مال الرجل  
ودعوى أن الكل للرجل ليس لليتيم منه شيء، وأكثر ما يقع هذا من الذي  
يتلف ماله فيحتاج إلى مال اليتيم فيتلفه كما أتلف مال نفسه فعبر عنه بالأكل  
لأن أكثر الإتلاف يكون في الأكل للحاجة إلى الأكل كل يوم وعموم الحاجة  
للكبير والصغير ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ في (مفردات الراغب): «الحوب: الذنب»  
والذنب ومثله في (الصحاح) وفي (الكشاف): «الحوب: الذنب العظيم»  
وكذا في (المصابيح)، وهو في (لسان العرب) عن الفراء، والأول في (لسان  
العرب) أيضاً عن أبي عبيد والزجاج، وقد وصفه الله بالكبر، فإذا كان  
معناه: الإثم العظيم، فهو مثل العذاب الأليم فهو عظيم جداً.

﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ  
النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيَّمْنُكُمْ ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿١﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴿٢﴾ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَلَا تَرْغَبُونَ فِي نِكَاحِهِنَّ بَلْ تَرْغَبُونَ فِي تَرْكِهِ فَاعْدِلُوا عَنْهُمْ، وَانْكَحُوا ﴿٣﴾ مَا طَابَ لَكُمْ ﴿٤﴾ بِأَنْ حَلٌّ وَوَاقِفٌ رَغْبَتِكُمْ، وَلَا تَنْكَحُوا الْيَتَامَى رَغْبَةً فِي مَا لَهُنَّ مَعَ الرِّغْبَةِ فِي تَرْكِ نِكَاحِهِنَّ لِلْعَشْرَةِ، لِتَسْلُمُوا ظِلْمَهُنَّ بِمَنْعِهِنَّ مَا لَهُنَّ أَوْ مَهْرَهُنَّ أَوْ مَا يَحِقُّ لَهُنَّ مِنَ النِّفْقَةِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الزَّوْجِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وَجِبَ لَهُنَّ ﴿٥﴾ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ ﴿٦﴾ أَوْ لِهَذَا اثْنَتَانِ وَهَذَا اثْنَتَانِ ﴿٧﴾ وَثُلَاثٌ ﴿٨﴾ لِهَذَا ثَلَاثٌ مِنَ النِّسَاءِ وَهَذَا ثَلَاثٌ ﴿٩﴾ وَرُبْعٌ ﴿١٠﴾ لِوَاحِدٍ أَرْبَعٍ وَلِغَيْرِهِ مِنَ الرِّجَالِ أَرْبَعٍ.

﴿١١﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿١٢﴾ فِيهِنَّ أَوْ بَيْنَهُنَّ ﴿١٣﴾ فَوَاحِدَةً ﴿١٤﴾ أَنْكَحُوا وَاقْتَصَرُوا عَلَيْهَا أَوْ مَمْلُوكَةً أَحَدَكُمْ يَسْتَغْنِي بِهَا عَنِ الزَّوْجِ حَذَرًا مِنَ الْحَيْفِ وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِحَقِّ الزَّوْجَةِ، ذَلِكَ الْإِقْتِصَارُ عَلَى وَاحِدَةٍ أَوْ الْمَمْلُوكَةِ يَنْكَحُهَا مَا لَكَهَا بِالْمَلِكِ أَذْنَىٰ وَأَقْرَبُ لثَلَاثٍ تَحْفِيفًا بِسَبَبِ تَعَدُّدِ الْمُنْكَوحَاتِ.

قال الشَّرَفِيُّ فِي (المصَابِيحِ): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: دلت هذه الآية على تحريم الجور من الولاية على اليتامى لكثرة الزوجات فقصرهن على أربع، فأباح تزويج ما دون الأربع إلى أن قال سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ يريد سبحانه في العدل بين الزوجات، وكذلك في العدل في أموال اليتامى لأجل الزوجات ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ودل ذلك على وجوب تجنُّب ما يكون سبباً للجور أو أي قبيح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي ذلك الذي هو الاقتصار على أربع فما دون إلى الواحدة، أو ما ملكت اليمين أقرب شيءٍ إلى نفي الميل عن العدل في حق اليتامى وفي حق الزوجات.



العولُ هاهنا: هو الميل، من قولهم: عَالَ الميزان: أي مَالَ، وقولهم: عَالَ في مشيته: إذا مَالَ متبخرًا، وعلى وجوب إيفاء النساء صدقاتهن وهي مهورهن، وأن المهور نخلة أي هبة، فمن نخل امرأته ما تستحق فيه الشفعة لا يشفع لأنه نخلة وليس عوض مال و[على] إباحة ما طين به نفساً من المهور» انتهى.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿ءَاتُوا﴾ الزوجات مهورهن حال كونها ﴿نِحْلَةً﴾ أو نُصِبَ على أنه مفعول مطلق على أن ﴿ءَاتُوا﴾ بمعنى اخللوا، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: اعطوا، و ﴿صَدُقَتِهِنَّ﴾ مهورهن و ﴿نِحْلَةً﴾ عن طيب نفس» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «والنَّحْلَةُ، والنَّحْلَةُ: عطية على سبيل التبرع» انتهى المراد. وفي (الصحيح): «والنُّحْل - بالضم -: مصدر قولك: نَحَلْتُهُ أَنْحَلَهُ نَحْلًا، والنُّحْلَى: العطية على فُعْلَى، ونَحَلْتُ الْمَرْأَةَ مَهْرَهَا عن طيب نفس من غير مطالبة، ويقال: من غير أن يأخذ عوضاً، يقال: أعطاهَا مَهْرَهَا نَحْلَةً - بالكسر -» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «والنحل - بالضم - إعطاؤك الإنسان شيئاً بلا استعاضة، وعمّ به بعضهم جميع أنواع العطاء» انتهى المراد. وقال: وفي الحديث: «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن» النحل: العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق، وفي حديث أبي هريرة: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين كان مال الله نُحلاً» أراد: يصير الفيء عطاءً من غير استحقاق على الإيثار والتخصيص، انتهى.

وقولهم: من غير استحقاق أرادوا ليس أجرا على عمل إلا هذا القول الأخير، ولا يستقيم في المهر؛ لأنه مستحق، وقد سماه الله أجراً في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فلا بُد من أن أحدهما مجاز إما نحلة وإما أجورهن، وسواء كانت نحلة حقيقة أم مجازاً فقد أفاد وجوبها على الزوج لا في مقابل خدمتها له، وأن تكون بطيبة نفس لأنها حق من الله، وأن لا يوجهها إلى المطالبة كما هو شأن النحلة أن يكون الباعث عليها الرغبة.

﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ مما آتيتموهن ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا﴾ سائغاً لا تنغيص فيه و ﴿مَرِيئًا﴾ مثله تأكيد، أو هو بمعنى: نافعاً مغذياً، بأن ينهضم بسهولة، وهو معنى قولهم: ما يحمد عاقبته، واستعمل الأكل في المهر مع أنه قد يكون فضة أو ذهباً أو حرثاً؛ لأن المراد أخذه والانتفاع به سواء كان مأكولاً أو غيره واستعمال الأكل فيه مجاز، و ﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ ترشيح.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿السُّفَهَاءُ﴾ جمع سفيه، قال في (الصحيح): «السفه: ضد الحلم» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل وفي الأمور الدنيوية والأخروية...» إلى قوله: «... قال في السفه الدنيوي ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ انتهى المراد.

وقال الشرفي رحمه الله، عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي عليه السلام: «وأصل السفه خفة الحلم، فلذلك وصف به الناقص العقل، ووصف المفسد بذلك لنقصان تدبيره، ووصف الفاسق لنقصانه عند أهل الدين والعلم» انتهى المراد.

وقال في (الكشاف): «السفهاء: المبذرون أموالهم، الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا يَدَيُّ لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها» انتهى، وقوله: لا يَدَيُّ: أي لا طاقة.

وقال الشوكاني في (فتح القدير) في تفسير: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] في تفسير السفاهة: «وهي رقة الحلوم، وفساد البصائر، وسخافة العقول» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وقال المرتضى عليه السلام - أي محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام -: السفهاء ها هنا فهم الأبناء والإخوة الذين أوجب الله على الآباء النفقة عليهم إذا كانوا فقراء، فأمر الله - عز وجل - إذا علموا منهم الإفساد لها أن لا يدفعوا إليهم منها ما يفسدون أو به على معصية الله يستعينون، والسفهاء فهم سفهاء الرأي وسفهاء العقول الذين لا تمييز لهم ولا نظر في أمور نفوسهم» انتهى.

وظاهرة: عموم السفه بالنقص الخلقي، والسفه في الرأي بإهمال العقل، ويدل على الثاني قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ومعنى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ فِتْنَةٍ﴾ أي قواماً لمعيشتكم وصلاًحاً، وقياماً لكم بأن تسلموا الضعف الذي يقعدكم عجزاً عن العمل أو تحيراً عن وسيلة ما يسد الخلة، فكان الإنسان يعتمد في قيامه على ماله، فإذا عدم عجز عن القيام أو لم يجد ما يقوم لأجله، فالمال قوام له.



الَّتِي تَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي في أموالكم وذلك إذا سلمت التبذير أمكن أن تكون رأس مال ترزقونهم من أرباحه أو يشتري بها مال ترزقونهم من غلوله أو كرائه، فيكون لهم فيها رزق مع بقاء رأس المال، هذا إذا كانت نقداً، فأمّا إذا كانت حرثاً أو غيره مما له غلول فرزقهم فيها رزقهم من غلولها مع بقاء رقاب المال.

والرزق: هو العطاء الجاري وهو هنا عبارة عن المأكول ونحوه من المتلفات، بقرينة قوله: ﴿وَأَكْسُوهُمْ﴾ وهذا فيمن تجب نفقته من القرابة وغيرهم، فأمّا من لا قرابة بينك وبينه، فالوجوب على قرابته إن أعسر، فأمّا من لا قرابة له فعلى المسلمين من مال المصالح، فالآية عامة للناس، وتخصيص القرابة بالآيات الأخر.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قولاً ليناً رقيقاً، والمجانين داخلون في عموم الآية أو لاحقون بقياس الأولى؛ لأنهم أشد ضعفاً، ويترجح: أن الآية في سفهاء العقول الذين لا يستطيعون التدبير لمصالحهم فأمّا سفهاء الرأي المهملون لعقولهم مع صحتها فليسوا مظنة أن يقال فيهم: وارزقوهم فيها واكسوهم تبعاً لسفاهتهم، إنما يكون ذلك لجرد الإعسار.

﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ تَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿ابْتَلُوا الَّذِينَ تَمْنَى﴾ لتعرفوا رشدهم إن كانوا رشيدين

وسفاهتهم إن كانوا سفهاء ﴿حَتَّى﴾ غاية للاختبار، والشرط الأول هو (إذا) والشرط الثاني وجزاؤه هما جواب الشرط الأول، وهما غاية الاختبار وشرط تسليم أموالهم إليهم، وبلوغ النكاح: بلوغ القوة والحاجة إلى النكاح وقت إنزال المني عند النكاح.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُمْ﴾ أدركتم وعرفتم، وعبرة الإيناس تفيد: أن الرشد مطلوب كما هو شأن من لا يطمع في مال اليتيم، والرشد: صواب الرأي في التصرف في المال، ويكفي من الرشد القليل؛ لقوله تعالى: ﴿رُشْدًا﴾ فمتى دلّ الاختبار على وجود معرفة للرأي السديد في الإنفاق، وجب بعد بلوغ اليتيم تسليم ماله إليه كله.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ<sup>ط</sup> وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴿إِسْرَافًا﴾ مجاوزة للحق الذي حدّه الشرع، والبِدَار: المبادرة والمسابقة إلى أكله قبل أن يكبر اليتيم، أي مبادرة كبر اليتيم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا﴾ له مال يقيمه ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عن الحرام عن أكل مال اليتيم وغيره من الحرام وما يعاب أكله، والإستعفاف: التنزه، وفي (معلقة عنتره):

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا﴾ محتاجاً حاجة ماسة لقوت أو ستر عورة أو نحو ذلك من الضروريات له أو لعائلته زوجته وأولاده الصغار، وحاصلها: ما يبعث الخائف على ذمته وعرضه إلى أن يقترض أو يسأل فهو فقير ومفتقر ومحتاج، ولا يقال له في اللغة غني ما دام هكذا، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيْلَهُ﴾ [التوبة: ٩١-٩٣] أي يجدون ما ينفقون على أنفسهم في الجهاد راحلة وزاداً.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي يحسب عندهم ما يسد خلتهم لأنهم لم يسألوا، فهم عند الجاهل أغنياء عن الصدقة، فالفقير له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف.

والمعروف: ضد المنكر، وهو الإقتراض بقدر الضرورة، وأجرة ما عمل وليُّ اليتيم بنية الأجرة بقدر عمله، ولا يبعد أن من المعروف الفضلة التي لا تخزن في العادة ولا تنفق للبيع، مثل: فضلة الحقين من اللبن التي تعطى للجيران حيث لا يباع ولا يشتري لو عرض للبيع.

وقلت في الإقتراض: بقدر الضرورة؛ لأن قدر الضرورة لا إشكال فيه، أما الزائد فإنه ينكر على من لا يظن التمكن من القضاء.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ في وقت ذلك، كما مر ذكره ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ شهيدين ممن ترضون من الشهداء، يشهدان دفع ما دفعتم إليهم حتى إذا جحد يتيماً شهدا عليه؛ لأن الوصي ونحوه إذا قال: قد دفعت إليك مالك وجحد اليتيم، كان المدعي هو الوصي، والمنكر هو الذي كان يتيماً - وهو صاحب المال - فالبينة على المدعي، وإذا لم تكن له بينة كانت اليمين على المنكر، فإن حلف بطلت دعوى تسليم ماله إليه وحكم عليه لليتيم بماله، فقد أرشد الله الأوصياء ونحوهم إلى الإشهاد لتبين بالشهادة براءة ذمتهم، وظاهر الأمر الوجوب.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية الكريمة على وجوب اختبار اليتامى بعد بلوغهم، فإن عرف رشدهم وجب تسليم أموالهم إليهم وإن لم يعرف رشدهم وجب على الولي حفظه،

وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ  
نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

ويجب الإشهاد عليهم حين رد الأموال عليهم، وتجب العفة عن تناول أموالهم على من كان متولياً عليهم، ويباح للولي القريب الوارث حيث يجب الإنفاق عليه من قريبه أن يأكل بالمعروف وهو نفقة مثله من مثله من تجب عليه ممن يرثه» انتهى.

وقال الشرفي رحمته في (المصابيح) أيضاً: «قال الحسين بن القاسم رحمته: إنما أطلق الله للفقير أن يأكل من مال اليتيم إلا بمنزلة الأجير، وإذا قام بالمال اشتغل به عن الكسب لنفسه وضاع، إلا أن يقتات ببعضه فأطلق الله له ذلك برحمته وعدله» انتهى.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على مال اليتيم؛ لأنه هو العليم بالخفيات الذي لا يضل ولا ينسى، فيوكل إليه تعالى ما خفي من مال اليتيم، وإنما يبين على ما يدفع ويعترف به من مال اليتيم، أما ما ادعى إنفاقه على اليتيم فيكفي فيه يمينه إن اتهمه اليتيم وأمره إلى الله وهذا فيما خفي، فأما لو كان لليتيم بينة على مال جحد الوصي عمل بها، أو ادعى إنفاقه ولليتيم بينة أنه أنفق لنفسه خيانةً عمل بها.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿الْوَالِدَانِ﴾ الأب والأم، وما تركا ما خلفا بعد موتهما من الميراث ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الأصول والفروع: البنون وبنوهم وبناتهم وبنو بنوهم ما سفلوا من الذكور، وكذلك الأصول: الآباء والأجداد من طريق الآباء والجندات من طريقهم

وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ  
الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ

والأمهات وأمهاتهن، فالوالدان قد ذكرا والأجداد والجدات مع عدمهما  
كما هو مفصل في الفرائض، وكذلك من الأقربين الإخوة لأبوين أو لأب أو  
لأم وميراثهم في بعض صور الميراث.

وفي هذه السورة تفسير مواريث الوالدين والإخوة والأولاد، فصل فيها  
ما أجمل في هذه الآية المباركة التي أسست ميراث النساء ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ  
كَثُرَ﴾ وقد كانت الجاهلية لا يورثونهن فيما يقال، وآثارها باقية إلى الآن فعند  
بعض الجاهلين الظالمين يكون ميراث المرأة اسماً بلا مسمى، وقد جعله الله  
﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فرضه الله لهن وأوجه لهن.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ  
مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ الذين بينهم وبين الميت قرابة،  
والقسمة هي بين الوالدين والأقربين، ويلزم حضورهم لأنهم المتقاسمون  
فمع المقاسمة بينهم إذا حضر غيرهم من ذوي القرابة ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾  
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ من المقسوم والضمير له أو لما ترك.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وذلك تأنيس لذوي القربى الذين لا ميراث  
لهم، ورعاية لقربهم من الميت، وتمييز بينهم وبين الأجانب عنه، وتأنيس  
لليتامى أو سد خلة، وسد خلة للمساكين، والمروءة والعادات تحدد مقدار ما  
يرزقون، ولا حرج مع التزام المروءة وصلاح النية والسلامة من الشح، فلا  
يقال: لو كان واجباً لحذه الله.

والأقرب: أن الأمر للورثة بقوله تعالى: ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ﴾ ﴿وَقُولُوا﴾ فيعطون  
بعد القسمة ليعطي كل واحد من قسمه ماضى به، أو قبلها إن تراضوا

بقدر ما يعطون، والتكليف للبالغين، فأما الصغار فلا شيء عليهم؛ لأنهم غير مكلفين، ولم نعرف أن هذا حق في المال، وإنما هو من واجب المروءة والمواساة، والقول المعروف: القول الحسن الذي لا جفاء فيه كالترحيب بهم.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم رحمه الله: وإنما أمر الله بالكلام الجميل لما فيه من سرور العباد والتألف لهم إلى دين الله ذي العزة والأيد ولأن ذلك يدعو إلى المودة والإئتلاف وينفي - كذا - بعد الضغائن والإختلاف، فلم يرض عز وجل لأوليائه الكرام بطبائع الجفأة الكفرة اللثام الذين لا يلفظون بطيب من الكلام لما هم عليه من الخساسة وسفه الأحلام والتجبر والكبر على ضعفه الأنعام والإحتقار والجفاء للمساكين والأيتام» انتهى.

قال الشرفي: قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد رحمه الله: «دلت على جواز الصدقة بل على وجوبها لأولي القربى واليتامى والمساكين عند قسمة الميراث، وعلى أن يقال لهم قولاً [كذا] معروفاً» انتهى.

ولا يقال: قد نسخت الزكاة كل إنفاق؛ لأن الله تعالى قد أوجب غير الزكاة في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْيَتِيمَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَى الْمَلَأَ عَلَى حُبِّهِ دَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقد أوجب الله الإنفاق في سبيله، وأوجب الخمس وغيره، فما يروى: «ليس في المال حق سوى الزكاة» إما عام مخصص بهذه الأوامر القرآنية وغيرها، وإما ضعيف لمخالفته القرآن.



وقد ذكره السيوطي في (الجامع الصغير): عن ابن ماجه، عن فاطمة بنت قيس: أنها سمعته - تعني النبي ﷺ يقول -: «ليس في المال حق سوى الزكاة» وقد روى هو وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا أدبت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك» وروي عن أنس حديث الأعرابي وفيه: «...لا أدع منهن شيئاً ولا أجاوزهن، ثم وثب» فقال النبي ﷺ: «إن صدق الأعرابي دخل الجنة».

والأولى: أن هذه الروايات منسوخة، وأنها كانت قبل نزول الآيات في وجوب غير الزكاة، وفي (الترمذي) (باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة) فأورد عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: سألت أو سئل النبي ﷺ عن الزكاة فقال: «إن في المال لحقاً سوى الزكاة...» ثم تلى هذه الآية في (البقرة): ﴿لَيْسَ الْمِرُّ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧] أورده من طريقين: عن شريك، عن أبي حمزة - ثم قال الترمذي -: هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف، انتهى.

قلت: هذا السند هو سند حديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة» في (سنن ابن ماجه): حدثنا علي بن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس: أنها سمعته تعني النبي ﷺ يقول: «ليس في المال حق سوى الزكاة» فلا معنى للقدح في روايات (ليس) بأبي حمزة؛ لأنه في ضدها فالأولى تساقط الروايتين لتناقضهما واتحاد راويهما، والعمل بالقرآن لأنه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولأن أول القضاء ما في كتاب الله، فهو الناسخ كما حققته في (تحرير الأفكار).

وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٢﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي

﴿١﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٢﴾ وَلْيَخْشَ﴾ حذف مفعوله؛ للدلالة السياق عليه أي: ليخشوا الله.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا﴾ عامٌ في الأوصياء فعليهم أن يتقوا الله في اليتامى وأن يقولوا قولاً سديداً، وكذا فيمن حضر حين الوصية، فعليه أن يتقى الله ولا يأمر بخلاف الحق في الورثة بتحويلهم بإقرار كاذب أو وصية غير جائزة، وكذا فيمن يتصل باليتامى أو بأموالهم ولو غير الأوصياء، فعليهم أن يتقوا الله في اليتامى فلا يظلموهم بضرب أو أذية أو دَعٌ عن حق من حقوقهم أو تغريم بدعوى في مالهم أو دعوى دين على مورثهم أو غصب أو أي ظلم لهم ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأنه رقيب عليهم وسيجزئهم بما ظلموا، وكذا في ضعف الورثة من النساء والشيخوخ والمرضى وغيرهم ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ لهم وفيهم ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي قولاً صواباً، ليس فيه ظلم، ولا أذى، ولا غلظة، ولا جفاء، بل قول معروف حق.

﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ هذا وعيد مؤكد لما تقدم من الأمر والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا..﴾ الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا..﴾ الآية، ولعل سبب التأكيد أمور:



**الأول:** أنهم كانوا يأكلون أموال اليتامى في الجاهلية وكانت عادةً يحمل عليها الحرص وحب المال، ومثل ذلك لا يتركه الحريص إلا بالتأكيد والوعيد.

**الثاني:** أن من اليتامى يتامى الشهداء والمؤمنين، وكان ذلك كثيراً في وقت النبي ﷺ لكثرة الشهداء والمؤمنين، ولا ينبغي إلا أن تحسن لهم الخلافة في يتاماهم فضلاً عن أن يظلموا.

**الثالث:** أن الحرص على المال شديد ثابت في الإنسان كالغريزة كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] ومال اليتيم يكون معرضاً للأخذ لضعفه عن الدفاع، مع مجاورة ماله لمال قرابته أو مخالطتها في الغالب، أو تزوج أمه بمن يسبب زواجها به لأكل ماله كما قد يسبب لظلم اليتيم باستخدامه بغير فائدة له، أو شغله بالخدمة عن قراءة ما ينفعه من الدروس والقرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي أن عاقبة ما يأكلونه أن يكون ناراً في بطونهم إما بنفسه كما في الكنز أو بسببه كما قال الشاعر:

إِن لَنَا أَحْمَرَةً عَجَافاً يَأْكُلْنَ كُلُّ لَيْلَةٍ إِكْافاً

أي ثمن إكاف، ويمكن اجتماع الأمرين فما أثلفه الظالم من كسوة أو غيرها من غير المأكول يكون ناراً في بطنه حقيقة أو بسببه، ولا إشكال أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجاز باعتبار الحال العاجلة؛ لأن المراد: أنه إنما سيكون ناراً في الآخرة في بطنه ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ناراً ذات لهب.

أَوْلَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ

قال الشريفي رحمه الله في (المصاييح): «قال الإمام عليه السلام - يعني القاسم بن محمد -: دلت الآية الكريمة على تحريم أموال اليتامى، وأن أخذه ظلم من الكبائر» انتهى.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَدِكُمْ﴾ هذا الخطاب لمن أشرف على الموت فهو نسخ لأمره بالوصية في قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَآئَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] وهذا مفهوم من توجيه الخطاب إلى المأمورين بالوصية ومن تسمية هذه الفرائض ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ في أولها وآخر الآية الثانية فهي مثل صبغة الله.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ حيث كان الأولاد ذكوراً وإناثاً أو ذكراً وأنثيين أو ذكراً ومعهما أنثى أو أكثر، فالمراد: للأنثى مثل نصف حظ الذكر، وللذكر مثلاً حظ الأنثى، ولكن جعلت الأنثى أي نصيبها أصلاً تأكيداً لإرثها.

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ أي لم يكن معهن ذكر حتى يكون لكل اثنتين مثل حظه بل انفردن فكن نساءً، وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: ولو فوق اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ وترك النص على اثنتين لظهوره من حيث: أن للواحدة الثلث إذا كان معها ابن وله الثلثان، ومن حيث أن الواحدة لها النصف إذا انفردت، فلا بد أن تكون طريقة الإثنتين

مثل طريقة ما فوق الإثنتين؛ لأننا لو جعلنا طريقتهم طريقة الواحدة لزم أن يأخذن المال كله لكل واحدة نصف، فإذا كان ما فوق الإثنتين ليس لهن إلا الثلثان، فبالأولى الإثنتان مع أن الله قد فرض للأختين الثلثين في آخر السورة فلا ينقص البنتان عنهما، لأن البنتين أقرب، فظهر: أن لهما الثلثين.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي نصف ما ترك أبوها، وانتهى التقسيم بين الأولاد فظهر منه: حكم الأولاد إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، وحكم ما فوق الأثنتين من البنات المنفردات، وحكم الواحدة، واكتفى بذلك عن ذكر ميراث الإبن إذا انفرد عن الإناث والإبنين والأبناء، كما اكتفى بذكر فوق اثنتين عن ذكر اثنتين؛ لأن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فالواحد له الكل، والإثنان فما فوق لم يمكن لهما أكثر من الكل، فللواحد الكل ولما فوقة الكل، ولأن الله قد نص في آخر السورة ما يفيد: أن الأخ يرث الكل فالإبن أقرب، وهذا إيجاز محكم.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أبويه لأبيه وأمه إن كان له ولد ذكر أو أنثى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فإن ورثه مع الأبوين غيرهما - ولا يتصور ذلك إلا إذا كان الزوج - فإنه ينقص ميراث الأم عن الثلث؛ لأن الزوج يأخذ ميراثه كما يأتي والباقي تأخذ الأم ثلثه وللأب الباقي.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ مع أنه لا شيء للإخوة مع وجود الأب لكنه يعود لهم إذا مات الأب قبلهم. قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «لا خلاف أن الأخت الواحدة لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس وأن الثلث يحجب، واختلفوا في الثنتين فكل الصحابة والتابعين على أنهما كالثلث، غير ابن عباس فإنه لا يحجب بهما، وقد سقط خلافه بإجماع التابعين» انتهى.

وهذا مشكل ففي (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) من حديث: عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: «وكان يحجب الأم بالأخوين ولا يحجبها بالأختين، وكان لا يحجبها بأخ وأخت، وكان لا يحجب بالأخوات إلا أن يكون معهن أخ لهن» انتهى.

قال في شرحه في (تتمة الروض النضير): «وقد قال زيد بن ثابت لما أنكر - أي ابن عباس - حجبها بالأخوين: إن العرب تسمي الأخوين إخوة كما أخرجهم الحاكم وصححه وقال هو على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في (سننه) ثم احتج صاحب التتمة بقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ فقوله: ﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يصدق بالإثنين، وقد تناولهما ضمير الجمع، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ انتهى.

ومن استعمال لفظ الجمع في المثني قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] ولعله بسبب الإضافة إلى المثني فأغنت، وهناك فرق بين استعمال الجمع في عموم الثلاثة فأكثر والإثنين وفي الإثنين وحدهما، فدخلوهما في العموم لا يبعد أنه حقيقة بخلاف استعمال الجمع فيهما وحده، وهذا إذا كانا ذكراً، فأما إذا كانا أخاً وأختاً أو أختين، فظاهر الحديث في المجموع: أنهما لا يحجبان، وما ذلك إلا لأنهما لا يسميان إخوة؛ لأن فيه جهتين من التغليب: تغليب الجمع على المثني، والمذكر على المؤنث، واللغة لا تثبت بالقياس، فالعمدة ما صح من النقل.

قال في (تتمة الروض): «وقد روى في (الجامع الكافي): أن علياً، وابن مسعود، وزيد بن ثابت: كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس بالإثنين من الإخوة والأخوات» انتهى.

وقد نص الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) على حجب الأم بالثلاث الأخوات وحدهن، وقد جعل المؤيد بالله حجب الأختين وحدهما للأُم بطريق النظر، واعتمد النظر في جعل الإثنتين بمنزلة الجمع، قال: «لأن إلحاقهما بالثلاثة أقرب من إلحاقهما بالواحد» وبين لذلك نظائر في الموارد، وطريقة المؤيد بالله عليه السلام أحسن من تحميل القرآن خلاف الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾.

﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي هذه الفرائض إنما تكون للورثة من بعد وصية يوصي بها أو دين، وفي تكثير وصية إشعار بأنها غير الوصية المعهودة التي كانت شرعت للوالدين والأقربين؛ لأنها لو كانت هي المراد لقال تعالى: (من بعد الوصية).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ أي على الميت ولا يشترط أن يوصي به بل يكفي ثبوته ولعله آخر الدين ليكون فرض الدين على الميت مستبعداً، إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن الحذر من تخليف الدين بقدر المستطاع، وقوله تعالى: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ مطلق يصدق بالقليل والكثير، حتى لو لم يبق من التركة إلا أقل القليل. فأما الوصية فقد دل الدليل على أنها لا تزداد على الثلث، إلا بإذن الورثة أو إجازتهم، فإن زاد ولم يرضوا لم يصح منها إلا الثلث، ولعله يستفاد من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ بخلاف الدين؛ لأنه واجب على الميت ولا خيار له فيه بعد ثبوته في ذمته، فيلزم الوفاء به كله.

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ الأرجح عندي: أن الخطاب للمورثين الذين خوطبوا في أول الآية، فالمشرف على الموت لا يدري من هو الأنفع له بعد موته أبوه أم ابنه ليقضي دينه وينفذ وصيته، ويفرق بمن يخاف عليه من الورثة الضعاف، فلا يدري من الأحق بميراثه، وعلى هذا فعليه أن يرضى بقسمة الله ويتكل عليها ولا يلتفت إلى عاطفة لابنه أو أبيه.



أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهِنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يَوْصِيَنَّ بِهِآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تَوْصُونَ بِهِآ أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ رَاحُ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يَوْصَى بِهِآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾ تِلْكَ حُدُودُ

﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فلا يسأل عنها الميت في تفضيل وارث على وارث؛ لأنها قسمة الله التي فرضها وأوجبها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو أعلم بما هو الخير من القسمة وما هو مقتضى الحكمة، وهو الحكيم الذي كل أحكامه على الحكمة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهِنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يَوْصِيَنَّ بِهِآ أَوْ دَيْنٍ﴾ في هذه الآية وجه الخطاب في أولها إلى الورثة وأغنى عن خطاب المورث قوله تعالى في آخرها: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ وتوجيه الخطاب إليه في الأولى المفيد للنسخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهِنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ يفيد: حجب الزوج بالولد مطلقاً ذكراً أو أنثى من هذا الزوج أم من زوج قبله أم كيف ما كان فليس له مع الولد إلا الربع.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تَوْصُونَ بِهِآ أَوْ دَيْنٍ﴾ هذا

الخطاب للمورث، ولعل السر فيه: أن المقصود توجيه الخطاب إلى الرجال لأنهم الحكم والقاسمون، والربع إذا تعددت الزوجات، أو الثمن يقسم بينهن، لأنه لم يقل: لكل واحدة الربع أو الثمن، كما قال: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ في موضعين بل جعل لهن الربع أو الثمن من غير فرق بين حالة تعدد أو انفراد.

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «المراد هنا بالإخوة: الإخوة لأم إجماعاً» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالكلالة من لم يرثه أب أو ابن، والكلالة: الإخوة والأخوات من الأم» انتهى.

وحاصله: أن الكلالة يطلق على المورث المذكور وعلى الإخوة أو الأخوات في حال عدم الأب والإبن، لكنه في الآية ظاهر في الأول، أي: يورث حال كونه كلالة.

وفي (نهاية ابن الأثير): «وقيل: الأب والإبن طرفان للرجل فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه فسمي ذهاب الطرفين كلالة» انتهى، وفي (حاشيتها): «القائل هو القتيبي، كما في الهروي» انتهى.

وقوله: «فسمي ذهاب طرفيه كلالة» أي لأن الكلالة في الأصل مصدر من (كَلَّ) بمعنى: الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، كما في (المصابيح) و(الكشاف) وغيرهما، والمشهور في تفسير الكلالة: من لم يترك ولداً ولا والدًا، أو ما خلا من الوالد والولد.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وروي ذلك عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأله عن الكلالة؟ فقال: أما سمعت الآية التي أنزلت في الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ من لم يترك ولداً ولا والدأ فورثته كلاله، وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: الكلالة ما خلا من الوالد والولد، وذلك الصواب عندنا» انتهى.

وقد احتج الإمام الهادي عليه السلام لذلك بالقرآن في (باب القول في ميراث الكلالة) ولا تضارب في التفسير، فكلال القرابة أي ضعفها يصبح نسبته إلى الميت وإلى وارثه القريب، فكلاهما كلاله، وإنما يختلف التفسير باختلاف السياق الدال على قصد كلالة قرب الموروث، أو كلالة قرب الوارث.

وقال في (لسان العرب): «والكلالة: الرجل الذي لا والد له ولا ولد، ثم قال: والعرب تقول: لم يرثه كلاله، أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثتم قناة الملك غير كلاله — عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

ثم قال: وقال الليث: اعلم أن الكلالة في الأصل هي مصدر كل الميت، يكل كلاً وكلالة فهو كل: إذا لم يخلف ولداً ولا والدأ يرثانه هذا أصلها، قال: ثم قد تقع الكلالة على العين دون الحدث، فتكون اسماً للميت الموروث وإن كانت في الأصل اسماً للحدث على حد قولهم: هذا خلق الله: أي مخلوق الله، قال: وجاز أن تكون اسماً للوارث على حد قولهم: رجل عدل: أي عادل، وماء غور: أي غائر... إلخ.

وفي (لسان العرب) حاكياً عن الأزهري: «ودل قول الشاعر أن الأب ليس بكلالة وأن سائر الأولياء من العصابة بعد الولد كلاله، وهو قوله:



فإن أبا المرء أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب

أراد: أن أبا المرء يغضب له، إذا ظلم، وموالي الكلالة وهم الإخوة، والأعمام، وبنو الأعمام، وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غضب الأب انتهى، وفيه حكاية عن ابن بري وقال عامر بن الطفيل:

وما سودني عامر عن كلالة أبي الله أن أسمو بأب ولا أب»

انتهى.

وقال ابن الأثير في (النهاية) حاكياً عن الهروي: «قد تكرر في الحديث ذكر الكلالة، وهو أن يموت الرجل ولا يدع والدأ ولا ولدأ يرثانه» انتهى.

وفي (الصحيح): «الكلُّ الذي لا ولد له ولا والد، يقال منه كلَّ الرجل يكلُّ كلالَةً، والعرب تقول: لم يرثه كلالَةً، أي لم يرثه عن عُرْض بل عن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثم قناة الملك غير كلالة عن ابني مناف عبد شمس وهاشم»

انتهى.

والتعبير في تفسير (الكلالة) بلفظ: نفي الوالد والولد، هو في (القاموس) ولم أجد التعبير بعدم الأب والابن، إلا في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) وهو كاف، إلا أن الشهرة بخلافه أرجح، كما حكيت عن أحكام الإمام الهادي عليه السلام وعن (لسان العرب) و(الصحيح) ومثله في (القاموس).

وفي (تفسير الطبري): «واختلف أهل التأويل في الكلالة، فقال بعضهم: هي ما خلا الوالد والولد، ثم رواه عن أبي بكر وعمر بأسانيده، ثم رواه عن ابن عباس بأسانيده عن سليم بن عبد، أنه قال: ما رأيتهم إلا قد اتفقوا

أن من مات ولم يدع ولداً ولا والدأ أنه كلاله رواه بأسانيد، ثم رواه عن الحكم وابن زيد، ثم رواه عن قتادة والزهري وأبي إسحاق، قال: الكلاله من ليس له ولد ولا والد..

ثم قال: وقال آخرون: الكلاله ما دون الولد، ثم قال: وقال آخرون: الكلاله: ما خلا الوالد، هكذا قال، ولكن روى في إسناد القول بذلك عن شعبة قال: سألت الحكم عن الكلاله؟ قال: فهو ما دون الأب، ثم روى بإسناده عن ابن زيد قال: عن ابن زيد: الكلاله: الميت الذي لا ولد له ولا والد والحي كلهم كلاله، هذا يرث بالكلاله وهذا يورث بالكلاله» انتهى.

نعم يمكن تفسير (الوالد) بالأب وحده وإن أمكن دعوى العموم للأب في قوله: لا والد له بطريقة التغليب لكن الأم تسمى والدته ولا تسمى والدأ والتغليب خلاف الأصل، ألا ترى أنه قد غلب عليها اسم الأب في قوله تعالى: ﴿وَلَا بُؤْيُوهُ﴾ ولا يلزم دخولها في نفي الأب، فكذا في نفي الوالد، ويؤكد هذا: أن ذكر الأب قد ورد في قول الشاعر:

وما سودتني عامر عن كلاله      أبى الله أن أسمو بأب ولا أب

فهو ظاهر: في أن الكلاله ما عدا الأب دون الأم، وقد وقع التصريح به في بعض المواضع، كما مر عن الحكم، وكما روى ابن جرير في (تفسيره) بسنده عن قتادة: «قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ والكلاله: الذي لا ولد له ولا والد لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابنة فهو لاء الأخوة من الأم» انتهى.

فما بقي الإشكال أنه سواء قيل: لا والد أو لا أب، وبقي الإشكال في قولهم: لا ولد، فالولد يعم الذكر والأنثى، وقد قال تعالى في الكلاله:

﴿إِنْ أَمْرُو هَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ فالأقرب: أن البنت تخرج الإخوة عن الميراث بالآية وإنما يرثون بالحديث، أعني الإخوة لأبوين أو لأب من حيث أنهم عصبية يأخذون ما أبقت السهام، ولا تعارض لأن هذا فيما أبقت السهام والآية فيما ترك الميت جملة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي الأخ أو الأخت ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد أو واحدة ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لا يزدادون عليه بسبب زيادة عددهم إن زادوا على اثنين، قالوا ويقسم بينهم بالسوية؛ لأن الله سوى هنا بين الأخ والأخت، فجعل لكل واحد منهما السدس، ولأنه في موضع التفضيل ينص عليه فقد ذكره في الأولاد وذكره في الإخوة أي لأب وأم أو لأب، ولم يقتصر على أحدهما فكان تركه هنا مرجحاً للتسوية، وهذا الميراث كغيره ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ أما المضاررة بالوصية، فهي: الزيادة على الثلث، وأما المضارة بالدين، فهو: بالتبرع في المرض المخوف والغبن الفاحش المسبب للدين، وكلاهما يتصور في اشتراء ما يتبرع به بثلث دين، والغبن في اشتراء ما يُغبن فيه غبناً فاحشاً بدين، وكذلك في النكاح بأكثر من مهر المثل في المرض المخوف.

﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ للزوجين والإخوة للأُم، كما أوصى للأولاد فوصية الله أوثق من وصية الميت للورثة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ فحكمه الحق وفرضه الواجب؛ لعلمه بوجوه الحكمة، وقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾ يحتمل: أنه ذكر هنا إشارة إلى حلمه - تعالى - عما سبق في الجاهلية من ظلم النساء واليتامى

اللَّهُ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾ وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ

وغير ذلك، أو إلى أنه يقسم الميراث كما فرضه الله، من غير فرق بين البر والفاجر، إذا وُجدت الملة الوارث والموروث، ولم يكن مانع من الإرث منصوص عليه كالقتل.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿تِلْكَ﴾ الحدود المذكورة من أول السورة في التامى والزواج والميراث وغير ذلك كلها ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الذي له الملك يجب أن يطاع ولا يتعدى حد من حدوده ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الموارث وسائر الحدود المذكورة وغيرها من أمر الله ونهيه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ بساتين غليظة تحن أمكنتها في جنة النعيم، خالداً لا يموت باقياً فيها ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ﴾ والظفر والفلاح ﴿الْعَظِيمُ﴾ لما فيه من الملك الكبير والنعيم الدائم ولما يستلزمه من الزخرفة عن النار.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بقطيعة رحم، أو أي مخالفة في حدود الله المذكورة في السورة أو غيرها ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ في الموارث أو غيرها ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ وهي نار جهنم ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ باقياً فيها لا يموت ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لما في جهنم من أنواع الإهانة بالعذاب المتنوع.

شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ

﴿١٥﴾ وَالَّتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فالزانية لا تجلد حتى يشهد عليها أربعة شهداء، وفائدته: أن لا يعمل بالظن وأقوال الناس التي يتناقلونها حتى يعتقدوا أنها زانية، بل لو فرض أنها زانية في الواقع فلا حكم لذلك حتى يشهد عليها أربعة من المسلمين، فاما الإقرار فإنما يثبت حكمه بالدليل الخاص.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وكذلك قول الله حين يقول: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فكان هذا أول ما أنزل الله على نبيه ﷺ في أمر الزانين حتى أنزل عليه ما أنزل من الحدود، فكان ذلك السبيل الذي ذكر الله أنه يجعله» انتهى. وفيه تفسير الفاحشة وتفسير السبيل، وقد فسر البعض الفاحشة هنا بأنها جريمة المساحقة.

﴿١٦﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ أي يأتیان الفاحشة فأذوهما كالتعزير والإهانة وقد فسروهما بالزاني والزانية، ولكن عطفه على قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ﴾ مع تفسيره بالزواني يُبعد ذلك، والأقرب: أنه في اللوطيين للمقابلة بهما للإناث، والمذهب: أنه يُحد حد الزاني، وجعلوه داخلا في حد الزنا، وفي الحديث: «اقتلوا الفاعل والمفعول به».



لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

والأولى: أن هذا ليس من النسخ، بل إضافة إلى الأذية القتل، أو أن الجلد والقتل نوع من الأذية، فهو من الإطلاق والتقييد لا من النسخ؛ لأن هذه الآية لم تعين نوعاً من الأذى.

﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا﴾ فاتركوا أذيتهما من بعد التوبة والإصلاح لخروجهما عن استحقاق الإهانة بالتوبة، ولعل هذا قبل وجوب الحد بشهادة الشهود فأما بعده فلا تتحقق التوبة والإصلاح؛ لأن الخوف من الحد يبعث على إظهار التوبة، والأقرب: أن هذا كان قبل شرع الحد بالجلد والرجم، فكانت الأذية تجب حتى التوبة، وإذا سارع إلى التوبة سقطت الأذية، ولا يسقط الجلد بالتوبة لأنه حكم آخر وإن كان قيداً للأذية قبل سقوطها، لأن الله أوجبه إيجاباً مؤكداً ولم يستثن التائب منه، وشرعه شرعاً مستقلاً لا وصفاً للأذية، فلا يسقط بسقوط الأذية بغير الحد.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿تَوَّابًا﴾ رجاءاً من إيجاب العقوبة إلى العفو ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده التائبين إليه توبة نصوحاً.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ بين تعالى من يتوب عليه وأوجب على نفسه أن يتوب عليه، لأن الحكمة تقتضي ذلك، مع كرمه ورحمته وهو من يتوب إلى الله ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي من وقت قريب، وهو ما دام في دار الخيار فتاب مختاراً قبل حضور الموت، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «كل شيء دون الموت فهو قريب» انتهى.

وقد بين تعالى في الآية التي بعدها: أن ما كان عند حضور الموت أو يوم القيامة فهو من بعيد، والقرب والبعد اعتباريان، فلما كان وقت حضور الموت لا تقبل فيه التوبة اعتبر وقتاً بعيداً؛ لأنه تأخر عن وقت قبول التوبة، و﴿السُّوءَ﴾: الذنب.

وقوله تعالى: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ أي يعملونه بجهالة وسفاهة، وعدول عن اتباع العقل والحكمة، وهو يسمى في اللغة: جهلاً، وجهالة، قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن علي (عليه السلام): «إذا اعتكف الرجل فلا يرفث ولا يجهل...» إلخ، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي (عليه السلام)): «معناه بعمد».

وفائدة هذا القيد: دفع توهم أن الله يتوب عليه بسبب عمل السوء؛ لأنه جهالة لا يصلح إلا أن يكون سبباً للعقوبة، وإنما ذكره ليرتب عليه ذكر التوبة من العبد التي هي سبب توبة الله عليه والعفو عنه، فأحكم الحاكمين لا يجب عمل السوء ولا يرضاه لعباده لأنه جهالة لا يرضاها حكيم، فما روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: «لو لم تذنّبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون ليغفر لهم» بعيد من الحسن، ظاهره: الضعف؛ لأن مثل هذا التعبير لا يصدر عن رسول الله (ﷺ) الذي ظاهره الترغيب في الذنب، والله تعالى أرسله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يتوب ومن لم يتب، وعليماً بمن يستحق التوبة عليه ومن لا يستحق ﴿حَكِيمًا﴾ لا يتوب إلا على من يستحق ذلك، لأن مقتضى عزته وحكمته أن يعذب من لم يتب.

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَتَأْتِيهَا

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ تتكرر منهم، ويصرون عليها ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كفاراً لنعمة الله بالمعاصي والإصرار عليها حتى الموت، هذا أحد معاني الكفر والسياق يُعَيِّنُهُ، لأنه في مقابلة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ فالسياق في المعاصي مطلقاً لا في كفر الجحود.

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم لم يتوبوا من قريب، وقد بسط الناصر عليه السلام في (البساط) الإحتجاج على أن أهل الكبائر المصيرين عليها يُسَمَّونَ كفاراً فراجعه.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «أصل ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا، فأبدل الدال تاءً، وقيل: أصله من العتاد وهو عُدَّة الرجل، والمعنى: هيئنا لهم عذاباً أليماً موجعاً» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب الأصفهاني) وإذا كان من العتاد فهو تَهَكُّمٌ بهم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال في (الصحيح): «العتيد: الشيء الحاضر المهيأ، وقد عتده تعتيذاً واعتده اعتاداً: أي أعدّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَثْكَأً﴾ [يوسف: ٣١] ثم قال: والعتاد: العدة، يقال: أخذ للأمر عُدَّتَهُ وعتاده: أي أهبطه وآلته» انتهى المراد.

ويظهر من قوله: «الحاضر المهيأ» أن فيه معنى الإعداد، ولكنه مع ذلك يفيد الحضور كما يفيد الإعداد، ومثله في (لسان العرب) وذكر الخلاف:



الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا <sup>ط</sup> وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾

«فقيل: أعد يعد إنما هو اعتد يعتد، ولكن أدغمت التاء في الدال، وأنكر الآخرون، فقالوا: اشتقاق أعد من عين ودالين؛ لأنهم يقولون: أعددناه فيظهرون الدالين...» إلى قوله: «قال الأزهري: وجائز أن يكون عتد بناءً على حدة وعَدَّ بناءً مضاعفاً، قال: وهذا هو الأصوب عندي» انتهى.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ وراشتها كرهاً منهيٌ عنها كيفما كانت، وتصورها: في أن يتزوجها قريبها الذي تحل له أي ابن عمها وهي كارهة له غير راضية بزواجه وهو يريد بتزوجها أن يرثها إذا مات ما يرثه الزوج، وهذا يتصور إذا كانت صغيرة لماً تبلغ، وكذا إذا زوجها إياه أبوه وهو صغير ولكن أباه يريد أن يرثها لو ماتت عن ابنه ثم مات ابنه وهذه بعيدة.

الصورة الثانية: أن يحبسها وليها عن الزواج مع وجود الخاطب الذي ترضاه وترغب فيه، فيحبسها وليها عن الزواج ليقى له ميراثها كله ولا يكون للزوج النصف أو للزوج وأولاده منها الكل أو الأكثر، فإذا منعها الزواج كرهاً ليرثها الكل مثلاً، كان قد ورثها كرهاً إذا ماتت في حياته ولم تتزوج.

الصورة الثالثة: أن يتزوج رجل امرأة فيكرهها وتكرهه ويحبسها وهو يسيء عشرتها ويظلمها، ولكنه لا يطلقها ليرثها إن ماتت قبله حيث يؤمل أنها تموت قبله لأنها أكبر سناً أو لأنها ذات مرض أو أمراض تتعاهدها في أكثر الأوقات، فهذه ثلاث صور داخلية في عموم الآية، لأن المراد: النهي عن إكراههن على سبب إرثهن بأي صورة.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَتَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يأتي تفسير هذه الجملة في كلام المرتضى عليه السلام، قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول المرتضى عليه السلام جواباً عما سأل عنه؟ معنى ﴿أَنْ تَرْتَوْا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ فهو ما يفعله كثير من الناس تكون عنده المرأة يكرهها ولا يحبها، ويكون لها مالٌ وسعة فيحملة حب المال والرجاء لموتها على أن لا يطلقها، وهو غير محب لها ولا قائم بما أوجب الله عليه في أمرها، بل هو ظالم لها غير مقيم لما أمر الله سبحانه فيها، فأخبرهم - عز وجل - أنه لا يحل لهم ذلك، ولا أن ينبغي أن يظلموهن.

وأمرهم: أن يقوموا بما أمر الله من حقهن، أو ينفذوا فيهن ما أمر الله - تبارك وتعالى - من سراحهن، ولا يحبسوهن ظلماً رجاءً منهم لورث أموالهن، فمنعهم الله من ذلك وزجرهم عنه، وكذلك - أيضاً - ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فالعضلُ هن: هو إمساك الرجال لهن من غير رغبة ولا محبة، ولا قيام بما أمر الله - عز وجل - به فيهن، فيكون عند ذلك قد ظلمها في أخذه بما يعمل فيه من التضيق عليها حتى أخذ ما أعطاه، وهذا يفعله كثير ممن لا يتقي الله إذا كره المرأة وكان عليه لها مهر خشي إن طلقها أن تطالبه به وهو فليس في قلبه لها محبة فلزمها ليتعبها عند ذلك بالتضييق عليها، والخصومة لها، والإعتزال لفراشها، ويتبع كل أمر يعلم أنه يغمها، حتى يضطرها بفعله هذا إلى أن تفتدي منه، فإذا فعل ذلك فاعل فقد ظلم وجار، وأخذ ما لا يحل له أخذه، ولا يجوز عند الله سبحانه فعله».

قال عليه السلام: «والفاحشة: فهي كل أمر استفحش من الفعل واستقبح من ذلك إذا كانت مخالفة للدين مضادة للمؤمنين، ومن ذلك: إذا لم تقم بما

أوجب الله عليها من حقه، وفعلت في أمره ما ذكرنا أنه يفعل في أمرها من القبيح، ومن الفاحشة: التبرج، وإتيان ما حرم سبحانه، فإذا فعلت ذلك وطلبت المباراة وردّ ما أخذت منه، حل له أن يأخذها إذا كان منها لا منه.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فذاك أمر منه سبحانه - عز وجل - لأزواجهن بالمعاشرة لهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف: فهو الحسن الجميل من الأمور الذي لا ظلم فيه ولا جور.

معنى ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فهو فإن أبغضتموهن وسئتموهن ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يقول: (عسى) في هذه النساء من البركات واللطف وما يرزق الله منهن من النسل المبارك التقي الذي يسر والده ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لم تعلموا به أنتم بعد، وسيكون منهن ما تسرون» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لِنَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يلحق به بالأولى إذا أراد أن يذهب بكل ما آتاها من مهر ونفقة، وبالأولى إذا أراد الزيادة على ذلك، والفاحشة: المعصية لله الزائدة في قبحها كالزنا والقذف، والمبيّنة: ما تبين فحشها واتضح وثبت بالمشاهدة، أو البيّنة المعمول بها شرعاً، والمعروف: خلاف المنكر، وخلاف ما يستنكر ويعاب على الزوج في عرف بلده.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تعتقدوا الخير في فراقهن، فمن الأمر القريب أن ﴿جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إن أمسكتموهن، وهذا إذا كن صالحات لا فاجرات يبغضن لفجورهن المعلوم، وقد روي نهى عن الحمقاء، ولعله فيمن لم يكن قد تزوجها، فأما من قد تزوجها فيمسكها ما تمسكت بالدين وصبرت على ما في نفسها من الأوهام وسوء الظن، فإن أداهاا الحمق إلى الأذية لزوجها بغير حق، والتعدي لأجل سوء الظن، كانت من أهل

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجَ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ

الفاحشة البينة لأن الظلم قبيح، وظلم المرأة لزوجها أقبح لما له من الحق عليها، وهذا إذا أفرطت في بذاءة اللسان، وأفحشت في السباب أو خاصمته، وإلا فالأحوط المجاملة حتى تفتدي نفسها، أو الطلاق بدون عوض.

﴿٢٠﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجَ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ القنطار: مال كثير، وقد تقدم ذكره في (سورة آل عمران) وذلك: أن الزوج إذا رغب في إبدال زوجة مكان التي قد تزوجها وقد آتاها مهرًا كثيرًا، ثم رغب في طلاقها وإبدالها، فإنه يرغب في استرجاع مهرها ليعطيه للأخرى، فهذا الموضع الثالث الذي ينهى فيه عن ظلم النساء، بسبب الحرص على المال في هذه الآيات.

والأول: إرثهن كرهاً.

والثاني: عضلهن لأخذ بعض المهر.

وذكر القنطار هنا؛ لأنه مظنة طمع الزوج فيه لكثرتهم ورغبته عنها وحاجته إليه للثانية. فالمعنى: ولو قنطاراً، فليس له أن يسترجعه لكثرتهم، وتحيله أنها ظالمة له بأخذه كله وأنه جور عليه، ومثله ما دونه أو أكثر منه؛ لأنه كله ظلم.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا﴾ لعل البهتان هنا دعوى أن له حقاً فيه أو أنها لا تستحقه أو نحو ذلك من الكذب الذي يستعمله الزوج ليبرر في الصورة أخذه ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ إثمًا بيناً واضحاً؛ لأن الزوج ظالم لها بأخذ مهرها وليس له فيه أي حق.

وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٦٦﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٦٧﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

﴿٦٦﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٦٧﴾ كَيْفَ؟ سؤال استنكار، ودلالة على أنه لا وجه لذلك. ﴿أَفْضَى﴾ صار في الفضاء وهو المكان الخالي ﴿بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي صار إليها أو صارت إليه في المكان الخالي الذي يصلح فيه الجماع لخلوه من الناس ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وهو العقد الموجب لحقوقهن، ومن جملتها ما فرض لهن من مهر، فقد تناوله الميثاق الغليظ، وهو غليظ؛ لعظم حرمة، ووجوب الوفاء به، وقبح التهاون به.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «دلت الآية الأولى: على تحريم تزويج من يحل تزويجها من بنات القرائب نحو بنات العم وهن كارهات، وعلى تحريم تزويج امرأة القريب التي يحل تزويجها بعد موته وهي كارهة، وعلى وجوب معاشرتهن بالمعروف، ومن العشرة: النفقة، والكسوة، وعلى استحباب إمساك من كُرِهت من النساء؛ لما يجعل الله في ذلك من الخير الذي ذكره الله سبحانه.

ودلت الآية الثانية: على إباحة تبديل الزوجة بمن شاء ممن يحل تزويجها من أخواتها أو غيرهن، وعلى تحريم ظلمهن شيئاً من مهورهن، ذكر هذا إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام انتهى.

وبعد بيان جملة من حقوق النساء في هذه السورة، بين تعالى جملة ممن يحرم منهن، فقال تعالى:

﴿٦٨﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴿٧٠﴾ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ  
 أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ  
 أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنَ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم  
 بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن  
 تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا  
 \* وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ

قبل الإسلام، ونكاحها: تزوجها وتسريها، أي اتخاذاها للوطء بالملك ودخوله  
 في النكاح، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فهو اسم لما يستحل به  
 الوطء من زواج، أو ملك للتسري.

﴿إِنَّهُ﴾ أي نكاح من قد نكحها الأب ﴿فَنَحِشَةً﴾ معصية زائدة في  
 قبحها ﴿وَمَقْتًا﴾ بغضاً شديداً من الله لفاعله، أي سبب بغض ﴿وَسَاءَ  
 سَبِيلًا﴾ طريقاً لقضاء النكاح، أي أنه سيئة مذموم، والآباء يتناول الأجداد،  
 قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: في هذه الآية  
 الكريمة تناول ما نكح الآباء من قبل الأب، ومن قبل الأم من الأجداد، ومن  
 قبل الأب من الرضاعة، ومن قبل الأم من الرضاعة» انتهى.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ  
 وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ حرم الله نكاح (الأم) التي ولدتك،  
 و(البنت) التي ولدتها ولو من الزنا، كما تحرم الأم من الزنا، و(الأخت)  
 وهي تكون اختاً من الأم أو من الأب أو منهما، و(العمة) أخت الأب  
 لأبويه أو لأحدهما، و(الخالة) أخت الأم لأبويها أو لأحدهما، و(بنات  
 الأخ) كذلك و(بنات الأخت) كذلك.



قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في هذه الآية الكريمة: «فحرم الله تبارك وتعالى الأمهات، فحرم بتحريمهن كل من ولدن من الجدات وإن علون فارتفعن وتباين في الولادة للأمهات فافترقن، لأنهن جدات والجدات فهن أمهات، وحرم الله تبارك وتعالى على المؤمنين بناتهم وما ولدن من الأولاد وأولاد الأولاد وإن سفلن في الولادات، فهن بحكم الله للأجداد بنات لا يحل لهم نكاحهن بما حرم الله من نكاح أمهاتهن.

وكذلك حرم - جلّ جلاله عن أن يحويه قول أو يناله - الأخوات فحرم بتحريمهن بناتهن على عموماتهن وما ولدن بناتهن من البنات، وبنات البنات وإن بعدت مواليدهن على إخوة جداتهن؛ لأنهم وإن تباعدوا منهن أعمامهن، والحكم فيهن وإن سفلن بالتحريم على أعمام جداتهن كحكم أخواتهم اللاتي نطق الكتاب بتحريمهن عليهم؛ لأنهن في المعنى كبناتهن إذ هن بنات أخواتهن.

وكذلك حرم الله العمات والخالات؛ لأنهن في عداد الآباء والأمهات، وحرم الله تبارك وتعالى بنات الإخوة وبنات الأخوات؛ لأنهن من العمومة كالبنات تعظيماً منه لقريب القربات، وتأكيذاً منه على عبيده في صلة الولادات، فصار حكم بنت أخي المسلم كحكم بنته عليه وكذلك حكم بنت أخته لديه» انتهى المراد.

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ أي التي صارت أمّاً لأنها أرضعتك، وهذا دليل على تحريمها ولو لم ترضع إلا مرة؛ لأنها قد أرضعت، فهو ناسخ لما روي من عشر ثم خمس رضعات محرمات، أعني: أنه ناسخ للعدد؛ لأن الحكم هنا علّق على الرضاع لا على عدد من الرضاع.

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «ثم حرم سبحانه الأمهات المرضعات لمن أرضعن من البنين والبنات على البنين وأبناء البنات والبنين وإن سفل ميلادهم؛ لأنهن بإرضاع الآباء وإن بعدن أمهاتٌ للأبناء» انتهى.

قلت: دخول ذرية الرضيع هو بالسنة، والأخت من الرضاعة يعم: الأخت التي رضعت من أمها ولو لم ترضع هي من أمك، ويعم: الأخت التي رضعت هي من أمك ولو لم ترضع من أمها، ويعم: الأخت التي رضعت أنت وهي من امرأة ثالثة غير أمك وغير أمها فهي أمكما من الرضاعة وأنتمأ أخوان من رضاعها، ولا فرق بين من رضعت معها في وقت رضاعها أو قبلها ولو قبل وجودها أو بعدها ولو بعد فطامها ولو بعد فطام من بعدها من أخواتها أو إخوتها، فأنتمأ أخوان إذ قد حصل الرضاع.

ولا يعتبر في الرضاع اجتماع على لبن ولادة واحدة، فاما الأخت من الأب أي من زوج المرضعة الذي أرضعت من اللبن الحادث بعد علوقها بولد له ففيها خلاف لأنها لم ترضع من أمك ولا رضعت من أمها ولكنها بنت زوج المرضعة، فإن كانت تسمى في اللغة أختاً فقد دخلت في العموم في قوله تعالى: وأخواتكم من الرضاعة؛ لأن سبب أخوتها هو الرضاع من امرأة أبيها أو من امرأة أبيك أو من امرأة زوج مرضعتك، بأن رضعت من امرأة ورضعت هي من ضررتها، فإذا كان زوج المرضعة يسمى أباً وبنته تسمى أختاً من الأب في اللغة دخلت في عموم الآية، وإلا فتحريمها بالسنة، وظاهر الكشف دخولها في الآية.

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ فهي محرمة على الإطلاق، ولا يشترط في تحريمها الدخول ببنتها؛ لأن تحريمها مطلق غير مشروط بالدخول.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام) قال: «حرم الله من النسب سبعاً ومن الصهر سبعاً، فأما السبع من النسب: فهي: الأم، والإبنة، والأخت، وبنت الأخ، وبنت الأخت، والعمة، والخالة، والسبع من الصهر: فامرأة الأب، وامرأة الإبن، وأم المرأة دخل بالإبنة أو لم يدخل بها، وابنة الزوجة إن كان دخل بأمها وإن لم يكن دخل بها فهي حلال، والجمع بين الأختين، والأم من الرضاعة، والأخت من الرضاعة» انتهى.

وظاهره: التفسير للآية؛ لقوله في أول الكلام: «حرم الله...» ولأنه لم يذكر غير من في الآية وجعل لغيرهن كلاماً آخر، ولم يدخلهن في هذا الحصر سبعاً وسبعاً. وفي (أمالى أحمد بن عيسى) [٩٦٨/٢] من تخريجها (رأب الصدع) بإسناده: عن الحكم بن عتيبة: أن رجلاً سأل ابن مسعود بالكوفة عن رجل تزوج امرأة فماتت قبل أن يدخل بها أيحل له أن يتزوج أمها؟

قال: فكان ابن مسعود رخص له فيها، فتزوجها فولدت له، فعرض في نفس ابن مسعود منها شيء فلقي علياً فسأله فقال: «لا تحل له» فقال: أليس الله يقول: ﴿وَرَبَّيْبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؟ فقال علي: «هذه قد فسرت وهذه مبهمة» قال: فرجع ابن مسعود ففرق بينهما، انتهى.

وفي (الأمالى) أيضاً هناك [ص ٩٦٩] بسنده: عن السدي في قوله - عز وجل -: ﴿وَأُمّهَتْ نِسَائِكُمْ﴾ قال: قال علي بن أبي طالب: «إذا تزوج الرجل الجارية دخل بها أو لم يدخل بها، لم تحل له أمها لأنها محرمة مبهمة في كتاب الله عز وجل» وفيها هناك في [الصفحة] بسنده: عن ابن عباس قال: هي مبهمة ﴿وَأُمّهَتْ نِسَائِكُمْ﴾ انتهى.

ومعنى (مبهمة): ليس فيها تفصيل بين المدخولة بنتها وغير المدخولة بنتها، وهذا واضح ولا يصح دعوى أنها مقيدة مع الرائب؛ لأن ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ نِّسَائِكُمْ﴾ هي لابتداء نسبة الريبة، وبيان مصدر هذه النسبة مثلها في قولك: هو أخي من أبي أو من أمي أو منهما لبيان مصدر الأخوة، ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَأُمّهْتُ نِسَائِكُمْ﴾ النسبة بينهما وبين الزوج ولا معنى لأن يقال: هي أمها منها، أي أم البنت من البنت، فجعل القيد راجعاً إليها لتحل ودعوى خلاف الظاهر.

﴿وَرَبَّيْكُمُ اللَّيِّ فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الريبة: هي بنت الزوجة من غيرك، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فربيية الرجل: بنت امرأته، و﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ معناه: في بيوتكم» انتهى.

وفي (الصحيح): «وحجر الإنسان وحجره - بالفتح والكسر - والجمع: حجور» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «ويقال: فلان في حجر فلان، أي في منع منه عن التصرف في ماله وكثير من أحواله، وجمعه: حجور، قال تعالى: ﴿وَرَبَّيْكُمُ اللَّيِّ فِي حُجُورِكُمْ﴾ وحجر القميص - أيضاً - اسم لما يجعل فيه الشيء فيمنع» انتهى.

لعله يعني بقوله: في منع منه، أي في حماية منه وحفظ، فلعل (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) أراد به هذا؛ لأنهن إذا كنَّ في البيوت كنَّ في الحماية. وقال (صاحب القاموس): «ونشأ في حجره: أي في حفظه وستره» انتهى.

وفي (لسان العرب): حَجَر الإنسان وحِجره - بالفتح والكسر - حضنه، وفي (سورة النساء): ﴿فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ واحدها حَجَر - بفتح الحاء - يقال: حَجَر المرأة، وحِجرها: حضنها، والجمع الحُجُور، وفي حديث عائشة (رض): «هي اليتيمة تكون في حَجَر وليها» ويموز أنه من حَجَر الثوب وهو طرفه المتقدم؛ لأن الإنسان يرى ولده في حِجره، والولي: القائم بأمر اليتيم - ثم قال في موضع آخر -: ونشأ فلان في حَجَر فلان وحِجره، أي حفظه وستره» انتهى.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قلت: فائدته التعليل...» إلخ.

يعني: أنه ليس للتقييد وإخراج من ليست في الحجر، لكنه سواء كان للتعليل أو للتقييد قد صير الكلام خاصاً بمن في الحجر، ويحتاج من ليس في الحجر إلى دليل لتحريمها.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ الحلائل: الزوجات، الواحدة حليلة، والزوج حليل ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ لتحقيق الأبناء، لثلاثتهم دخول المتبنى الذي كانوا يسمونه ابناً، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وفي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في الجاهلية قبل الإسلام فهو مغفور، فالإستثناء بمعنى لكن، وهو نظير قوله تعالى: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَاعْتَوْهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فهو يغفر لمن تاب ويرحمه، ومن ذلك: من أسلم بعد الجاهلية فقد جبَّ الإسلام ما قبله، وجعل الاستثناء هنا كالأول؛ لقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولولا ذلك لأمكن أن يكون هنا متصلاً أي إلا ما قد سلف فلم يُحَرِّم، والجمع بين الأختين الجمع في زواج واحد أو تسرّ.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي من المزوجات حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي المملوكات السبي فالمسيئة حلال لما لكها، وعليه أن يستبرئها بجيضة، وإذا كانت حاملاً كفَّ عنها حتى تضع ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتب الله عليكم هذا التحريم لمن مر في الثلاث الآيات كتاباً. ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ النكاح المحرم في الآيات، أو ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الكتاب أي ما لم يتناوله من النساء، وهذا العموم قد أخرج منه نكاح المشركات، ومن حرمت بالرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

وقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ بدل، أي: أحل لكم أن تبتغوا أي تطلبوا النكاح ﴿بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾ عن الحرام بالحلال ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي زانين كما يتنقى الزنا بالمال، ولكن بالمهور، وثمرن الإمام السريات.



﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾  
 ﴿مِنْهُنَّ فَفَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ فليس للزوج أن يؤخر المهر بعد الدخول  
 بزواجه، بل إذا استمتع بها ولو مرةً وجب عليه تسليم مهرها، والدخول  
 استمتاع وفي (معلقة امرء القيس):

ويضة خدر لا يرام خباؤها      تمتعت من لها بها غير معجل

والاستمتاع: الإنتفاع القليل المدة، ففي (مجموع الإمام زيد بن علي  
 عليه السلام) في (الحج): عن علي عليه السلام في (مواقيت الإحرام): «فمن شاء استمتع  
 بشبابه وأهله حتى يبلغ ذا الحليفة..»

ثم قال -: فمن شاء استمتع بشبابه وأهله حتى يبلغ العقيق - ثم قال -:  
 فمن شاء استمتع بشبابه وأهله حتى يبلغ الجحفة - ثم قال -: فمن شاء  
 استمتع بشبابه وأهله حتى يبلغ يلملم... إلخ.

واعترفت مدة الحياة الدنيا قصيرة، فقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ  
 الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَائِقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ  
 كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنْ  
 مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وأخرج أحمد بن حنبل في (المسند) [١٦٨/٢]: عن رسول الله ﷺ أنه قال:  
 «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» وهو في (سنن ابن ماجه):  
 ٥٧١ / ١) ورواه عبد الله بن عمرو عربي اللسان.

فإن قيل: إنه يجب تسليم المهر بالعقد؟

قلنا: إن صح هذا وأنه لا يجوز تأخيره إلى بعد الدخول، فإن العقد قد  
 يشترط فيه التأجيل، ففائدة الآية: بطلان الشرط بالدخول.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: أن امرأة أتت علياً عليه السلام ورجل قد تزوجها ودخل بها، وسمى لها مهرأ، وسمى لمهرها أجلاً، فقال له علي عليه السلام: «لا أجل لك في مهرها إذا دخلت بها، فحقها حال فأد إليها حقها»، وهذا في (أمالى أحمد بن عيسى) [٩٨٩/٢] من (رأب الصدع): حدثنا محمد، قال: حدثني أحمد بن عيسى، عن حسين، عن أبي خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه.. فذكره.

وفي الآية الكريمة فائدة أخرى، وهي: وجوب المهر معجلاً بالدخول، ولو لم يكن سمي، و﴿أَجُورُهُنَّ﴾ مهورهن، كما قال تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فظهر: أنه لا يصح الإحتجاج بالآية على تشريع المتعة المؤقتة.

وما روي من قراءة: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل) فالقرآن محفوظ، فلو كانت منه لحفظت كما حفظ، ولكتبت في (المصاحف) فأما جعل القراءة الشاذة رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغير متعين؛ لأنه في بعض المواضع يحتمل: أن الصحابي ذكره على جهة التفسير، كما ذكروا أنها حرقت المصاحف لما اختلط بها من التفسير. وإذا كان تفسيراً فهو رأي لصاحبه، ولا يلزم اتباعه؛ لجواز الخطأ عليه، ولما ثبت من اللغة العربية أنه غير متعين، وأنه صالح في الدخول بالزوجة.

فأما قولهم: إن الإستمتاع قد صار حقيقة شرعية في المتعة المتنازع عليها، فهو غير مسلم ولا دليل عليه، إنما اشتهر في العرف من عهد عمر في متعة النساء أنها هي المؤقتة لا في الإستمتاع، والقرآن لا يفسر بالعرف الحادث بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
بِأَيْمَانِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَإِنْ كُفَّوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ  
أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ  
فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ  
مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ۚ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ

﴿فَرِيضَةً﴾ مسماة مهراً، فلا تجزي عنه التبرعات ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ  
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فما أسقطته بطيبة نفسها برئ منه أو  
أرجعته له، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ يخرج به التراضي بأن لا مهر لها  
من أول الزواج وقبل الفرض، فهذا لا يصح ويلزمه المهر ويبطل الشرط.

وفي (أمالى أحمد بن عيسى) [٢/٩١٥]: بإسناده: عن علي عليه السلام في رجل  
نكح امرأة فأصدقته المرأة واشترطت أن بيدها الطلاق والجماع، فقال علي:  
«خَالَفَتِ السَّنةَ، وولَّت الحق من لم يولِّه الله، ففُضِيَ أن عليه الصداق، ويبد  
الزوج الجماع والفرقة، وقال: ذلك السنة» انتهى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ عليماً بأحوالكم وما تقتضيه الحكمة من  
تكليف أو ترخيص، وعليه بما يصدر من تراضٍ حقيقي عن طيبة نفس وما  
ليس كذلك، وعليه بكل شيء، وحكيم في كل أفعاله وأقواله.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ  
فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ ۚ  
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿طَوْلاً﴾

تحصيل طول من المال يتزوج به، والطول: سعة وزيادة على القوت الضروري ونحوه، واستطاعته: إما أن يكون موجوداً عنده يستطيع إنفاقه في الزواج لا يحتاجه للقوت الضروري ونحو القوت، وإما أن يستطيع كسبه حلالاً بسبب يستطيعه كمضاربة وإجارة عمل، فإذا كان يستطيعه فلا يدخل في هذه الإباحة للتزوج بالأمة، و﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ هنا الحرائر.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي فليتكح مما ملكت أيمانكم أيها المؤمنون، فليس له أن يتزوج مملوكة لكافر، وقوله: ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمْ﴾ الفتاة: هي الشابة، وعلى هذا: فليس له أن يتزوج أمة صغيرة، ولا عجوزاً قد بلغت الستين، أما الصغيرة فلعدم صلاحيتها للجماع، وأما الكبيرة فلأن نفسه لا تقنع بها لتحفظ دينه لنقص لذتها.

والأرجح: أنها لا تحرم بمجرد المفهوم بل لا مفهوم له، لأن ذكرها لكونها مظنة الفائدة ومظنة التحصيل لا لإخراج غيرها، فإذا لم يجد فتاة ووجد عجوزاً وخاف العنت حلت له؛ لأن الأصل الحل لدخولها في عموم ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يخرج الكافرات فلا يحل نكاحها، فأما الفاجرة المسلمة فلعلها تلحق بالمؤمنة إذا كان فجورها بغير الزنا؛ لأنهم في المعاملات يلحقون بالمؤمنين فيما ليس فيه موالة ويحتمل أن تلحق بالكافرة، والإحتمالان يرجع فيهما إلى دليل آخر.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فليس عليكم إلا العمل بظاهر الإيمان لأنكم لا تعلمون منه ما يعلمه الله سبحانه ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ الأحرار والعبيد جنس واحد، فإذا جمعهم الإيمان فلا غضاضة في الزواج منهم.

﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ المالكين لهن أي تزوجوهن بإذنهم، فلا بد من إذنهم إذا كان الزوج لهن قرابتهن أو غيرهم، وإن تولى المالك العقد فهو إذن وزيادة ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن وفي تسليمه إليهن تأنيس لهن، وإن كان عليهن تسليمه إلى المالكين لهن، وقد جرت العادة أن يستلم مهر الحرة وليها ثم لا يعطيها منه شيء فما أبعد هذه العادة من الدين ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بأن يكون مهر زواج لا أجره بغاء.

﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ مصونات ﴿غَيْرُ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ كالتفسير لإحصانهن الذي هو حفظهن من الريبة، والمسافحات: الزانيات، والمتخذات أخدان: المتخذات أخلاء من الرجال الأجانب، فهن متهمات بالزنا، غير محفوظات منه؛ لكثرة المخالطة وقوة الحب، وإطلاع كل منهما على سر الآخر، قال في (الصحيح): «الْحِدْنُ، وَالْحَدِينُ: الصديق، يقال: خادنت الرجل، ومنه: خِذْنُ الجارية، قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾» انتهى.

ولا بد في تحريمها أن تكون هي اتخذت خديناً، فأما لو كان الأجنبي يحسن إليها ويقضي لها أغراضها وهي لا تخالطه ولا تسارّه بأسرارها، ولكنها في بعض الحالات تحسن إليه مكافأة لإحسانه لا توصلاً إلى صداقته فلم تتخذ خديناً.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ بالزواج الكاسر للشهوة ﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فعلى الحرة مائة جلدة، وعلى هذه الأمة نصف المائة، فأما الرجم فلا يتنصف لأن النصف لا يوقف له على حد.

وقد ذكر الإمام الهادي عليه السلام: أن العبيد إذا أقروا بالزنا أربع مرات جلدوا سواء كانوا محصنين أو غير محصنين، وهذا قريب لعموم الأدلة في جلد الزاني وورود روايات عديدة في جلد الأمة الزانية من غير فصل بين

محصنة وغير محصنة، فالآية هذه دليل على تنصيف الحد في الأمة المزوجة وتقاس عليها في التنصيف بالأولى غير المزوجة، وقيس عليها العبد بجامع الرق، ولا إشكال أنه العلة في تنصيف حد الأمة.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشَىٰ آلَ عُنْتٍ مِنْكُمْ﴾ أي الزوج بالأمة إنما يجوز للحر إذا خشي العنت أي الوقوع في الفاحشة، سميت عنتاً؛ لأنها ضرر شديد فُسِّرَ به لقرينة السياق، وكون مهمة الزواج حفظ الدين فهو الغالب.

مع أن العنت يحتمل أن يفسر بالمشقة العظيمة تشبيها لها بالضرر الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي في شأن أموال اليتامى بالتكليف الشاق الزائد في مشقته، والمعنيان متقاربان شدة المشقة من الشبق وخوف الوقوع في المعصية بسبب شدة الحاجة، وهذا أقرب لقوله تعالى:

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي تصبروا على الحاجة مع العفاف ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الزواج بهن لخشية العنت، فأفاد: أن المراد بخشية العنت خشية عدم الصبر على الحاجة، أو خشية المشقة الشديدة بمصابرة الحاجة، فأما خشية الضرر الشديد في البدن كالجنون فهو نادر يبعد أن يعلق عليه جواز نكاحهن، ويبعد الترغيب في الصبر مع خشيته، وهذا هو ظاهر كلام الشريفي رحمته في (المصاييح) و (صاحب الكشف) فأما (صاحب الصحاح) فقال: «العنت: الإثم وقد عنت الرجل، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشَىٰ آلَ عُنْتٍ مِنْكُمْ﴾ يعني: الفجور والزنا، والعنت - أيضاً - الوقوع في أمر شاق، وقد عنت وأعنته غيره، ويقال للعظم الجبور إذا أصابه شيء فهاضه: قد أعنته فهو عنتٌ ومعنتٌ، وجاءني فلان متعنتاً: إذا جاء يطلب زلتك» انتهى.



قَبْلَكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٦١﴾ يُرِيدُ

فظهر منه: أن ما فسرنا به أرجح، وأنه لا يقال: العنت في العظم المكسور بل الإعنات، وفي (لسان العرب): «العنت دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة» انتهى، وقد زاد: أنه قد يستعمل بمعنى الهلكة، ولكن هذا لا يستقيم في سياق هذه الآية مع أنه زائد على الحقيقة كما يظهر من كلامهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلا موجب للمبالغة في الحذر من تزوج الإماء بل متى وجد الإنسان من نفسه خشية العنت جاز له أن يتزوجها ولا يضره احتمال أنه يصبر، وكذلك متى كان ظاهرها الإيمان جاز له تزوجها وليس عليه جناح إن أخطأ الواقع، وكذلك متى كان الظاهر عنده العجز عن تحصيل طول حرة لأنه لم يجد وسيلة وقد نظر فلم يخطر بباله وسيلة لطول حرة صح له تزوجها من هذه الجهة ولا يضره لو كان مخطئاً في ظنه.

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تشجيع على هذا الزواج متى كان الظاهر تكامل شروطه ليتزوج الأعزب المحتاج اتكالاً على مغفرة الله ورحمته لما في ذلك من مصلحة الإحصان وسد الذريعة على الشيطان.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ إنزال الآيات السابقة في هذه السورة ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ حتى تعرفوا ما شرع فيها ولا يخفى إلا على معرض عن تفهم القرآن، وهذه (اللام) التي يقال: إنها زائدة، أعتقد أنها تأتي حيث يحذف المراد الحقيقي ويذكر ما لأجله أريد، فهي (لام التعليل) كما قال الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي بكل سبيل

فالمعنى: أريد أن أتناسى ذكرها لأنسى ذكرها، فحذف المراد الحقيقي اختصاراً لدلالة العلة عليه وأقيمت علته مقامه، فقليل: اللام زائدة بناء على أن العلة هي المراد، فالآية الكريمة على ما فسرت تبين لماذا أراد الله ما سبق من الآيات، وإذا قلنا: يريد الله أن يبين لكم فات هذا المعنى.

﴿وَيَهْدِيكُمْ﴾ بما نزل في أوائل هذه السورة ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا اتبعتموه وتركتم ما كنتم عليه في الجاهلية من ظلم اليتامى والنساء وتزوج امرأة الأب والجمع بين الأختين والزيادة في عدد الزوجات المفرطة وغير ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما تحتاجون إليه من ذلك وما هو الخير لكم وما تقتضيه الحكمة وكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأحكامه وأفعاله وكل شأن من شأنه سبحانه وتعالى.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فانظر كيف لم يأت باللام، ولو أتى بها لكان تكراراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فبان الفرق، وأن (اللام) هي (لام التعليل) لا زائدة، فهنا يبين: أنه يريد أن نطيعه ونتوب إليه ليتوب علينا، إلا أن هذه الإرادة ليست إرادة جبر أو إجماع.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ وهذا تحذير من ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ لئلا يستميلونا عن سبيل الله فنميل ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ كما يريدون، و﴿الشَّهَوَاتِ﴾ ما تشتهي الأنفس من أغراض الدنيا، ف﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ هم الذين يتبعون ما تهوى الأنفس، وهو يعم ما تهواه بالأصالة كالنساء، وما تهواه لغضب أو عداوة أو نحوها

اللَّهُ أَنْ تُخَفِّفَ عَنْكُمْ<sup>٢٨</sup> وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا<sup>٢٩</sup> يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا<sup>٣٠</sup> وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

وإن كان في الأصل مما تكرهه النفس لولا الغضب أو العداوة أو نحوها فهو عام للمعاصي كلها؛ لأنها لا تخرج عنه، فينبغي الحذر ممن يتبع هواه على الإطلاق.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ<sup>٢٨</sup> وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ التخفيف: ضد الثقيل، فالمراد: تخفيف التكاليف بما سهل من أسباب تيسير التكليف، كإباحة تعداد الزوجات، وجعل ميراث الأنثى في بعض الموارث نصف ميراث الذكر، وإباحة الإماء للضرورة، وغير ذلك من الأحكام ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ضعيف الصبر، وضعيف الإرادة والعزم، وضعيف الثبات، فاحتاج إلى تخفيف الله عنه فخفف عنه برحمته وكرمه وحكمته.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ يعبر بالأكل عن أخذ المال للتصرف فيه سواء كان مأكولاً أو غير مأكول وذلك على طريقة التغليب، أو للتشنيع، كما قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩].

وقوله ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يشعر بالتعامل والأخذ والإعطاء الذي يكون المال فيه بين الآخذ والمعطي في مكان التعامل، وقوله: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالسبب الباطل الذي لا يثبت به حق كالربا وحلوان الكاهن وكسب المغنية وكسب الزانية والرشوة والأجرة على حق واجب على العامل ونحو ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ فهي حلال للبائع والمشتري، والتجارة يقصد فيها تحصيل الربح، وهو في الصورة إلى غير مقابل ولكن الله أحله، ويلحق بذلك التبائع بدون ربح فحله أظهر، وقوله: ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ يخرج ما كان أحد المتبايعين مكرهاً أو كلاهما فلا يحل به المال المأخوذ به.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعم قتل الإنسان نفسه وقتله أخاه المؤمن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥] وذلك أنها جعلت الجملة كالشيء الواحد، فالفرد كالعضو إذا جرح عضواً من صاحبه قيل جرح نفسه، وهذا المعنى يشير إلى أن ضرر القتل على الجملة لأن المقتول نقص منها، ونظير ذلك قول الشاعر:

قومي همو قتلوا أميم أخي      فإذا رميت يصيني سهمي  
فلئن عفوت لأعفون جلاً      ولئن سطوت لأوهنن عظمي

مع أنه لا سواء؛ لأن الإسناد في الآية إلى الجملة كما ذكرت بخلاف البيتين.

قال الشريفي رحمته في (المصابيح): «قال بعضهم: اتفقوا على أن هذا نهى عن أن يقتل بعضهم بعضاً، وإنما قال: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ كقوله ﷺ: المؤمنون كنفس واحدة، ولأن الجنس واحد، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١] أي فليسلم بعضهم على بعض؛ ولأن العرب يقولون: قتلنا ورب الكعبة، إذا قتل بعضهم... إلخ.

عُدُّوْنَا وَظَلَمْنَا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٥٧﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا

قلت: وفي القرآن الكريم: ﴿لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [١٥٤] عمران ولا إشكال في أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعم قتل المؤمن نفسه بأي وسيلة، ويدخل فيه الغسل من الجنابة في البرد القاتل وغير ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فلا يرضى أن تقتلوا أنفسكم بغير حق، ولعله يخرج منه فداء الإسلام والمسلمين مما يكون الضرر فيه أشد من قتل الواحد كالمترس بهم في الحرب ليؤخذ أرض المسلمين، وكالفدائي الذي يقتل بالمتفجرات أمة من الكفار ليخرج الكفار من أرض المسلمين، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل، فإن كان العقل يدل عليه فهو يجري مجرى التخصيص بالقول؛ لأنه يستغنى بعلم السامع عن التخصيص بالقول.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدُّوْنَا وَظَلَمْنَا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يقتل نفسه أو غيره الإشارة إلى الآخر وهو الذي في (المصابيح) و(الكشاف) وقرينته قوله تعالى: ﴿عُدُّوْنَا وَظَلَمْنَا﴾ وإن كان الكل ظلماً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾.

قال في (الصحيح): «ويقال: صليت الرجل ناراً إذا أدخلته فيها وجعلته يصلها، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد إحراقه. قلت: أصليته بالألف وصليته تصلية، وقرئ: ﴿وَيُصَلَّى سَعِيرًا﴾ ومن خفف فهو من قولهم: صلي فلان النار بالكسر يصلَّى صلياً احترق» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لـ (غريب القرآن): ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: «معناه: نشويهم بالنار وننضجهم بها» انتهى.



كَرِيْمًا ﴿٥٨﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ

وفي (الصحيح) أيضاً: «وصليت اللحم وغيره أصليه صلياً، مثال: رميته رمياً إذا شويته، وفي الحديث: إنه عليه الصلاة والسلام: أتني بشاة مصلية، أي مشوية» انتهى.

ونحو هذا في (مفردات الراغب) و(لسان العرب)، وفي (لسان العرب): «قال الكسائي: المصلية المشوية، فأما إذا أحرقت وأبقيته في النار قلت: صليته بالتشديد وأصليته» انتهى، فهو عنده أشد من الإنضاج.

وقول الإمام زيد معناه: نشويهم، يشعر بمباشرتها لأجسادهم وأرواحهم، كما تباشر ما يشوى من اللحم.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فلا مشقة عليه من أجل رقة تحصل عند ذلك، أو مدافع ينصرهم، أو نقص عليه في ملكه بهلكهم.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كالقتل عدواناً وظلماً، فخرج القتل خطأ فهو صغير، وقد قيل الخطأ غير داخل في النهي، قلنا: بل هو داخل فيه وإن لم يدخل في الوعيد، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعم العمد والخطأ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ﴾ [الإسراء: ٣٢] كذلك.

فإن قيل: إنه لا استطاع اجتنابه فليس معصية، وعموم الأدلة مخصوص بالعقل؟ قلنا: ليس كله لا استطاع تركه، ألا ترى أن بعضه يمكن تركه باستعمال الحذر والإحتياط وهو مستطاع، ولعل ذلك سبب إيجاب الكفارة في القتل

خطأ وإيجاب الدية والأرش على كل حال في العمد والخطأ، وقال تعالى:  
﴿وَمَنْ يَكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

ولعل هذا خاص بالإكراه على الزنا؛ لأن ما يبيحه الإكراه لا يسمى معصية، كيف وقد أذن الله به.

فالحاصل: أن الخطأ الذي يمكن الإحتراز منه معصية وكذلك النسيان، وإذا كانت معاصي فهي صفات بلا إشكال، والعمد كبائر بالنسبة إلى الخطأ والنسيان، ومع هذا فالكبائر متفاوتة في الكبر فما وصف في القرآن أو السنة بالكبر أو نحوه فهو كبير بالنسبة إلى ما هو دونه من المعاصي المتعمدة، وكذلك ما جاء فيه وعيد خاص به؛ لأنه يفهم من تخصيصه أنه زائد في القبح زيادة سببت للوعيد عليه بخصوصه.

فإن قيل: ما عدا الموصوف بالعظم ونحوه والمتوعد عليه بخصوصه من سائر المعاصي يحتمل الصغر والكبر؟

قلنا: قد حققنا أن المتعمد من ذلك كبير بالنسبة إلى الخطأ والنسيان، ولا ينافي ذلك أن بعضه صغير بالنسبة إلى تلك الموصوفة بالعظم أو المتوعد عليها بخصوصها؛ لأن ما هو كبير بالنسبة إلى الخطأ والنسيان قد دخل في عموم: كبائر ما تنهون عنه، ولا ينافي ذلك وصفه بالصغر بالنسبة إلى ما هو أعظم منه؛ لأن الحكم في الآية الكريمة معلق على الكبر، ولا ذكر فيها للصغر، فما صدق عليه اسم الكبر من حيث هو منهي عنه متعمد بلا تأويل لا يخرج منه كونه صغيراً بالنسبة إلى العظام المخصوصة؛ لأن ذلك لا يرفع عنه اسم الكبر من حيث هو منهي عنه متعمد بلا تأويل؛ لأن قبحه كبير من حيث هو معصية لله - جلّ جلاله - المنعم بالنعم العظمى المستمرة

التي لا نخصيها عدداً، ومن حيث قد قامت الحجة على فاعله وعظمت بالمواعظ والعبر وغير ذلك، فالإساءة إلى الله المالك المنعم باستعمال نعمه في معصيته أو الإشتغال عن طاعته باستعمال نعمته إساءة قبيحة عظيمة القبح، فالمتعمد بلا تأويل كله كبير.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قلت: وعند الناصرية، وهو ظاهر كلام الهادي عليه السلام، وصريح قول المرتضى وقول القاسم بن علي العياني (عليه السلام) وغيرهم، وبعض البغدادية: كل عمد كبيرة» انتهى المراد. وقد يعترض هذا القول: بأن الخطأ والنسيان لا يؤاخذ به صاحبه ولو لم يجنب الكبائر؟

والجواب: أنه قد مرّ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿رَبُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] أن تكفيرها سترها بحيث لا يرونها في الآخرة حسرات عليهم، وليس المراد نكفر عنكم سيئاتكم الخطأ والنسيان فقط بل كل السيئات الماضية قبل الإيمان.

وقد روى الناصر عليه السلام في (البساط) قال: وحدثنا بشر، قال: حدثنا وكيع بن الجراح، قال: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قلنا يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء أخذ بالأول والآخر» انتهى، بشر وثقه (صاحب طبقات الزيدية) في (نسمات الأسحار).

وروى عنه الناصر عليه السلام في (البساط) فأكثر وهو من مشائخه، والحديث في (جامع البخاري) المسمى (الصحيح) [٤٩/٨]: حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا سفیان، عن منصور والأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكره بتمامه.

وهو في (مسلم) [١٣٥/١] عنوانه في (شرح النووي): (باب هل نؤاخذ بأعمال الجاهلية): حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل.. إلى آخر السند، والحديث بلفظ: «أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها، ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام».

ثم قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي ووكيع، وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، واللفظ له، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل.. إلى آخر السند والحديث..

ثم قال: حدثنا منجاب بن الحارث التميمي أخبرنا علي بن مُسْنَرٍ عن الأعمش بهذا الإسناد مثله.

وأخرجه ابن ماجة في (سننه) في (أبواب الرقاق) [٥٦٠/٢]: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا وكيع، وأبي، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله.. فذكره، وشقيق هو أبو وائل.

وهو في (سنن الدارمي) و(مسند أحمد) من طرق، فهذا الحديث شاهد لما فسرنا به الآية الكريمة، وقد احتج الناصر في (البساط) لذلك فراجع.

﴿وَنُذِخْكُمْ مِّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ والمدخل الكريم: هو الجنة، فيها كرامة أولياء الله، ووصفت بالكرم؛ لما تعطي أهلها من الإكرام والإحسان.

وقال الشريفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله ﷺ: دلت الآية الكريمة على وجوب اجتناب الكبائر، وعلى أن اجتنابها سبب للتوفيق الموصل إلى التوبة التي يكفر الله بها سائر الذنوب» انتهى المراد.

فَضْلِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٦٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُمْ

﴿٦٢﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٦٣﴾ في الموارد وغيرها؛ لأن هذا التمني يستلزم كراهة بقاء النعمة لصاحبها الذي فضله الله بها، وذلك حسد فلا ينبغي لمؤمن، ولا بأس بتمني مثله بشرط الرضى بقسمة الله والصبر عليها ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ لما كان التفضيل بين الرجال والنساء ظاهر ومتعدد الجهات خصهم الله بهذا، يبين أن لكل منهما نصيباً مما اكتسب، فالفرصة في هذه الحياة متاحة للرجال أن يكتسبوا لأنفسهم من خير الدنيا ومن خير الآخرة، وهي للنساء كذلك وإن اختلف الكسب، وكان هذا الكلام تسليّة للمفضل عليه بالملك القهري أن الله قد مكنه من كسب الخير الكثير في دينه ودنياه.

فأما قوله تعالى: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا﴾ ولم يقل للرجال ما اكتسبوا وللنساء ما اكتسبن، فالأقرب عندي - والله أعلم - أنه ترهيد في كسب المال؛ لأنه يشير إلى أنه لا يتنفع به كله، فكان مالا يتنفع به ليس له كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لكل امرئ في ماله شريكان: الوارث، والحوادث» بل في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت».

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذه وسيلة عظمى ينال بها الخير ممن بيده الخير فلا ضرورة لتمني ما في يد الغير وبدلاً من ذلك يستغني المرء بالإكتساب والدعاء الذي ينال به الداعي من فضل الله الذي لا يعسر عليه خيراً كثيراً، وينبغي السؤال لما ينجي من النار ويؤدي إلى الجنة والدرجات العلى فيها؛ لأن ذلك الخير الباقي فأما كثرة المال فلا تبقى لصاحبها ولا يبقى صاحبها لها.



نَصِيهِهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٦٣﴾ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو عليهم بمن يتمنى وتمنيه، ومن يصبر وصبره، ومن يكتسب ومن يدعوه، وما اكتسب المكتسب، وما طلب الداعي وعليم بكل احوالهم وبكل شيء، فهو بصير بقضاء الحاجات وتفريج الكربات ودفع المصيبات، لطيف لما يشاء فينبغي اغتنام الدعاء.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فقد قسم سبحانه ما ترك الوالدان والأقربون، فالقسمة باقية لا تنسخ بما يجعل للموالي بالموالاة، وقوله: ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ هم الوراث الذين هم أهل ما قسم لهم، فكأنه تعالى قال: جعلنا أهلاً وملاكاً، كقول الشاعر:

وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيهِمْ﴾ ﴿عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾

عاهدتموهم على علاقة تقوم مقام الأخوة في النسب، قال في (المصاييح): «أي ماسحتموهم بأيديكم حال المحالفة، والمراد هنا مولى الحلف لا مولى العتاق» انتهى.

قال (صاحب الكشاف): «وكان الرجل يعاقد الرجل، فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف فنسخ» انتهى، فظهر: أن المعاقدة، والتعقيد: هي العقد بالكلام، ونُسب إلى الأيدي لاقرانه بالمصافحة.



فَالصَّلَاحَتُ قَنِيتَتْ حَافِظَتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۖ وَالَّتِي تَخَافُونَ  
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ  
أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٦٤﴾ وَإِنْ

﴿فَفَاتَوْهُمُ نَصِيحَتُهُمْ﴾ من التركة، ظاهره: أنه نصيب معهود فلعله السادس  
وليس ميراثاً؛ لأن الله تولى قسمة الموارث فلا تثبت بعهد ولا تنتفي ولكنه  
وصية فوجب إيتاؤه ولم ينسخ إلا كونه ميراثاً بالولاء، وإنما جعلته وصية  
لقولهم: ترثني وأرثك وعلى هذا فله حكم الوصية كالإقرار بالوارث وهذا  
هو المفهوم من جملة الآية أنه ليس وارثاً ولكن يؤتى نصيبه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فهو شهيد على عقد المحالفة، وشهيد على إيتائهم إن  
أوتوا، ومنعهم إن منعوا فتجب مراقبته والحذر من معصيته.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ  
وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ المرأة ضعيفة بالنسبة إلى الرجل من أصل خلقها  
وطباعها، ومن أجل اشتغالها بالحمل والرضاع وحضانة أولادها، فهي  
محتاجة إلى قيام الرجل عليها لحفظها وحمايتها وصيانتها والإنفاق عليها  
والقيام بأمورها التي يقوم بها الرجال ف﴿قَوَّامُونَ﴾ مثال مبالغة لقائمين  
لتكرّر القيام وتعدد جهاته.

فالمرأة تقوم على أطفالها، والرجل قائم عليها وعلى أولاده، فهو مدير  
الأسرة والقائم بأمورها ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾ وهم الرجال ﴿عَلَى  
بَعْضٍ﴾ أي على النساء، فالرجل أصلح للقيام بالأسرة وعليها لما عنده من  
الكفاءة لهذه الوظيفة، وبما أنفق من ماله على زوجته وعياله، فقد أغناها عن  
السعي للمعيشة، ومكنها من القيام بعملها في البيت لتحضن أولادها لشدة

حاجتهم إليها، ولتحفظ نفسها عما يؤدي إليه التكسب من مخالطة الأجانب في كثير من الحالات، ولتبقى في بيته ليسكن إليها بما أنفق من مهرها فيستغني بها عن الحرام وتستغني به.

فالقيام على المرأة هو القيام بمصالحها، وهو يستلزم الأمر والنهي في هذا الشأن، وليس معناه مجرد ولاية أمر ونهي كيف شاء الرجل ولو خارج مصلحتها وحقه الواجب عليها له الذي ثبت بدليل آخر.

﴿فَالصَّالِحَتُ قَنِيتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ ﴿قَنِيتٌ﴾ مطيعات لا يتكبرن عما يجب عليهن لأزواجهن، بل يخضعن لأمر الله ويتواضعن للأزواج ﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (الغيب) ما غاب عن الزوج من أنفسهن ومسكنهن وما بأيديهن من ماله وأولاده، فهن أمينات على ذلك لا يقصرن في حفظه، وحفظها لذلك إنما هو بحفظ الله ومعونته ووقايته، فعليهن وعلى أزواجهن طلب الحفظ منه وشكر نعمته عليه.

﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ ﴿الَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ خلاف الصالحات لخروجهن عن القنوت بإظهار الترفع على الزوج والاستخفاف به، وعدم المبالاة بحقه، أو إظهار عدم الرغبة فيه، أو إظهار الرغبة في غيره، أو نحو ذلك من مقدمات النشوز ودلائله التي يخرجن بها عن حقيقة الصالحات ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ ازجروهن عن النشوز بتذكيرهن عقاب الله وشدة عذابه، وأن الله هو الذي أوجب حق الزوج عليهن كما أوجب عليه حقوقهن، فعليها أن تراقب الله وتحشاه، ومن الوعظ تخويفها بأي شيء يحق له كالضربة، قال في (مفردات الراغب): «الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف».

﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ هجرها: ترك وصلها والإعراض عنها، والمراد: أن يهجرها مؤقتاً، ليكون ذلك تاديباً لها، وليس المراد إخراجها من داره أو تحوله في دار أخرى، إنما هو أن يكون في مضجعه ويتركها في مضجع آخر ولو في منزل واحد، والمضجع: مكان مَدُّ الجسم للنوم أو غيره، قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها      تثنت فكانت عليه لباسا

﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ والمراد: ضرب تأديب لإصلاحهن لا الضرب الشديد؛ لأنه موحش ومسبب للفرقة، وفي الحديث عنه ﷺ: «الرفق يمن، والخرق شؤم».

ولعل المراد الترتيب في هذه الأدوية لإصلاحهن كما رتب في الآية، فيبدأ بالوعظ بقدر ما يستطيع بكلام رقيق ولين، وبدون سبٍّ وتأثيم منفر فلا يقل: يافاجرة يا عدوة الله، ثم إذا لم ينفع الوعظ انتقل إلى هجرها في المضجع مؤقتاً ولو ليلة أو أكثر ما لم يؤدي إلى يأسها منه أو تصلح بأقل مدة منه، فإذا لم ينفع انتقل إلى قليل من الضرب ليدل به على شدة استنكاره لنشوزها ويخيفها به من زيادة الضرب إن لم تصلح.

ولا ينبغي للزوج المبالغة والإستقصاء في طلب حقوقه عليها، بل ما كان معلوماً كالجماع إذا عرف أنها تمتنع منه لغير عذر بل تمرداً، فأما لعذر كجوع أو تعب أو حزن فيمهلها ولا يحوجها إلى النشوز باستعمال التأديب ونيتها طاعته؛ لأن ذلك غير المقصود في الآية، وأما إذا امتنعت عن أمر فيه خلاف أوجب عليها أم لا؟، فيبدأ بمحاكمتها، إما لتعرف الواجب عليها، وإما لمنع الشقاق وهو أعم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ الآية.

خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٦٥﴾ \* وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ لا تطلبوا سبيلاً لأذاهن أو للتقصير في حقوقهن بالتماس ما تجعلونه ذنباً منهن تجعلونه وسيلة للإساءة عشرتهن وهذا قد يقع من الزوج ليؤديها إلى أن تفتدي نفسها منه كما مر وقد يقع منه عملاً بأوام لا يعمل بها في الشرع، وقد يكون سببها مرض فيه ضرر في أعصابه كما يصدر ممن يكثر من القات، وقد يكون جهلاً من الزوج وميلاً إلى الشقاق.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ قال الشريفي رحمته في (المصاييح): «وعُلُوّه لا بالجهة، وكبره لا بكبر الجثة بل هو عليّ كبير بكمال قدرته، ونفاذ مشيته، وذكر هاتين الصفتين في هذا الموضع في غاية الحسن وبيانه من وجوه:

الأول: أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النسوان، والمعنى أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم، فالله سبحانه عليّ قاهر كبير قادر يتصف لمن منكم ويستوفي حقهن منكم، فلا ينبغي أن تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن... إلخ كلامه.

فمن حيث أن الله عليّ ينبغي أن نخشاه؛ لأنه القاهر فوق عباده الغالب على أمره، ومن حيث أن الله كبير ينبغي أن نخشاه ويستحيي منه عبده الحقير الذليل المحتاج إليه في كل حال، بل يخشع له لعظمته وجلاله.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ ﴿٦٥﴾

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا<sup>ط</sup> وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ  
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا  
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ<sup>ط</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ  
يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خطاب لقيادة الأمة القائمة بشؤونها أهل الصلاح  
والصلاحية لذلك، فعليهم أن ينظروا في أمور المسلمين، ومنها مشاكل  
الأسرة التي هي مظنة الشقاق ثم الطلاق، فيسعوا لحل المشاكل يبعث  
حكّمين أي إرسالهما إلى محل الأسرة أحدهما من أهل الزوج أي قرابته،  
والآخر ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي قرابتها.

ويتخيروا الحكمين من عقلاء الرجال الذين هم مظنة الإصلاح لا  
التعصب للقرابة بالميل مع القريب فهما مظنة تقوية الشقاق إذا لم يكونا  
صالحين مصلحين.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ إن يرد الزوجان إصلاحاً من الحكمين وكانت  
نيتهم إصلاح الزواج وحل المشكلة ﴿يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ عند حضور  
الحكمين إما بإصلاح الحكمين أو بأن يتبّه المخطئ لخطأه عند حضورهما إذا  
خشي أن يشددا عليه أو أتهمهما بقصد الإفساد، فتوفيق الله بينهما يذهب  
الشقاق ويخلفه الوفاق.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ فهو يعلم ما في قلوب الزوجين من النيات  
الصالحة أو الفاسدة، ويعلم ما يصلح شأنهما وهو عالم بخبرهما وباطن  
سرهما؛ لأنه عليم بكل شيء، خبير بكل سر.

فَضْلِهِ<sup>٤</sup> وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَاللَّوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾

﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بطاعته والخضوع له، وإخلاص العبادة له، فهذه عبادته لا تتم إلا بأن نجعل أنفسنا عبيداً له وحده لا شريك له، فلو عبدنا غيره لم تتم لنا عبادته.

ألا ترى أن الأنبياء يأمرون قومهم بعبادة الله ما لهم من إله غيره فقد جعلوهم غير عابدين لله حين كانوا مشركين لأنه لا يقبل منهم مع الشرك بعض عبادة؛ ولأنهم لم يجعلوا أنفسهم في حال الشرك عبيداً لله وحده، فلم يعبدوه، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكِبْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

فدل على أن معنى العبادة: أن تجعل نفسك عبداً لله، فإذا جعلت نفسك لله ولشريك معه فلم تجعل نفسك لله إنما جعلت بعضك، وعلى هذا جرى خطابُ الأنبياء لأممهم انظر (سورة الأعراف).

وقول نوح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقول هود مثل ذلك، وصالح، وشعيب (عليهم السلام).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نهي عن أن نجعل له شريكاً في شيء من صفاته وما يتبعها كعلم الغيب والقدرة الخارقة والمشاركة في الملك أو في الحكم أو في الربوبية، وكونه تعالى لا شريك له في ذلك حجة على من أشرك بعبادته غير الله، أو بالرتاء، فمفهوم الإشراك به غير مفهوم الإشراك بعبادته.



وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): «واتفقوا على أن هاهنا محذوفاً، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، كقوله: ﴿فَضْرِبَ الرُّقَابَ﴾ [عمد: ٤] أي فاضربوها.

ويقال: أحسنت بفلان وإلى فلان، كقول كثير:

أسيتي بنا أو أحسنني لا ملومة      لدينا ولا مقلية إن ثقلت

قلت: أعتقد أن الإستعمال الشائع تعدية الإحسان بـ (إلى) فإذا كانت تعديته بـ (الباء) قليلاً فالأولى جعله من التضمين لمعنى اللطف أو الرفق.

وكذلك (أسيتي بنا) فالشائع أن يقال: أساء إليه، فالأولى: أنه أراد أوقعي بقلوبنا سوء بالهجر ونحوه، فعدها بـ (الباء) لثلاثيهم، أو صلي إلينا سوءاً بقول أو فعل؛ لأنه لا يريد وصفها بالتعدي والظلم أو أنها مظنة ذلك.

والإحسان بالوالدين: شكر لنعمتهما على الولد، فإذا وجب لحقهما على الولد فبالأولى أن تقبح الإساءة إليهما، وقد جاء في الحديث الزجر عنها وأنها من الكبائر، وفي رواية: «من أكبر الكبائر».

﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقد أمرنا أن نحسن بهؤلاء.

(وذو القربى) صاحب القرب من النسب، وفسرهم أهل المذهب: بمن ولده جدا أبويه، فعم هذا التفسير: الأعمام والأخوال وذرياتهم، مع الأخوة والأخوات وذرياتهم، وعم الوالدين والأولاد وذرياتهم، وعم الأجداد والجدات الأسفلين، وهذا في ذي القربى.

فأما الأقربون ففيه تفضيل في قرب النسب، فلا يعم أهل القربى كلهم وإنما هم من جاء ذكرهم في الموارث في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣] فهم الإخوة مع الوالدين والأولاد، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْزِلْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فشمل الأعمام فهم أقرب من سائر العشيرة بعد هم.

وفي (لسان العرب) - من رواية عن الزجاج -: والقاربة، والقربى: الدنو في النسب، والقربى في الرحم وهي في الأصل مصدر، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ ثم قال: وأقارب الرجل وأقربوه عشيرته الأدنون، وفي التنزيل: ﴿وَأَنْزِلْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وجاء في التفسير: أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب فخذأ فخذأ: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس، يا صفية» إلخ.

وأقول: إنه قد اعتمد الرواية في تفسير (الأقارب) وألفاظها مختلفة، فأخرج الطبري في (تفسيره) بإسناده عن عائشة، قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْزِلْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبد المطلب.. إني لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم» وروى مثله بسند آخر، ثم روى بإسناده مثله عن عروة بن الزبير.

وقال الطبري: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْزِلْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسول الله ﷺ على الصفا ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه فبين رجل يميء وبين آخر يبعث

رسوله، فقال: «يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني... يا بني...» إلخ.

وهذه الرواية لا تدل على أنهم كلهم عشيرته الأقربون؛ لأنه نذير للأقربين والأبعدين، فمن الجائز أنه عم بالدعوة ليأتي الأقربون والأبعدون ليعم الكل ويخص الأقربين بقوله: «يا بني عبد المطلب...».

ويدل على ذلك ما رواه الطبري بإسناده عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، قال: فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنني متى ما أنادهم بهذا الأمر أرا منهم ما أكره فصمتُ حتى جاءني جبريل، فقال: (يا محمد إنك إن لا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك) فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملاً لنا عساً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلهم وأبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً.. إلى آخر الرواية، وهي في (تفسير الطبري) وفي تاريخه نحوها بسند آخر تقوي هذه الرواية وإن لم تكن مثلها في اللفظ، ورواها أبو نعيم في (دلائل النبوة) والبيهقي في (دلائل النبوة).

فظهر: أنهم الأقربون من العشيرة، فأما الأقربون من ذوي القربى: فهم الوالد والولد، وألحقنا بهم الإخوة لدخولهم في تفصيل ما أجمله قوله تعالى: ﴿لِلرَّجُلِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فأما الأعمام فإنما ورثوا بالتعصيب، والدليل على ذلك: أن العمة لا ترث إلا مع ذوي الأرحام بخلاف الأخت.

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ قد مر ذكرهم والتحذير من ظلمهم، وهذا أمر بالإحسان إليهم لتأنيسهم والجبر من ضعف يتمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ هم مثل اليتامى فيحسن إليهم ولو لم يعطوا، فالإحسان أعم من العطاء فلا يترك الإحسان بالقول ونحوه عند تعذر العطاء، وقد مر تفسيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ﴾ هو المجاور في المسكن أي مَنْ كان مسكنه قريباً من مسكنك، وقد جاء في أهل المقبرة: «جيران لا يتزاورون» وأنشد لأمرئ القيس:

أجارتنا إن الخطوب تنوب      وإنني مقيم ما أقام عسيب  
أجارتنا إنا مقيمان هاهنا      وكل غريب للغريب نسيب

وللسموأل:

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا      عزيز وجار الأكثرين ذليل

فلا يشترط في الجوار الملاصقة.

وقوله تعالى: ﴿ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ تنبيه على أن له حق الجوار مع كونه قريباً، وكانت الجاهلية غافلة عن هذا، وكانت تفتخر بحماية الجار الأجنبي، مع أن الجار ذا القربى له حق الجوار وحق الرحامة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾ الجنب: الأجنبي، قال الشريفي رحمته في (المصابيح): «والإحسان إليهم: بالمواساة، والنصرة، وحسن العشرة، وكف الأذى» انتهى.

قلت: الأذى إساءة فتحريمه من المفهوم، ولعله يدخل في حسن العشرة التعليم للقرآن والتربية الدينية إن أمكن، والنصائح التي يحتاجها الجار، وطلاقة الوجه، والإبتسامة، والكلمة الطيبة وغير ذلك، فالإحسان لا حد له.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ﴾ الذي يصحبك ويكون معك مستمراً أو في حالة الصحبة، وقوله تعالى: ﴿بِالْجَنُبِ﴾ يخص الذي حولك فيخرج المبتعد عنك، وهو يعم صاحب في السفر حال السفر، والصاحب: الزميل في طلب العلم مثلاً، والصاحب في معمل وغير ذلك، حتى الصاحب في السجن، وقد دخلت فيه الزوجة التي تكون معك في مسكن أو غيره، فهي صاحبة للزوج والزوج صاحب لها، فقد دخلا في عموم الآية، ولذلك فسرهُ الإمام زيد بن علي عليه السلام بالمرأة، وروي ذلك عن علي عليه السلام، وحقوق الصحبة تختلف وتتفاوت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ قالوا: هو المسافر الذي انقطع عن بلده، وعبارة الراغب: «ابن السبيل: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السبيل لممارسته إياه» انتهى.

قلت: لعله نسب إلى السبيل ليحسن إليه ولو كان غريباً مجهولاً لغربته فيحسن إليه لأجل السبيل، أي لكونه فيه غريباً، ولا يوقف الإحسان إليه على معرفته ومعرفة أبيه.

قال الشرفي رحمته الله في (المصابيح): «والإحسان إليه إيواؤه ومعونته وإعطاؤه حقه» انتهى. يعني: إطعامه وسقيه، وإيواؤه: جعله في بيت يبيت فيه، وهذا الإحسان غير حقه من الزكاة، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْيَرْمَنَ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد والإماء والبهائم، قال الشريفي رحمته: «حتى الهرة والدجاجة».

قلت: ويحتمل: أنه خاص بالعبيد والإماء، لأن السياق في الناس، ولأن هذا الإسم كثر استعماله في الإماء خاصة وفي الإماء والعبيد، ولعله بسبب نسبة الملك إلى اليمين، بخلاف الأنعام فقد قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١] وهذا هو الراجح، وإن كان الإحسان إلى الأنعام من خلق أهل الدين، وقد جاء الحث في الحديث على الإحسان إليها أو الرفق بها، لكن لم يثبت نسبة ملك اليمين إليها، بل الملك فقط بدون ذكر اليمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا \* الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ لما أمر الله تعالى بالإحسان ووسع مواقعه وكان امثال ذلك شأن أهل الإيمان عقب ذلك ببيان أنه تعالى لا يحب من كان على ضد صفات أهل الإحسان، ونفي الحب تعبير عن تركهم من الألفاف ونحو ذلك مما يفعله الله لأوليائه.

والمختال: ذو الخيلاء ومن لازمه الكبر؛ لأن سبب الخيلاء إعجابه بنفسه، وقال الراغب: «والخيلاء: التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه» انتهى.

وفي (الصحيح): «والخال، والخيلاء، والخيلاء: الكبر، تقول منه: اختال فهو ذو خيلاء وذو خال وذو مخيلة، أي ذو كبر، قال: والخال ثوب من ثياب الجهال» انتهى.



وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «المختال ذو الخيلاء والكبر» انتهى، ومثله في (المصاييح) وفي (الكشاف): «المختال: التباه الجهور الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه...» إلخ، وهو موافق لما مر، قال في (المصاييح): «والفخور: المفتخر على عباد الله» إلخ.

أقول: (فخور) يدل على كثرة ذلك منه؛ لأن فعولاً من أمثلة المبالغة فهو لإعجابه بنفسه يكثر تعداد ما يدعيه فضلاً على غيره ليثبت بذلك ما يعتقد في نفسه من تفوقه على غيره، وقد فسر الفخور في (لسان العرب) بالمتكبر، ولعله: يعني المتكبر على غيره بالفخر عليه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبَخُلُونَ﴾ فالبخل كما قال الراغب في (مفرداته): «إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه، ويقابله: الجود» انتهى، ولعله هو المعنى الحقيقي وغيره مجاز كالبخل بالسلام، والبخل بالعلم، وفي الحديث: «البخل من ذكرت عنده فلم يصل علي» اللهم صل على محمد وآله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بيان لصفة المخالفين الذين لا يحبهم الله، لأنهم على صفات ضد صفات المؤمنين، ومن أمرهم بالبخل قولهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧] وهو من الأمر بالمنكر الذي هو من عادة الكفار والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعم كتمان المال عما يستحق أن يعطى أو يقرض وكتمان العلم ومنه كتمان ما في التوراة مما كانوا مطالبين بإظهاره من صفات رسول الله ﷺ وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أعتدنا بمعنى أنه أعدّه لهم وهياه سواء كانت التاء أصلية أو أصله أعددنا كما مر، والكافرين أهل الصفات المذكورة، إما لأنه كفر النعمة - وهو الأقرب - أو الكفر بالإيمان. والعذاب المهين: عذاب جهنم، وذكر الإهانة مناسب لاختيالهم وتكبرهم وفخرهم.

قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ وَكَانَ اللّٰهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ

﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطفٌ على ﴿الَّذِينَ﴾ فهو ذم يدل على انقسام أهل الخيلاء، والفخر قسمين: قسم البخلاء، وقسم المنفقين مالهم رياء الناس، والرياء فعال من الرؤية، فأصله محاولة أن يراهم ويرونه منفقاً ليمدحوه أو يعتقدوا فيه الجود، والواقع: أنهم لا يبذلون المال إلا لطلب الثناء من الناس أي لغرض دنيوي راجع إليهم، ولكنه أشنع من الإنفاق في أغراض النفس المباحة؛ لأن الرياء إشراك لغير الله في العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بيانٌ للعيب الثاني من عيوب هذا الفريق، ولعله يشير إلى من يدعي ذلك دعوى كاذبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وهم من المنافقين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللّٰهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ يفيد: أن الشيطان قرين لهم ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾ فهو قرين سيء؛ لأنه كما قال تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] فهو يزين لهم باطلهم المستقبل ليفعلوه والماضي ليصروا عليه ولا يتوبوا منه، ليكونوا من أصحاب السعير.

تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ

﴿٦٤﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٦٥﴾ أَيُّ ضُرٍّ عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا، وَأَيُّ نَقْصٍ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ إِنْفَاقًا مَقْبُولًا لَيْسَ الْإِنْفَاقُ رِثَاءَ النَّاسِ فَهُوَ لَا يَعْدُ إِنْفَاقًا مَحْمُودًا بَلْ هُوَ مَذْمُومٌ، وَهَذَا زِيَادَةُ احْتِجَاجٍ عَلَيْهِمْ وَيَبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَكْلِفْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ أَوْ يَكُونُ عَيْبًا عَلَيْهِمْ، فَلَا عَذْرَ لَهُمْ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَكُونُوا قَادِرِينَ لَمَا صَحَّ تَوْبِيخُهُمْ وَالاحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ.

ومعنى أنهم كانوا قادرين على ذلك: أنهم كانوا سالمين من الآفات المانعة، مستطيعين للدخول في الإيمان، فإذا قلنا: إنهم كانوا في حال كفرهم قادرين على الإيمان، فالمراد: أنهم في حال الكفر قادرون على الخروج منه إلى الإيمان، وليس المراد: أنهم قادرون على الجمع بين الكفر والإيمان، وهذا واضح. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ إشارة إلى أنه يجزيهم في الآخرة بسوء ما عملوا في الدنيا؛ لأنه عليم بهم على ما هم عليه.

﴿٦٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٥﴾ وَهَذَا زِيَادَةُ فِي الْاحْتِجَاجِ عَلَى أَوْلَئِكَ الْفَرِيقَيْنِ، وَكُلُّهُمْ يَخْلُونَ عَلَى اخْتِلَافِ نَوْعِي الْبَخْلِ، فَهُوَ يَبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَوْ أَنْفَقُوا مَعَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لَمَا ضَاعَ عَلَيْهِمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا أَنْفَقُوا وَأَحْسَنُوا، بَلْ كَانَ يَضَاعَفُ لَهُمْ كُلُّ حَسَنَةٍ مِنَ الْإِنْفَاقِ وَالْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ مِضَاعِفَتِهَا، وَيُؤْتُونَ فِي الْآخِرَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَهُوَ ثَوَابُهَا ضَوْعُفٌ كَمَا ضَوْعِفَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَهَذَا عَامٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ فَهُوَ تَرْغِيبٌ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ وَإِنْفَاقِ الْخَيْرِ.

كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿١٧﴾  
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾  
﴿فَكَيْفَ﴾ بهؤلاء المتكبرين أهل الخيلاء والفخر والبخل وترك الإيمان كيف  
بهم يوم القيامة ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يوم القيامة يشهد بما رأى  
وعلم منهم من خير أو شر ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الموجودين  
في عهدك الذين شاهدتهم وعلمت المطيع منهم والعاصي ﴿شَهِيدًا﴾ تشهد  
عليهم بسيئاتهم التي توجب عليهم العذاب، فلا ينفعهم جحد وإنكار ولا  
اعتذار ولا تقبل منهم توبة وما للظالمين من أنصار كيف بهم في هذه الحال.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا  
يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ  
عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿يَوَدُّ﴾ أي يحب ويرغب أو يتمنى في نفسه ﴿لَوْ تُسَوَّى  
بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ يصيرون في بطن الأرض ويُعْفَى أثرهم كأنهم غير موجودين  
في بطنها ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أرادهم منهم وهو يعلم جواب السؤال عما  
قدموا وما قدموا من الكلام في الدنيا فلا يكتُمون شيئاً، ولعله بعد شهادة  
الشهداء عليهم وانتباههم أنه لا يغني عنهم الإنكار شيئاً، والأمة: الجماعة  
الذين يجمعهم أمر، قال تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾

[القصص: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى الحاضرين فهم أمة، وليس المراد أنه  
شاهد على من قبله من الأمم، ولا من سيوجد بعده ﷺ ولكن من في  
عهده وعلم حالهم، فهو شهيد عليهم بما علم منهم وشاهده، كما قال عيسى

تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا ﴿١١٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ

عَلَيْهِمْ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا نُتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وهذا هو سبب استعمال اسم الإشارة هنا وفي (سورة النحل) ثم الأخيار ممن معه شهداء على من في عهدهم من التابعين وغيرهم، وهكذا الأخيار من التابعين شهداء على من شاهدهم من التابعين ومن بعدهم.

والحاصل: أن كل أمة يشهد عليهم خيارهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩] وقال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والخيار عندنا: هم الخيار من آل رسول الله ﷺ مثل: علي، والحسين، وعلي بن الحسين، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ويحيى بن زيد... وغيرهم.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾ لا تتأهبوا وتقاربوا أن تفعلوها، فلا تتوضأوا، ولا تدخلوا المسجد، ولا تؤذّنوا، ولا تقيموا، ولا تصلّوا، فهو من قسم الكناية ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فاجتنبوا سبب السكر عند الصلاة، وليس هذا إباحة للسكر في غير وقت الصلاة، بل هو مسكوت عنه، كما لو قال: لا تطف بالبيت وأنت عريان، فالنهي موجهٌ إلى السكر كما أنه موجهٌ إلى العري في هذا المثال.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ تعليلٌ للنهي عن السكر المانع من العلم بما يقولون في الصلاة من القراءة والأذكار، وفيها دلالة على وجوب إحضار الذهن لما يقول المصلي، ولعل ذلك في القدر الواجب من القراءة والأذكار.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوا الصلاة جنباً ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ وقد قلنا: من معنى قرب الصلاة: الإستعداد لها، فالإستثناء هذا محمولٌ على حال الإستعداد لها والذهاب للتطهر، فالمعنى: إلا عابري سبيل توصلاً إلى الصلاة، وتقرباً إليها بالعبور لفعل شرطها، ولما كان دخول المسجد هو من مقدمات الصلاة تناوله قرب الصلاة، وكانت لهم بيوت موجهة أبوابها إلى المسجد، فكانوا يحتاجون المرور من المسجد، فربما توهّموا أن ذلك منهيٌ عنه فقال: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ ليرخص لهم في المرور إلى خارج المسجد ليتطهروا، وتوجيه الأبواب إلى المسجد قد نسخ بسد الأبواب إلا باب علي عليه السلام، فما بقي ضرورة للعبور من المسجد، ولكن يبقى الحكم لحال الضرورة كمن احتلم في المسجد.

وحديث (سد الأبواب إلا باب علي عليه السلام) له أسانيد عديدة، أوردها ابن حجر في (القول المسدد) وصحح بعض أسانيده، وصحح الحديث، ومن ألفاظه قول ابن عباس عليه السلام في أثناء حديث: «وسد أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد وهو جنب وهو طريقه ليس له طريق غيره» انتهى.

ويؤخذ من الآية وجوب تقديم الغسل على الوضوء، وعلى الأذان والإقامة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ بالمسافر عادم الماء.



﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ حين تريدون الصلاة ﴿مَرْضَىٰ﴾ جمع مريض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وأقل السفر بريد حالتان المرض والسفر مظنة فقدان الماء ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ وهو المكان المنخفض من الأرض يستتر فيه لقضاء الحاجة فهو قد بال أو تغوط.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فأنتم جنب ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ لتغتسلوا به من الجنابة إن كانت؛ ولتوضئوا به من أثر الحدث ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ اقصدوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وتوجهوا إليه.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «والملازمة: الجماع، وفيه: فالتيمم: التعمد، والصعيد: وجه الأرض، والطيب: النظيف» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «والصعيد: يقال لوجه الأرض» انتهى. وفي [الصحيح]: «الصعيد: التراب، وقال ثعلب: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَصْنِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الصعيد: المرتفع من الأرض، وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، وقيل: ما لم يخالطه رمل ولا سبخة، وقيل: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَصْنِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠] وقال جرير:

إذا تيم ثوت بصعيد أرض      بكت من خبت لؤمهم الصعيد

وقال في آخرين:

والأطيين من التراب صعيداً

وقيل: الصعيد: الأرض، وقيل: الأرض الطيبة، وقيل: هو كل تراب طيب، وفي (التنزيل): ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وقال الفراء - في قوله -: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] الصعيد: التراب، وقال غيره: هي الأرض المستوية.

وقال الشافعي: لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار.. إلى قوله.. وقال أبو إسحاق: الصعيد: وجه الأرض.. إلى قوله.. لا أعلم خلافاً فيه أن الصعيد وجه الأرض... إلخ.

وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن وجه الأرض: هو التراب، وليس منه الجبال قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ \* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ \* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ \* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [نصلت: ٩-١٠] وغير ذلك، فوجه الأرض تراب، وإذا مسه الماء كان طيناً.

والإشكال في الطين هل يجزي للتيمم؟

الأحوط: استعماله إذا عدم الماء والتراب، وفي الحديث: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» قال الله - عز وجل -: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ انتهى من حديث في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) وفيه دلالة على أن الصعيد من الأرض، فلا يصح التيمم بالأحجار والنورة ونحوها. وتفسير الطيب: بالنظيف الطاهر، هو الأقوى، فأما اعتبار الإنبات فيه فلعلة يصح بناء على أن الأصل في التراب الإنبات فإذا لم ينبت فهو فاسد فلا يوصف بالطيب.

وأما الاحتجاج لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيُلْزِمُ رَبَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٨] ففيه نظر؛ لأن طيب البلد باعتبار مصلحة السكان؛ ولذلك قال: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] فجعله خبيثاً لفوات مصلحة أهله وإن كان منبتاً نباتاً نكداً.

فالحاصل: أن خبث البلد وطيبها غير طيب التربة من حيث هي صعيد لا من حيث هي بلد، وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي منه كما يفيد التفریع على تیممه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا﴾ كثير العفو، ومن العفو الترخيص بالعدول إلى الصعيد الطيب ﴿عَفْوًا﴾ كثير المغفرة، وفيه تشجيع على استعمال الرخصة عند ظهور وقتها، وترك المبالغة في الحذر من الخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت هذه الآية الكريمة على وجوب فراغ القلب للصلاة، وأن لا يقرب الصلاة من به سكر النوم، أو كان ذاهلاً حتى لا يعلم ما يقول في صلاته، وعلى أن لا يصلي الصلاة من كان جنباً حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولم يجد الماء، فإنه يتيمم كما صرحت به الآية الكريمة، وكذلك من جاء من الغائط أو لامس النساء ولم يجد الماء.

والمراد من الملامسة: الجماع، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِلَّةٍ تَعْتَدُونَهَا..﴾ الآية [الأحزاب: ٤٩] ونحوها: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ..﴾ إلى قوله ﴿.. وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ..﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧] وعلى أن التيمم ليس إلا الوجه واليدين، وعلى أن الله جعل ذلك غفراناً ورحمة، أي تخفيفاً على عباده» انتهى.

وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا  
وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٢﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ  
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي  
الَّذِينَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ  
وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ أُوتُوا

﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ  
تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ تَرَ ۚ كلمة تعجب من قصة هؤلاء اليهود ﴿الَّذِينَ أُوتُوا  
نَصِيًّا﴾ من التوراة، أي علموا نصيباً منها، أي بعضاً وكان من حقهم أن  
يتنفعوا بذلك البعض، ويكونوا أبعد عن السعي بالفساد، ولكنهم على  
العكس من ذلك يستبدلون الضلالة بدل أن يهتدوا بما علموه، ويريدون من  
المؤمنين أن يضلوا ويغوا عن سبيل الله.

﴿١٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ  
وليكم وهو ﴿أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ فلن يضركم كيدهم ومحاولتهم لإفسادكم؛  
لأن الله كاف لمن تولاه لا يحتاج غيره ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾  
[الزمر: ٣٧] لأن الله وليه ومتولي هدايته ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ لأوليائه فلن  
يضرركم بالقهر وإبطال عزة الإسلام.

﴿١٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ۚ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرُوا بِالتَّعْجِيبِ مِنْ قِصَّتِهِمْ هُمْ  
﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي من اليهود الذين عادتهم أن يسعوا في الأرض فساداً  
﴿تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ﴿الْكَلِمَ﴾ من بيان الحق، يحرفونه: يحولونه  
إلى غير محله، ليستطيعوا لبس الحق بالباطل، وتضييع فائدة سياق الكلام التي  
بها يتضح المراد ولا يمكن فيه جدال.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يقولون ﴿سَمِعْنَا﴾ قول الرسول ﷺ أو ما تلاه من القرآن ﴿وَعَصَيْنَا﴾ تمرداً وعناداً واستخفافاً بكلام الله ورسوله ﷺ ﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ وهذا من كلماتهم، ومعناها: الدعاء عليه بالصمم، ولكنها مغلفة باحتمال الدعاء له بأن لا يسمع قولاً يسوءه ﴿وَرَاعِنَا﴾ وهذه كلمة يقولونها للرسول ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ يوهمون أنه طلب المراعاة، ولهم فيها مقصد فاسد. قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يقولون: ﴿رَاعِنَا﴾ واعتقادهم: راعناً بالتنوين، من الرعونة التي هي الحمق والسفه لعنهم الله تعالى».

﴿لَيَّا بِالسَّيِّئَةِ وَطَعْنَا فِي آلِ الدِّينِ﴾ ﴿لَيَّا﴾ أصل اللي: القتل، وهو هنا: تحويل الكلام إلى المعنى الفاسد ﴿وَطَعْنَا فِي آلِ الدِّينِ﴾ من حيث يزعمون أنه لو كان نبياً لافتضحوا وانكشف زيفهم ومقاصدهم الفاسدة، أو لنزل بهم العذاب، كقولهم في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ يَمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] فقد افتضحوا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَشُوعُ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعَ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من تلك الكلمات المذمومة التي هي وبال عليهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ لأن هذا كلام قيم لا عوج فيه بخلاف كلامهم المذكور آنفاً.

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم من رحمته بسبب كفرهم، وهذا الطرد: سلب التوفيق وخذلانهم بسبب كفرهم، ولذلك لا يؤمنون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان ببعض ما في التوراة لفساد قلوبهم، ونصب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه قائم مقام المفعول المطلق ولو كان الاستثناء من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لرفع على البدل؛ لأنه أرجح في مثل هذا مثل: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ خطاب للعلماء بالتوراة؛ لأن الحجة عليهم أعظم لعلمهم بما في (التوراة) من صفات محمد رسول الله ﷺ وما فيها مما جاء به القرآن من أخبار الأولين وغير ذلك؛ ولأن فسادهم إن لم يؤمنوا بالقرآن أعظم؛ لأن لهم أتباعاً يغترون بكفرهم ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ بالقرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة أو من كتب الله جملة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وعيدٌ إن لم يؤمنوا بطمس وجوه منهم، وليس عاماً ولكنه تخويف لكل واحد أن يكون وجهه من الوجوه التي يطمسها الله، وطمسها إزالة صورتها فلا يبقى أنف ولا شفطان ولا عيان ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ بإدخال صورة الوجه إلى جهة القفا حتى تكون على القفا مبالغة في طمسها ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ لعناً خاصاً بأن نخزيهم ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ كما أخزيناهم، ويحتمل: نجعلهم قردة كما جعلنا أصحاب السبت المذكورين في (سورة الأعراف) وفي (البقرة) وهذا أظهر.

قال في (المصابيح): «وقيل: لما نزلت هذه الآية، أتى عبد الله بن سلام إلى النبي ﷺ وقال: ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفائي، وسمع كعب بن عمر هذه الآية، فقال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت» انتهى.



وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿١٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ

فظهر: أن هذه الوجوه هي وجوه علماء (بني إسرائيل) الذين آمنوا، فكانت تطمس لو لم يؤمنوا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو ما قضى أنه يفعله أو ما شاء أن يفعله (مفعولاً) فهو واقع لا يتخلف؛ لأن الله على كل شيء قدير.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يظهر أن هذه الآية متصلة بما قبلها، كالتعليل للوعيد في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ نَقْطِسَ وُجُوهًا﴾ الآية، وهذه الآية تعظيم للشرك، ودلالة على أن صاحبه لا يعذر بحال من الأحوال، أما ما دونه من أنواع المعاصي فإنه قد يقع على وجه يصيره معفواً، ألا ترى أن قتل النفس بغير حق قد يقع خطأ، وكذا الزنا قد يقع غلطاً، وشرب الخمر قد يقع ممن يجهل أنها خمر.. وهكذا سائر المعاصي، أما الشرك فلا يكون على وجه يعفى؛ لأنه لا يكون إلا عمداً لمعنى الشرك فلا يعذر صاحبه.

وفيها دلالة على أنه لا يعذر من أشرك ولو جهل أنه مشرك كالذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ولعل اتصال هذه الآية بما قبلها دلالة لأهل الكتاب المذكورين أنهم مشركون لاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقول اليهود: ﴿عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] واتخاذهم رباً، ولعل بعض اليهود لا يعتقد أنه مشرك وفيه نوع من الشرك.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ لأنه جعل لله شريكاً في عباده أو في ملكه أو في حكمه أو في قدرته أو في علمه بدون برهان، وإنما هو

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ

افتراء واختلاق اتبع فيه ظنه وهواه، فكان افتراؤه ذلك ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكبه، وهذا دليل على ما قلتُ من أن الشرك لا يكون إلا عمداً، والمراد أن ما هو شرك في الواقع تعمده المشرك ولو لم يعلم أنه شرك فهو لا يغفر لتعمد المعنى، والإثم: الفجور.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٥٣﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ؟﴾ سؤال تعجيب من ﴿الَّذِينَ يُزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يدعون لأنفسهم الصلاح، ولا معنى لذلك؛ لأنه لا يفيدهم شيئاً ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ فهي التزكية بالحق النافعة لمن زكاه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ لا ينقصون مما يستحقون بزكائهم شيئاً ولو مقدار فتيل، والفتيل: يكون في بطن نواة التمر كالخيوط، يضرب به المثل في القلة، كما يشبه بالنقير: وهو كالنقطة الصغيرة في ظهر النواة، والقطمير: وهو قشرة رقيقة على النواة.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فهو أبعد عن الزكاء بل هم المجرمون، وافتراؤهم على الله كنسبتهم إليه الولد، وقولهم: ﴿لَنُ تَمَسِّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤] ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ بالافتراء على الله ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ إثمًا بيناً، وفجوراً مكشوفاً ينافي تزكيتهم لأنفسهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ ﴿أُوتُوا

نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴿نَصِيْبًا﴾ من (التوراة) فقد حصل لهم طرف من العلم، ومع ذلك ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الذي هو باطل لا يخفى بطلانه على من أوتي نصيباً من الكتاب.

وفي (مفردات الراغب): «ويقال لكل ما عبد من دون الله: جبت، وسمي الساحر والكاهن جبّتا» انتهى، وفي (الصحيح): «الجبّ: كلمة تقع على الصنم، والكاهن، والساحر، ونحو ذلك» انتهى.

وقد اختلف المفسرون في معنى (الجبّ) و(الطاغوت) ففي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «قال زيد بن علي عليه السلام: فالجبّ: السحر، والجبّ: الكاهن، والطاغوت: الشيطان» انتهى المراد.

وفي (تفسير الشرفي) أعني (المصابيح) ما لفظه: «وروي عن القاسم عليه السلام أنه قال: الجبّ: السحر، والطاغوت: كل ما أظغى وأضل عن الحق من الأصنام وغيرها» انتهى.

ولعل هؤلاء المؤمنين بالسحر، هم الذين، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢] وأما إيمانهم بالطاغوت فلعله تحاكمهم إلى الطاغوت، كما المذكور في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ﴾ وهو من يحكم بغير حكم الله من الكهنة وغيرهم.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يقولون في الذين كفروا أي كفروا بالله ورسوله ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي الكفار ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، والمراد بالسبيل: الطريقة، أي الدين.

فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٦﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٧﴾ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مِّثْلًا عَظِيمًا ﴿٥٨﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا

﴿٥٦﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾  
﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون بالحب والطاغوت، القائلون للذين كفروا: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْلُنَا..﴾ فهم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ بعينهم وحقيقتهم ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وهذا الطرد هو الخذلان، وسلب التوفيق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ بل ألهم نصيب من الملك؟ إشارة إلى أنهم كرهوا رسالة محمد ﷺ ولم يرضوا بحكم الله فيها، كأنهم شركاء لله في ملكه، لا يرسل إلا من يريدون، وليس لهم نصيب في الملك ولو كان لهم ﴿نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ لبخلوا بما لديهم فلا ﴿يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ لبخلهم، والنقير: نقرة تكون في ظهر نواة التمر، يمثل بها في القلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بل يحسدون، إضراب انتقال إلى احتجاج على اليهود الزاعمين أن الكفار أهدى من الذين آمنوا وسلكوا طريقة أهل الحسد، الذين يكرهون حصول النعمة لمن أعطاه إياها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام - والمراد به أينما ذكر في (المصابيح) محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليه السلام -: هؤلاء المذكورون في الحسد هم أهل الكتاب حسدوا محمداً ﷺ ما خصه

سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الله به وأعطاه وحسدوا المؤمنين ومن تبعه من المسلمين فقال الله سبحانه: ﴿أَمَّ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فأخبر سبحانه بما آتى الأنبياء وهذا دليل على أنهم أرادوا النبوة فيهم وحسدوا رسول الله ﷺ ما خصه الله به من الملك وأنزل عليه من الوحي، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ فلم يتفجعوا إذ كان ذلك في داود وسليمان حتى صدوا عنه وأبعدوه - كذا - وكرهوه وناذبوه» انتهى.

فحاصل المعنى: أم يحسدون محمداً ﷺ من آل إبراهيم ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وهو ما كان لداود وسليمان، فمن أهل الكتاب من آمن به ومنهم من صد عنه: فالمعنى قد سبق منهم هذا الحسد لآل إبراهيم، وليس بدعاً منهم حسدهم لمحمد ﷺ، أو فقد صد بعضهم عن آل إبراهيم لغير داعي الحسد والأول أظهر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ هذا وعيد عام لمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب ولسائر الكفار الذين جحدوا كون القرآن من الله وكذبوا بالآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ من القرآن وغيره ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ نجعلهم فيها تباشر أجسامهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ليبقى إحساسهم بالحريق.

الصَّلَاحَتِ سُدَّخِلَهُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليطعموه أي ليجدوا ألم العذاب في قلوبهم وأنفسهم أو هو تعليل لإصلاحهم وتجديد جلودهم في كل لحظة أو نحوها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ فمقتضى عزته الانتقام من أعدائه الذين ظلموا واستعملوا نعمه في معاصيه وأطاعوا عدوه وعصوا رسله ﴿حَكِيمًا﴾ ومقتضى حكمته أن يجزيهم بما عملوا ولولا الجزاء ما صح تمكينهم من المعاصي وتحليتهم يظلمون؛ لأن ذلك لولا الجزاء يكون إهمالاً مخالفاً للحكمة كما هو مخالف للعزة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلَهُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ﴿جَنَّتِ﴾ بسايتين ذات أشجار مغطية لأرضها وهي في الجنة التي وعد المتقون ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فلا تظماً، أكلها دائم وظلها، لا تتساقط أوراقها، وهذا مع جمال اجتماع الخضرة والماء الجاري من تحت الأشجار.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون بل باقين فيها أبداً ﴿هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض ومن كل ما ينافي النظافة، فهي نظيفة من أصل فطرتها لا تحتاج إلى تنظيف بشيء مما تستعمله نساء الدنيا ولا سعال ولا مخاط ﴿وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ معطوف على سندخلهم جنات فاجتمعت لهم لذة الجنات وجمالها وجمال الأنهار ونعمتها ولذة الظل الممدود الذي لا يتخلله شعاع من الشمس ولا ينسخه.



تُؤَدُّوا الْأَمْنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴿٥٩﴾ الْأَمْنَتِ ﴿٦٠﴾ عامٌ لكل أمانة، مثل: الودائع، والرسالات، وأموال اليتامى، وقضاء الدين، وثمان المبيع المؤجل من ذلك، وأداؤها: تسليمها، وأهلها: ملاكها ومن لهم ولايتها، ومن الأمانات: الضالة، واللقطة، فهي أمانة عند من أخذها، ومنها: ما أخذه المصدق من الزكوات وغير ذلك.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فإن الله يأمركم ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ والعدل: هو الحق خلاف الجور، فلا يجوز الحكم بغير علم يميز بين العدل والجور، ولا يجوز الحكم بالجور اتباعاً للهوى أو بغضاً للمحكوم عليه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] وكذلك لا يجوز الحكم قبل تبين الحق، فلا يحكم لأحد الخصمين قبل سماع ما يقول الآخر أو قبل أن يدلي كل من الخصمين بحجته إن كان له حجة، ويحتاج الحاكم إلى أن يكون له ورع يحجزه عن الجور والميل لهوى النفس أو الغضب أو الخوف أو العجلة، وكلها راجعة إلى اتباع الهوى، والله تعالى يقول: ﴿يَآٰءَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] وقد قام قوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ مقام ذكر الشروط من العلم والورع والتثبت وكل ما لا يتم العدل إلا به.

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ يعظكم عن الخيانة والجور في الحكم بما في القرآن من المواعظ والوعيد وإكمال الحجة عليكم بحكمة الله ورحمته فنعم

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ

هذا الذي يعظكم به الله فقال في أول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وقال هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ فهو تأكيد للأمر، ودلالة على أن الله قد أتم الحجة عليكم، وقطع المَعذرة بما وعظكم به في هذا القرآن من المواعظ العظيمة التي هي نعم المواعظ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فلا تخفى عليه خيانة خائن، ولا جور جائر في حكمه فراقبوه.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هذا أمر بطاعة الله في كل شيء وطاعته وجبت بها طاعة الرسول وأولي الأمر ولذلك فصل طاعة الرسول وأولي الأمر؛ لأنه لا شركة لهما في الملك، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فطاعة الرسول بأمر الله وهي تبع لرسالته، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] فوجبت طاعته في كل شيء، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلْيَخْشَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الآية [النور: ٦٣] وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وأما طاعة ولي الأمر الولاية العامة فهي كذلك بأمر الله، وهو قائم مقام رسول الله ﷺ في إقامة الدين والحكم بالحق والعدل، وهداية الناس، والدعوة إلى الخير، وجهاد الكفار والظالمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك مما به صلاح وسعادة الناس في الدنيا والآخرة.

وهذه مهمة كبرى، ومسئولية عظيمة، لا يتهيأ القيام بها إلا لمن ارتضاه الله واختاره من ورثة كتاب الله الذين دل عليهم القرآن الكريم والرسول ﷺ،

وهي لذلك ولاية شرعية مستمدة من القرآن، فلا ولاية شرعية إلا ما كان مصدره القرآن الكريم، ولا اعتبار للولاية بالوراثة أو الملكية أو ما يسمى بالديمقراطية ونحو ذلك مما صدر عن القوانين الكفرية الواردة من أعداء الإسلام المغايرة لشرعية الله.

ولقد عمل الظالمون في الماضي والحاضر على تضليل الناس، ولبس الحق بالباطل من خلال استغلال هذه الآية الكريمة لتثبيت ملكهم، وردع الناس عن مخالفتهم، وإلزام الناس بطاعتهم، فاعتبروا أنهم أولوا الأمر المقصود في هذه الآية، تضليلاً على الناس وغشاً لهم، وكذلك افتروا على النبي ﷺ واختلقوا كثيراً من الأخبار الموجبة لطاعة ولي الأمر حتى وإن كان ظالماً فاسقاً جائراً، وهذا ضلال كبير، وفساد عظيم يتنافى مع القرآن والرسول الكريم ﷺ وحاشا لله أن يريد ذلك، وحاشا لرسوله ﷺ أن يصدر منه كذلك، والله المستعان.

وأما طاعة الأمراء المتولين لولاية خاصة كأمراء السرايا ونحوهم فهي واجبة تبعاً لأمرهم، فلا تجب إلا في حدود أمر الأمير، فمن حيث أن الأمراء كلهم ليس لأحد منهم أن يأمر بمعصية الله أو ينهى عن طاعة الله، بل الواجب عليهم أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

فإمرة الأمراء كلهم محدودة بأن يأمرُوا بالحق وليس لهم أن يأمرُوا بمعصية، فالأمر بالمعصية خارج عن حدود ولايتهم ولا تجب طاعتهم فيه من

حيث هم أمراء بل تجب مخالفتهم طاعة لله ورسوله، وهذا فيمن لم يثبت أنه مع الحق وأنه لا يأمر إلا بالحق فنفس أمره ونهيه دليل على الحق.

وأما سائر الأمراء صغارهم وكبارهم فلا أمر بطاعتهم على الإطلاق بل في حدود إمرتهم؛ لأن الحكم معلق عليها، فأمر السرية يطاع في حدود إمرته وذلك فيما يتعلق بالمقصود الذي أرسل له لا في كل شيء وكذلك الأمير على بلد لأعمال مخصوصة تذكر في عهد الوالي الذي ولّاه، فأمرته محدودة بها.

وهذا يظهر: أنه لا يجب في كل صاحب ولاية أن يكون معصوماً، ولا حاجة إلى اشتراط العصمة؛ لأنه ليس مشرعاً ولا طاعة له إن أمر بمعصية، نعم ينبغي في الإمام الأعظم أن يكون الظاهر من حاله لعلمه وورعه وزهده وسعة صدره وقوته على تحمل هذا الأمر أنه لا يتحول في المستقبل إذا تمكن في الأرض وهذا يمكن فيمن كمل اختباره في سفره وحضره ورضاه وغضبه وغير ذلك من أحواله حتى ظهر منه أنه لن يتحول، ومن كان هكذا فالظاهر من حاله العصمة.

وعلى هذا: يحمل ما حكى عن أبي العباس الحسني من اشتراط العصمة في الإمام، وأن المراد العصمة في الظاهر، لا اشتراط أن تثبت عصمته بدليل، ومرادنا بالعصمة: التسديد من الله والتوفيق والألطف، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من العصمة تعذر المعاصي».

والمراد - أيضاً - العصمة عن تعمد الظلم، ومخالفة الحق عمداً، لا الخطأ والنسيان وما أشبه خطايا الأنبياء، ويمكن الاحتجاج لهذا القول بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

يَالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ [الحج: ٤١] والله أعلم، وفي اشتراط هذا نظر لاحتمال الدليل فإن وجد مَنْ ظاهره كما ذكرنا فلا إشكال أنه أولى ممن ليس كذلك وإن لم يوجد فعدمه دليل على أنه لا يشترط.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ دليل على أنه لا طاعة لكافر؛ لأنه ليس منا، وكذا المنافق والفاجر المسرف الغاش لرعيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]؛ ولأن الواجب نهيهِ عن المنكر والأخذ على يديه من الظلم، وقد كفرهم الإمام الهادي عليه السلام وأوجب البدء بقتالهم، واحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولعل هذا فيمن يدعي الباطل الواضح البطلان ويدعي أنه حق بناء على قانون كفري أو لمجرد اتباع هواه.

﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ﴾ خطاب للذين آمنوا فهو يعم الولاة والرعايا، فعليهم أن يردوا ما اختلفوا وتعارضوا فيه وتطالبوا إلى الله والرسول.

وفي (أمالى المرشد بالله عليه السلام) في (الحديث الرابع والثلاثين) [٢/٢٣٥] قصة التحاكم بين أمير المؤمنين علي عليه السلام ويهودي في درع لأمير المؤمنين عليه السلام بعد حرب صفين.

وفي (أمالى أبي طالب عليه السلام) بسند آخر عن الشعبي قال: وجد علي بن أبي طالب عليه السلام درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شريح يحاكمه.. إلى آخر القصة وهي في (الباب الثالث) [ص ٥٥-٥٦].



ولعل هذا هو السر في الإتيان بـ(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ﴾ ويحتمل أن الإتيان بـ(الفاء) للتفريع على طاعة الله وطاعة الرسول المأمور بها في أول الآية، ولكن هذا يشمل أولي الأمر في إيجاب الرجوع إلى الله ورسوله، ويدل على أن الرد إلى أولي الأمر لا يغني عن الرجوع إلى الله ورسوله؛ لأن على أولي الأمر إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بحكم الله ورسوله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ولم يقل: (وأولي الأمر منكم).

فظهر: أن الواجب الرد إلى الله ورسوله، وأنه لا يستغنى عن ذلك بالرد إلى أولي الأمر، فأما التحاكم إلى أولي الأمر الذين يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله بناء على أنهم كذلك، فليس استغناء عن كتاب الله وسنة رسوله بل توصل إلى حكمهما، بحيث لو ظهر مخالفة الحاكم لهما وقطع بذلك لرد حكمه كسائر الأحكام، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وعلى هذا فلا دلالة في الآية على أن قول الأمير حجة بمنزلة الكتاب والسنة.

ومعنى الرد إلى الله: الرد إلى حكمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] والرد إلى الرسول: الرد إلى حكمه؛ لأنه يحكم بحكم الله في كتابه أو فيما أوحى إليه من وحيه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ يَمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله الرد إلى سنته الجامعة غير المفرقة».

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حث على الرد إلى الله والرسول ويدل على أن ذلك من مقتضى الإيمان ومن شأن المؤمن، وهو



إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

يفيد: أن من امتنع من الرد إليهما وأصر على الشقاق فليس بمؤمن، وكذلك من ردّ إلى غيرهما كحكام الطاغوت من الكهنة وغيرهم، كما يأتي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا...﴾ إلى آخر الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فهو ترغيب في الرد إلى الله والرسول عند التنازع؛ لأنه يقطع الخلاف ويقرب من الائتلاف، ويوضح الحق لمن كان غالطاً، ويدفع الكبر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فالرد إلى الله والرسول يؤول بالمتنازعين إلى مآل محمود ويصير بهم إلى عاقبة مرضية؛ لأنه يقطع تطور النزاع وتسلسل الخلاف بين المتنازعين، بل وبين ورثتهم ومن يتبعهم حتى تبقى فائدة الحكم يتوارثها الأجيال، كما أن ترك الرد إلى الله ورسوله قد يؤدي إلى القتال وتسلسل القتال، فلעظم أهمية الرد إلى الله والرسول جاء في الحث عليه هذه الآية والآيات التي تليها.

﴿٦٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٧﴾ أَلَمْ تَرَ تَعْجِيبَ مَنْ قَصَتْهُمْ وَتَوْجِيهَ لِلْسَامِعِينَ إِلَيْهَا ﴿٦٨﴾ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا يَدْعُونَ ذَلِكَ دَعْوَى وَيَقُولُونَهُم بِالْسِتِّهِمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ﴿٦٩﴾ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ، أَوْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ كُلِّهِ أَنَّهُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وَمَعَ هَذِهِ الدَّعْوَى مَا يَكْشِفُ كَذِبَهَا، وَهِيَ أَنَّهُمْ ﴿٧٠﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ إِلَى الْكَاهِنِ مَثَلًا ﴿٧١﴾ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴿٧٢﴾ أَنْ يَكْفُرُوا بِكُلِّ حَاكِمٍ بِحُكْمِ بَغِيرِ حُكْمِ اللَّهِ.

تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أن يغويهم غواية بعيدة عن طريق الصواب؛ لأنهم أطاعوه فتسلط عليهم، وظاهر الآية: أن الخصمين أرادوا التحاكم إلى الطاغوت، فما يروى: أن سبب نزولها أن أحدهما طلب التحاكم إلى أبي القاسم أي النبي ﷺ، والآخر طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف ونحو هذه الرواية، فذلك غير صحيح لمخالفته ظاهر الآية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي إذا دعوا ﴿إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول رأيتهم ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً؛ لأنهم منافقون غير مؤمنين كما زعموا.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم ﴿إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بنفاقهم وطلبهم التحاكم إلى الطاغوت وسائر معاصيهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ للتخلص من المصيبة أو لتغطية نفاقهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾ بطلب التحاكم إلى الطاغوت ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ فيما بيننا وتيسيراً من كل منا لخصمه لسهولة التحاكم إلى الطاغوت مثلاً ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ فيما بيننا وقطعاً للخلاف لا الفرار من التحاكم لديك فادع لنا بكشف المصيبة أو فلا تتهمنا بالنفاق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين يحلفون بالله إن أردنا، أي الذين

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

في قلوبهم خلاف ما يزعمون قد علمه الله، فلا يفيدهم الحلف شيئاً ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ اتركهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أزرهم عن النفاق وادعهم إلى الإيمان لينجوا من النار ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ قال في (الكشاف): «أي قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم، مؤثراً في قلوبهم...» إلخ.

أقول: الظاهر: قل لهم في أنفسهم أي قل لهم كلاماً فيهم تخبرهم عن حكمهم عند الله وتذرعهم عاقبة نفاقهم ونحو هذا من كشف زيفهم بما يعلمون به أن الله قد أطلعه على ما يكتُمون أو نحو هذا ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ ينفذ إلى قلوبهم ويؤدي إليها الخوف والغم بسبب ما قدمت أيديهم، والإعراض هنا مثله في قوله تعالى: ﴿سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَهُمْ جَاهَنُمْ ﴿[التوبة: ٩٥]﴾ فهو ترك العقاب العاجل أو الإعراض عن محاورتهم فيما يعتذرون منه وهذا أقرب؛ ولذلك صح تقديمه قبل قوله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فليس لأحد أن لا يرضى بحكم الرسول، ولا يتم الإيمان بالرسول إلا باتباعه وطاعته وتحكيمه. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بطلب التحاكم إلى الطاغوت وصدودهم عنك ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ طلبوه أن يغفر لهم ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾؛ لأنهم قد تابوا ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَدُسِّلُوا تَسْلِيمًا ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دَيْرِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

رَحِيمًا؛ لأنه لو تابوا تاب عليهم ورحمهم وأخبرهم بذلك الرسول فكان هذا خيراً لهم من الحلف بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَدُسِّلُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ تكذيباً لدعواهم أنهم آمنوا بعد بيان الدليل على بطلان الدعوى كما لو قالوا قد آمنا، فقال لا، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ﴾ قسم على إبطال دعواهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى آخر الآية، دليل على أن الإيمان لا يكون إلا مع تحكيم الرسول ﷺ ولا يكفي التحكيم بل لا بد من أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكفي ذلك بل لا بد من التسليم والانقياد للحكم.

وقوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي فيما وقع بينهم من مشكلة تنازعوا فيها، قال في (الصحيح): «وشجر بين القوم: إذا اختلف الأمر بينهم..» انتهى.

قلت: معنى اختلاف الأمر: اختلاف وجوهه التي لأجلها تنازعوا فيه، ولعل أصل معنى شجر هنا من شجره الرمح إذا شبكه، قال:

يذكرني (حم) والرمح شاجر فهلا تلى (حم) قبل التقدم

والحرج: الضيق، فإذا وجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكم الرسول الذي حكم به بينهم فليسوا مؤمنين، والتسليم: الانقياد بتنفيذ الحكم والعمل به. قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: هذا نص صريح في عدم إيمان من يجد في صدره أدنى حرج من حكم ما جاء به رسول الله ﷺ» انتهى.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا  
لَا تَنبَهُهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ

قال في (الكشاف): «تسليماً تأكيداً للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم» انتهى.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ السياق في الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وهم يزعمون أنهم آمنوا، بدليل العطف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فهم في صدودهم عن الرسول ﷺ يصدون عن الشريعة اليسرى، ولو أمروا بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم لامتنعوا، ولم يبق تستر بالآيمان الفاجرة: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

والضمير في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ عائد إلى أحد الشيثين، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ يفيد: أن القليل منهم يصلحون في المستقبل مطلقاً، أو لو كلفوا أحد الأمرين، ويحتمل: أن القليل منهم لو خير بين قتل نفسه والخروج من داره لاختار الخروج من داره وامتنع به؛ لأنه لم يؤمر بقتل نفسه على التعيين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ ما يؤمرون به زجراً لهم عن الباطل، كالتحاكم إلى الرسول لئلا يقعوا في أحد باطلين: إما التحاكم إلى الطاغوت، وإما المغالبة المؤدية إلى الجرح أو القتل أو نحو ذلك إذا تركوا المحاكمة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لأنه أمر علام الغيوب أحكم الحاكمين الذي لا جور فيه ولا غلط الذي يريد اليسر ولا يريد العسر ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ لكم على الحق وطريق النجاة؛ لأن طاعة الله وتقواه مع الإيمان سبب للتثبيت، كما أن المعصية قد تكون سبباً للزيف.

يُطِيعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١١﴾ ذَلِكَ

﴿١١-١٢﴾ ﴿وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا \* وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾  
 ﴿وَإِذَا﴾ لو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴿لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا﴾  
 ثواباً ﴿عَظِيمًا﴾ فاجتمعت لهم فائدة العاجل بإصابة الحق الذي هو ﴿خَيْرٌ  
 وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ والتثبيت على الحق لثلاث تزل قدم بعد ثبوتها، وفائدة الثواب في  
 الآخرة، وفائدة زيادة الهدى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مریم: ٧٦].

ولعله قدم ذكر الأجر لكونه أبلغ في الترغيب وزيادة الهدى سبباً لزيادة  
 الأجر، والصراط: الطريق القوي الواضح قال الشاعر:

دعسنا أرضهم بالخیل حتى تركناها أذل من الصراط

والمستقيم: الذي لا عوج فيه، والمراد به: سبيل الله الذي هو دينه، فتدل  
 الآية على: أن الانقياد لأمر الله ونهيه سبب للعلم النافع الذي هو معرفة  
 الدين وسبب للتوفيق للعمل به.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ  
 وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ هذا عام للمؤمنين  
 المطيعين بأنهم يكونوا ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ في الجنة يرافقونهم فيها  
 يواصلونهم فيها ويلاقونهم ويزورونهم مثلاً فكما هداهم في الدنيا  
 لصراطهم جعلهم في الجنة رفقاءهم ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

قال في (الكشاف): «فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وما أحسن أولئك  
 رفيقاً» انتهى، ومثله في (المصاييح). والأقرب: أن المراد بالصدّيقين:  
 السابقون إلى الأنبياء المصدقون بما جاءوا به.



الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ<sup>٥</sup> وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٨﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئَنَّ

وقد روى الحاكم في (شواهد التنزيل) في الآيات من (سورة الحديد) بسنده: عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين ﴿قَدْ يَقَوْمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] وحزبيل مؤمن آل فرعون، هو الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وعلي بن أبي طالب الثالث وهو أفضلهم» انتهى.

وأخرجه ابن المغازلي [ص ١٥٩-١٦٠] بسنده عن ابن أبي ليلى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ فذكره، وخرجه المحمودي في طبعة (شواهد التنزيل) الثالثة من عدة كتب، فأفاد: أنه رواه أبو نعيم في كتاب (معركة الصحابة) وابن عدي. قال: «ورواه - أيضاً - في (الروض النضير) [٣٦٨/٥] عن ابن النجار، وأبي نعيم في (المعرفة) ورواه - أيضاً - السلفي في المشيخة البغدادية» انتهى.

وأما الشهداء فيحتمل: أنهم الشهداء على الناس، وقد مر ذكرهم عند قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وهذا أظهر. ويحتمل: أنهم الذين قتلوا في سبيل الله، ولا يبعد أنهم سمو شهداء لأنهم يشهدون على الناس، فيكون المعنى واحداً.

والصالحون: هم الكاملون في الإيمان والتقوى والعمل الصالح الذين سلموا من المعاييب ومن الجهل، فهم أهل العلم النافع والعمل به، وهذا لأن السياق يدل على تفوقهم في الصلاح.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ<sup>٥</sup> وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كون المطيع لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم المذكورين هو ﴿الْفَضْلُ﴾

العظيم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ الذي ينبغي أن يسعى له كل عاقل ويطلبه بكل جهد؛ لأنه الفضل من الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، لا ينقصه عطاء، ولا يثقل عليه تفضل؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠٠] و﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عِلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ بمن أطاع وبما يحق له من الفضل.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية الكريمة على أن جميع ما أنعم الله به على عباده المؤمنين من الهداية والثواب فضل من الله تفضل به على أوليائه وليس ذلك بواجب عليه، تعالى الله عن أن يجب عليه واجب» انتهى.

قلت: يعني أنه لا يجب على الله تعالى على حدٍّ وجوب الأجرة للأجير لأن الطاعات وجبت للمالك المنعم فلا يجب للعبد أجر عليها ولكنه يستحق الثواب، بمعنى أنه أهل له، كما أن العاصي يستحق العقاب بمعنى أنه أهل له وحقيق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ بطاعة من أطاعه وما يستاهل من الثواب والتفضل وبكل شيء.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾  
﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ كونوا على حذر من أعدائكم وقد جعل الحذر مأخوذاً كالسلاح وأضيف إليهم؛ لأنه وقاية لهم يختص بهم كما يختص بهم السلاح ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي جماعات ﴿أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين كلكم، والنفرة: الخروج إلى العدو أو هو عام لكل ارتحال في سرعة.

قال في (مفردات الراغب): «النفرة: الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء»، كالفرع إلى الشيء وعن الشيء» انتهى.

﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِثَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ \* فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْثَطَنَ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أي ممن قد آمن في الماضي ولكنه قد صار في قلبه مرض وذبح منه الإيمان، وأكد هذا بـ(إن) و(اللام) وتأكيد الفعل؛ لأنهم يستبعدون ممن قد آمن أن ينقلب مثبطاً عن الجهاد مائلاً إلى الدنيا ﴿لَّيْثَطَنَ﴾ ليثبطن عن الجهاد ويخذل عنه.

﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ﴾ في الجهاد ﴿مُصِيبَةً﴾ بوقوع قتل وجراح مثلاً ﴿قَالَ﴾ هذا المثبط: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي أنعم الله علي إذ لم أكن معهم فيصيني ما أصابهم، ومعنى شهيداً: حاضراً وهذا القول منه من خذلانه؛ لأنه الخاسر بالتخلف عن رسول الله ﷺ وكأنه أراد تبرير تخلفه وتبرير تشييطه والزيادة في التشييط بهذا الكلام.

﴿وَإِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِثَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَإِنْ أَصَبَكُمْ﴾ أي نالكم ﴿فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولحقكم نصر وغنيمة مثلاً ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِثَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ﴾ بالغنيمة ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أنه لا يهमे إلا الدنيا ومطالبها، فهي عنده الفوز العظيم.

ويظهر من هذا: أن الكلام في بعض من قد آمن ولم ينافق إنما في قلبه مرض قد ذهب عنه الإيمان واشتغل بحب الحياة ومطالبها، فتشييطه ليس نفاقاً إنما هو ليوجد متخلفون معه حتى لا ينفرد بالعار؛ ولهذا لو أصابوا غنيمة لتمنى أنه كان معهم، والمنافق بعيد من ذلك لأنه يكره نصر الإسلام على كل حال.

يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ  
يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ فهذه مودة الإيمان استمرت فيه حتى ظهر أمره واستمرت فيهم كذلك بناء على إيمانه، وكانت هذه المودة تهیی له الغزو معهم لوثوقه بهم في رعاية الصحبة والأخوة في الطريق وحال المعركة لكن تخلف ميلاً إلى الراحة وزهداً في الدين وقلة مبالاة بأمر الله ورسوله، وكثير من الناس أمثال هذا مسلمين غير منافقين لأن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أمر بالقتال في سبيل الله ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ أي يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي بالحياة الآخرة أي حياة السعادة الدائمة في جنات النعيم، وهذه هي التجارة الراجحة لا تجارة عبيد الدنيا الذين خسروا الجنة وهم لا بد مفارقون للدنيا.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ شهيداً ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ ينتصر على العدو ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو ثواب الآخرة جنات النعيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فكأنه قيل للمؤمنين: قاتلوا في سبيل الله ولا تكونوا مثل هذا المنيب الخاسر، وفي هذه الآية دلالة على وجوب القتال في سبيل الله، وهي دلالة واضحة، كدلالة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] وفي ذلك دلالة على لزوم ما لا يتم إلا به من إعداد القوة، وصلاح ذات البين، واتخاذ قيادة صالحة ذات كفاءة كاملة في الشجاعة وحسن الرأي والتدبير، والنصح لله ورسوله، وبيع الدنيا بالآخرة.

وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

﴿٧٥﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ ﴿٧٥﴾ سؤال استنكار عن سبب ترك القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مع وجود الباعث عليه لمن آمن واتقى وضعف الصارف عنه بحيث لا ينبغي للمؤمن أن يعتذر به، كأن يقول السبب حب الحياة العاجلة ونسيان الآخرة؛ لأن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ وفي المستضعفين لأنهم إخوة في الدين مقهورون، وفيها دلالة على حق المؤمن على المؤمن، وأنه يشترك فيه الذكر والأنثى، والحر والعبد.

قال في (الصحيح): «والوليد: الصبي والعبد، والجمع: ولدان وولدة» انتهى. قال في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآيتان الكريمتان على وجوب القتال في سبيل الله، واستنقاذ الضعفاء المؤمنين الذين يحبون الهجرة ولا يستطيعون سبيلاً من الرجال والنساء والولدان» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ يدل على أنهم راغبون في الهجرة إلا أنهم لم يستطيعوا فدعوا الله أن يخرجهم من القرية التي هم فيها ساكنون؛ لأن أهلها ظالمون ولا يستطيعون الهجرة من بينهم ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى شؤوننا ويقوم بمصالحنا ويدفع عنا عدونا ونجاهد تحت قيادته ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا على أهل هذه القرية.



وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا

وقولهم: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ يفيد: أنهم طلبوا أن يجعل الله ذلك من عنده وهو الولي الذي يستطيعون معه العمل بدين الله الذي يرضاه الله لهم غير ولاية السوء، وكذلك قولهم: ﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فيظهر: أنهم أرادوا بهذا الدعاء طلب نصر الله لنبيه ﷺ حتى يفتح بلد الظلمة ويخلص المستضعفين من ظلم الظالمين؛ لأن ذلك هو الذي يتصور في تلك الحال.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّغُوتِ﴾ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امثالاً لأمر الله، ورغبة في ثواب الله ومرضاته؛ لأن إيمانهم بالله واليوم الآخر المبني على اليقين يبعثهم على الخوف من الله والحذر من النار، بحيث يؤثرون طاعة الله على حب الدنيا؛ ولأنهم يغضبون لله على أعداء الإسلام، وتحركهم الحمية الإسلامية للجهاد، فمن هنا كان الجهاد من علامات الإيمان كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّغُوتِ﴾ والطاغوت: ما أطمع، يفسر بالشیطان وقادة الكفر، وسبيلهم الباطل ومحاربة الحق ﴿فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ هم المقاتلون في سبيل الطاغوت فقد صاروا بذلك من حزب الشيطان وصاروا مع الشيطان في الدعوة إلى الباطل، والصد عن سبيل الله.

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فلا يستطيع مقاومة أهل الحق إذا صبروا وكانوا حزب الله وجنده؛ لما عندهم من قوة الإيمان، وما ينزل لهم من



الصلوة وءاتوا الزكوة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴿٧٧﴾ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج

نصر الرحمن؛ ولأن حزب الشيطان يحبون الحياة ويؤثرونها بخلاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم من الله رغبة في الجنة ومرضاة ربهم، فهم في القتال يرجون إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من قصتهم وتنبيه للسامع للإصغاء لها قيل لهم كفوا أيديكم ولا تمدوها لإثارة الفتنة وخاصة الكفار، كما يفعل بعض الأتباع الذين يجرؤون المصائب على من هم معه قبل كمال الإعداد لقتال العدو وينفرون الناس عن إتباع الحق؛ لأن عدوانهم ينسب إلى أهل الحق لانضمامهم إليهم، وهم يصورون للناس أن الذي يفعلونه صلابة في الدين ف قيل لهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عما تفعلون ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ فذلك يكفيكم عن الخصومة في هذا الأوان، واجعلوا جدكم الذي تزعمونه في الدين بدلاً من أن تجعلوه في الخصومات، اجعلوه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فهو العمل النافع إذا كان مع التقوى.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصايح): «قال المرتضى عليه السلام: هؤلاء قوم ممن كان مع رسول الله ﷺ من المنافقين يظهر بلسانه ما ليس في قلبه، وكانوا

يتبرعون إلى الفتنة والقتال ويمدون أيديهم فيما لا يجوز من الأفعال، فنهاهم الله عن ذلك، وكان فعل هذا من قبل أن يفترض الله - عز وجل - على النبي ﷺ الجهاد، فأمر الله سبحانه بالجهاد وحكم به عليهم، وأطلق لنيبه ولهم، ثم نكلوا عما كانوا يقولون، ورجعوا عما كانوا من أنفسهم يُظهرون.

ثم أخبر أنهم يخشون الناس ويفزعون من قتالهم كخشية المؤمنين لله الذين لا ينكلون عن أمره ولا يرجعون عن حكمه، فذكر الله - عز وجل - هؤلاء المنافقين أنهم يخشون الناس ويهابون كخشية الله وليس لهم خشية، ولو كانت لهم خشية لله وهيبة ومعرفة ما نكلوا ولا رجعوا ولا وتوا ولا قصرُوا، ولكن الله أخبر نبيّه والمؤمنين أن هؤلاء المنافقين يخشون الناس كخشية الله التي في قلب نبيّه وقلوب المؤمنين معه، فذم الله سبحانه أهل النفاق والكفر والشقاق بفعلهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] انتهى.

قلت: لا يبعد عندي أنهم في أول أمرهم لمّا ينافقوا وأنهم إنما كانوا فاقدى الإيمان، ثم نافقوا بعد ما كتب عليهم القتال - والله أعلم.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ لما كتب عليهم القتال ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ جهلاً منهم بحكمة الله في القتال وعظم فائدته في الدنيا والآخرة وعدم مبالاة بالدين والدفاع عنه، وهذا لأن معنى: ﴿لِمَ كَتَبْتَ﴾ لأي سبب كتبت.

وقولهم: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾ طلب إمهالهم في الحياة إلى أن يموتوا بأجلهم وهي قريبة، فهم حريصون على الحياة مدة قليلة طلبوا أن يسقط عنهم القتال حرصاً عليها وتقريبهم للأجل، وتقليلهم للمدة في هذا الدعاء دليل

مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا

على جهلهم بقدرة الله وسهولة تعميمهم في هذه الحياة، فطلبوه كما يطلب المخلوق الشيء القليل ليسهل عليه إعطاء المطلوب.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ لا ينبغي أن تجعلوه أكبر همكم ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ لما فيها من النعيم المقيم والملك الكبير فهي التي ينبغي أن تحرصوا عليها ﴿وَلَا تُظَلَمُونَ فِتْيَلًا﴾ ولا تنقصون من أجر الجهاد والعمل للآخرة شيئاً، والقتيل يضرب به المثل في القلة كما مر، وهو خيط صغير يكون في بطن نواة التمر. وفائدة قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ دفع توهمهم أن الآخرة خير لهم على الإطلاق لو قال: والآخرة خير، فبين: أن الآخرة ﴿خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ فإن اتقوا فهي خير لهم، وإلا فلا.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ ﴿يُدْرِكَكُمُ﴾ أي يلحقكم فهو طالب لكم لا تفوتونه، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «البروج: القصور، الواحد برج» انتهى.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ (غريب القرآن): «﴿فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ معناه: في حصون واحدها برج، والمشيدة: المطولة، والمشيد: المزين» انتهى.

قلت: الأنسب للسياق أن المشيدة هنا بمعنى: المطولة؛ لزيادة حصانتها بالطول، وقد يقال: إن طلاءها بالمشيد الذي هو الجص زيادة في قوتها، وحصانتها من حيث أن المشيد يصعب الطلوع فيه من خارجه، فيأمن ساكنه طلوع العدو من ظهر البرج.

وعلى هذا: فيحمل على المعنيين لعدم التنافي ولمناسبة كل منهما، وهذه الجملة من الآية تذكير بالموت، وأنه لا ينفع الفرار منه؛ لأنه لا بد منه، وإذا لم يكن الحياذ منه إلا لتأخيره مدة قليلة فهي لا تساوي فوات فريضة الجهاد وثوابها والتعرض لعذاب الله بمعصية أمره بالجهاد.

﴿وَإِنْ تُصِيبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا نوع آخر من كلام هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ يدل على فسادهم وإفسادهم واستعدادهم للنفاق. فإذا نالوا نعمة ولو كانت بسبب من رسول الله ﷺ لم يعترفوا له بالتسبب للخير، بل قالوا: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ واقتصروا على ذلك، وإن نالتهم مصيبة قالوا للنبي ﷺ: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ولولاك ما أصابتنا، وذلك على طريقتين:

إحدهما: ما كان بسبب وجود النبي ﷺ وعداوة الكفار له مثل مؤنة حفر الخندق، وهول يوم الأحزاب، وهذا يدل على فسادهم، وأنهم لا يريدون الدفاع عن الدين، ولا عن النبي ﷺ.

الطريقة الثانية: التشاؤم كما كان من قوم فرعون، وحكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْتُمْ سَيِّئَةً يَطِّيرُوا يَمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] وهذا كثير في الأولين والآخرين يتشاءمون بأهل الحق تنفيراً عنهم.

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فالفتح، والنصر، والغنائم، والأرزاق.. ونحو ذلك، كلها من الله تعالى نعمة لعباده واختبار، والمصائب تنزل من الله اختباراً وتمحيصاً للمؤمنين وتمريناً لهم على تحمل الشدائد، وغير ذلك من الفوائد، وعقوبة للعصاة المتمردين ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فلا

أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧١﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ

يرجعون عن جهالاتهم، ولا يهتدون بما بلغهم الرسول ﷺ من هدى الله ولا يحسنون إسلامهم ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً صادقاً بعد ما جاءتهم البينات.

﴿٧١﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴿٧٣﴾ مِنْ نِعْمَةٍ وَخَيْرٍ ﴿٧٤﴾ فَمِنْ اللَّهِ ﴿٧٥﴾ تَفْضُلٍ ﴿٧٦﴾ وَمَا أَصَابَكَ ﴿٧٧﴾ مِنْ مَصِيبَةٍ كَالْمَرَضِ ﴿٧٨﴾ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴿٧٩﴾ أَنْتَ سَبَّيْتَ لَهُ، وَهَذَا مَعْنَى نَسَبْتَهُ إِلَى الْعَبْدِ أَنَّهُ بِسَبَبِ الْعَبْدِ مَعَ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلَا تَعَارِضُ، وَقَدْ قَالَ فِي مَصِيبَةٍ (أَحَدٍ): ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وَلَا يَجِبُ فِي التَّسْبِيبِ كُلُّهُ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً مُتَعَمِّدَةً، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَطَأً وَيَكُونَ سَبَبًا لِلْمَصِيبَةِ، وَلَيْسَتْ عَقُوبَةُ كَأْكُلَ بَعْضَ الطَّعَامِ الَّذِي يَضُرُّ بِغَيْرِ تَعَمُّدٍ.

نعم قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ الظاهر: أنه خطاب للنبي ﷺ، ومن فائدة ذلك: أن يعرف الجاهلون الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَلِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أن يعرفوا أن ما أصابهم فيما كسبت أيديهم؛ لأنهم أولى لعصيانهم تعمداً بخلاف الرسول ﷺ.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ كسائر رسلنا مبشرين ومنذرين، فعلى هؤلاء المتشائمين أن يكون همهم معرفة ما أرسلت به من عند الله وإتباعك لا التشاغل عن ذلك بالأغراض الدنيوية وجعلها أكبر همهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على الرسول والمرسل إليهم والمتبع للرسول والمخالف له.

عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿١٠٨﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

﴿١٠٨﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿١٠٩﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ؛ لَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ النَّاسَ بِطَاعَتِهِ لَأَنَّهُ مَبْلُغٌ عَنِ اللَّهِ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عَنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَعَصَاهُ فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ، فَهُوَ الَّذِي يُجَازِيهِ، وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُحْفَظَهُ مِنَ الْعَصِيَانِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِ.

﴿١٠٨﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ هُمُ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ يَقُولُونَ: شَأْنُنَا طَاعَةٌ لِلرَّسُولِ ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ ﴿بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ ذَهَبُوا مِنْ عِنْدِكَ وَصَارُوا فِي فُضَاءٍ مِنَ النَّاسِ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ أَيِ قَالَتْ فِي اللَّيْلِ قَوْلًا قَدَرْتَهُ لِنَفْعِهَا وَسَلَامَتِهَا فِيمَا تَظُنُّ قَوْلًا ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لَكَ أَيِ خِلَافِ الطَّاعَةِ، فَهِيَ تَبَيَّتِ الْمَعْصِيَةَ، وَلَعَلَّهُ تَزِينُ النِّفَاقِ وَالتَّأَمُّرِ بَيْنَهُمْ أَنْ يَنَافِقُوا.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يُحْفَظُ ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ لَا يَنْسَاهُ فَيَجْزِيهِمْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ يَكْتُبُ بِأَمْرِ الْحَفِظَةِ أَنْ يَكْتُبُوهُ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لَا تَعَاقِبُهُمْ وَلَا تَوَجِّهْهُمْ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ اتَّخِذْهُ وَكِيلًا تَكُلْ إِلَيْهِ أُمُورُكَ، وَاعْتَمِدْ عَلَى نَصْرِهِ وَحِمَايَتِهِ وَكَفَايَتِهِ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَالِكَ وَكُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِكَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَغْفُلُ عَنْكَ لَحْظَةً، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكَ وَحِمَايَتِكَ وَكَفَايَتِكَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ بَرٌّ رَحِيمٌ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ.



لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١١٨﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

﴿١١٨﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴿١١٩﴾ لَمَّا كَانَتْ مَعَاصِيَهُمْ سَبِيلَهَا مَرَضٌ فِي قُلُوبِهِمْ دَلِمَ عَلَى الْقُرْآنِ ﴿شِفْلَةً لِّمَا فِي الصُّورِ﴾ [يونس: ٥٧] فَإِنَّهُمْ إِذَا تَدَبَّرُوهُ بِإِنْصَافٍ وَطَلَبَ لِلْحَقِّ وَجَدُوهُ نَاصِحًا أَمِينًا يَهْدِي إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّذْكِيرِ بِاللَّهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَمِنَ الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا نَفْعَهُمْ إِذَا آمَنُوا بِهِ وَأَيَقَنُوا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ، فَلْيَنْظُرُوا لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ.

﴿و﴾ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ ضَعِيفٌ تَحْتَخِلِفُ حَالَتُهُ فِي النَّشَاطِ وَحُضُورِ الْفِكْرِ وَالْكَسَلِ وَالْغَفْلَةِ وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَخْتَلِفُ كَلَامُهُ تَبَعًا لِاخْتِلَافِ حَالَاتِهِ، فَيَحْسُنُ نَظْمُهُ تَارَةً وَيُغَيِّرُهُ تَارَةً أُخْرَى، فَلِذَلِكَ تَرَى قِصَائِدَ الشَّاعِرِ الْوَاحِدِ تَحْتَخِلِفُ فِي الْحَسَنِ وَالْإِتْقَانِ وَتَتَفَاوَتُ.

بَلِ الْقَصِيدَةُ الْوَاحِدَةُ تَحْتَخِلِفُ فِي إِحْكَامِ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْمَعَانِي تَتَجَهُّ إِلَيْهِ فِكْرَتُهُ لِرَغْبَتِهِ فِيهِ وَقُوَّةُ الْبَاعِثِ عَلَيْهِ مِنْ حُبٍّ وَشَوْقٍ أَوْ حُزْنٍ أَوْ غِيظٍ وَغَضَبٍ أَوْ طَمَعٍ أَوْ بَغْضٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَبِالْبَعْضِ الْآخِرِ يَتَكَلَّفُهُ فَالَّذِي يَسْهَلُ يَكُونُ أَقْدَرُ عَلَى إِتْقَانِ نَظْمِهِ وَالَّذِي يَتَكَلَّفُهُ يَضَعُفُ عَنْ إِتْقَانِهِ وَهَذَا وَاضِحٌ.

أَمَّا كَلَامُ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - فَلَا يَخْتَلِفُ؛ لِأَنَّهُ ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وَ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] وَقَدْ عَلِمَ الْعَرَبُ هَذَا فَلَمْ يَسْتَضَعِفُوا شَيْئًا مِنْ نَظْمِهِ وَلَا انْتَقَدُوا شَيْئًا مِنْ تَرْكِيهِهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ اخْتِلَافٌ لَسَارَعُوا إِلَى نَقْدِهِ لِكِرَاهَتِهِمْ لِلْإِيمَانِ بِهِ وَرَغْبَتِهِمْ فِي إِبْطَالِهِ، وَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ: فَتَفْهَمُ مَعَانِيَهُ وَمَا يَسْتَفَادُ مِنْهَا وَتُؤَدِّي إِلَيْهِ.

قال في (الكشاف): «تدبر الأمر: تأمله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصّر ما فيه» انتهى.

قال في (المصاييح) حاكياً: «وفي الآية دلالة على بطلان قول من يزعم أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ أو حجة الله تعالى؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن لدعاء المكلفين إلى التدبر في القرآن، وتوبيخهم على ترك الاستدلال به معنى» انتهى.

وقد بسطت في هذا المعنى في (تحرير الأفكار) جواباً عما قال: «السنة حاكمة على القرآن» وهم يحتجون بقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].  
قالوا: والمراد لتبين بالسنة.

وأجواب: لا نسلم أن المراد بالسنة، فهي دعوى لا دليل عليها؛ لأنه المبلغ للقرآن إلى الناس، فالمعنى: لتبينه بتبليغه تبليغاً بيناً بتبيين حروفه في تلاوته عليهم، ورفع صوتك به بحيث يسمعون به تمامه؛ لأنه لو أغمض بعض الحروف بحيث تلتبس على السامع وخفض صوته به عند تلاوته عليهم فلم يسمعه تماماً، لصح أن يقال: إنه لم يبينه لهم، وقد روي أنه ﷺ كان يرتل القرآن حتى لو أراد أحد أن يعد الحروف لعدّها أو كما قيل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ [القيامة: ١٧] أي قراءته لك، ثم للناس بتبليغك إليهم ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ﴾ لك ثم للناس في تبليغك من الملك وتبليغك للناس.

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ<sup>١</sup> وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٧﴾ فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ ليس معناه تراخي البيان؛ لأنه ليس المعطوف بـ(ثم) وإنما هي للترقي من درجة إلى درجة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [مود: ١] وكقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه      ثم قد ساد قبل ذلك جده

ولو سلم أن (ثم) لتراخي وجوب البيان على الله عن وجوب قراءة القرآن، فلا يستلزم ذلك تراخي البيان؛ لأنه يمكن أنه سبحانه كتب على نفسه أن ينزل القرآن ويُقرأ على الرسول ﷺ ثم على الناس، ثم كتب على نفسه أن يجعله بيناً للرسول وللناس؛ لتقوم به الحجة، ويتبين به قصد السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وهذا على سبيل الفرض والتقدير، ولا يلزم منه تراخي البيان عن قراءة القرآن، فلا يلزم التغاير بين القرآن وبيانه، وقد وصف الله آيات القرآن بأنها (بينات) كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فدل ذلك على أن بيان القرآن صفة له لازمة لا مفارق له مغاير.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ<sup>٢</sup> وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ قال في (الكشاف): «هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال، ولا استبطان للأمر، كانوا إذا جاءهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به، وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمر

أَوِ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمَرُونَ ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لَعَلِمَ تَدْبِيرَ مَا أَخْبَرُوا بِهِ ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ تَدْبِيرَهُ بِفُطْنَتِهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِأُمُورِ الْحَرْبِ وَمَكَايِدِهَا» انتهى.

### وفيه نظر من وجوه:

**الوجه الأول:** أنه قال: «هم ناس من ضعفة المسلمين...» إلخ، مع أن السياق، والعطف يفيد أنهم المذكورون في الآيات قبلها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وقد دلت على فسادهم، وأنهم مظنة النفاق فمسارعتهم إلى إذاعة ما سمعوه إما لفساد نياتهم، وإما لعدم مبالاتهم بما تؤدي إليه الإذاعة.

**الوجه الثاني:** أنه قال: «كانوا إذا جاءهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ...» والآية الكريمة لا تدل على قصر الذي جاء من الأمن أو الخوف على ذلك بل ولا عليه نفسه، ومن الجائز: أن الأمن أي سبب الأمن، مثل خبر يفيد أن العدو اختلفوا مثلاً فأضربوا عن ملاقات المسلمين في معركة متوقعة يجب على المسلمين الاستعداد لها، فيؤدي الخبر إلى ترك الاستعداد للجهاد، مع أن الخبر كذب والاستعداد ضروري، ومن الجائز: أن الخوف مثل خبر عن كثرة العدو المهاجم وكثرة عدته من الخيل وغيرها، ليرجف على المسلمين ليثبط ضعفاء الإيمان، ليتخلفوا عن الجهاد مع الرسول ﷺ فلعل هؤلاء من الذين قال الله فيهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

**الوجه الثالث:** أنه قال: «وهم كبراء الصحابة...» وقدمه قبل قوله: أو الذين كانوا يؤمرون، مع أن أولي الأمر في الحقيقة في هذه الآية هم الذين

أَمَرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وتسمية من لم يؤمر ولي أمر مجاز، ولعل فائدة ذكرهم لوقت غيابهم حيث يرسلهم رسول الله ﷺ فإذا أذاع المفسدون خبراً تضر إذاعته فعليهم أن يسألوا أميرهم عن حقيقة ذلك الخبر؛ لأن الأمراء أهل رأي وذكاء وشجاعة، وإرجاع الخبر إليهم يفيد: إما تكذيب الخبر، وإما الاستعداد بحيلة أو قوة تعارض الخبر أو نحو ذلك، وأمير المؤمنين علي عليه السلام مقدم فيهم ويلحق سائر أئمة الهدى بالقياس؛ لأن الآية في حوادث مضت، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ وفي أولئك الذين كانوا في وقت الرسول ﷺ، لأن (الواو) في أول الآية عطف على الكلام فيهم، والضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ عائد عليهم، و(جاء) فعل ماضٍ، و﴿أَذَاعُوا﴾ فعل ماضٍ، و﴿أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أناسٌ مضوا كان رسول الله ﷺ يؤمرهم.

وأما قول بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وأن المعنى: ولو ردوا القرآن إلى أولي الأمر منهم، لعلم معناه الذين يستنبطونه، أي يستنبطون معنى القرآن منهم فهو مشكل؛ لأن الظاهر: عود الضمير إلى أقرب ملفوظ؛ ولأن التوصل إلى ذلك قد يؤدي إلى جعل فهم القرآن من خصائص الأئمة، وهو مذهب بعض الإمامية ليتوصلوا به إلى اشتراط أن يكون الإمام معصوماً، وبالتالي منصوباً عليه، وهو أيضاً مذهب الباطنية.

وقد رد عليهم قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ كما مر في تفسيرها، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] فعلى قول الباطنية على القلوب كلها أقفالها، إلا قلوب الأئمة، وبالله التوفيق.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] فكيف يحكم بين الناس وهم لا يفهمونه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [نصحت: ٤٤] فكيف يهتدون بما لا يفهمونه، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ \* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ...﴾ [المائدة: ١٥-١٦] فقال: ﴿جَلَّ كُتُبُكُمْ﴾ أفاد: أنهم مخاطبون به، فكيف يتعذر فهمهم له وهو خطاب لهم، فهل خاطبهم الله بما لا يفهمونه؟ ثم قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ فعم كل مؤمن، وقال: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ فلو كان رموزاً لا يفهمها إلا الإمام لما كان مبيناً.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ عام في كل ما يتعلق بالحروب، وفيما يتعلق بسائر الأحكام الشرعية؛ لأن الأمن والخوف حاصل بكل ما يتعلق بباب التكليف، فثبت أنه ليس في الآية ما يوجب تخصيصها بأمر الحرب» انتهى.

قلت: الكلام حكاية فعل، فهو خاص بما جاء المذكورين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وجاء فيهم ما ذكره الله في الآيات الماضية، وليس يعم ما أنزل الله من الوعد والوعيد وما يتعلقان به من الطاعة والمعصية؛ لأن إذاعة الوعد بالجنة والوعيد بالنار غير مذمومة، وليس يتبادر من قوله تعالى: ﴿مَنْ أَلَّامِنٍ أَوْ الْخَوْفِ﴾ إلا الأمن من المخلوقين أو الخوف منهم.

فظهر: أنه فيما يرجع إلى الأمن من أعداء الإسلام أو الخوف منهم، ولو سلمنا أنه عام للأمن من المخلوقين والأمن من الخالق والخوف من المخلوقين والخوف من الخالق فالوعد والوعيد لا يجوز كتمانها ولا يعاب إذاعته فهو مخصوص من العموم لو سلمناه، وكيف تعاب إذاعة سبب الأمن،



وقد ذكره الله في الكتاب العزيز، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] وإذاعة هذا غير مذمومة، وكذلك في القرآن كثير من أسباب الخوف، مثل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ...﴾ إلى آخر السورة [الهمزة] ومثل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ \* يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٧-٨] وإذاعة هذا غير مذمومة.

وفي هذه الآية دلالة على أن المذكورين فيها يفهمون آيات الله ولو كان فهمها خاصاً بالإمام لم يقل فيهم: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨] لأن من لا يفهمها يكون كأن لم يسمعها، فلا يعاب عليه أن يسمعها ثم يصير غير متأثر بها ولا متعظ بها ولا مهتد، بل هو ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وهذا واضح.

ومن الدليل قوله تعالى في القرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ \* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] واللسان العربي يفهمه العربي ولا يختص الإمام بفهمه، وقد وصفه بأنه مبين فدل على سهولة فهمه لكل من يفهم اللسان العربي فلا يختص بالأئمة.

ولا إشكال أنه ينبغي الاستعانة بتفسيرهم لأجل ما لهم من زيادة الفهم، فأما حجر القرآن عن غيرهم فهو فساد كبير يخالف لما علم من الدين ضرورة، وأئمة الهدى يدعون الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، لأنهم مخاطبون بهما، ويحتجون عليهم بالآيات والأحاديث بناء على أنهم يفهمونهما، وقال قائل الأئمة (عليهم السلام): «أطيعوني ما أطعت الله فإن عصيت

الله فلا طاعة لي عليكم» فكيف يعلمون أنه عصى الله لولا أن عليهم أن يتمسكوا بكتاب الله، وأنهم يفهمون الكتاب والسنة فيعرفون الطاعة والمعصية، وكيف يتمسك بالكتاب من لا يفهمه؟!؟

وفي حديث الثقلين: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي» فقدم الكتاب، وفي بعض روايات الحديث: «.. كتاب الله حبل طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لا تزالوا ولا تضلوا» فكيف يتركه فيهم لينجوا من الضلال ويحثهم على التمسك به، وهم لا يستطيعون فهمه بل فهمه خاص بالإمام؟!؟

وفي (وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام) رواها أبو طالب عليه السلام في (أماله) وهي في (الباب الرابع): «أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا..» إلى قوله عليه السلام: «... والله الله في القرآن لا يسبقنكم إلى العمل به غيركم..» إلخ.

وهذه الوصية رواها الكليني في (الكافي) (٥١-٥٢/٧) وهي في (نهج البلاغة/ رقم ٤٧) في (باب المختار من كتبه عليه السلام) وفي (النهج) غيرها من الحث على العمل بكتاب الله كما في (عهده عليه السلام للأشتر) ومن خطبة له عليه السلام (رقم ١٧٥) في قسم (الخطب) يقول فيه: «واعلموا أنه ليس لأحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغى والضلال..» إلى قوله عليه السلام: «... فكونوا من حرثه وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم» انتهى.

وفي (الكافي) للكليني [ج ٢] من الأصول [ص ٥٩٨-٥٩٩]: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله، عن آبائه (عليه السلام) قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم في دار هدنة..» إلى قوله.. فقام المقداد فقال: يا رسول الله وما دار الهدنة؟ قال: «دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، وماحل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل..» الحديث.

وهو في (أمالى أبي طالب عليه السلام) في (الباب الثالث عشر) وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) في (باب طاعة الإمام) بسنده عن علي عليه السلام قال: «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يعدل في الرعية، فإذا فعل ذلك فحق عليهم أن يسمعوا وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا، وأما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة له» انتهى.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب (مديح القرآن الكبير) بعد أن أورد آيات من القرآن في فضل القرآن وما فيه من الهدى ما لفظه: «ومن لم يهتد في أمره بكتاب الله لم يهتد بغيره للحق أبداً..» إلى قوله عليه السلام: «... فالويل كل الويل لمن لم يكتف في أموره وأمور غيره بتنزيل رب العالمين، كيف عظم ضلاله وغيته، وضلت أعماله وسعيه..» ثم قال عليه السلام: «... فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبينه، أدخله الله كما قال سبحانه: ﴿مُتَخَلِّلاً كَرِيماً﴾ وهده به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى لم يعم بعده أبداً..» إلخ.

وقال عليه السلام في كتاب (الدليل الصغير): «الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكملًا، ونزل برحمته للعباد منه بياناً مفصلاً، فيه لمن استغنى به أغنى الغنى، ولمن اجتنبى ثمرات هداه أكرم مجتنى...» إلى قوله عليه السلام: «...فاتخذوه هادياً ودليلاً...» إلخ.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «يجب على الإمام أن يكتب إلى الباغين كتاباً قبل مسيره إليهم يدعوهم فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ» انتهى.

وقال عليه السلام فيها في (باب القول في معاونة الظالمين) في الكلام في أعداء أهل البيت الذين يُحْمَلُونَ البريء ذنب المذنب منهم: «وَيَحْ مِنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَمَا يَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ حِينَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ وَفِي مَنْ كَانَ مِنَ الْخَلْقِ كَذَلِكَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]...» إلى قوله عليه السلام: «... بل قد سمعوه ووعوه، ولكن عاندوا في ذلك الحق...» إلى قوله: «... كَانَ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَيْفَ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَمْرًا بِأَنْ يَفْرَضَ عَلَى الْأُمَّةِ مَوَدَّتِهِمْ فَرْضًا فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوْتَةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] بلى قد سمعوا ذلك بأذانهم، وفهموا فرض الله فيهم بقلوبهم، ثم رفضوا من بعد ذلك رفضاً...» إلخ.

وفي (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (قصة عن بعض أعداء الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام) أنه قال في الناصر نكرهه؛ لأنه يحسن مثل هذه الحجة؛ ولأنه يرد متقلداً مصحفه وسيفه، ويقول: قال أبي رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فهذا هو كتاب الله أكبر الثقلين، وأنا عترة رسول الله ﷺ أحد الثقلين، انتهى المراد.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَّ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٧٧﴾  
 مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۚ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً

فهذه الجملة تفيد: أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وخيارهم يدعون إلى كتاب الله، ويحتجون على الأمة به، ومعنى هذا: أن فهمه ممكن للأمة، وإلا لما كان لدعوتهم إليه معنى، ولا ينافي هذا أن الخاصة قد يفهمون من القرآن معاني ما يرتقي إليها فهم العامة في جوانب معينة، ولهذا أمر الله بسؤال أهل الذكر في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧٧] وقد طال الكلام ومعناه أمر مفروغ منه في هذا العصر في بلادنا، ولكن لا يبعد تغير الحال عن قريب والله المستعان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾  
 ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ومن معه الذين هداهم الله وعصمهم عن أن يكونوا مثل المذكورين في الآيات من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيَدِيكُمْ﴾ إلى هذه الآية، فبين للمؤمنين أن ذلك للمؤمنين كان بفضل الله ورحمته وتوفيقه وهدايته، فعليهم: أن يشكروا نعمته بما أنزل من الإنذار، ولا يعجبوا بأنفسهم فإنها قريبة التحول إذا لم يكن لها من لطف الله عاصم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي منكم، ولعله: رسول الله ﷺ، وعلي ﷺ، وأبو ذر رضي الله عنه ونحوه.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَّ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ﴿فَقَاتِلْ﴾ يا محمد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا﴾ أن تبذل ﴿نَفْسَكَ﴾ لله وتجعلها في الجهاد في سبيله، وليس عليك أن يقاتل من معك من المؤمنين، إنما عليك أن تحرضهم على القتال. قال في (الصحيح): «والتحريض على القتال: الحث والإحماء عليه - ثم قال -: والحرّاض: الذي يُوقِدُ على الحرّض ليتخذ منه نورة أو جصاً» انتهى.

يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا

قلت: قوله: والإحماء، معناه: إثارة الحمية والغضب على العدو؛ ولعل ذلك هو سبب اختيار التحريض مكان الحض ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بجهاذكم في سبيل الله، فالمعنى قاتل ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال رجاء أن ينصركم الله على الذين كفروا فيكف عنكم بأسهم بنصركم عليهم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾؛ لأنه القاهر فوق عباده وبطشه شديد فالعاجل منه قد كان في القرون الماضية كقوم عاد وثمود، والآجل عذاب النار ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ قال الراغب في (مفرداته): «ونكلت به، إذا فعلت به ما ينكل غيره واسم ذلك الفعل نكال» انتهى، فالمعنى: تعذيباً زاجراً عن فعل سبب ذلك التعذيب.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ (الشفاعة) أن تطلب للمحتاج حاجته إما نيل خير وإما سلامة من شر، وفي حديث في (صحيفة الإمام الرضا): «الشفيع جناح الطالب».

قال (صاحب الكشاف) - ونعم ما قال -: «الشفاعة الحسنة، هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز» انتهى.

والأولى أن يقال بدل حق مسلم، غرض صحيح ليشمل الحد ما فيه مصلحة، ولو كانت الشفاعة لذمي أو لأسير أو من يرجى إسلامه أو صلاحه بسبب العفو عنه أو ترك ظلمه.



﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ قال في (المصابيح):  
«والكفل: النصيب، ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]  
أي نصيبين» انتهى باختصار.

والشفاعة السيئة: ما كانت معاونة على الإثم والعدوان، أو موادة لمن  
حاد الله ورسوله ليست لمصلحة دينية، ومعنى ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا﴾ الثواب في  
الخير والعقاب في الشر، ولو أطلقت الشفاعة السيئة على المحل بالمؤمن مثلاً،  
أي التبليغ بقوله الضار أو فعله الضار لصح المعنى، ولكنه مجاز مشاكلة  
لفظية والأصل الحقيقة.

قال في (الكشاف) ومثله في (المصابيح): وقيل الشفاعة الحسنة، هي  
الدعوة للمسلم؛ لأنها في معنى الشفاعة إلى الله، وعن النبي ﷺ: «من دعا  
لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك».  
قال في (تخريج الكشاف): أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بلفظ:  
«قالت الملائكة: آمين، ولك بمثل» انتهى. قال في (الكشاف): «فذلك  
النصيب والدعوة على المسلم بضد ذلك» انتهى، فأدخل (صاحب  
الكشاف) المحل في الشفاعة.

والحديث أخرجه أحمد، ومسلم، عن أبي الدرداء بلفظ: «ولك بمثل» وليس  
فيه كلمة (ذلك) وقوله: «ولك بمثل» هو آخر الحديث، وفي (سنن ابن ماجه)  
في (المناسك) هذا الحديث وآخره: «ولك بمثل» وهو في (سنن أبي داود)  
وآخره: «ولك بمثل» بدون (هاء) الضمير، ولم أجده بلفظ: «ولك مثل ذلك».

﴿مُقِيَّتًا﴾ قال في (المصابيح) للشرفي رحمه الله: «في المقيت قولان: أحدهما -  
وهو قول المرتضى عليه السلام -: أن المقيت القادر على الشيء، وأنشدوا للزبير  
بن عبد المطلب:

وذا ضغن كفت السوء عنه وكنت على إساءته مقيتاً

أي قادراً قال عليه السلام: وقد قال بعض المفسرين: إن معنى مقيتاً: هو شهيداً، وليس هذا عندي بصواب» انتهى. قلت: وفي (لسان العرب): «الفراء: المقيت: المقتدر، والمقدر كالذي يعطي كل شيء قوته، وقال الزجاج: المقيت: التقدير - ثم قال - وقال أبو إسحاق الزجاج: إن المقيت بمعنى الحافظ والحفيظ» انتهى. وعلى تفسيره بـ (المقتدر) يكون المعنى: إن الله ﴿كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ فهو مقتدر على جزاء الشافع بالخير وبالشر، يجزي كلاً بمقدار ما يستحق، وأخذ التقدير في معناه مناسب؛ لاشتقاقه من القوت. قال في (المصابيح): «وقال إمامنا عليه السلام: دل ذلك على حسن سعي من سعى إلى الخير للغير، وعلى قبح ضده» انتهى.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ قال في (مفردات الراغب): «فالتحية أن يقال: حياك الله، قال: وأصل التحية من الحياة، ثم جعل ذلك دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن الحياة أو سبب حياة» انتهى المراد.

فالتحية تصدق على الألفاظ المختلفة وأحسنها السلام، وظاهر الآية العموم فتعم قولهم: عم صباحاً، وقولهم: صباح الخير ونحوه، وقد ورد في المنافقين: «تحياتهم لعنة» ومعناه: إذا لقي بعضهم بعضاً لعنه مكان التحية، فهي مشاكلة تقديرية، ولا يدخل في التحية قولهم: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف الحال؟ مما ليس دعاء.

﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أجبوا من حياكم بأحسن من تحيته فإذا قال: السلام عليكم، فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ حيوه بتحيته أي بمثلها، فإذا قال: (السلام عليكم) فالرد لها: (وعليكم السلام).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ﴾ يصلح للتخيير حيث صلح الأمران، وللتريد بين حالة صلاحية أفضل، وحالة أن لا يصلح إلا الرد، ومنه إجابة الذمي بقول المجيب: وعليكم، ولا مانع من ذلك؛ لأنه من الإقسط إليهم، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ..﴾ الآية [المتحة: ٨] مع أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَيَّيْتُمْ﴾ عام لتحية المسلم والذمي والذكر والأنثى.

بل وظاهره عموم تحية الكافر الحربي، فإن ثبت تخصص لتحيته عمل بالمخصص وإلا عمل بهذا العموم؛ لأن الرد ليس من الموالاة ولا المودة، بل هو من شأن المسلم الإنصاف والإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] فعم الناس.

فإن قيل: إن معنى السلام الأمان، ولا ينبغي تأمين الحربي؟ قلنا: لا مانع من تأمينه وقتاً قصيراً لينظر ما يقول بعد السلام، ثم إذا لم يرد الاستجارة ولا طلب الأمان لغرض صحيح أعلن له بالبراءة من أمانه إن لم يسلم ثم قتل حيث لا أمان له، ولا مانع آخر من قتله، وظاهر الآية: وجوب الرد أو الأحسن، ولو سلم واحد على جماعة وجب على كل واحد الرد أو الأحسن، ولكن لعله يجزي جواب الواحد عن الجماعة إذا وكلوه فكان جوابه عنه وعنهم.

وعليه يحمل الحديث إن صح عن علي عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ «يجزي عن الجماعة إذا مرت أن يسلم أحدهم، ويجزي عن القعود أن يرد أحدهم» رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (أماليه) وهو في (الباب السابع والثلاثين) [ص ٣٤٤] وهو في (سنن أبي داود) في (باب ما جاء في رد الواحد عن الجماعة) [٣٥٤/٤] ورقم الحديث [٥٢١٠].

إِلَهُ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٤٧﴾ \* فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا

والظاهر: أن السند واحد من سعيد بن خالد، وسعيد هذا ليس بالمشهور، وقد ضعفه عدد من القوم، والعمدة: أنه ليس لنا معرفة بحاله، فالراجع: أن الرد فرض عين أو الأحسن، ولا يبعد أنهم لو وكلوا واحداً منهم فأجاب عن نفسه وعنهم معلنا للإضافة إليهم فقال: وعليكم السلام عني وعمن عندي أن يجزي ذلك، وأن ذلك لا يعني أنه فرض كفاية، ولكن الأحوط: أن يجيب كل واحد - والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسب على الصغير الذي يتهاون به الناس وغيره ولا يترك.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ هذه أصول الدين تدل على أهمية طاعة الرسول والنصح له لدعوته إلى هذه الأصول حين كان أكثر الناس مشركين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بكتابه، واعتبر يوم القيامة فاصلاً بين العباد مجازياً لكل عامل بعمله، فالناس يجمعهم الله إلى هذا اليوم الذي يقسمون فيه فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وجمعهم إليه جمعهم فيه له، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُم لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، وأصل الريب قلق النفس من الشك، كما قال الشاعر:

لقد رابني من عامر أن عامراً بعين الرضى يرنو إلى من جفانيا

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ<sup>ط</sup> وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾  
وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لا أصدق من الله حديثاً، خرج النفي مخرج السؤال؛ لأنه لا يدعي أحد أنه أصدق ولا يدعى لأحد أنه أصدق من الله، فوعده بجمع الناس ليوم القيامة صدق، وكلما في كتابه صدق وحق؛ لأنه غنى كريم لا يحتاج إلى الكذب ولا يريده؛ لأن إرادته إرادة حكمة لا إرادة شهوة وهوى، وهو عالم أنه غني عن الكذب والباطل، وأن ذلك قبيح لا يصدر من غني حكيم كريم.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ<sup>ط</sup> وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ تفریع على ما تبين من أهمية طاعة الرسول واتباعه والنصح له.

قال في (الكشاف): «﴿فِتْنَتَيْنِ﴾ نصب على الحال، كقولك: مالك قائماً» انتهى، وهو سؤال استنكار لاختلافهم في المنافقين وتنازعهم بحيث صاروا فتنين، قال الراغب في (مفرداته): «والفتنة: الجماعة المتظاهرة، التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي أنها نزلت في قوم قدموا على النبي ﷺ مسلمين، فأقاموا بالمدينة ما شاء الله، ثم قالوا: يا رسول الله نريد أن نخرج إلى الصحراء فأذن لنا فيه، فأذن لهم فلما خرجوا لم يزالوا يرحلوا [كذا] مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فتكلم المؤمنون فيهم، فقال بعضهم: لو كانوا مؤمنين مثلنا لبقوا مثلنا وصبروا كما صبرنا، وقال قوم: هم مسلمون وليس لنا أن ننسبهم إلى الكفر حتى يظهر أمرهم» انتهى المراد.

ولعل استنكار التنازع راجع إلى أنهم لم يسارعوا إلى ردّ أمرهم إلى الله والرسول كما أمر سبحانه، فالإنكار لثباتهم على التنازع بحيث أنهم فئتان، أو أنهم تنازعوا فيهم مع وضوح حالهم في عدم الإيمان، أو الخروج من الإيمان لأنهم تعربوا بعد الهجرة، وهذا أظهر؛ لأن الإنكار جاء مقيداً بالحال الذي هو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ فلم يكن ينبغي التنازع فيهم، بل كان ينبغي أن تتخلوا عن أمرهم، وتجعلوا أمرهم إلى الرسول ﷺ ليرى فيهم رأيه أو يحكم الله فيهم؛ لأنهم بترك الهجرة قد خرجوا من ولايتكم لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقد ظهر نفاقهم لأنه لازم لرجوعهم إلى قومهم؛ لأنه لا يتهاى لهم إلا بإظهار المودة لقومهم وأنهم معهم، ولولا ذلك لطردهم قومهم عند وصولهم لاختلاف الملة فكيف تنازع فيهم المسلمون وصاروا فئتين وقد تبين نفاقهم وأن الله ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي ردهم في الركس، والركس: النجس ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بمعاصيهم السابقة التي سهلت لهم النفاق والرجوع عن الهجرة.

قال في (المصابيح): «وقال المرتضى عليه السلام: معناه: خذلهم وتركهم من التوفيق لشرارتهم وبعدهم من طاعة ربهم، فهلكوا بذلك وصاروا من المعذنين، وعند الله من المقبوحين» انتهى.

قلت: الآية من التشابه، ولا إشكال أن ليس المراد: أن الله أرجعهم في الرجس جبراً، وإنما هو: التسيب له بالخذلان، وترك الشياطين تؤزهم، فنسب إلى الله على طريقة المجاز، ليدل على أنه غني عنهم لا يبالي بهم، وأن



خذلانه لهم عقوبة من الله على ما كسبوا من قبل، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ولو كانوا مجبورين على الزيف لكان زيغهم مترتباً على إزاغته لهم، فكان سبحانه وتعالى إذا أخبر بذلك قال: (فلما أزاغ الله قلوبهم زاغوا) بدلاً من أن يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ لكن الزيف منهم باختيارهم كان سبباً لعقوبتهم بالإزاغة، التي هي التسييب لزيف أقبح من الزيف الأول، بإهمالهم وخذلانهم، مع استعدادهم لذلك بعصيانهم الماضي.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِّنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ سؤال إنكار على من يجادل عنهم ويعتبرهم مسلمين، كأنه يريد أن يحكم لهم بالهدى، وقد حكم الله بضلالهم فهذا هو الذي ينكر عليهم، فأما محاولة هداية الكفار والمنافقين بالترغيب في الدين والتألف للكفار، فلا يعاب على من فعله، وقد أرسل الله رسوله إلى الناس جميعاً يدعوهم إلى الإيمان والهدى.

قال الشرفي في (المصاييح): فالآية دالة على تحريم الحكم بالهدى لمن ضل ذكره إمامنا المنصور بالله عليه السلام، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ لأنه قد عدل عن سبيل الله ولا يوجد سبيل غيرها يؤدي إلى بلوغ الخير والسلامة في الآخرة، وقد شبهوا بمن ضل في متاهة ولن توجد لهم طريق أبداً فهم هالكون لا محالة.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِّنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أنه إنكار على من يرى تألفهم إلى الدين والرفق بهم فشبه بمن يريد أن يهدي من يعلم أن الله قد أضله بحيث لا يرجع إلى الهدى أبداً، فالكلام تسجيل عليهم بالضلال الدائم لا إنكار على من يحاول هدايتهم، لأنه سؤال لتشبيههم بمن يريد ذلك وهذا أنسب لآخر الآية.

يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨١﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ

﴿٨١﴾ وَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴿٨٢﴾ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَجَعُوا إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ قَدْ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ وَ﴿٨٣﴾ وَدُّوْا أَحِبُّوْا وَرَغِبُوا ﴿٨٤﴾ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴿٨٥﴾ فِي الْكُفْرِ لَرَغَبْتُمْ فِي الْكُفْرِ، وَأَنْ لَا يَبْقَى فِيهِ مَخَالِفٌ، أَوْ لِيَأْمَنُوا جَانِبَكُمْ وَهَذَا أَظْهَرَ.

﴿٨٦﴾ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٨٧﴾ أَي حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَيُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُونَهُ لَا يَكْفِي إِسْلَامُهُمْ فِي دَارِ الْكُفْرِ لَوْ جُوبِ الهِجْرَةُ عَلَيْهِمْ، فَمَوَالَاتُهُمْ حَرَامٌ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: هِيَ الْهِجْرَةُ لِنَصْرِ دِينِ اللَّهِ، وَلِطَاعَةِ اللَّهِ فِي الدِّينِ كُلِّهِ.

﴿٨٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿٩٠﴾ عَنِ الْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْإِيمَانِ مِنْ جَدِيدٍ ﴿٩١﴾ فَخُذُوهُمْ ﴿٩٢﴾ خُذُوا مِنْهُمْ مَنْ شِئْتُمْ وَاقْتُلُوا مَنْ شِئْتُمْ، وَهَذَا تَخْيِيرٌ بَيْنَ الْأَخْذِ وَالْقَتْلِ عَلَى التَّوْزِيعِ، مِثْلُ: ﴿فَانْكَبُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النِّسَاءُ: ٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ لَتَخْوِيفِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفِي غَيْرِهَا، وَقِيلَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَوْ فِي الْحَرَمِ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥] وَأَنَّ الْحَرَمَ مَخْصُوصٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البَقَرَةُ: ١٩١].

﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ﴿٩٤﴾ لَوْ جُوبِ مَعَادَاتُهُمْ وَلَوْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ بَاقُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا ﴿٩٥﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ نَصِيرًا ﴿٩٦﴾ فِي قِتَالِ غَيْرِهِمْ يَنْصُرُكُمْ لِأَنَّ حُكْمَهُمْ حُكْمُ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتْلُوكُمْ ۚ فَإِنْ آعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَتِّلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿١٣٨﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ ﴿يَصِلُونَ﴾ عند قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ عهد على ترك القتال، فإذا وصلوا عندهم مقبلين إليهم فاتركوهم، قيل: إذا وصلوا إليهم لاجئين إليهم، ولعل اشتراط اللجوء مفهوم من حيث أن الذين بينهم وبينهم ميثاق لا يقبلونهم إلا إذا كانوا لاجئين؛ لأنهم ليس لهم أن يؤوا محارباً لله ورسوله، فلا بد أن يكون لاجئاً أو يخرج من بينهم ولا يبقى حكمه حكمهم.

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوا قَوْمَهُمْ﴾ فهم مثل الذين يصلون إلى من بينكم وبينهم ميثاق؛ لأنهم جاؤوكم طالين للسلم لا يريدون قتالكم ولا قتال قومهم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ضاقت وانقبضت واحتبست؛ لكرهتهم قتالكم وكرهتهم قتال قومهم، فهم داخلون في الاستثناء من قوله تعالى: ﴿فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتْلُوكُمْ﴾ فلا تخالفوا نهي الله عن قتالهم وكفوا عنهم كما أمركم الله، واشكروا نعمة الله عليكم بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى حصرت صدورهم أن يقتلواكم، فلو شاء قوى قلوبهم ومكنهم من قتالكم وأذهب عنهم الرعب، ولو كان ذلك لقاتلوكم لأنه لم يمنعهم من قتالكم إلا نصر الله لكم بإلقاء الرعب في قلوبهم.

﴿فَإِنْ آعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَتِّلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ هذا زيادة توضيح وتفسير للاستثناء في قوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾

سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوْا إِلَى  
الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزِّلُوكُمُ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ  
فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ  
سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ

المعطوف على المستثنى، وبيان أن المراد بقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ هو مجيئهم  
لطلب السلم لا بقاؤهم عند المسلمين فليس شرطاً ولا هو المراد، بل متى  
طلبوا السلم وانصرفوا عنكم معتزلين لكم في مكان من الأرض لا يقاتلونكم  
وطلبوا المضي في السلم والبقاء عليه وأبلغوكم أنهم متمسكون بالسلم أو أنهم  
مسالمون لكم، فلا يجوز قتالهم، ولعل هذا كان قبل نزول (براءة).

هذا ويحتمل: أن قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ عطف على قوله تعالى:  
﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فالمعنى: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم  
ميثاق، أو قوم جاء وكم حصرت صدورهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ﴾ فالراجح ما قلته أولاً: أنه تفسير  
للاستثناء، فهو راجع إلى المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾  
والمعنى: إلا الذين يصلون إلى معاهدين أو مسالمين.

﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي الواصلون إلى معاهدين أو مسالمين ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ  
وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فلا تقتلوههم ولا  
تأخذوهم وأصل السبيل الطريق، والمعنى: ما جعل الله لكم سبيلاً إلى قتلهم  
أي ليس لكم حجة من الله ولا أذن بقتالهم أو أسرهم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوْا إِلَى  
الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزِّلُوكُمُ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ  
فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

﴿سَتَجِدُونَ﴾ قوماً ﴿ءَاخَرِينَ﴾ غير المذكورين في الآية السابقة يخادعونكم، فيظهرون لكم: أنهم يريدون الإسلام، أو أنهم مسلمون أو يطلبون منكم أماناً إذا جاءوكم لسبب من الأسباب ﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ ثم يرجعون إلى قومهم، فيظهرون لهم أنهم لا يتحولون عن دين المشركين ويدفعون توهم قومهم أنهم أسلموا أو أنهم يريدون الإسلام ليأمنوا قومهم.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ إلى اختبار قومهم لهم أنهم باقون على الشرك كأن يأمرهم بالسجود للصنم أو التقريب له أو يأمرهم بمعاونة الكفار على المسلمين ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ في الفتنة وفعلوا ما طَلَب منهم قومهم فسجدوا للصنم مثلاً فلا هم مسلمون ولا قرييون من الإسلام.

وقوله: ﴿أُرْكِسُوا﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ فهي من التشابه، والركس: الرجس، وهو نجس الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وفي حديث ابن مسعود: «أن رسول الله ﷺ أخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال إنها ركس».

وفي (الصحيح): «والركس - بالكسر - الرجس» والأقرب: أنهم إذا جاءوا المسلمين، أظهروا لهم أنهم يريدون السلم وإذا رجعوا إلى قومهم فهم منهم، وكلما اختبرهم قومهم إذا شكوا فيهم بسبب ذهابهم إلى المسلمين فعلوا ما اختبروهم به، فهم كفار غير مظهرين للإسلام.

ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ فلو كانوا مسلمين ما أمروا باعتزال المسلمين، وليس في الآية أنهم يسلمون ثم يرتدون، بل ظاهرها: أنهم يريدون أن يجتمع لهم أمن المسلمين

مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا  
فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ  
كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ  
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَتْ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا

وَأَمِنْ قَوْمِهِمْ، وذلك لا يكون بالإسلام تارة والردة تارة؛ لأنهم إذا أسلموا  
خافوا قَوْمَهُمْ، وإذا ارتدوا خافوا المسلمين.

فالأقرب: أنهم يتوسلون بغير الإسلام إلى أمن المسلمين ليأمنوا المسلمين مع  
أمنهم قَوْمَهُمْ ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِرْ لَكُمْ﴾ فلا يدخلوا بلدكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾  
بإبلاغكم أنهم مسالمون لكم ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ تصديقاً لإلقاتهم السلم حتى  
يذهب الخداع ويكونوا على أمر واضح، لا بد من اجتماع هذه الثلاث  
الخصال، وإلا ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ الأخذ: الإمساك والأسر ﴿حَيْثُ  
تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث ظفرت بهم ﴿وَأُولَئِكَمُ﴾ الأعداء المخادعون ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ  
عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة وتسلطاً بيناً لقتلهم وأسرههم، وهو تسلط  
بحكم الله عليهم بذلك، وينصر المسلمين عليهم نصراً عزيزاً.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ ما صح له ولا استقام  
ولا لاق بحاله، أي أن إيمانه يحجزه عن قتل المؤمن إلا خطأ؛ لأن الإيمان بالله  
واليوم الآخر يأمر بتقوى الله واجتناب سخطه خوفاً من عذابه، ولذلك قال  
تعالى في أهل الكتاب المدعين للإيمان بما أنزل عليهم: ﴿قُلْ يَسْمَا يَلْمُرُكُمْ بِهِ  
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] وهذا تهكم بهم وتسجيل عليهم بكذبهم في  
دعوى الإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما قتلوا أنبياء الله، فهو كقوله تعالى:  
﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١].



وقد تكرر في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ﴾ قال تعالى حاكياً عن الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ يَسْئُلَانِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فليس المراد أن ذلك لا يجوز لنا، وإنما المراد أنه لا يليق بجلالنا؛ لأننا لا نقدر عليه إلا بإذن الله الذي يظهر الآيات على أيدينا، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ يَدَايَ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥].

وقول يوسف عليه السلام: ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] أي لا يليق بجلالنا لمعرفةنا بالله ووحدانيته وخوفنا منه وعلمنا بقبح الشرك إلى غير ذلك من موانع الشرك؛ ولهذا فلا استثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ متصل ولا حاجة لجعله منقطعاً.

والخطأ: ما ليس بعمد، كأن يرمي طيراً فيصيب مؤمناً وهو لا يريد أن يصيبه، أو يضرب رجلاً بعصى وهو لا يريد قتله ولا يظن ذلك، ومن الخطأ وكز موسى عليه السلام للقبطي لأنه لم يرد أن يقتله.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ تحرير رقبة: إعتاق رقبة، أي عبد، أو جارية مؤمنة، فلا يجزي الكافر، والمنافق المعلوم نفاقه، ولا الصبي الذي لم يبلغ حد التكليف والإيمان، والدية معروفة عند العرب مائة ناقة.

وفي الشرع: قال الإمام الهادي عليه السلام: «دية الرجل من الذهب في أصحاب الذهب ألف مثقال - ثم بين أصحاب الذهب من أهل البلدان - ثم قال - : والدية في أهل الدراهم عشرة آلاف درهم - ثم قال - : وفي أهل البوادي من العرب وغيرهم مائة من الإبل - ثم قلل - : وفي أهل البقر مائتا بقرة، وفي أصحاب الشاء ألفا شاة» انتهى باختصار.

﴿مُسْلَمَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ أي أهل المؤمن القاتل، وهم ورثته، والراجح أنها لهم جبر لمصيبتهم وتطيب لأنفسهم وصلاح لذات البين بين المؤمنين، فأما القاتل فعوضه في الآخرة، وقد سميت الدية ميراثاً، والأقرب: أنها لم تسم ميراثاً في الكتاب ولا في السنة، وإنما وقعت تسميتها ميراثاً في لفظ بعض الرواة فالتعبير منهم لاعتقادهم أنها ميراث، وإذا لم تكن ميراثاً فلا يقضى منها دين الميت إلا بإذن الورثة، فلهم أن يفعلوا ذلك، كما لهم أن يصدقوا بها على القاتل فيتنازلوا عن الدية أو بعضها.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يجزي لبراءة ذمة القاتل، ولا تلزمه الدية، وهذا يؤكد أنها ليست ميراثاً حقيقة؛ لأن الميراث إذا عدم الوارث لبيت مال المسلمين، والقوم العدو: هم الكفار.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَقٌ فَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ﴿قَوْمٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَقٌ﴾ عهد على ترك القتال أي صلح موثق بالعهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ لمكان العهد ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لأنه مؤمن كما يفيد السياق، وهو ظاهر كلام الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) وهذا يؤكد أن الدية ليست ميراثاً حقيقياً، وإنما هي جبر لأهل الميت، وقام العهد في استحقاق الجبر لأهل الميت هنا مقام اتحاد الملة.

وقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ثم ذكر حال المسلم المقتول خطأ إذا كان فيما بين أهل العهد وأهل الذمة، ولا شك أن هذا ترتيب حسن...» إلخ.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ رقة؛ لفقره، أو لعدم العبيد والإماء، كما في زماننا ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ يكفيه بدل التحرير للرقبة، ولا بد من تتابعهما

فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ على القاتل؛ لكونه غير متعمد، والتوبة هي الرجوع، فالتوبة من الله هنا الحكم على القاتل بالدية والكفارة، لما في ذلك من الرحمة والتطهير وصلاح الشأن.

﴿وَكَارَبَ اللَّهُ عَظِيمًا﴾ بكل شيء ومنه القتل وكونه خطأ ﴿حَكِيمًا﴾ في كل شيء، ومنه حكمه على القاتل خطأ، والعهد المذكور هنا - أعني الميثاق - ذكر الإمام الهادي عليه السلام أنه نسخ بآيات (براءة) التي أبطلت العهود، هذا معنى كلامه. ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ بأن يوقع به ما هو عالم أنه يقتل في العادة من جرح، أو سقي سم، أو إلقاء من شاهق، ولو لم يكن غرضه قتله بل غرضه البطش به وإيجاعه غير مبالٍ بقتله، وهذا قد يكون في حال الغضب - نعوذ بالله منه.

﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ عقوبته في الآخرة نار ﴿جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ باقياً لا يموت ﴿فِيهَا﴾ في نار جهنم ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فلا يفتر عنه العذاب، ولا تنفعه شفاعة، ولا تسمع له شكوى؛ لأن السياق يفيد أن ذكر الغضب للدلالة على غايته وما يؤدي إليه ﴿وَلَعَنَهُ﴾ طرده من رحمته، إما في الآخرة بإبعاده من الرحمة في جهنم تغلق عليه أبوابها، وإما في الدنيا بسلب التوفيق للتوبة، ثم في الآخرة.

﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ إعداد الشيء من المخلوق: تحصيله ليستعمل في المستقبل حين يجيء وقت استعماله، كإعداد القوة للعدو لتستعمل في المستقبل عند القتال، أما إعداد الله سبحانه فيحتمل أن يكون هو الحكم

اَلْسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللّٰهِ مَغَانِمٌ كَثِيْرَةٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلُ فَمَنْ اَللّٰهُ عَلَيَّكُمْ فَتَبَيَّنُوْا اِنَّ اِلٰهَكُمْ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا ﴿١٤٥﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ

بالشيء وتقديره؛ لأنه قادر على تحصيله في وقته فهو كالموجود، وهذا وإن كان مجازاً فهو قريب، ويحتمل: أن إعداد العذاب العظيم إيجاد جهنم كما روي عن النبي ﷺ، وحمل ذلك على المجاز يحتاج إلى قرينة.

فإن قيل: القرينة الدليل العقلي وهو أن الله قادر على إيجادها في وقتها ولا فائدة في تعجيل خلقها قبل وقتها لإعدادها؟

وقد يجاب: بأن نفي الفائدة يحتاج إلى دليل؛ لأن من الممكن أن في خلقها حكمة لا نعلمها، أعني في إعدادها كما يخلق للإنسان رجلين قبل وقت المشي ويدين قبل وقت البطش وغير ذلك، ويمكن أن يكون في ذلك آية لمن يشاهدها من الملائكة وتذكير عظيم يزداد به إيمانهم أو غير ذلك من الحكمة والله أعلم.

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اِذَا ضَرَرْتُمْ فِى سَبِيْلِ اللّٰهِ فَتَبَيَّنُوْا وَلَا تَقُوْلُوْا لِمَنْ اَلْقٰٓى اِلَيْكُمْ اَلْسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُوْنَ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾  
 ﴿اِذَا ضَرَرْتُمْ﴾ سافرتم في سبيل الله في الجهاد ﴿فَتَبَيَّنُوْا﴾ حذراً من قتل المؤمن ﴿وَلَا تَقُوْلُوْا لِمَنْ اَلْقٰٓى اِلَيْكُمْ اَلْسَّلَامَ﴾ أبلغكم السلم: ترك القتال، أي أبلغكم ما يوجب السلم، وهو كالنطق بالشهادتين، معلناً لكم للكف عن القتال لا تردوا عليه قوله بقولكم له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بقلبك إنما شهدت شهادة الحق لثلاثا نقتلك فتقتلوه بناءً على أنه كافر، والتبين: الكف عن قتاله حتى ينظر هل تم على إسلامه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، أو رجع إلى الكفر فيقتل متى رجع إلى الكفر.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تقتلوه قبل التبين لأجل أخذ ماله غنيمة، وهو يفيد: أن أخذه ميل إلى الحياة الدنيا، وترجيح لمطلبها، فإثاره بعد نزول هذه الآية لا يكون من مؤمن يأمره إيمانه بإيثار الآخرة على الدنيا لينجو من النار.

والآية تعم من ألقى السلم بذكر عهد بينه وبين الرسول مثلاً أو أمان قد سبق له، فعلى المجاهدين أن يكفوا عنه حتى يظهر ما يدل على صدقه، أو يتبين لهم كذبه فهي عامة، وإن كان قولهم: ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ إنما يكون فيمن نطق بالشهادتين للرد عليه.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الديات): ثم قال - عز وجل - تحذيراً للمؤمنين، وتأكيداً منه في التحفظ إذا ضربوا في الأرض من قتل المؤمنين .. فذكر الإمام الهادي عليه السلام هذه إلى قول الله تعالى: ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ ثم قال الإمام الهادي عليه السلام: «فيقال: إن هذه الآية نزلت في أسامة بن زيد حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أرض (غطفان) ولم يكن بالمؤمر على السرية، فبلغ غطفان خبره فهربوا وتحلف رجل من غطفان يقال له مرداس بن نهيك فلما رآهم خافهم فألجأ غنمه إلى كهف في الجبل ثم استقبلهم فسلم عليهم وشهد بشهادة الحق فحمل عليه أسامة فطعنه وأخذ ماله.

فنزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بخبره فلما قدموا على النبي ﷺ جعل صاحب السرية يثني على أسامة ورسول الله ﷺ معرض حتى إذا فرغ الرجل قال رسول الله ﷺ: «يا أسامة قال الرجل: (لا إله إلا الله) فقتلته؟ كيف لك بـ (لا إله إلا الله)؟!» قال: يا رسول الله إنما قالها تعوداً منا قالها بلسانه ولم يكن لها حقيقة في قلبه.

غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ  
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ  
الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٧﴾ دَرَجَتِ

فقال له النبي ﷺ: «أفلا شققت على قلبه فنظرت ما فيه؟!» فقال: إنما  
قلبه بضعة من جسده، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أمرت أن أقاتل الناس  
حتى يقولوا: (لا إله إلا الله) فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم  
وحسابهم على الله» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي تطلبون بذلك  
عرض الحياة وعرض الحياة المال ونحوه من أغراض الحياة الدنيا؛ ولكون  
ذلك سبب نزول هذه الآية جاء على طريقة التوبيخ لمن فعل ذلك فلا  
مفهوم لها، وكما يدل عليه بقية الآية فلا يقال مفهومها إذا كان الغرض دينياً  
فلا بأس أن يقال: لست مؤمناً.

﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن مال من قال: (لا إله إلا الله)  
﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ حين قلتم: (لا إله إلا  
الله) ولا يعلم الناس ما في قلوبكم ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول  
إسلامكم في تلك الحال ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ لأن حكم الله قبول الإسلام ممن أسلم  
ومعاملته على الظاهر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تخفى عليه سبحانه  
مخالفتكم لأمره إن خالفتكم، وسيجزىكم بما عملتم.



مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ  
الْمَلَائِكَةَ ظَالِمًا أُنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

﴿١١﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿١٢﴾ رَجَعَ الكلام إلى الحث على الجهاد،  
والقاعدون: هم الذين تركوا الجهاد، وسموا قاعدين باعتبار أنهم لم ينفروا  
بل بقوا في بلدهم وقعدوا عن الجهاد، والقاعد: هو الجالس ليس بقائم ولا  
مضطجع، فذكرت حالتهم الغالبة في وقت النفر وهي القعود؛ ولعله قد  
صار عبارة عن البقاء في البلد وترك النفر من غير نظر إلى حالة جلوس أو  
غيرها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ وهم: أهل المرض، والعمى، والعرج،  
يفهم منه أن من أقعده عن الجهاد الضرر، ولولا الضرر لجاهد، فإنه قد  
يكون بمنزلة المجاهد.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ تقديم لتفسيره بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ  
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى  
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا \* دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً  
وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿دَرَجَةً﴾ لأنهم اشتركوا في الإيمان،  
واختص المجاهدون بفضيلة الجهاد، وذلك في مثل (يوم بدر) حين كان  
المتخلفون لم يؤمروا بالنفر من المدينة، فأما المتخلفون العصاة المتمردون  
فليس لهم فضل، وليسوا من المؤمنين؛ لأن شأن المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل  
الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا  
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ دلالة على أن المؤمنين القاعدين لهم ثواب الإيمان، و﴿الْحُسْنَى﴾ صفة لموصوف محذوف، فإن كان التقدير: المثوبة الحسنى أو العاقبة الحسنى فهي ثواب الآخرة، وإن كان التقدير: العدة الحسنى فهي وعد الله للمؤمنين في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وقد قيل: إنها تدل على أن الجهاد فرض كفاية، وفي دلالتها نظراً؛ لأنه قد يسقط عن المؤمن لا لأن الجهاد فرض كفاية، بل لحالة عارضة كما في بدر، وكما إذا تخلف لأجل الوالدين العاجزين المضطرين إليه، وكمن لا يجد ما يحمله للسفر وينفق على نفسه ونحو ذلك.

والأولى أن الجهاد واجب على كل مؤمن، وإنما يسقط لأعذار في حال الأعذار، والدليل (آية الحجرات) المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] وغيرها فهذه أوامر عامة لكل مؤمن.

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعلمهم القاعدون لغير عذر فهم غير مؤمنين، ففضل الله المجاهدين بالجنة وما فيها من الأجر العظيم الذي هو ﴿دَرَجَاتٍ﴾ لأهلها من الله على قدر أعمالهم، وفضل المجاهدين على هؤلاء ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ بصرف العذاب عنهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام: ١٦] فلا يناله ضرر أبداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن آمن وجاهد ولمن أطاعه واتقاه وتاب إليه، فالترجيح هنا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [نصفت: ٤٠] وكثيراً يأتي التفضيل بدون مشاركة.

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا  
يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ

﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا  
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا  
﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ عاصين لله ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في مكان طاعة الله أم في  
مكان معصية؟ فإن كنتم في مكان طاعة، فكيف عصيتم ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ  
آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١]؟ فهناك مكان الطاعة، وإن كنتم في  
مكان معصية فكيف لم تهاجروا إلى مكان الطاعة لتتمكنوا من طاعة الله؟!

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ جواب غير مطابق للسؤال، كنا  
مغلوبين على أمرنا لا نستطيع طاعة ربنا ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ  
أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ لتتمكنوا من عبادة ربكم وتقواه، فليس  
الاستضعاف عذراً لكم مع تمكنكم من الهجرة ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لأنهم ماتوا وهم ظالموا أنفسهم بمعصية الله تعالى.

﴿١٨﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ  
حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا استثنى الله المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ  
حِيلَةً﴾ لطاعة الله ولا للهجرة ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ للخروج إلى حيث  
يتخلصون من قبضة المشركين ويطيعون ربهم.

﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ الصغار الذين بلغوا حد التكليف ولم يبلغوا حد المعرفة كيف  
يتخلصون بسبب غفلة الصغر، أو هم العبيد والإماء على الإطلاق، وخصوا  
بالذكر؛ لأنهم في الغالب يكونون في قبضة ملاكهم مغلوبين على أمرهم.

وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً ﴿١١﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٢﴾ وَإِذَا

﴿١١﴾ ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً ﴿١٢﴾ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المستضعفون حقيقة وصدقا ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «صرح الهادي، وابناه - أحمد الناصر، ومحمد المرتضى - في تفسيرهم لكتاب الله: بأن ﴿عَسَى﴾ من الله واجب، وأنه ليس على وجه الشك» انتهى.

وفي الآيتين دلالة على وجوب الهجرة على من لم يستطع أن يتم دينه إلا بها، فهي كقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً﴾ [العنكبوت: ٥٦] ويدخل في عمومها، من يضطر إلى معاونة الظلمة بالمال أو غيره على الظلم، ومن لا يستطيع تعلم دينه إلا بالهجرة، والمرأة التي يحملها زوجها على ترك الصلاة أو الصيام، أو يطأها وهي حائض ولا تستطيع الفرار منه، فلا يعذر إلا من لا يستطيع حيلة للتخلص ولا يهتدي سبيلاً، لا يدري من أين يذهب إلى حيث يتخلص.

فأما دليل وجوب الهجرة إلى الرسول ﷺ وإلى إمام الهدى بعده، فهو في أواخر (سورة الأنفال) غير مشروط بظلم المكلف نفسه إن لم يهاجر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ يفيد: أنه تعالى عفو غفور في الماضي مع الحال، فهو لم يزل عفواً غفوراً منذ خلق العباد وكلفهم.

﴿١١﴾ ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة في سبيل الله، والمراغم: ما يراغم به أعداء الله.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «يقال: أرغمت الرجل: إذا فعلت ما يكرهه ذلك الرجل، واشتقاقه من الرغام وهو التراب» انتهى.

وقال الراغب في (مفرداته): «ورغم أنف فلان رغماً وقع في التراب، وأرغمه غيره، ويعبر بذلك عن السخط، كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم أرضها ولم أطلب العتي ولكن أزيدها

فمقابلته بالإرضاء مما ينبّه دلالة على الإسقاط، وعلى هذا قيل: أرغم الله أنفه، وأرغمه أسخطه، وراغمة ساخطة، وتجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر» انتهى المراد.

فالمراغم: محل استطاعة على إرغام العدو، وعلى الكثير بأنواع من أسباب سخط العدو كالجهاد، وتكثير أهل الحق وتقويته بهم وتقويتهم به، والسعة من وسع، وهي سعة مجال الهجرة كقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ويحتمل سعة مكان الهجرة تيسر الرزق فيه، والسلامة من الظلم والاضطهاد الذي يعتبر تضيقاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِنُضِيقُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الطلاق: ٦] وقوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨].

وهذا ظاهر لأن السعة في الأرض لا ترغب إلا مع الرزق فسعة مجال الهجرة بتيسير رزق المهاجر، وإن قل فهو كثير مع رضوان الله، ولا بد أن يصبر المكلف ويتوكل على الله، وإلا ترك الهجرة أو رجع عنها، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَلِيَلِي فَاعْبُدُونِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ \* الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النكبت: ٥٦-٥٩].

﴿وَمَنْ تَخَرَّجَ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فقد امثل أمر الله بخروجه من بيته مرتحلاً عنه للهجرة

ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١١﴾ وَإِذَا كُنْتَ

إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الله الهجرة إلى دينه، والهجرة إلى رسوله الهجرة إلى محل هجرته للكون معه في دينه، فإذا خرج مرتحلاً بهذه النية الصالحة ثم أدركه الموت قبل بلوغه مهاجر الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. قال الراغب في (مفرداته): «الوقوع: ثبوت الشيء وسقوطه» انتهى.

قلت: قد يكون ثبوت الشيء حصوله، مثل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] وإثبات الأجر له دلالة على حصوله، فأول حصوله عند حضور الموت وتبشير الملائكة له بالجنة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لتضمنه معنى وَجَبَ وَحَقٌّ، وقد يكون ثبت بمعنى استحققه وصار له تشبيهاً له بما قد حصل؛ لأنه واقع لا يتخلف، وهذا أظهر وأنسب؛ لقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولذلك قَبِلَ تَوْبَتَهُ عند خروجه، وغفر له ورحمه في وقت قصير قبل أن يبلغ دار الهجرة ويتعلم الفروض ويعمل.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ قال الراغب في (مفرداته) «والضرب في الأرض: الذهاب فيها هو ضربها بالأرجل» انتهى.

وفي (الصحيح): «وضرب في الأرض ضرباً ومضرباً - بالفتح - أي سار في ابتغاء الرزق» انتهى. وفي (لسان العرب): «يقال: ضرب في الأرض إذا سار فيها مسافراً» انتهى، ومثله في (المصابيح).



فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَهُمْ  
فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا

ولفظ (الكشاف): «الضرب في الأرض هو السفر» انتهى المراد، وهو لفظ يشعر بالعناء والمشقة حيث ذكر هنا، وفي الترخيص في قراءة القرآن ﴿وَأَخْرَوْا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمل: ٢٠] وقصر الصلاة لأجل الخوف هو جعلها على الصفة المشروعة للخوف فقصر منها ما كان يفعله لولا الخوف.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وأن قول الله - عز وجل - ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ هو قصرها مع الإمام عما جعل الله من فرضها الذي هو ركعتان أي مع الإمام» ثم ذكر عليه السلام صفة صلاة الخوف إلى أن قال: «وكل أي من الطائفتين قد قسم صلاته قسمين وصلأها جزأين: جزءاً مع إمامه، وجزءاً وحده، فهذا معنى القصر - ثم قال -: لا أدري من كلامه أم حكاية عن جده القاسم عليه السلام وقصرها في هذه الآية إنما هو تنصيفها مع الإمام... إلخ.

قلت: لعله سمي قصراً من حيث هو منعها وكفها عن متابعة الإمام في الركعة التي ينفرد بها المؤمنون، ونظيره: ﴿قَلَصِرَاتُ الطَّرَفِ﴾ [الصافات: ٤٨] أي لا يمددنها إلى غير أزواجهن، بل يقصرنه على أزواجهن - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الأقرب أنه تعليل للتخصيص في قصر الصلاة المذكور، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾ أي بين العداوة تحتاجون إلى الحذر منه لكفره وإيمانكم.

فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۚ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٢﴾ فَإِذَا

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ إذا ضربوا في الأرض وخافوا أن يفتنهم الذين كفروا ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ بإقامة المؤذن وشروعك فيها بالتكبير ﴿فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ في الركعة الأولى ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ استعداداً للعدو إن هجم وهم مصلون ليدافعوه وهم مصلون ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ فُسِّرَ بالسجدين، واتفقت عليه الروايات في (صلاة الخوف) أي لا تكفي سجدة واحدة، فأما التفسير فقد فسرت بإتمامهم صلاتهم، تقول: سلم الإمام أي التسليمتين، فلا يستمروا مع الإمام في صلاتهم بل عليهم أن يصيروا من وراء المصلين محافظين عليهم مراقبين للعدو.

﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ ومفهومه: أن الطائفة الأولى قد صلت، فقيل: لأنها إذا سجدت قامت فأتت صلاتها بسرعة والإمام قائم منتظر للطائفة الثانية، وقيل: تكفيها ركعة واحدة وتذهب تجاه العدو، وقيل: تؤخر الثانية ثم تقضيها وتعين الحكم في الركعة الثانية للطائفة الأولى يرجع فيه إلى السنة، وقد اختلفت فيه الروايات.

وقد قيل: إن صلاة الخوف خاصة برسول الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ حكى هذا في (الكشاف) وهو قريب إلا أنها رويت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أنه قال في صلاة الخوف: «يقسم الإمام أصحابه طائفتين...» إلخ، فأثبتها للإمام، والطائفة: اسم لناس ولو قتلوا، والمراد: بعض الحاضرين معه.

وقوله: ﴿مَعَكُمْ﴾ أي يقوموا مصليين معك جماعة، وفيه دلالة على أهمية الجماعة، بل وجوبها عند إقامتها لهم بالأذان والإقامة والشروع فيها. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ﴾ وهذا بعد انصراف الطائفة الأولى الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي لحمايةكم من العدو، وقوله: ﴿لَمْ يُصَلُّوا﴾ يشعر بأن هناك غيرهم قد صلوا، فيؤكد أن الطائفة الأولى قد صلت.

وبذلك احتج الإمام القاسم عليه السلام على أن الطائفة الأولى تتم صلاتها قبل انصرافها إلى مواجهة العدو، كما رواه في صلاة النبي ﷺ (صلاة الخوف) ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ﴾ بقية صلاتك ويتموا لأنفسهم بعد تسليم الإمام كما في الأحاديث عن النبي ﷺ ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعل الحذر كالشيء الذي يؤخذ لدفع شر العدو كالدرع والدرقة، ولعله خص الطائفة الثانية بذكر الحذر؛ لأن العدو يزداد حرصهم على مهاجمة المصلين في الركعة الثانية من حيث هي عندهم فرصة كادت أن تفوت.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ في حال غفلتكم ﴿مَيْلَةً

قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا  
أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا  
مُّوَقُّوتًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَهْنُؤُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلِإِنَّهُمْ

وَاحِدَةً ﴿١٣﴾ وهي الهجوم، ولعله سمي ميلاً لكونه على غفلة، كأن العدو  
كانوا متجهين إلى أمورهم غير مقبلين عليكم فعدلوا إليكم، وتوحيد  
الميلة لاجتماع العدو عليها ووقوعها دفعة واحدة لشدة عداوتهم  
وحرصهم على الأسلحة والأمتعة. والمتاع: ما ينتفع به، وهذا تأكيد  
للحث على الحذر والتيقظ وأخذ الأسلحة، أو تعليل لقصر الصلاة  
على الصفة المذكورة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا  
أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ هذا ترخيص في  
وضع الأسلحة حالة المطر لمشقة حملها مع المطر، وكون حالة المطر ليست مظنة  
هجوم العدو، أما حالة المرض فلضعف المريض عن حمله، ومع هذا الترخيص  
أمروا بأخذ الحذر، وهو الانتباه والنظر إلى جهة العدو في الحين بعد الحين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ بيان لحال الكافرين  
أن الله مكنهم من محاربة المسلمين؛ لأنه أعد لهم عذاباً مهيناً، ولولا أنه  
يجزيهم بجرائمهم لما مكنهم، فلا عداد العذاب مكنهم؛ ولتمكينهم وجب أن  
تحذروهم؛ لأنه أعد لهم عذاباً جامعاً بين الألم والإهانة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أنهيتموها وفرغتم منها ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ  
قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ في أحوالكم لتكثروا من  
ذكره، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا  
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] والجُنب: هي الضلوع يضطجع عليها عند  
إرادة النوم وفي حالة التعب أو نحوه.

يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا

﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ ذهب الخوف ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اجعلوها قيمة كما أمرتم في حالة الأمن، ولا تجعلوها كصلاة الخوف ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ﴾ مكتوبة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ محدودة بفروضها وشروطها.

ومعنى ﴿مَوْقُوتًا﴾ محدوداً، وحدود الصلاة عدد ركعاتها وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها كما أمر الله، وأذكارها من التكبير والقراءة وغير ذلك، ومن حدودها: أن تكون جامعة لشروطها من الطهارة، واستقبال القبلة وغير ذلك، ولهذا لا يزداد فيها ولا ينقص منها، بل يؤتى بها على عدد ركعاتها وأركانها بلا زيادة ولا نقصان، وكذلك أذكارها.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿تَهِنُوا﴾ من الوهن ضد الصلابة و﴿ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ طلبهم، أي طلب أخذهم أو قتلهم، فالمعنى: اطلبوهم بصلابة وقسوة.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ﴾ في طلبهم بالسفر والقتال ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ فاصبروا ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ بقتالهم وطلبهم ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من قتالهم إياكم، فأنتم ترجون الجنة ورضوان الله وهم لا يرجون ذلك فاصبروا لتناولوا الجنة ورضوان الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في نفوسكم وما في نفوسهم، وبكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في أمركم بقتالهم وفي كل ما يقضي وما يخلق.

أَرْنَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَلَا تَجْدِلْ عَنِ الَّذِينَ سَحَتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا

قال الشريفي رحمه الله: «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية على أن خوف الآلام والأسقام في سفر الجهاد لا يرخص في تركه» انتهى.

قلت: لأن المعنى: ابتغوهم بصلافة وإن أليتم، لكن لعله الألم الذي لا يمنع من القتال كالحر والبرد والتعب والجراح وقتل بعض الأصحاب، فأما ألم المرض الذي يمنع من القتال فليس من توابع الجهاد العادية وقد رخص الله للمرضى، ويحتمل: أنه إذا لم يوقن بالمرض وجب الطلب حتى يمرض؛ لأن الحر والبرد ليسا عذراً مع أنهما مظنة التسبب لمرض، فظهر: أن الظن للمرض ليس عذراً.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿لَتَحْكُمَ﴾ به ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ لأن فيه الحق، وهذا في الدلالة على أن القرآن هو الحاكم بين الناس، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ﴿بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ من الحق، فهو يستند في الحكم إلى ما أراه الله في القرآن أو في غيره مما أوحاه إليه.

فالمعنى: لتحكم بين الناس بما أراك الله في القرآن بالقرآن، وتحكم بسائر الوحي فيما لم تجد في القرآن، وبهذا تختلف هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ لأن هذه في النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعلم ما أوحى إليه من غير القرآن ومن القرآن، أما من بعده فإنهم إذا لم يعلموا غير الكتاب واختلفوا في السنة لم يكن حاكم إلا الكتاب فيما اختلفوا فيه أمِن السنة أم لا، وفي القضية التي هي غير الخلاف ذلك وليس هذا الاختلاف من التدافع لما بينت.



تُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ قال الشريفي رحمه الله: «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: قال المرتضى عليه السلام: أراد الله - عز وجل - إكرام نبيئه وتعظيمه من بعد إقامة الحجة على أهل الشرك من أهل الكتاب أن لا يكون لهم خصيماً فيما قد بان لهم من الحق وعرفوه معه ﷺ من الصدق ووجدوه في كتبهم وثبت في عقولهم» انتهى المراد.

فحاصل المعنى: أن احكم بما أنزل الله ولا تجادل من أبى قبول الحق من أهل الكتاب الذين خانوا بكتمان ما عندهم من الحق كصفات النبي الأمي.

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿أَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أطلبه أن يغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ للمستغفرين ﴿رَحِيمًا﴾ لهم وغفوراً كثير الغفران، رحيماً يرحم عباده؛ فلكونه يرحم تطلب منه الرحمة بالاستغفار، وقد جاء عن أمير المؤمنين تفسير الاستغفار بستره معان، وهو في حق أهل الكبائر.

فأما رسول الله ﷺ فهو مطهر من الأرجاس، واستغفاره يكون من الخطأ والنسيان، وما يقع بتأويل كالأذن لمن يستأذن؛ لأنه إن استأذن عن الجهاد لعذر فهو معذور، وإن استأذن لغير عذر فهو كاره للجهاد غير مأمون أن ينهزم فيضر غيره من المجاهدين أو يفسد، فأنزل الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] فالاستغفار من الرسول ﷺ من مثل هذا.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَتُونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ كما نهى ﷺ عن محاصمتهم، نهى عن الجدل عنهم وعن

مُحِيطًا ﴿١٦٠﴾ هَاتَتْكُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٦١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا

كل من يخون الله ورسوله وجعل مختاراً لنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [مرد: ١٠١] فكأنه أخذ نفسه واسترقها بخيائته لله ورسوله؛ لأنه خسر نفسه بخيائته، فكأنه أتلّفها خيانة وأخذها كما يأخذ الخائن المال خيانة لمن ائتمنه عليه، وكلمة افتعل تستعمل في أخذ الشيء نحو اقتطف واقتبس واشترى وارتنى وأترز.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ من يعتاد هذه الجريمة ويعتاد الإثم؛ لأنه مصر على الإثم، ولعل فائدة التكرير الإشارة إلى أنه مصرٌ فيخرج من ذلك مَنْ صدرت منه وسارع إلى التوبة، أو إن ﴿الَّذِينَ سَخَّتْ أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه: أنه تكرر منهم بغير توبة في خلاله ووقع منهم مراراً عديدة، كما يشعر به الفعل المضارع الذي يستعمل فيما يتكرر من فاعله ويصير عادة له مستمرة، فهو في أناس مخصوصين مثل المنافقين، فأقام قوله: ﴿مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ مقام لا يحبهم؛ ليفيد: أنه لا يحبهم بسبب خيانتهم وإثمهم الذي صار عادة لهم، فهو ذم لهم، وبيان لكثرة خيانتهم وإثمهم، فأقامه مقام إن الله لا يحبهم لهذه الفائدة وليعم من كان مثلهم.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٦٢﴾ يَسْتَخْفُونَ﴾ للخيانة من المؤمنين فيبيتون التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول في مكان يستخفون فيه؛ ليخفى على المؤمنين ما يبيتون ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ بترك معصيته فلا يحاولون أن لا يراهم في معصيته ويسمع كلامهم المنكر؛ لأنهم غافلون عن الله آمنون لمكره لا يستحيون منه.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ في حال كلامهم الذي لا يرضاه وهم يُبَيِّنُونَهُ، أي يقولونه في البَيَّات؛ لإخفائه وهو معهم يسمع ويرى، أي لا يخفى عليه قولهم ولا يخفون عليه، وليس بينه وبينهم مسافة تُبَعِّدُهُمْ عَنْهُ، بل هو أقرب إليهم من حبل الوريد؛ لأنه معهم لا بمقارنة ولا ظرفية؛ لأن معيَّته ليست مثل معيَّة الأجسام أو الأعراض؛ لأنه لا يحتاج إلى مكان ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قد أحاط بأعمالهم فلا تضر المؤمنين؛ لأن الله يمنع ضررها.

﴿هَاتُتُمْ هَتُولَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجْدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿هَاتُتُمْ هَتُولَاءِ﴾ قال في (الكشاف): «ها، للتنبيه في (أنتم) و(أولاء) وهما مبتدأ وخبر و﴿جَدَلْتُمْ﴾ جملة مبنية لوقوع (أولاء) خبراً كما تقول لبعض الأسخياء: أنت حاتم تجود بمالك وتؤثر على نفسك» انتهى.

وجوز فيه وجهاً آخر، ولكن هذا عندي هو الظاهر، و(أنتم) خطاب لبعض الصحابة جادلوا بناءً على حسن الظن، ولعل ذلك كان قبل النهي، أو لجهلهم بأن جدالهم من المنهي؛ لجهلهم بأن من جادلوا عنهم خائنون، وقد نزل بعض المفسرين تفسير الآيات على سبب خاص وهو بعيد، والأولى أنها عامة وقعت دستوراً، وإن كان السبب خاصاً.

﴿جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي فيها يعمل الإنسان ما يشاء من حق وباطل، ويقول ما يشاء؛ لأن الله ترك عباده مخيرين لاختبارهم وتكليفهم حتى يطيع المطيع باختياره، ومن يعصى يعصى بعصبي باختياره، فإن نفع الجدل عنهم في الحياة الدنيا فهو متاع قليل ينتهي سريعاً ﴿فَمَنْ يُجْدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ توكل أمورهم إليه ليدافع عنهم.

أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ  
إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والوكيل: هو الذي فوض إليه تدبير  
الشيء والقيام عليه» انتهى، فالمعنى: أنهم يوم القيامة يردون إلى الله وما لهم  
من نصير ولا معين ولا شفيع.

﴿١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿١٢﴾ هذا إرشاد للعصاة الخونة والمجادلين عنهم إن كانوا أئمتوا ليتوبوا إلى  
الله؛ لأنه غفور للتائبين؛ رحيم يتوب عليهم برحمته، والاستغفار: طلب المغفرة،  
فمن طلب المغفرة وجد السبيل إليها، وليس المراد: أنه يغفر له مع الإصرار؛ لأن  
الاستغفار منه غير مقبول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]  
وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا﴾ [النساء: ١١٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا  
فَعَلُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] وليس في الآية وعدٌ بالمغفرة لمجرد الاستغفار؛ لأن  
المراد الطلب الجاد لا باللسان وحده، والطلب الجاد يكون الباعث عليه الرغبة في  
المغفرة والخوف من العقوبة، والطالب بهذا المعنى قد قيل له: إنه ﴿يَجِدِ اللَّهُ  
غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلا يقنط ولكن يطلب ذلك من طريقه، ونظير هذا لو قيل  
لمريض: إذا أردت الشفاء فاذهب إلى الطبيب فلان فإنه طيب، فالمراد أن الطبيب  
يستطيع أن يداوي مرضه لا أنه يُشفى بمجرد الذهاب إليه.

﴿١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا ﴿١٢﴾ ﴿إِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فهو المسئول عنه والمعاقب عليه،  
ولا يتعداه إلى غيره، فالمجادلون عن الخائنين إذا استغفروا الله ولم يكونوا  
تعمدوا المعصية، فليس عليهم شيء من إثم الخائنين؛ لأنهم لم يشاركوا فيه  
ولم يرضوا به ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالخائن والمجادل ومن يستحق العقوبة ومن  
لا يستحقها ﴿حَكِيمًا﴾ فهو يجازي من يستحق ولا يجازي من لا يستحق.

خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِي بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١٣٧﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا

فإن قيل: هذه الآية وأمثالها من القرآن تدل على أن الأمر بالمعصية والراضي بها لا يشاركان فيها؟

قلنا: أما الأمر فهو كاسب لها بالأمر، وكذلك الراضي الذي ترتب وقوعها على رضاه، قال تعالى في (ثمود): ﴿فَنَادَوْا صَالِحَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَكُضِبُوا نَادِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧] فجعلهم مشاركين في عقرها، ونسبها إليهم كلهم مع أن المباشر لعقر الناقة واحد من ثمود، فأما من رضي بالمنكر بعد وقوعه، فالدليل على إثمه ما روي فيه عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة) وتسميته مشاركا في المعصية مجاز استعاره.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِي بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ قيل في تفسيرها: الخطيئة المعصية التي لم يتعمدها فاعلها والتي تعمدها، والإثم ما تعمده صاحبه، وقيل: الخطيئة: ما تخص فاعلها كترك الصلاة والإثم ما يتعداه إلى غيره، وقيل: الخطيئة الصغيرة والإثم الكبيرة، وهذا فيه إشكال؛ لأنه إن أراد بالصغيرة الخطأ فقد جعل في آخر الآية الإثم المبين هذه المعصية فهو متناقض، وإن أراد بالصغيرة بعض العمد على القول بذلك، فليس اشتقاق الخطيئة من الخطأ الذي هو ضد العمد، فمن أين سمي الصغير بهذا المعنى خطيئة؟!؟

وقد قال تعالى في قوم نوح: ﴿بِمَا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ الآية [نوح: ٢٥] وفي خطيئاتهم الشرك وتكذيب رسولهم والدعوة إلى الشرك وهذه كبائر، والإشكال الوارد على هذا القول وارد على الأول؛ لأنه قال في تفسير

يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ<sup>ط</sup> وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ<sup>ع</sup> وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ<sup>ع</sup> وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانَنَا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ما معناه: أن البهتان الكذب والإثم فعله المعصية فهو مشكل مع جعل فعله المعصية يعم العمد والخطأ، والإشكال وقع بسبب تفسير الإثم المبين بالمعصية التي فعلها العاصي ورمى بها بريئاً، وهو بعيد لوجهين:

الأول: أنه أدى إلى الإشكال المذكور، الثاني: أنه قد فرض وقوعه في أول الآية فكيف يخبر به في آخرها خبراً مبنياً على فرض وقوعه، فالراجع: أن قوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانَنَا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ خاص برمي البريء، معناه: برمي البريء احتمل إثم البهتان الذي هو الكذب؛ لأنه إثم ولو لم يكن رميةً لغيره بما فعل، كما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَتُلْحِدُونَ بُهْتَانًا﴾ [النساء: ٢٠] واحتمل برمي البريء إثمًا مبيناً؛ لأنه ظلّمه برميّه وهو بريء.

وأعتقد - والله أعلم - أنه تعالى قال في أول الآية: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ لئلا يتوهم أن المراد في آخر الآية بالإثم المبين ذلك الفعل الذي هو متردد بين أن يكون خطيئة أو إثمًا، فالحمد لله الذي بيّن آياته وفصلها كما أنه بدأ بذكر فعله لها، لأن رمية لغيره بها مع كونه فاعلها دون الغير أشنع وأبلغ في القبح مما لو لم يكن هو الفاعل؛ ولذلك رتب عليه بقوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِي فَاتِيَ ب-ثُمَّ﴾ لأنه أمر بعيد من حيث أنه لا يتوقع من فاعل المعصية إلا محاولة الستر، فأما رمي غيره بها بعد أن فعلها فذلك غير متوقع منه، فكان هذا كقول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلا بن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها



عَظِيمًا ﴿١٦٦﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

﴿١٦٦﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴿١٦٧﴾ مِّنْهُمْ ﴿١٦٨﴾ مِنَ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَن يَسْتَمِيلُوهُ إِلَى الْبَاطِلِ فَهَمُّوا بِذَلِكَ، فَلَوْلَا ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ عَلَى النَّبِيِّ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ إِيَّاهُ لَضَلَّ، وَفَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ مِنْ جَمَلَتِهِ الْعَصْمَةِ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُمْ هَمُّوا بِذَلِكَ لِيُضِلُّوكَ ضَلَالٍ مِنْهُمْ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَصَمَكَ.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فَهَذَاكُمَا وَثَبَتْكَ عَلَى الْهُدَى ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بِهِمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ عِلْمًا نَافِعًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ بَيَانٌ لِّعِظَمِ النِّعْمَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْزَالِ الْكِتَابِ وَفِي حَالِ أَنْزَالِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَالرِّسَالَةِ، فَهُوَ فَضْلٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ الْكِرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالشَّرَفِ الْأَبَدِيِّ وَالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ وَالْمَقَامِ الْحَمِيدِ وَالدرَجَةِ الْوَسِيلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ويَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ أَنَّ جَوَابَ ﴿لَوْلَا﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَمَّتْ﴾ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنْ فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ مَنَعَهُمْ أَنْ يَهْمُّوا بِإِضْلَالِ النَّبِيِّ لِأَسْهَمٍ مِنْ إِمْكَانِ إِضْلَالِهِ وَعِلْمِهِمْ بِقُوَّةِ إِيمَانِهِ وَثَبَاتِهِ عَلَى دِينِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ رَاغِبُونَ فِي إِضْلَالِهِ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ بِرَغْبَتِهِمْ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٦﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ  
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ

﴿١٦٧﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ  
إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النجوى): الكلام الذي يكون بين متحادثين  
يكتُمونه عن غيرهم، فلا خير في كثير من النجوى؛ لأن الداعي إلى كتمانها  
في الغالب كونها في ذلك الظرف تناجياً بالباطل الذي يخاف أهله من أن  
يُطْلَع عليه، وقد يكون النجوى لأمر بصدقة أو معروف فهذا حسن، وقد  
تقتضي الحال إخفاءه لوجود من يعارض الأمر ويشط فيخفى ليسلم الأمر  
من المعارضة، أو لوجود من يطالب في الصدقة، فإذا علم بالأمر بها لغيره  
الحق في الطلب وأذى وغيره أحق، وقد يكون الإخفاء لغير ذلك من  
الأغراض الحسنة.

وكذلك الأمر بمعروف إن أريد بالمعروف الإحسان، وإن أريد به  
الواجب، والظاهر: العموم، فقد يكون إخفاؤه أقرب لطاعة الأمر إذا كان  
المأمور يأنف من الأمر بين الناس كالنصيحة وكذلك الإصلاح بين الناس،  
فقد يوجد من يعارض الصلح ولو علم به لأفسد واحتال عند أحد  
الخصمين حيلة لئلا يقبل الصلح، ولعل هذا يشير إلى الاستعانة على الأمور  
بالكتمان، كما روي في (سلسلة الإبريز بالسند العزيز) عن النبي ﷺ:  
«استعينوا على الحوائج بالكتمان» انتهى. وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ﴾ يعم  
المنكر والمباح الذي يضيع به الوقت في غير مصلحة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾  
﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي الأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس

مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ

﴿أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلباً لمرضاة الله وتوصلاً إليها، وفي هذا ترغيب عظيم؛ لأن مرضاة الله أهم ما يطلب ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فحصل له النجاة من غضب الله والفوز بثوابه العظيم، وقد قل من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، بل قد يصلح بين الناس بعض الكبراء لطلب حسن الصيت، أو لأخذ الأجرة من المتخاصمين، أو لجموع الغرضين ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعُلَاحِلَةَ وَيَدْعُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ عام في الكفار والمنافقين الذين يختانون أنفسهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم ﴿الْهُدَىٰ﴾ بالقرآن الحكيم الذي عجزهم أن يأتوا ﴿يَسُورَةً مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فلم يفعلوا، وقال: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣] فكان صدقاً مع شدة حرص أعداء الإسلام على إبطال الرسالة وتكذيب الرسول والقرآن، فقد تبين لهم الهدى بالمعجز العظيم الذي هو القرآن وغيره، ومع ذلك شاقوا الرسول.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين في إيمانهم الناصحين لله ورسوله الذين لا يتولون أعداء الله، ولا يتناجون بالإثم والعدوان، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١] فهذه سبيلهم، وهم الناس الذين إذا قيل للمنافقين:

﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] وسبيل المنافقين ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَمُرُّونَ بِالْمُنْتَكِرِ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَلِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَالِدُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ الآية [المائدة: ٥٢] وغيرها، فغير سبيل المؤمنين سبيل من في قلبه مرض، فليس له إيمان يدعوه إلى الخير ويأمره بتقوى الله، بل يثقل عليه ما يسهل على المؤمن، وقد يحتج بالآية على: أن الإجماع حجة؛ لأن مخالف الإجماع متبع لغير سبيل المؤمنين.

والسراجح: أن المراد بـ﴿سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ما يدعو إليه الإيمان من حيث دعوة الإيمان إليه وهي الخصال السابق ذكرها، ولكن لا يبعد دخول ما أجمع عليه المؤمنون ضمناً في حق من عِلِمَ الإجماع في المسائل الدينية؛ لأن إيمان أهل الإجماع بعثهم على الإجماع من حيث بعثهم على ما اتفقوا عليه طاعة لله ورسوله، فأما من لم يعلم الإجماع وهو ملتزم بصفات المؤمنين المذكورة في القرآن الفارقة بين المؤمن وغيره فهو متبع لسبيل المؤمنين، ولا يصدق عليه أنه متبع لغير سبيل المؤمنين؛ لأن سبيلهم في الحقيقة ما ذكرت وقد اتبعه، وهو المراد في الآية عندي - والله أعلم - لأن المراد بسبيل المؤمنين السبيل المعروفة التي دل عليها القرآن فهي المعهودة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] فإن معناه: العمل بما تدعو إليه الإنابة إلى الله والرجوع إليه وهي طاعته، وإيثار طاعته على طاعة من سواه، وإلا لزم أن كل منيب إلى الله يجب اتباعه في مذهبه.

﴿تَوَلَّى مَا تَوَلَّى﴾ نخذله ونجعله والياً لما تولاه أي ما اختار لنفسه من مشاققة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك ببسط النعمة وسلب التوفيق ﴿وَتُضْلَلُ جَهَنَّمَ﴾ نعذبه بصليها ومباشرتها لجسده ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ما أسوأها مصيراً يصير إليه نعوذ بالله، ولما كانت الآية الماضية في المنافقين وهم ينصرون المشركين ويتولونهم وفي المشركين عقبها بالتحذير من الشرك فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قد مر تفسير أكثرها، والمرجئة يتمسكون بها ليجعلوا الآيات البينات مجملة، وذلك باطل؛ لأن المجمع يفسر بالمبين، ولا يجوز جعل المبين مجملاً بالمجمع، وإجمال من يشاء الله له الغفران بحكمته ورحمته يؤدي إلى إجمال المغفور من حيث أنه عمل من يشاء الله أن يغفر له لا كل عمل ولو لم يعمل من يشاء أن يغفر له، فلذلك كان مجملاً في العمل؛ لأنه لا نعلم من هو العامل الذي يغفر له فلا نعلم عمله تبعاً للجهل به.

وقد ظن (صاحب حاشية الكشاف) أنها وردت في السورة مرتين لتأكيد الإرجاء، والتحقيق: أنها تكررت للتحذير من الشرك واستدعاء السياق لها في الموضعين كما بينت، وقد جاء في هذه السورة الوعيد الجازم موجهاً إلى المسلمين بدليل السياق، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

وقوله تعالى عقيب (آيات المواريث): ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ

دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٧٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ  
لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٧٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ.. ﴿١٧٩﴾ إِلَى  
قوله تعالى: ﴿..أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهي بيْنة في عصاة المسلمين؛  
لأنها لو كانت في الكفار لقال: أسلمت، أو آمنت كما قال فرعون، مع أن  
السياق قبل الآيتين في المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا  
أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا \* وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا  
وَكُنَّا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٨١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ  
خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ والسياق في المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ  
قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ..﴾ ﴿١٨٢﴾ إِلَى قوله تعالى: ﴿..فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَسَاءَتْ مَصِيرًا \* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ..﴾ ولا إشكال أنهما في الذين أسلموا ولم  
يهاجروا، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا  
يُجْزَى بِهِ وَلَا يَحِذُّ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وظاهر الخطاب في أولها  
للمسلمين، فهذه سبع آيات في (سورة النساء).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يفيد: تشبيه الضال عن الحق  
بالضال عن طريق السلامة في متاهة وقد ابتعد عن الطريق؛ ليفيد أن المشرك  
قد صار بينه وبين الحق مسافة بعيدة، والحق هو طريق السلامة.

﴿١٨٣﴾ ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا﴾ هذا في مشركي قريش ومن  
كان على طريقته؛ لأنهم يؤثنون أصنامهم، مثل: ﴿..اللَّاتِ وَالْعُزَّى \* وَمَنَاةَ



فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَتْعَمِ وَلَا مُرَبِّهَمْ فَلْيَغَيِّرُنْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١٩﴾ يَعِدُهُمْ

الثَّالِثَةُ الْآخَرَى ﴿النجم: ١٩-٢٠﴾ وكانهم يعتبرونها رمزاً للملائكة الذين يزعمون أنهم إناث، والآية الأولى في مشركي أهل الكتاب، والمخصّص هنا العقل المخرج للمشرّكين من أهل الكتاب والحصص الإضافي، أي ليست آلهة، وإنما هي إناث كقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿وَأِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا \* لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ ﴿وَأِنْ يَدْعُونَ﴾ أي وإن يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ لا الملائكة؛ لأنهم عبدوا الأصنام لا الملائكة، ونسبت عبادتهم إلى الشيطان لأنه سببها بالأمر والإغراء، فالحصص الإضافي، ولا ينافي أنهم يعبدون الأصنام، وسميت عبادتهم للشيطان دعاءً مشاكلة؛ لأنها دعاؤهم لأصنامهم، والمريد كما في (الصحيح): العاتي، قال: «والمروء على الشيء: المرون عليه».

وقال في (لسان العرب) بعد أن فسر المارد بـ(العاتي): «وتأويل المروء أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف - ثم قال - والمريد: الخبيث المتمرد الشرير، وشيطان مارد ومريد واحد».

قلت: يؤكد هذا الحديث في فضل شهر رمضان حيث يفهم منه أن مردة الشياطين شر من بقيتهم، نعوذ بالله منهم.

﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ هذه صفة ثانية للمريد والأولى ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته، فهي خبر لا إنشاء، والصفة الثانية تفيد: أنه إبليس نعوذ بالله منه.

﴿وَلَا ضِلَّهِنَّ وَلَا مُمِيتَهُنَّ﴾ الضميرين للنصيب المفروض الذي اقتطعه من بني آدم وغيرهم وفرضه لنفسه بتخليفة الله تعالى ﴿وَلَا مُمِيتَهُنَّ﴾ قال في

(لسان العرب) حاكياً: أبو العباس أحمد بن يحيى: التمني: حديث النفس بما يكون وبما لا يكون انتهى المراد.

والمقصود بحديث النفس: التأمل، فمعنى ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ أوقعهم في التمني لطول العمر مثلاً والمغفرة مع الإصرار، وتأمل التوبة في آخر العمر، والتمني هذا غير التمني الذي يعبر عنه بـ (ليت) لأنه مأیوس.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَبْتَكَنْ إِذَا نَبَأَ الْأَنْعَمِ﴾ قال الشرفي رحمه الله (المصابيح): «البتك: القطع، وسيف باتك: قاطع، والتبتك: التقطيع» انتهى. وفي تفسير الإمام زيد رحمه الله لـ (غريب القرآن): «معناه: يُقْطَعُنَّ» انتهى. وفي (مفردات الراغب الأصفهاني) مثل ما ذكره الشرفي، وزيادة: أن البتك يقال في قطع الأعضاء والشعر، وبتك الأذان ظلم للأنعام، سواء فعلوه تقريباً لأصنامهم أم لعباً وعبثاً.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ تغيير خلق الله تحويل صورة المخلوق عن صفتها الأصلية التي خلقت عليها، مثل: وشر الأسنان، وخصي الفحل من الناس، وجعل البصير أعمى أو أعور، والسميع أصم، والسوي أعرج ونحو ذلك، ونتف شعر اللحية حتى يصير صاحبها أمرداً، ونتف شعر العانة، والوشم بشق الجلد وجعل الكحل فيه، وتشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، بتغيير الصورة أو الصوت.

ويدخل في هذا تحويل الذكر أنثى أو الأنثى ذكراً كما قيل بوقوع أحدهما أو كليهما في بلاد الغرب، فأما مجرد حلق الشعر الذي لم يثبت جواز حلقه وأصوله باقية بلا تشبه بالنساء أو العكس ففيه نظر، وأما التشبه بلباس أو عادة فلا يترجح دخوله في تغيير خلق الله، وإن كان داخلاً في حديث: «لعن من تشبه من الرجال بالنساء أو تشبهت من النساء بالرجال» أعني يشمل الحديث.

وَيُؤْمِنُ بِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٧٥﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ مرتين تكبرٌ عليهم واستعلاء.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾  
 ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من يتبع الشيطان فتوته ولاية  
 الله ويتولاه الشيطان ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ خسراناً بيناً؛ لأن ولاية  
 الله أن يلطف بعبده، وينصره، ويدبر له الخير في دينه ودنياه؛ لأنه يتولى أموره  
 لإصلاح شأنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى  
 الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ  
 الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى  
 الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ \* كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن  
 تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

فتبين: أن ولاية الله هداية إلى السعادة الدائمة، وولاية الشيطان هداية إلى  
 عذاب السعير حيث الشقاوة العظيمة الدائمة، وهذا خسران بين لمن فاتته  
 ولاية الله واستبدل بها ولاية الشيطان.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهذه من ولاية  
 الشيطان لمن اتبعه ﴿يَعِدُهُمْ﴾ وعداً يغويهم به، كوعدهم بطول العمر  
 ﴿وَيُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ يوسوس لهم بالأمانى ليغويهم بها ويحريهم على المعاصي ﴿وَمَا  
 يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إلا بأن يغرهم ويخدعهم.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «إيهام النفع بما فيه الضرر.. إلخ، وقال  
 تعالى في يوم الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ إلى قوله

جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٠﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ

تعالى: ﴿وَأِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢] انتهى.

أرادوا الوعد بإظهار الدين، وقالوا في (وقعة بدر): ﴿غُرْهُؤَلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ المأوى: الذي يأوي إليه الحيوان من مسكن أو غيره مما فيه غرض له ﴿قُلْ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] ﴿أَوِي إِلَيْهِ أَخْلَهُ﴾ [يوسف: ٦٩] ﴿وَأَوْتَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ دَاتٍ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠] من التهكم بهم أو المشاكلة التقديرية؛ لأنها تكون لهم مستقراً ومقاماً كما يكون المأوى.

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي لا يجدون مكاناً يحيطون إليه، أي يعدلون من العذاب، قال الراغب في (المفردات): «أصله من حيصَ بَيصَ: أي شدة، وحاص عن الحق يحيص: أي حاد عنه إلى شدة ومكروه» انتهى.

فعلى هذا: لا يجدون معدلاً يلجأون إليه، ولا معدلاً مكروهاً مثل الموت يلجأون إليه، والراجع: أن المحيص ما يلجأ إليه من الشر ولو لم يكن ما يلجأ إليه شر، ففي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: معدّل» وفي (الصباح): «حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاً ومحاصاً وحيصاناً أي عدل وحاد، يُقال: ما عنه محيص، أي محيد ومهرب» انتهى المراد.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾

يَعْمَلُ سُوءًا تَجْزِيهِ وَلَا تَجِدَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٦﴾ وَمَنْ  
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ

قال في (الكشاف): ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران مؤكَّدان: الأول لنفسه،  
والثاني لغيره» انتهى.

قوله: «لنفسه» يعني: للوعد الذي هو قول الله تعالى: ﴿سَنَدْخِلُهُمْ  
جَنَّاتٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ مؤكَّد للوعد بأن الموعود به حق لا يتخلف،  
والقيل: القول، وفي قصيدة عنتر:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وصدق الله لا أصدق منه؛ لأنه غني عن الكذب، وعالم لا ينسى، وقدير  
لا يعجز، وكل عسير عليه يسير، وفي الآية دلالة على وصف الوعد  
بالصدق فلو تخلف كان كذباً، وذلك من حيث أن وعده خبر عن الواقع  
الذي سيكون وهو عالم بالمخبر به، أما المخلوق فوعده مبني على عزمه ونيته  
وهو لا يعلم يبقى ذلك العزم أم يتحول، فكأنه إذا وعد إنما يخبر عن عزمه،  
وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢] كهذه الآية.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا تَجْزِيهِ﴾  
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ أي ليس يكون  
لكم بأمانيتكم، أي ما وعد الله به في الآية التي قبل هذه، ونظير هذا التركيب  
الحديث: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه  
العمل» أي لا ينال العبد أن يكون مؤمناً «بالتمني» أي بأن يمني نفسه أنه  
مؤمن «ولا بالتحلي» أي بإظهار بعض أوصاف المؤمن كالخشوع، والأمانى:  
ما يمني نفسه أو يمينه الشيطان أو غيره، أي يرجوه ويؤمله جمع أمنية، وروى  
أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) للإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية:

متى ترى للعدل نوراً وقد أسلمني ظلم إلى ظلم  
أمنية طال غرامي بها كأنني فيها أخو حلم  
انتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ دلالة على أنه لا يوثق بالظن، وأن من عمل ﴿سُوءًا﴾ جزي به، والسوء والسيئة سواء ﴿عُجْزَ بِهِ﴾ وفيها دلالة على أن الشفاعة لا تكون لترك الجزاء، وإنما تكون لأهل الجنة في زيادة الخير ﴿وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ فيها ردُّ على من يتوهم أنه سيكون له ولي يدفع عنه العذاب.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي دافع بينه وبين الله وهو تمثيل بما يكون ممن أراد أن يدفع عمن يضر به غيره فيتوسط بين الضارب والمضروب ليكف عنه، والولي: الذي يتولى رعاية الإنسان وإصلاح شأنه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصره عند سوقه إلى جهنم فيخلص من العذاب ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ للمسلمين المصدقين بما وعد الله به في الآية التي قبل هذه، فالآية في عمومها لعصاة المسلمين واضحة الدلالة فأما المؤمن الصادق الإيمان فجزاؤه على الصغائر إن لم يكن منه سبب لتكفيرها ما يناله من المصائب، وأما خروج التائب من عمومها فأغنى عن ذكره كونه معلوماً من الدين؛ لأن رسول الله ﷺ أرسله الله إلى الناس ليتوبوا من الشرك وغيره ليغفر لهم، مع أن هذا غير مقصود في الآية؛ لأنه لا يقال في الخطأ والنسيان ونحوهما: ﴿وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولأن الجزاء مع الإيمان لا ينافي تمنى الجنة فلا يناسب التفسير به أول الآية؛



الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٧٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٧٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي

والأن الأقرب أنها تكفر باجتناب الكبائر لدخولها في العموم، فالأقرب: أن الصغائر وإن كانت سبباً فلا يدل ذلك على أن المسبب عقوبة.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ محمول على التسبب للبلوى ليعوض أجرها الذي ينال بالصبر عليها، وعوضها ما نقص بسبب الصغيرة أي ما فات - والله أعلم، والروايات في هذا لعلها مما وضع للملوك لتسهيل المعاصي فلا يعدل عن القرآن لأجلها.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ﴾ فلا فرق في حكم الله، ولا تضر الأنثى أمانى أعدائها المتكبرين ﴿أَهْوَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٩] فالأمانى قد تكون للإنسان وقد تكون عليه، ووعد الله لا يتبع الأمانى بل هو ما فصل به في كتابه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في الثواب على العمل، فلا ينفع العمل بلا إيمان ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ من أجل عملهم وإيمانهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم مقدار نقير، قال الراغب في (المفردات): «والنقير: وقبة في ظهر النواة يضرب به المثل في الشيء الطفيف، وقال: الوقب كالنقرة في الشيء» اهـ وكذا في (الصحاح): «النقير: النقرة التي في ظهر النواة» انتهى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾! سؤال في معنى النفي وجعل سؤالاً

﴿١٧٩﴾ أَلَسَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝  
وَدَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۚ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي

لوضع معناه في الفطرة؛ لأن الله هو الخالق الرازق فهو المالك المستحق للعبادة، وإسلام الوجه لله أن تجعله لله خالصاً لا تتوجه به لعبادة غير الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] وغيرها.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مطيع لله، قال تعالى: ﴿هُنَالَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ \* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٣-٤] ولا يكون كذلك العاصي المصر ﴿وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فأخلص لله وآمن به، وهي ملة محمد ﷺ ﴿حَنِيفًا﴾ خاشعاً لله أو خاشعاً لله محباً له.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ الخِلة في الأصل: صداقة ومودة في الخليل لخليله، قال الراغب: «فإن الخلة من تخلل الود نفسه ومخالطته، كقول الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني      وبه سمي الخليل خليلاً

ولهذا يقال: تمازج روحانا» انتهى. وقد بين أن ذلك إنما يصح في المخلوق، فأما الخلة من الله سبحانه وتعالى فالمراد بها: غاية ذلك ولازمه.

قال الزمخشري في هذه الآية: «هي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، كنحو ما يجيء في الشعر: والحوادث جمة، فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته» انتهى.

قلت: وتسمية النحاة لها اعتراضية أو معترضة لا يمنع مجيئها في آخر الكلام؛ لأنها كثيراً تأتي معترضة بين الكلام، وذلك كاف في صحة التسمية؛ لأنها اصطلاح لهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ ﴿١٨٠﴾ فكلهم عباده ولا إله إلا هو، فالحق هو إسلام الوجوه له ولم يزل

الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ فكل شيء في قبضته، فمرجع العباد إليه وحده لا شريك له في ملكه.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿فَقَدْ أَتَى سَبْحَانَهُ بِحُكْمِ النِّسَاءِ فِي الْمِيرَاثِ وَالزَّوْجِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ وَفِي (سُورَةِ الْبَقَرَةِ) وَ (سُورَةِ الطَّلَاقِ) وَغَيْرِهَا.

﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ويفتيكم ما يتلى عليكم من الفتوى ﴿فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من الحقوق كالمهر والنفقة إذا تزوجتموهن وكالميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لعدم الرغبة فيهن، فتقدم فيهن من الفتوى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أي فاتركوا نكاح اليتامى للرغبة في ما هن، وانكحوا غيرهن من النساء ما طاب لكم منهن.

ونزل من الفتوى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ ونزل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ الآية، فهذه الآية تأمر بالرجوع إلى ما سبق لأنها إحالة للمستفتي على ما مر، وتبين أن المراد في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ هو حكم اليتامى المذكورات هنا.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي وفي المستضعفين من الولدان: أي ما يتلى عليكم فيهم، أو يفتيكم فيهم ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٨١﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط أو ما يتلى عليكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالطُّيْبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى..﴾ وغيرها.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فهو يجزيكم به لا يفوت منه شيء، وهو عام في كل خير، ويدخل فيه فعل الخير للنساء اليتامى أو عموماً، والمستضعفين من الولدان واليتامى عموماً.

﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ﴿بَعْلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُورًا﴾ نُبُوًّا عنها وترفعاً، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والمراد: أنها خافت لما لاح لها من أمارات النشوز، وهو أن يمنعها ما يتوجه عليه من نفقة وحسن عشرة، والإعراض أن يقل محادثتها لطعن سن أو ملال أو طموح في أخرى أو غير ذلك» انتهى المراد، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا﴾ فلا إثم عليه ولا عليها.

وقوله تعالى: ﴿صُلْحًا﴾ بالتنكير، أي: أي صلح يرتضيانه ويتفقان عليه، والمراد: ما لا يحل حراماً أو يحرم حلالاً كما جاء في الحديث؛ لأن إباحة الصلح ليس إلا لترك بعض الحقوق الزوجية، وتحريم الحلال أو تحليل الحرام أمر خارج عن ذلك، فليس داخلاً في الآية ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ترغيب في الصلح بين الزوجين وغيرها.

النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ<sup>ط</sup> فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ<sup>ط</sup> وَإِنْ تَصْلَحُوهَا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٦﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ إشارة إلى الصلح بنقص النفقة أو تركها، فقد يكون الزوج ثقلت عليه النفقة وأشرف على النشوز من أجل شحه بالمال، فلا بأس بالصلح بالنقص أو الترك إذا كانت الزوجة تجد نفقة من مالها أو مال أبيها مثلاً، وذلك لاستبقاء الزواج بينهما.

﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ترغيب في الإحسان بعد الصلح، وأن لا يتكل الزوج عليه، وكذلك في الإحسان بأن لا يوجهها إلى الصلح وغير ذلك من الإحسان، وترغيب في التقوى؛ لأن الله يجزي بما عمل العبد من طاعة وإحسان جزاء موفوراً؛ لأنه بذلك خير لا يخفى عليه قليل ولا كثير، وكذلك ما عمل العبد من سوء فالله كان به ﴿خَبِيرًا﴾ يجزيه به الجزاء الأوفى.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ<sup>ط</sup> فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ قد قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِشَةً﴾ فمن تزوج اثنتين أو أكثر فإنه يقع في المشكلة، فالميل ثلاثة أقسام:

الأول: الميل اليسير بسبب غلبة الحب مثلاً مع التسوية في المبيت والإنفاق الواجب، ومع إخفاء الميل بقدر المستطاع؛ لئلا يضر التي مال عنها بالغيظ والغم، فهذا لا يبعد جوازه، وقد روى في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في قول الله - عز وجل -: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ قال: «هذا في الحب والجماع، وأما النفقة والكسوة والبيتة فلا بد من العدل في ذلك».



كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٨٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا

القسم الثاني من الميل: التقصير في التسوية في المبيت والواجب من النفقة، فهذا لا يجوز، ولكن تجوز المصالحة عند خشيته، كما في الآية التي قبل هذه، فإن أبى أحدهما الصلح فلا بد من العدل أو الطلاق.

القسم الثالث: ما نهى عنه في هذه الآية ﴿فَلَا تَعْمِلُوا كُلَّ الْآمِلِ﴾ فهذا لا يجوز ولا بالصلح؛ لأن الله نهى عنه، وإن أباح الصلح وخصه بالنهى دون ما دونه - والله أعلم.

﴿وَإِن تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَإِن تَصْلَحُوا﴾ بعد الفساد بتركها كالمعلقة وذلك بحسن العشرة أو المصالحة على بعض الحقوق ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بالتوبة من ما مضى والطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يغفر ما مضى؛ لأنه ﴿كَانَ﴾ وما زال ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ومعنى ﴿كَانَ﴾ إثبات الشيء فيما مضى لا نفيه في الحال، فهو يكون في بعض الأمور متفياً في الحال وفي بعض ثابتاً، ولم أقل: لم يزل؛ لأنه مفهوم كان ولكنه لأنه الواقع، أما ﴿غَفُورًا﴾ فمن حين خلق المكلفين وكثرت مغفرته لهم، وأما ﴿رَّحِيمًا﴾ فهو بمعنى مَنْ شأنه أن يرحم، فيكون صفة له في الأزل، فشأنه في الأزل أن يفعل ما يفعله الراحم، وهذا واضح لأنه في المخلوق صفة مشبهة ليس اسم فاعل.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بالطلاق أو غيره من أسباب التفرق ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ أي كلاً منهما عن صاحبه ﴿مِّنْ سَعَتِهِ﴾ قال في (الكشاف): «والسعة: الغنى والمقدرة، والواسع: الغني المقتدر» انتهى.



اللَّهُ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا  
حَمِيدًا ﴿١٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧﴾ إِنَّ

والأولى أن تفسير السعة بالغنى أو الاقتدار، إنما يصح لسعة الحال التي تقابل ضيق الحال، فأما السعة المضافة إلى الله فهي ما يفيدوه وصفة بأنه واسع. قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): «وإنما جاز وصف الله بذلك؛ لأنه واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم فلو ذكر الله تعالى أنه واسع كذا لاختص بذلك المذكور، لكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معين دل على أنه واسع في جميع الكمالات» انتهى، ونحوه في (مفردات الراغب الأصفهاني).

وقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾ دليل أنه جوز الطلاق بحكمته فالاعتراض على شرع الطلاق إنما هو جهل بالحكمة مع كونه كفراً، فقد يكون الطلاق فرجاً لأحد الزوجين أو لهما معاً، حتى كأنه خرج من السجن، مع أن الله قد رخص للزوج ثلثاً يضطر إلى الطلاق مع بقاء المصلحة في بقاء الزواج حيث رخص في تزوج ثنتين وثلاث وأربع، فلا يضطر الزوج إلى طلاق الأولى لرغبته في الثانية وهكذا.

وكذلك رخص في الصلح كما مر وفيه إبقاء للزواج، ومع شرعه تعالى للطلاق شرع الرجعة إذا لم يكن خلعاً ولا ثالثاً وكانت مدخولة، وقال تعالى: ﴿لَا تَنْزِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] فقد يندم الراغب في الطلاق فتكون الرجعة تيسيراً له وإبقاء للزواج، ثم إن الله أحكم الحاكمين قد حكم به فلا معنى لاعتراض الكفار.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ<sup>ع</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٢٢﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>ع</sup> وَكَانَ اللَّهُ

الْأَرْضِ ﴿١٢٣﴾ فيه دلالة على أن من فيهما عباده يحكم فيهم ما يريد، فالأحكام الماضية في السورة وغيرها كلها حق، ومن ذلك الصلح بين الزوجين والتفرق إن كان، فعلى العباد أن يطيعوه ليتقوا عذابه، ولقد وصى بتقواه الأولين والآخرين، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس، وهي نعمة ورحمة لمن قبلها.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ<sup>ع</sup> وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ نعمة الله وتحالفوا وصيته، أو وإن تكفروا بوصيته وتجددوا أنها منه ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإنما أنتم عبيد عصوا ربهم فاستحقوا العقاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وهنا زيادة الإطلاق، فهو ما زال غنياً عن كل شيء ﴿حَمِيدًا﴾ مستحقاً للحمد أهلاً لثن يُحمد ولو لم تحمدوه وكفرتم نعمته، وهذا يرجع تفسير الكفر هنا بكفر النعمة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ<sup>ع</sup> وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ فهو مدبر شؤون عباده بأرزاقهم وغيرها من أحوالهم، وبما شرع لهم من الأحكام، وبما أنزل من الكتب، وأوحاه إلى الرسل، وبما جعل من العقول والأسماع والأبصار، وتدبير أسباب سعادتهم في الآخرة، وسلامتهم من العذاب، وغير ذلك من تدبير شؤونهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه أمور عباده؛ لأنه القدير العليم الرحيم الكريم.

﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ<sup>ع</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يتوفاكم ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ليعبدوه ﴿وَكَانَ

سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٣٦﴾ \* يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ

اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿٣٨﴾ لم يزل قديراً على إذهابكم منذ خلقكم وعلى الإتيان بغيركم من قبل ذلك، وهذا تنبيه إلى معرفة رحمته ومغفرته كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨] وأكد أنه غني عن عباده، وأنه لا ينقصه إعدامهم وإنما تعليمهم وإرشادهم وما كلفهم به من الأحكام في هذه السورة وغيرها رحمة لهم ونعمة؛ لأنهم إذا أطاعوه صاروا إلى السعادة الدائمة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من الله أو من عباده كالعامل بالآخرة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فليطلبه من الله بالدعاء وإخلاص العبادة فهو خير له من ثواب الدنيا وحده ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لمن دعاه ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه عبادة من عبده فيجزيه خيراً، ويصلح له أمر دنياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب لمن آمن؛ لأن إيمانه حجة عليه، وإذا كان إيمانه باقياً فهو يدعوه إلى الطاعة ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ لم يقل: قوموا بالقسط، بل أمر بملازمة القيام بالقسط حتى يكون

الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ

المؤمن قوَّاماً بالقسط، يسمى بمثال المبالغة، وأمرهم بذلك أمراً يدل على الوجوب، وأكدّه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الأولاد والإخوة والأخوات، فيجب أن لا تأخذهم عاطفة تصدهم عن القيام بالقسط بالعدل والشهادة بالحق.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾  
 ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ، فاشهدوا عليه لا يمنعكم غنى الغني، ولا فقر الفقير ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ﴾ بالغني والفقير، فعليكم أن تطيعوا أمره فيهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ إما هوى في غني لأجل غناه، فكثير من الناس يداري الغني ويكره إغضابه أو فعل ما يكره، وكذلك الفقير قد تدعو الرحمة له إلى الرفق به، وأن لا يحمل ما يثقل عليه، وكلاهما من الهوى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ﴾ عَنْ ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ بكلمة الحق والقيام بالقسط، ويظهر أن هذا خطاب عام للشهود والحكام.

﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ لِيُ الشَّهَادَةُ: تحويلها عن وجهها ليبطل الحق أو بعضه، والإعراض: الإعراض عن القيام بالقسط، والإعراض عن الشهادة بالحق كتماناً لها.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً بما تعملون بظاهره وخبره الباطن، وهذا تخويف للمؤمنين بأنه يجزيهم إذا لَوُوا أو أَعْرَضُوا الجزاء الأوفى. قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دُلْتُ عَلَى تَحْرِيمِ الشَّهَادَةِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَعَلَى تَحْرِيمِ الإِعْرَاضِ عَنْ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ» انتهى.

وَمَلَكَيْتِهِمْ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

﴿٣٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَأَلِكُتَبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَأَلِكُتَبِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴿٣٧﴾ هذه الآية ابتداء في كلام يدعو إلى الإيمان ويحذر من الكفر والنفاق، وهي تدل على وجوب الإيمان بالله ورسله وكتبه، والأمر لمن قد آمن ليؤمن في المستقبل، ويثبت على الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَأَلِكُتَبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى﴾ محمد وهو القرآن، ﴿وَأَلِكُتَبِ الَّذِي أُنْزِلَ﴾ عام لكتب الله المنزلة على النبيين الذين قبل محمد ﷺ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل تنزيل الكتاب على محمد ﷺ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ومن يجمع بين أنواع الكفر المذكورة ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأن كل نوع من الكفر ضلال، فإذا جمع الأنواع فقد صار بعيداً في ضلاله في متاهة واسعة فبينه وبين العودة إلى الطريق مسافات ومراحل، ولعل هذا فيمن يكفر بالبعث والجزاء استبعاداً للقدرة عليه ويكفر بمحمد ﷺ ويكون القرآن من الله ويكفر بالملائكة على معناهم الحقيقي، ويزعم أن إبراهيم كان مشركاً، ولا يؤمن بالرسول ولا بالكتب، وهم من أهل الجاهلية من العرب الذين ليس لهم كتاب وأشباههم من العجم.

﴿٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هؤلاء قوم ممن آمن مع النبي ﷺ رجعوا إلى قريش وارتدوا عن الإسلام، ثم رجعوا ثم آمنوا ثانية، فرجعوا إلى الكفر فازدادوا فيه ومضوا عليه.

﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيْبَتُغُونَ عَنْهُمْ آلِ الْعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٢٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا

فأخبر الله أنهم حين ازدادوا كفراً ثم مضوا على ذلك، أن الله لا يغفر لهم ولا يهديهم سبيلاً، بل تركهم من التوفيق والتسديد والعون والتأييد، وحكم عليهم سبحانه عند ذلك بالهلكة والخذلان، بما استوجبوه من تركهم للحق والإيمان، فصاروا بذلك معذبين ولديه سبحانه من المهالكين، فأخبر سبحانه أن لم ينفعهم ما كان من إيمانهم أولاً وما كانوا عليه في إسلامهم؛ لأن ما ختموا به أعمالهم من الردة والكفر موجب لهم النار... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيه تأكيد بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ﴾ ودلالة على أنه لا يليق بعظمته وجلاله وعزته وحكمته أن يغفر لهم، ونظير هذا التعبير للتأكيد قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

﴿بَشَرٍ الْمُنْتَفِقِينَ﴾ بَأَنَّ هُمْ عَدَاؤًا أَلِيمًا ﴿بَشَرٍ﴾ تهكم بهم لأن البشري الحقيقية ما كان إعلماً بالخير، والمنافقين: قيل هم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام.

والراجح: ما قاله الناصر عليه السلام واحتج له في (البساط): أنهم الذين يتولون الكفار سرّاً ويظهرون الإسلام، سواء أضمرُوا الكفر أم كانوا مقرين في أنفسهم غير مؤمنين ولا جاحدين؛ لأن مفهوم النفاق اتخاذ الوجهين لإرضاء الفريقين، ولكن بعض المنافقين كفروا ولكن ذلك خارج عن مفهوم النفاق، ويظهر أن الله تعالى قد فسر عقيب هذا الوعيد بقوله تعالى:



﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أفاده قوله تعالى في آخر الآيات الآتية في زجر المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

وقوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿..أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ..﴾ الآية [آية: ١١] ففسر نفاقهم بهذا القول، ويدل على أن بعض المنافقين لم يكونوا كافرين وإن كانوا في حكمهم بسبب النفاق، يدل على ذلك قوله تعالى في بعض المنافقين: ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] انظر (البساط) للإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام وقد طبع والحمد لله.

﴿أَيَّتَغُورَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿أَيَّتَغُورَ﴾ سؤال تبيكيت للمنافقين، وبيان لغلطهم؛ لأن الباعث لبعضهم أو كلهم هو الخوف من غلبة الكفار للمؤمنين، والمنافقون لجهلهم وعدم الإيمان في قلوبهم ينظرون إلى كثرة الكفار وقوتهم من الناحية المادية، فهم أكثر سلاحاً وآلة حرب وأكثر أموالاً، فلا اعتقادهم الراجح أن الغلبة ستكون للكفار سارعوا إلى اتخاذهم أولياء خشية أن تصيبهم دائرة، ولكنهم مع ذلك يرون قوة المؤمنين بإيمانهم فلا يجزمون أنهم سيغلبون؛ لأنهم قد انتصروا في بدر مع قلتهم وقلة خيلهم وما لهم.

فلذلك اختار أعداء الله الذين في قلوبهم مرض اختاروا لأنفسهم إظهار الإسلام للمسلمين واتخاذ الكفار ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كما قال الله تعالى: ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] وأذا هم أفرق مع عدم الإيمان إلى اختيار النفاق، فرد الله عليهم بأن الغلبة ستكون للمؤمنين؛ لأن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ

سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكَفِّرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ

جَمِيعًا ﴿٤٨﴾ وهذا واضح لا ينفية المنافقون، فكيف لا يرجحون أن النصر يكون لأولياء الله الدعاة إلى عبادته وحده، ولعل ذلك لأنهم لا يوقنون بأنهم أولياء الله الدعاة إلى دينه لعدم الإيمان في قلوبهم، فنظروا إلى ظاهر الحال فاستحقوا التوبيخ لجهلهم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿٤٨﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكَفِّرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿٤٨﴾ هذا خطاب للمؤمنين أو لهم ولكل من قد أسلم ﴿٤٨﴾ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكَفِّرُ بِهَا ﴿٤٨﴾ أي إذا سمعتم ذكرها والكفر بها والاستهزاء بها وأصل الكلام: آيات الله يكفر بها ويستهزاء بها مبتدأ وخبر، فنسخه ﴿سَمِعْتُمْ﴾ مفعولين بهما لـ (سمعتم) على طريقة (ظن وأخواتها) في نسخ المبتدأ والخبر، وقد عد صاحب الأجرومية (سمعت) من أخوات (ظننت) وهو واضح هنا.

والمنزّل قوله تعالى في (سورة الأنعام): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾ الآية [آية: ٦٨] وفي مجموع الآيتين دلالة على: أن خطاب الرسول ﷺ في مثل هذا يكون حكمه عاماً له ولأمته إلا ما خصه دليل ﴿حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُكُمْ﴾ إذا إذا قعدتم معهم وأنتم تسمعونهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها مثلهم في الإثم، وهذا يكفي في الزجر عن ذلك.

نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٩٢﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأن المنافقين يسمعون الكفار يكفرون بآيات الله فاجتمعوا في الدنيا على الإثم وفي الآخرة في العقاب، وهذا يؤكد أن معنى ﴿مِثْلَهُمْ﴾ هو مثلهم في العقاب.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ لُكْمٌ فَتَحَّ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم الدوائر؛ لأنهم يتوقعون أن يغلبكم الكفار، وقوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾ يفهم منه أنهم خائفون منكم أو كارهون لكم ويصبرون على ذلك لتوقعهم ذهابكم، وهم المنافقون يجاملون المسلمين ويبقون معهم تربصاً بهم الدوائر ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ لُكْمٌ فَتَحَّ مِنَ اللَّهِ﴾ لم يرجعوا عن نفاقهم بل يستمرون فيه؛ فلذلك ﴿قَالُوا﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي أنا معكم، ما زلنا على دينكم فقد عرفتم ذلك منا من قبل اليوم وهذا لخوفهم من المؤمنين؛ لأنهم لم يتبعوا سبيل المؤمنين ويكونوا مثلهم في المحافظة على الجماعة والامتنال لأوامر الرسول ﷺ.

ومع ذلك قد نافقوا فهم يخافون أن يعتبرهم المؤمنون كافرين غير مقبول منهم دعوى الإسلام، وهذا حين رأوا قوة المسلمين ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿نَصِيبٌ﴾ بأن حصلت لهم فيكم وقعة مؤلة لكم؛ لأن الحرب سجال تتقلب فيه الحال لتقلب أحوال المسلمين كما كان (يوم أحد) وفي أول (وقعة حنين) ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ للكافرين تقرباً إليهم وتحبباً لديهم

لزيادة أملهم في أن الغلبة والقوة لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ نسيطر عليكم في الرأي ونغلبكم في التدبير ﴿وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أن تكونوا معهم، فاحتجوا بأمرين على صدقهم في أنهم مع الكفار:

**الأمر الأول:** الاستحواذ عليهم وغلبتهم في الرأي حتى حصلوا على النصيب بسبب رأي المنافقين وتدبيرهم، ويظهر: أن المنافقين كانوا زينوا للكفار حرب المسلمين ومتوهم أنهم يغلبون المسلمين، وغلبوهم بهذا الرأي حتى قاتلوا المسلمين، فادعى المنافقون أن هذا بسبب رأيهم لهم في القتال.

**الأمر الثاني:** منعهم لهم أن يكونوا مع المؤمنين أي تحذيرهم من الإسلام، فهو دليل ثان على صدق المنافقين في أنهم مع الكفار، وأنهم غير جادين في إظهار الإسلام، وهذا حين رأوا قوة الكفار وتقوى أملهم في أن العقوبة للكفار، هذا على فرض أن المنافقين حرضوا الكفار على حرب المسلمين، فإن لم يكونوا فعلوا فالمعنى نسيطر عليكم في المنع من الإسلام، فهي في المعنى قضية واحدة أرادوا سيطرنا عليكم بالرأي والتدبير لكثرة تحذيركم من الإسلام حتى منعناكم فالمنع نتيجة التحذير.

**والحاصل:** أنهم أرادوا التقرب إلى الكفار كما صنعوا مع المسلمين حين كانت القوة لهم؛ لأنهم قوم يفرقون ويخشون أن تصيبهم دائرة بأن يقتلهم الكفار إذا حاربوا المسلمين وغلبوهم في ظنهم وتوقعهم.

﴿فَاللَّهُ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَنُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿فَاللَّهُ تَحْكُمُ﴾ بين الفئات الثلاث: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين ﴿وَلَنُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يغلبونهم بها ويقهرونهم ويضيع الإسلام، بل قد أراد إظهاره على الدين كله.

قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢٢﴾ مُذَبَّذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ

فهذا رد على تربص المنافقين بالمؤمنين دائرة السوء، وبيان: أنهم يتوقعون ما لن يكون، ويحتمل: أن المراد في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لا يزال النصر لأوليائه الناصرين له، وفي الآخرة لا يكون لهم عند المحاكمة حجة على المؤمنين؛ لأن المؤمنين قاتلوهم بأمر الله وأذنه، والكفار قاتلوا المؤمنين ظلماً وعدواناً، فالحجة للمؤمنين، ولن يُجعل للكفار سبيل يجادلون بها وتكون لهم بها الحجة على المؤمنين، وهذا هو الراجع حملها على المعنيين.

وقد يشكل على المعنى الأول غلبة الكفار للمسلمين في هذا العصر؟!  
والجواب: أنهم لن يغلبوا المسلمين غلبة عامة للمسلمين وإن غلبوهم في قُطر فذلك لا يضيع به الإسلام، مع أن ذلك يكون السبب فيه من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فحزب الله هم الغالبون فما دام المؤمنون الصادقون في الإيمان حزباً وجنداً كما كانوا في عهد الرسول ﷺ فلن يغلبوا، أما إذا اختلفوا وتنازعوا وعصوا فاستحقوا الخذلان، فقد أنذرهم ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾  
يخادعون رسوله والمؤمنين ويحلفون على الكذب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] ولما كانوا مخادعين لرسول الله ﷺ الذي بلغ دين الله ودعا إلى الله كان خداعهم له مكرراً بدين الله فاعتبر خداعاً لله.

ويحتمل: أنهم استعملوا هذا الخداع وظنوا أنه ينفعهم في الدنيا وأن الله يتركهم لا يكشف أمرهم فاعتبروا مخادعين لله بهذا المعنى ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وهو غالبهم في الخداع؛ لأنه ينعم عليهم بالأموال والأولاد، كأنه لا يعاقبهم على نفاقهم ومع ذلك يمهلهم ويملي لهم، وهم لا محالة صائرون إلى الدرك الأسفل من النار فأشبهه هذا فعل المخادع الغالب، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أو هو على طريقة المشاكلة، والمعنى وهو غالبهم بأمره في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿قَامُوا كُسَالٍ﴾ لأنه لا دافع لهم إليها إلا الخوف من الناس؛ لأنهم لا يخافون العقاب من الله، ولا يرجون الثواب، ولا يحبون عبادة الله وذكره، ولا يرغبون في التقرب إليه ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ يريدون أن يراهم الناس عند قيامهم إلى الصلاة ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في الصلاة إلا قليلاً، أو ولا يذكرون الله لا في الصلاة ولا في غيرها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ﴿إِلَّا﴾ ذكراً ﴿قَلِيلًا﴾ فهم يذكرونه قليلاً؛ لأنهم مقرون بالله، فاجتمعت صفات المنافقين:

الأولى: ﴿يَتَخَدَّوْنَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الثانية: يتربصون بالمؤمنين الدوائر.

الثالثة: ﴿يُخَنِّدُونَ اللَّهَ﴾.

الرابعة: ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ﴾.

فأما قوله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ فيحتمل: أنها في الصلاة، فتكون صفات لصلاتهم: كسالي، يراءون، ولا يذكرون الله في الصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيكون مجموع الثلاث هذه صفة واحدة.



تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٢٦﴾ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ ؕ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٢٧﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

ويحتمل أن قوله: ﴿يُرَاءُونَ﴾ غير خاص بالصلاة فهو صفة للمنافقين مستقلة، وقوله: ولا يذكر الله كذلك، والمعنى متقارب؛ لأن المرائي بصلاته يرائي بغيرها، ومن لا يذكر الله في الصلاة إلا قليلاً، فغيرها بالأولى أن لا يذكر الله فيه.

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ قال في (الكشاف): «وحقيقة المذبذب: الذي يذب عن كلا الجانبين، أي يذاد ويدفع، فلا يقرّ في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمي به الرحوان، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب، كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه» انتهى.

فالمتفق على هذا مدفوع ليس له قبول عند المؤمنين ولا عند الكافرين؛ لأنه ذليل خائف لا يعتز به الكفار فيرغبوا فيه؛ لأنهم لا يصدقونه في دعواه أنه معهم، والمؤمنون يعرفونه بعلاماته، فليس له قبول باسم مؤمن.

﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا إلى المؤمنين ينضمون ويرجعون، ولا إلى الكفار؛ لأنهم غير مؤمنين بقلوبهم ولا كفار ينطقون بالكفر صراحة وهذا في أول أمرهم، وقد صرح بعضهم بالكفر عند تطوره في الباطل، قال تعالى فيهم: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَمَانًا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤].

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ومن يخذله ويسلبه التوفيق لكثرة معاصيه واستمراره على الإصرار أو لعناده بعدما تبين له الحق.

والإضلال في اللغة: التسبب للضلال ولو بالحق، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال تعالى في (سورة المدثر): ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [آية: ٣١] فالفاسق يضل بالحق لأنه يجعله سبباً لضلاله، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ تشبيه له بمن هو تائه في قفر بعيد من الطريق وليس حوله طريق يهتدي بها، وذلك لأن المنافق قد كره الحق وتزين له النفاق فلا تؤثر فيه موعظة مع قسوة قلبه وعدم الإيمان في قلبه ولا ينفع استدلال ولا احتجاج؛ لأن ذلك من كتاب الله أو كلام رسول الله عن الله وهو غير مؤمن بذلك فانسدت الطريق إلى هدايته؛ لأنه لا يفكر ولا يستعمل عقله بل لا يزال معرضاً إتباعاً لهواه في النفاق فهو بسبب إعراضه وانصرافه عن قبول الحق والإيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

فالإضلال هنا: التسبب للضلال بالسبب الحق الذي ليس سبباً يؤدي إلى الضلال لا محالة وإنما هو سبب في حق الفاسق لأنه يجعله سبباً للضلال باختياره فخذل وولاه الله ما تولى عقوبة له، وقد حقق هذا الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) وبين: أن الإضلال يكون عقوبة.

فأما الإضلال بمعنى خلق الضلال فليس معروفاً في لغة العرب؛ لأن المعروف الإضلال عن الطريق ولا يكون في العادة إلا بالتسبب ولا يفهمون الإضلال بمعنى خلق الضلال، وكذلك الإضلال بالتسبب لغير ذنب

فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

يستحق به وبسبب يؤدي إلى الضلال، حتى ولو وقع لمؤمن فهذا لا تجوز نسبته إلى الله تعالى؛ لأنه حكيم غني كريم رءوف رحيم لا يظلم العباد، ولا يجب الفساد، وليس في القرآن ذكر لهذا التسيب إنما فيه إثبات العقوبة وهي لا تكون إلا بالحق كبسط النعمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الص: ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ﴾ [الأنعام: ١١٠] وهذه من المتشابهة، إلا أنها قد أفادت المقصود هنا، وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وغير ذلك كثير.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا \* إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ لما تم بيان صفات المنافقين المبشرين بالنار حذر من قد آمن كلهم من طريقة المنافقين، وبين لهم عظم جرمهم وشناعتهم ببيان ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وكفى بذلك تحذيراً من النفاق، وفي هذا دلالة واضحة أن حقيقة النفاق اتخاذ من قد آمن الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولكن من كان كذلك فإنه يفعل ما حكى الله عنهم من صفاتهم المذكورة فيما مر.

وقوله تعالى: ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي تجعلوا له حقاً في تعذيبكم، أو تجعلوا له عليكم سبباً في تعذيبكم، فالمراد سلطان الحكمة، فأما سلطان القدرة فهو حاصل، وقوله تعالى: ﴿مُبِينًا﴾ أي بيناً

وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٧﴾ \* لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ

واضحاً، وقوله تعالى: ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فجهم أدراك: معناه: منازل وأطباق» انتهى المراد.

وفي (الصحيح): «ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات، والجنة درجات والقعر الآخر درك ودرك» انتهى، وهذا لا يدل على أن كفار الجحود ليسوا في الدرك الأسفل، وقد قال تعالى: ﴿فَاطْلَعْ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٥٥] والسياق في كافر النعم، ويمكن أن الدرك الأسفل وإد في سواء الجحيم فيكون أسفل من سوائها - والله أعلم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾ لما توعده الله المنافقين بالعذاب الأليم وبالدرك الأسفل من النار، بين لهم أن باب التوبة في هذه الحياة وفي مدة الاختيار مفتوح لمن تاب وأصلح ما قد أفسد في نفاقه، واعتصم بالله فرفض ولاية الكفار، واستغنى بحفظ الله لأوليائه ونصره لهم وهو الاعتصام به ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فرفضوا الرياء ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ التائبون أهل الصفات الثلاث ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الآخرة كما هم معهم في الدنيا ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يوم القيامة وقد بينه في غيره هذه الآية.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ وهذا تأكيد للوعد بقبول التوبة، وبيان أن التوبة لا تتم بدون الإيمان والشكر، وتنبيه على كرم الله وسعة رحمته حيث يشكر عبده الشاكر لنعمته، ودلالة على علمه بتوبة من تاب وإيمان من آمن وشكر من شكر وبكل شيء.

بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ

﴿١٤٨﴾ لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٩﴾ ﴿الْجَهْرَ﴾ رفع الصوت بالكلام، والسوء من القول: يعم كلمة الكفر ونحوها مما يقوله المكروه وقلبه مطمئن بالإيمان، ويعم الشكوى من الظالم، ويعم السوء من القول كلام الكفر وغيره من الباطل، والغيبة، والنميمة، والتقريب على الباطل بقول القائل أصاب أو أحسن أو نحو ذلك، وكان ﴿سَمِيعًا﴾ للقول كله وما هو مستثنى وما ليس بمستثنى ﴿عَلِيمًا﴾ بالعدل وبعدم العذر أي أنه لا عذر، و ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ لكل قول وبكل شيء.

﴿١٤٩﴾ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴿١٥٠﴾ هذا في إظهار الخير ضد الجهر بالسوء وفي إخفاء الخير، وهو يفيد الترخيص في ذلك حيث لا يعلم سبب إثم، وترغيب في العفو بالدلالة على أنه محمود؛ لأن من صفات الله تعالى أنه عفو قدير، فهو يعفو مع القدرة على الانتقام.

وفي الآية هذه إشارة إلى أن إبداء الخير وإخفائه يشملهما العفو من الله؛ ولعل السبب أن إبداء الخير قد يكون فضولاً من القول ليس شكراً لنعمة ولا ذكراً لقدوة، والإخفاء قد يكون تقصيراً في كلام ينبغي أن يقال؛ لأنه شكر نعمة وليس المقصود به كتمانها فيكون غير معفو والمعفو ما لم يتعمد فيه معصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فما كان خطأ وزل فيه صاحبه فهو معفو سواء كان أبداً أم أخفى.

يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ  
 نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾  
 أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ

وأما النطق بالعفو عن السوء، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾ قال في (الصحيح): «وعفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه» انتهى، وقال الراغب في (المفردات): «وقولهم في الدعاء: أسألكم العفو والعافية، أي ترك العقوبة، والسلامة» انتهى.

﴿١٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ يتكرر منهم الكفر بالله مرة بعد مرة مثل حين عبدوا العجل فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي، ومثل حين شبهوه بخلقه وغير ذلك من كلامهم في الله بما هو كفر به ورسله، يتكرر منهم الكفر بالرسول بتكذيبهم في دعوى الرسالة جملة أو في بعض ما جاؤوا به، يتكرر منهم ذلك المرة بعد المرة، كجداهم في طالوت بقولهم: ﴿أَتُنِيكُنَّ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ومثل حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] وهذا رد لخبره.

وقد دل على جرائتهم في تكذيب الرسل قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يردوا ما تأتي به الرسل ويزعموا أن حكم الله غيره.



ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ

فإذا قيل: حكم الرسول بكذا، قالوا: هذا قاله من تلقاء نفسه وحكم الله خلافه ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل وما أنزل الله كقوله: ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١].

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ بين الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه والكفر بذلك ﴿سَبِيلًا﴾ طريقة وديناً ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ هم الكافرون بحقيقتهم و ﴿حَقًّا﴾ إنهم عين الكافرين وإن سبيلهم هو الكفر بعينه؛ لأن إيمانهم غير صحيح بما آمنوا به ولا مقبول فهم كفار خلص، وقد رد الله عليهم دعواهم الإيمان بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَسَمَّاءُ بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] فقد عبدوا العجل وعصوا موسى، فقالوا: ﴿فَلَذَبْتَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ودخلوا الباب على خلاف ما أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً..﴾ [آية: ٥٨] ﴿فَبَلَكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا..﴾ [آية: ٥٩] راجع (سورة البقرة).

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أعدنا للكافرين عموماً وهؤلاء قد دخلوا في العموم؛ لأنهم الكافرون حقاً فقد أعد لهم عذاباً مهيناً مُذِلّاً محقراً مناسباً لتكبرهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢٨٥] ومن اتبع الرسول ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ﴾ قال في (المصاييح): «و﴿أَحَدٍ﴾ يستعمل في الواحد المذكر والمؤنث والمثنى والمجموع منهما» انتهى، ومثله في (الكشاف) و (مفردات الراغب الأصفهاني) وفي (المفردات) تفصيل جيد.

﴿أَجُورَهُمْ﴾ ثواب كل منهم بقدر ما يستحق ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلا يمنعهم ثوابهم لما يصدر من زلات غير متعمدة، أو لم يصروا عليها كما مرَّ في صفة المتقين، وهذا فارق بينهم وبين عصاة أهل الكتاب المصريين على الكبائر الراضين بما سلف من أوائلهم، فكانت معاصيهم مضادة للإيمان، دالة على أنهم غير صادقين في دعوى الإيمان.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ ﴿أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾ يخصهم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ولعلمهم أرادوا أن ترقى في السماء وتنزل عليهم بنفسك كتاباً يتضمن إثبات نبوتك غير القرآن، لأن القرآن قد كفى لو أنصفوا، لكن للتعنت سألوا كتاباً ينزل عليهم إما بأسمائهم يقول: إلى فلان وفلان وفلان اتبعوا محمداً فإني أرسلته، وإما أن ينزل بالكتاب محمد إليهم خاصة، فيبلغهم عن الله أن محمداً نبي ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فهم أهل التعنت وهو عاداتهم فلا تبال بهم يا محمد.

قال الشرفي رحمه الله: «ومعنى ﴿جَهْرَةً﴾ أن يريهم الله معاينة ومشاهدة» انتهى. وقال الراغب في (المفردات): «جهر، يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع» انتهى.

فعلى هذا: طلبوا معاينة جليلة واضحة وهذا أظهر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بَظُلْمِهِمْ﴾ في طلب المحال وطمعهم فيه وجهلهم بالله حيث ظنوا أنه من المواد التي ترى، وجهلهم هكذا قد سبقه جهلهم حين قالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للترقي إلى ذكر جهالة أعظم وأبشع وأقبح من طلب الرؤية، وهي (اتخاذهم العجل) الذي ادعوا أنه إله موسى ولم يكتفوا بالشرك كقول الشاعر:

يرى غمرات الموت ثم يزورها

ويحتمل: أن اتخذ العجل كان من أهله بعد أن أخذت الصاعقة الذين طلبوا الرؤية، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الوقوع، والأول أظهر عندي؛ لأن المتخذين للعجل غير الذين طلبوا الرؤية، وإنما جمعهم التراضي بطلب إله من جنس آلهة المشركين كما شاركهم الآخرون بالرضا فشاركوهم ونسب إلى الجملة، فحمل ﴿ثُمَّ﴾ على الترقى في المعنى أظهر؛ لأن اتخاذ العجل ليس انتقالاً من طلب الرؤية، بل بعضهم طلب الرؤية وكانوا مع موسى في الميقات أربعين ليلة، وبعضهم اتخذ العجل وكانوا مع هارون خلفه موسى عليهم حين ذهب للميقات، وفي (سورة البقرة): ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ [آية: ٥١].

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥١﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْيَبِيتُ﴾ أن ذلك منكر وباطل، حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩] و﴿الْيَبِيتُ﴾ الدالة على خالق السموات والأرض، القادر على كل شيء، كفلق البحر لموسى ومن معه وجعله فيه طريقاً ييساً، وإنجائهم من فرعون وقومه، وإغراق فرعون ومن معه بنفس البحر الذي انفلق لموسى ومن معه، وآيات الله لا تحصى.

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ حين تابوا أو عفونا حين وصل موسى ونسف العجل فلم يعاجلهم الله بالعذاب، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلَى لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ الآية [الكهف: ٥٨].

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا﴾ قوة وهيبة لأجلها انقادوا له حين رجع إليهم ونسف العجل في البحر، وكذلك آتاه الله سلطاناً حين طلبوا الرؤية فأخذهم بالصاعقة، وهذا يدل على أن موسى لم يطلبها طمعاً فيها، ولكن لإقناع قومه بما يكون من الله بسبب الطلب.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ حقق معناه قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَا الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ على قبول التوراة بقوة وجدّ وصبر وعزم صادق على اتباعها، كما قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ الآية [البقرة: ٦٣].

وقال (صاحب الكشف): «﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه» انتهى. ولا يبعد أن (الباء) للمصاحبة، وأنهم أعطوا الميثاق حين ظنوا أنه واقع بهم، أو أن رفعنا فوقهم الطور مضمّن معنى أمرناهم وكلفناهم؛ لأن رفع الطور فوقهم بعثهم على الميثاق - والله أعلم.

وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى

والمقصود: أن تخويفهم بهذه الآية بعثهم على العهد، إما باختيارهم بسبب الخوف؛ لأنهم لم يندروا بوقوعه إن لم يعاهدوا ولكن خافوا فعاهدوا فلم يكن اضطراراً، وهذا أظهر، وإما أنهم أكرهوا على العهد ليحذروا في المستقبل وقوع مثل ذلك التخويف والاضطرار إلى العهد.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ﴿سُجَّدًا﴾ بمعنى خاضعين لله، قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] أي ادخلوا الباب خشعاً لله - عز وجل - وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار والخشية لله الواحد الجبار، ولم يرد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا» انتهى من تفسير (سورة الأعراف).

وحكى الشرفي عن المرتضى عليه السلام مثله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [آية: ١٠٦] آخر (سورة الأعراف).

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ ﴿لَا تَعْدُوا﴾ أي لا تعتدوا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان أو غيره مما هو محرم في السبت في دينهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على أن لا يعتدوا في السبت، أو على ذلك وغيره، والأقرب: أنه ميثاق خاص بالسبت غلظ حرمة السبت.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ﴾ (الباء) سببه أي بسبب نقضهم لميثاقهم ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي يأتي بها الأنبياء الذين كذبوهم.



مَرْيَمَ مَهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ

﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿بَغَيْرٍ﴾ استحقاق للقصاص مثلاً، وقتل الأنبياء لا يكون بحق، ولكن فيه إشارة إلى أن المكلفين سواءً أمام العدل لا هوادة ولا لين لأحد، فيفيد: أن الأنبياء لو قتلوا بغير حق لاستحقوا القصاص، فكذلك من قتلهم بغير حق في أن ذلك جريمة عظيمة.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي لا نفهم ما جاء به النبي من الأنبياء الذين كذبوهم أو قتلوهم، أو ما جاء به خاتمهم ﷺ و﴿غُلْفٌ﴾ جمع أغلف أي مغطى بغلاف ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ فهم يفهمون، ولكن قلوبهم لا تقبل الحق، فكان عليها طبعاً وختماً يمنع دخول الإيمان إليها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ذُمَّ لهم بأن جعلها كالمطبوع عليها التي لا تفلح أبداً، أي خذلها وسلبها الألفاظ؛ بسبب كفرهم، وفعل الكفر يوجب العقاب، فبان أن الطبع والختم إنما هو على وجه العقوبة» انتهى المراد.

وفي إسناد ذلك الطبع إلى الله تعالى وفوائده وكذلك وجه صحة النسبة للمانع من الإيمان إلى الله، كلام قد مر مفصلاً عند تفسير قول الله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [آية: ٧] من (سورة البقرة) فراجع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ معطوف على نقضهم.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ مَهْتَنًا عَظِيمًا﴾ هذا عطف على ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ﴾ وكفرهم؛ لعله هنا كفرهم بعيسى وبآيات التي جاءهم بها، ويحتمل: العموم لهذا ولكفرهم بأنبياء غيره مثل سليمان، كما قال تعالى: ﴿فَفَرِّقَا كَذَبَتُمْ وَفَرِّقَا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].



مَنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ

والبهتان العظيم: رميها بالفاحشة مع أن الله قد برأها من ذلك، ومع بعدها من ذلك القبيح ونزاهتها الكاملة ومع فضلها وعلو شأنها في الدين، ومع أن غرضهم برميها فيما بعد ظهور الآيات جحد الآيات والتكذيب بخلق الله لعيسى من غير أب والتكذيب بكونه رسولا من الله والتكذيب بآيات الله التي جاء بها، فتظاهرت أسباب قبح رميها بالفاحشة.

قال الراغب الأصفهاني في تفسير (البهتان): «أي كذب يبهت سامعه لفظاعته - وقال أيضاً في تفسير: بُهت - : أي دهش وتَحَيَّرَ، انتهى.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ عطف على ﴿نَقُضُهُمْ﴾ وهذا القول جريمة مع كونه كذبا؛ لأنهم افتخروا بما يدعونه وهو منكر عظيم لو كان والجمع بين الأسماء لتحقيق أنه المقصود بالافتخار بقتله، وهذه جرأة منهم عظيمة، ودليل على عناد شديد، و﴿الْمَسِيحَ﴾ و﴿عِيسَى﴾ اسمان مترادفان و﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ وصف محقق لدفع استبعاد أن يكون هو المقصود، وللدلالة على أنهم لم يبالوا بكونه رسول الله.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ﴾ الصليب: تعليق الإنسان على خشبة أو نحوها مشدود إليها، قال الشريفي رحمته في (المصابيح) - حاكياً عن المرتضى محمد بن الهادي إلى الحق عليه السلام، وهو المراد أينما ذكره في (المصابيح) - قال: «أراد الله سبحانه بذلك عيسى صلوات الله عليه لما أخذه الظالمون ليهلكوه وسجنوه في البيت لقتلوه [كذا والصواب: ليقتلوه] فسلمه الله من كيدهم ودفع عنه ما هموا به من عظيم كفرهم، وألبس الكافر الذي يجرسه

شبه عيسى في صورته وخلقه فلم يفرقوا عند ذلك بينه وبين عيسى عليه السلام في شيء من أمره فلما أن نهضوا لقتل عيسى - صلى الله عليه - وجدوا صاحبهم في مكانه فقتلوه ولم يشكوا فيه عندما عاينوه أنه عيسى - صلى الله عليه - فأخبرهم - عز وجل - عنه، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ﴾ ثم رفعه الله عنهم، وأخرجه من بينهم سالماً مسلماً انتهى.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ \* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أهل الكتاب الكافر برسالته والمدعي لإلهيته، والمدعى أنه ابن الله كلهم في ﴿شَكٍّ مِّنْهُ﴾ وإن ادعوا أنه قتل وصلب فهم مترددون في ذلك، والشك التردد في الشيء تردداً متساوياً أو راجحاً ومرجوحاً فيسمى شكاً باعتبار التردد وعدم العلم، ولذلك يعبر عن العلم بنفي الشك فتقول هذا الأمر واقع لا شك فيه.

قال في (الصحيح): «الشك خلاف اليقين» انتهى، وفي (لسان العرب): «الشك نقيض اليقين» انتهى، وفي (القاموس): «الشك: خلاف اليقين انتهى.

فقوله تعالى: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ إثبات لترددهم في قتله وصلبه، ثم قال تعالى تصريحاً بعدم علمهم بذلك فقال: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ فهو تأكيد لإثبات الشك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي لكن اتباع الظن زعموا أنهم قتلوه في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ والظن اعتقاد راجح مع بقاء التردد، فهم اتبعوا الظن في دعوى قتله بسبب أنه شبه لهم فظنوا أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي وما يتيقنوا أنهم قتلوه هذا حاصل المعنى.

قَبْلَ مَوْتِهِ <sup>ط</sup> وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥١﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٥٢﴾

فكانه قيل: وما قتلوه قتلاً يقيناً، أي متيقناً ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كما مر في (سورة آل عمران) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فرفع عيسى لم يكن لقوة أعدائه؛ لأن الله لو شاء أهلكتهم في لحظة، ولكن اقتضت حكمته رفعه فرفعه مع عزته وحكمته، ومن العجيب دعواهم أنه إله، مع أنهم يقولون: إنه قتل وصلب، ويحملون صورة الصليب ويتبركون بها في ملابسهم، وذلك دليل على أنهم أهملوا عقولهم.

﴿وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وما من أحد إلا ليؤمنن به أي بعيسى عليه السلام قبل موته.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بكذبهم في دعواهم قتله وصلبه، وهذا لا ينافي قوله تعالى حاكياً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ لأن هذه الشهادة العامة بما فعلوا وهو حاضر فيهم مشاهد لهم، أما هذه الخاصة بتكذيبهم فيما افتخروا به من قتله وصلبه فإنها جارية مجرى الشهادة بالمحسوس من حيث أنه عالم أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، فصح أن يشهد على المدعين لقتله وصلبه بكذبهم، وعلى سائر أهل الكتاب الذين أطبقوا على أنه قتل وصلب.

وقد دل سياق هذه الآيات: على قبح هذه المقالة، ولعل السبب أن أصلها من أعدائه الذين افتخروا بها فأخذها النصارى بجهالة؛ لأنها تنفي كرامة الله لرسوله بمجرد قول أعدائه الظالمين الذين شبه لهم أو أتباع الظن مثلهم.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ على أهل الكتاب بجميع أفعالهم لكنها خاصة بمن كان فيهم قبل أن يتوفاه الله.

وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي فبذلك المذكور من أول الآيات من قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِّثْقَاتَهُمْ﴾ قال في (الكشاف): «بدل من قوله: ﴿فِيمَا نَقُضِيهِمْ﴾» انتهى.

فهو كالإعادة للتعليل، وفيه زيادة فائدة: أن هذه الأشياء كانت علة للتحريم؛ لكونها ظلماً عظيماً؛ ولعلمهم أنفوا من تحريم ما حرم الله عليهم عقوبة لهم فكان ذلك سبباً لتعداد جرائمهم التي كانت سبباً لتحريم طيبات.

ثم عطف على ذلك ذكر أسباب آخر، فقال تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (صدهم): منعهم عن سبيل الله عن دينه كثيراً من الناس، أو صدأ كثيراً، وذلك نحو صدهم عن الإيمان بعبسى ومحمد - صلى الله عليهما وآل محمد - قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت على تحريم الاحتجاج بالشبهة المضلة؛ لأنها صد عن سبيل الله» انتهى.

﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾ عطف على الأسباب للتحريم المذكور، وفيها دلالة على أن النهي يكفي لإفادة التحريم، وقيام الحجة على المخالف له ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ عطف على أسباب التحريم المذكورة أي حرمانا عليهم طيبات أحلت لهم بصددهم وأخذهم وأكلهم، والباطل ضروب منها: الربا، وقد خص بالذكر لزيادة في قبحه وعاره، ومنها: الرشوة، وأجرة السحر، وأجرة الكهانة، وأجرة تحريف الكتاب، ونسبة ما ليس منه إليه، كما مر في قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ  
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ  
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧٢﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على حرمانا عليهم وخص  
الكافرين بالذكر لبيان أن السبب كفرهم لنعم الله وكفرهم بآيات الله لا  
كونهم يهوداً، وليخرج من آمن منهم كما يأتي في قوله تعالى:

﴿لَٰكِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا  
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ﴾ ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ...﴾ إلى آخره الخبر.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ قال في كتاب (إعراب القرآن): «الواو  
معتضة، و(المقيمين) نصب على المدح، بإضمار فعل لبيان فضل الصلاة  
على ما قاله سيبويه وغيره، والتقدير: أعنى أو أخص المقيمين الصلاة، الذين  
يؤدونها على وجه الكمال، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان،  
والنصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة  
هاهنا: هي ما ذكرنا آنفاً من مزية الصلاة، على أن تغيير الإعراب في كلمة  
بين أمثالها ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها، ويهدي التفكير لاستخراج  
مزيتها، وهو من أركان البلاغة» انتهى.

وقد مر في (سورة البقرة) نظيره في الصبر في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي  
الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ولعل تخصيص إقامة الصلاة لما فيها من الخشوع  
المعين على امتثال أمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾  
[آية: ٤٥] وهي في (البقرة) في (بني إسرائيل) في سياق دعوتهم إلى الإيمان بما



بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ  
وَعِيسَىٰ وَيُؤُسَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٢٣﴾ وَرُسُلًا

أنزل الله على محمد ﷺ وقد أمر الله (بني إسرائيل) أن يستعينوا بالصبر  
والصلاة، فتخصيص ﴿الْقِيَمِينَ آلَ الصَّلَاةِ﴾ لمزيد فائدتها في حق أهل الكتاب  
الذين يصعب عليهم الدخول في الإسلام والإيمان إلا الخاشعين لله.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ كذلك تخصيص لما قد شمله اسم الإيمان، وفائدته  
التنبيه على الخروج من عقائد اليهود في الله مع دعواهم الإيمان به كالتشبيه  
﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ خص مع أنه قد دخل في الإيمان ليحقق إيمانهم على ما  
يقتضيه الإيمان بالقرآن، لا على عقائدهم السابقة في أمور الثواب والعقاب  
﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لإيمانهم وعملهم الصالح، وهو ثواب  
الآخرة في جنات النعيم.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ  
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَيُؤُسَ وَهَارُونَ  
وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿إِنَّا﴾ فيها دلالة على العظمة لله، فهي تشير إلى  
استناد الوحي إلى عظمة الله وجلاله وحكمته وفضله ورحمته وعزته ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا  
إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ دلالة على أنها سنة الله في الأولين والآخرين، فلا  
عجب أن يوحى إليك، ودلالة على أنه وحي نبوة مثل وحي نبوتهم.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ يحتمل: العطف على ﴿أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ فيكون  
المعنى: وكما أوحينا، ويحتمل: أنه عطف على أوحينا إليك، وحاصل المعنى  
واحد. ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ قيل: يوسف وإخوته أسباط إسرائيل، والسبب، قال  
الراغب فيه في (المفردات): «ولد الولد» انتهى.



قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٧٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ

وقال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] سميت ذرية كل سبط باسمه، وهو استعمال شائع، مثل عاد لذريته، وقال الشاعر:  
كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهمو من العبيد وثلث من موالها

أي بنو حنيفة، وفي (لسان العرب): «قال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي، ما معنى السبط في كلام العرب؟ قال: السبط، والسبطان، والأسباط: خاصة الأولاد والمصاص منهم» انتهى.

وأما تفسير (الأسباط) هنا بقبائل بني إسرائيل ذرية الأسباط فهو سهو؛ لأنهم ليسوا كلهم أنبياء، والأقرب: أن معنى الأسباط: بني الله يوسف ومن كان مثله من إخوته، وذرية يوسف وإخوته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ﴾ عطف على ﴿أَوْحَيْنَا﴾ والزبور: اسم لكتاب داود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿زُبُورًا﴾ أي كتاباً، ولعله نكر لعدم معرفة العرب به قبل نزول القرآن.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ قال في (الكشاف): «﴿رُسُلًا﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو: أرسلنا ونبأنا وما أشبه ذلك، أو بما فسرہ قصصنا» انتهى.

يعنى: أنه من الاشتغال، وفي كتاب (إعراب القرآن) للدرويش، لم يذكر إلا الوجه الأول قال: «تقديره: وأتينا» انتهى.

﴿قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي أخبرناك بهم، وبقصة رسالتهم.

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۚ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بلا واسطة مبلغ عن الله من الملائكة، بل خاطبه بلا واسطة خطاباً موجهاً إليه، وهذا الفارق بينه وبين غيره، وليس في الآية دلالة على الكلام النفسي الذي تثبته الأشاعرة وتجعله من الصفات، وقوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد للتكليم حقيقة وبدون واسطة مبلغ.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿رُسُلًا﴾ يعني به المذكورين بأسمائهم وفي الجملة رسلاً قد قصصنا ورسلاً لم نقص، فكلهم جعلهم الله رسلاً ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشرين لمن آمن واتقى ومنذرين للمجرمين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ فيقولوا: ﴿رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئَ آيَاتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] فما بقي لهم حجة بعد الرسل.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالباً لا ينال حكيماً فقد عامل عباده بالحكمة في التقديم إليهم بإرسال الرسل، مع أنه غني عنهم كما عاملهم بالعزة حيث لم يتركهم هملاً يفسدون ويظلمون من دون جزاء، ولا تمييز بين المطيع والعاصي، فكذبوا الرسل كل رسول كذبت أمته، وكذب الكافرون من أهل الكتاب وغيرهم رسول الله محمداً ﷺ، وجحدوا نزول القرآن عليه من الله.

﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۚ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿لَئِنْ﴾ استدراك من ذكر تكذيب المكذبين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ﴿يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن وسائر الوحي يشهد به أنه منه أنزله إليك ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزله وهو عالم به.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٢٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ

﴿وَالْمَلَكَةِ يَشْهَدُونَ﴾ أن الله أنزله، وأنه من الله أنزله عليك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ لأن قوله الحق، ولا يجوز عليه الكذب؛ لأنه غني لا يحتاج إلى الكذب، وعالم أنه غني، وقد تبين أن الله قد شهد به بكونه معجزاً لم يأتوا بسورة من مثله.

﴿١٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿صَدُّوا﴾ إن كان من الصدود فالمعنى: أعرضوا، وإن كان من الصد، فالمعنى: صدوا غيرهم ومنعواهم عن سبيل الله، بأن ضللوهم عليهم وأغروهم وقد مر ذكره في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ اللَّهُ سَبِيلَ اللَّهِ﴾ والكل واقع منهم الإعراض والإغواء، فيحمل على المعنيين.

﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ ضلوا عن طريق الصواب وغوا ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فصاروا في متاهة لا يهتدون للصواب، وصار بينهم وبين طريق الحق مسافة بعيدة.

﴿١٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴿ظَلَمُوا﴾ بالصد عن سبيل الله، والتكذيب لرسول الله، وغير ذلك ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ نفي مؤكد، يفيد: أنه لا يليق بعظمة الله ولا ينبغي أن يغفر لهم؛ لأنه مخالف لعزته وحكمته.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ لوجوب خذلانهم في الحكمة عقوبة لهم، أو لأنه لا يؤثر في قلوبهم لتهتدي إلا القسر والإلجاء، وذلك ينافي حكمته، لأنه لا يخرجهم إلى الهدى الحقيقي، وإنما هي صورة الهدى ألبأ إليها القسر، ولا فائدة لذلك، وقد استحقوا أن يوليهم ما تولوا بعزته.

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٧﴾ يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ

﴿١١٦﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ أَي لکن يهديهم طريق جهنم، وهي مشاكلة لفظية؛ لأن الهدى خاص في الدلالة على طريق الصواب، و﴿خَالِدِينَ﴾ حال مقدره ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه غني عنهم لا نقص عليه في تعذيبهم ولا مشقة ولا عناء، واليسير: ضد العسير.

﴿١١٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ دعوة عامة للناس من أهل الكتاب وغيرهم من العرب والعجم ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ قد انتهى إليكم الرسول المرسل إليكم، جاءكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي أرسل به وأمر بإبلاغه من ربكم أرسله به، وهو القرآن وسائر الوحي إلى محمد ﷺ.

﴿فَآمِنُوا﴾ الإيمان الذي يدعوكم إليه ويأمركم به، وهو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، ومن ذلك: الإيمان برسالة محمد ﷺ، وبآيات التي جاء بها، ومن ذلك: القرآن ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ لأن في الإيمان نجاتكم من النار، وسعادتكم في الآخرة أبدًا، وذلك خير من الدنيا وما فيها.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ بالرسول أو بالحق الذي جاء به أي القرآن ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإنما أنتم قليل في جملة ما في السموات والأرض فلا يعبأ بكم ولا يبالي بفوات طاعتكم، وأنتم كغيركم مما في السموات والأرض عبيد مملوكون فإن عصيتهم حق عليكم العقاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ بكفر من كفر، وبكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ فلا بد من أن يجزي من كفر.

لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا

وقال الشريفي رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «وفيه وجهان:

الأول: المراد أنه تعالى خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحق كل عاقل أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه، يرجو ثوابه ويخاف عقابه.

الثاني: أنهم إن كفروا، فإن الله ما في سمواته وأرضه من أصناف مخلوقاته من يوحده ويعبده ويتقيه من الملائكة والثقليين، وكان ذلك غنياً عن خلقه وعبادتهم، ومستحقاً لأن يحمده؛ لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد» انتهى.

قلت: هذان وجهان، والذي ذكرت قبله وجهان، فهي أربعة معان أفادها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد تكررت في هذه السورة لإفادتها الفوائد المتعددة المناسبة للسياقات المختلفة.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو في الدين: تجاوز الحد الصحيح في الدين، وهو نوع من البدعة اختص باسم الغلو؛ لأن الباعث عليه رغبة أصلها ديني، ولكنها قويت وصارت هوى نفسياً فدعت إلى تجاوز الحد؛ حد الصواب.

فاليهود غلوا في أنفسهم، فتجاوزوا نعمة الله عليهم بتفضيلهم على العالمين بما اختصهم به مثل: فلق البحر لهم لينجيهم ويغرق عدوهم وهم ينظرون، فتجاوزوا ذلك حتى قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] وقالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] وقالوا: ﴿عُزِّرُوا ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] واتخذوا عيسى إلهاً على اختلافهم، بين من يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] ومن يقول: (ثلاثة أقانيم): أقنوم أب، وأقنوم ابن، وأقنوم روح القدس، ومجموع الثلاثة بزعمهم الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فاتركوا الغلو، لئلا تقولوا على الله غير الحق، فقد نهى عن ذلك وحرمه ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فدرجته في الشرف أن الله اصطفاه رسولاً له إلى (بني إسرائيل) وكفاه شرفاً من هذه الناحية أنه رسول الله، وخلقته من غير أب لا علاقة له بأن يكون إلهاً؛ إنما خلقه الله بقوله: ﴿كُنْ﴾ ﴿قَالَتْ رَبُّ أُنَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] وهي ﴿كَلِمَتُهُ﴾ التي خلق بها آدم بل وكل شيء، وهي قضاؤه وإيجاده للشيء ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ بأن قضى وجود ابنها في بطنها.

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ من أمره نفخه في جسد الولد، كما نفخ في آدم من روحه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] صدق الله فهو أمر استأثر الله بعلمه؛ وبه يحيي المخلوق، ويحتمل أن الروح في قوله تعالى:



﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ غير الروح في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وأنه قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ مدح لعيسى كما مدح القرآن بذلك. وقد حكى عن عيسى عليه السلام قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] فلما كان عيسى عليه السلام سبباً لحياة الإيمان في القلوب ببركته وحسن تعليمه وموعظته، كان حقيقاً بأن يسمى روحاً كما سمي القرآن روحاً، وهذا أقرب عندي؛ لوجوه:

الأول: أن نفخ الروح قد دخل في قوله: وكلمته؛ لأنها عبارة عن إيجاد جسداً وروحاً.

الثاني: أنه تعالى جعل عيسى نفسه روحاً بجملته وذلك غير الإخبار بنفخ الروح فيه وكون الروح جزءاً منه.

الثالث: أن الحصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في خطاب الذين غلوا فيه يناسبه أن يشمل مزاياه التي من أجلها غلوا فيه، ويشمل ما يمتاز به عيسى؛ ولذلك لم يقتصر على قوله كلمته، بل قال: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾.

فكذلك ينبغي أن يذكر ما كان له من البركات، وما ظهر على يديه من الآيات التي يحیی بها الإيمان في قلوب المؤمنين، كنفخه في صورة الطير بحيث تكون ﴿طَيْرًا يَلْذَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٤٩] وإحيائه القلوب الميتة بمواعظه وحكمته وسائر بركاته، التي كانت له أينما كان يذن الله، وحيث تكون هذه الكلمات الثلاث قد عمت وشملت مزايا عيسى - صلى الله عليه - فكان إدخالها في الحصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ هو مقتضى الحال، وكان أبلغ في الحجة على الغلاة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يشير إلى أن تلك البركات والحياة إنما هي من الله وبإذنه، و (من) هذه هي (من الابتدائية) مثل: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] أعني في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي صادرة منه.

﴿فَقَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ اَنْتَهُوَ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ اِنَّمَا اللَّهُ اِلَهُهُ وَاحِدٌ﴾ ﴿فَقَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ فلا تجعلوه متعدداً ثلاثة أقانيم، ولا تجعلوه عيسى، بل نزوهه عن مشابهة المخلوقين؛ لأن من آمن بشييه للمخلوق لم يؤمن بالله، فآمنوا بالله ورسله، ومن ذلك الإيمان بعيسى رسولاً لا إلهاً، والإيمان برسول الله محمد ﷺ ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أقانيم، ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم.

﴿اَنْتَهُوَ﴾ عن الشرك ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ لتهدوا ﴿اِنَّمَا اللَّهُ اِلَهُهُ وَاحِدٌ﴾ لا ثلاثة أقانيم: أقنوم أب، وأقنوم ابن، وأقنوم روح القدس ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأنه الغني فلا يحتاج إلى ولد، والولد إن أرادوا به الفرع لزمهم أن يكون الله جنساً قابلاً للزيادة بالتفرع، فلزم أنه قابل للزيادة والنقصان والوجود والعدم سبحانه وتعالى.

وإن أرادوا به الولد بالعاطفة والحب والحنو، فذلك خاص بالمخلوق، ولا يليق بالغني عن كل شيء؛ لأن العاطفة حاجة ولعلمهم أرادوا هذا، فرد الله عليهم بأنه الغني ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] فالرد عليهم بأنه الغني، فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن ذلك نسبة الحاجة إليه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ فكل من جعلوه إلهاً من دون الله إنما هو عبد لله، فلا يشارك الله في ملكه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ لعباده، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فعلى عباده أن يكلوا إليه أمورهم ويستغنوا به لتدبير شؤونهم عن إثبات إله غيره.

الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ  
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٢٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ  
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا  
أَلِيمًا وَلَا يَخْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٧٣﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ

﴿٢٧٢﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ  
الْمُقَرَّبُونَ ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لَنْ يَأْنِف ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ لَأَنَّهُ مُعْتَرَفٌ  
بأنه عبد لله خاشع له ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فهم مؤمنون بأنهم عباد لله،  
ولا يدعون ما يدعيه بعض المشركين الذين يزعمون أنهم بنات الله ﴿وَقَالُوا  
اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] عطفهم على عيسى  
لمشابهة القول فيهم للقول في عيسى؛ ولكون الرد على الفريقين واحداً؛  
ولكون الرد على النصارى جاء لتقرير أن الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فناسب ذكر  
الرد على من جعل الملائكة ولداً لله، مع الرد على اليهود الذين جعلوا  
عزيراً بن الله، والنصارى الذين قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] كقوله  
تعالى: ﴿وَلَا يُلْمَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠].

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَمَنْ  
يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ عن الاعتراف بالعبودية لله ربهم، المالك لهم  
﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يظن أنه فوق أن يعترف بالعبودية أو يترفع عن الاعتراف  
بالعبودية، فالله سيحشرهم يحشر العباد ﴿إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة إلى محل السؤال  
والحساب حيث يجمعهم، كما قال تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ  
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ

أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَقَدْ عبادوا الله مع الإيمان عبادة مقبولة لمصاحبته الإيمان ﴿فِيَوْفِيهِمْ أَجُورُهُمْ﴾ بالحسنة عشر أمثالها ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ خيراً كثيراً يتفضل به عليهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا﴾ أنفوا من عبادة الله ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ ترفعوا عن عبادة الله ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عذاب جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ مَنْ يدفع عنهم بتولي شؤونهم والقيام بإصلاح أمورهم ولا بنصر لهم، وهذا ردُّ على المشركين الذين يظنون أن شركاءهم سيسعفون لهم ويدفعون عنهم بما لهم من المكانة عند الله - بزعمهم - تخولهم أن يتدخلوا يوم القيامة إن بعثوا، فيدفعوا عنهم وينصروهم بالشفاعة.

وقد تم في الآيات الماضية الرد على المشركين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وما جاء في اليهود من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ مع ما سبق فيهم عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ وما جاء في النصارى في الآيات التي مرت قريباً احتجاجاً كاملاً وإنذاراً وإعذاراً، ثم عقب ذلك بقوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ \* فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴿بُرْهَنٌ﴾ دليل وحجة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾

لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ ذُرٌّ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هَا وَلَدٌ

وما كان من ربكم فهو الحق والهدى، والبرهان هو القرآن الكريم فهو دليل من حيث إعجازه على أنه من الله، وهو نور من حيث أنه من الله يبين الحق في الدين ويدل على بطلان الأديان المخالفة للإسلام، وعلى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ إلهاً واحداً لا إله إلا هو ولا رب سواه فعبدوه وأخلصوا له العبادة ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾ فلم يتخذوا شفعاء ولا شركاء يعتقدون أنهم ينصرونهم، أو يشفون مرضاهم، أو يوفرون أرزاقهم، بل اعتصموا بالله وتوكلوا عليه ولم ينافقوا ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وهي رحمة خاصة بالمؤمنين.

﴿وَفَضَّلَ﴾ منه عليهم خاص بالمؤمنين ﴿وَهَدَاهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ كقول موسى: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩] والهداية إليه تفيد معرفته الكاملة وذكره وشكره وخشيته ومراقبته ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ طريقاً واضحاً لا عوج فيه، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، يؤديهم إلى ذكر الله بقلوبهم وخشيته ومراقبته وكمال معرفته بمعرفة معاني أسمائه الحسنی والإيمان بها، وهذه الرحمة والفضل، والهداية عاجلة لأولياء الله في الدنيا ثم في الآخرة حين يصيرون ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] في دار كرامته ورضوانه وفضله ورحمته.

فنسأل الله التوفيق والسداد والثبات، وقد جرت عادة القرآن بإتباع الوعد بالوعيد، لكنه هنا كفى الوعيد في الآية التي قبل هذه، وأغنت عن تكرار الوعيد لقربها.

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ<sup>١</sup> وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ<sup>٢</sup> يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا<sup>٣</sup> وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ قال في (الصحاح): «والكل الذي لا ولد له ولا والد، يقال منه كل الرجل يكل كلاله» انتهى.

﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ<sup>٤</sup> وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ هذا فيمن لا أب له؛ لأنه قد فهم من أول السورة أن الأب هو الوارث مع عدم الولد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمَوْلَى الثُّلُثُ﴾.

فتحصل أن الكلاله: مَنْ لا أب له ولا ولد، أعني: أن الحكم فيه، وأن الأم لا تبطل ميراث الإخوة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي الكل، والمراد هنا: الأخ لأبوين، أو لأب، وكذلك الأخت؛ لأنه قد تقدم ذكر ميراث الأخوة من الأم، فأما من كان له ولد فإن كان ذكراً فلا إشكال؛ وإن كان أنثى فميراث الإخوة معها بدليل آخر ليس من هذه الآية؛ لأنها خاصة بمن لم يكن له ولد، ولم تفصل بين الذكر والأنثى.

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ إذا كن أكثر فلهن الثلثان لا غير وهو يؤخذ من حكم البنات؛ لأنهن أقرب ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وأخذ حكم الاثنين من أول الآية، حيث كان للواحدة النصف وللواحد الكل،، وكذلك



الاثنان من الذكور مع الواحدة، والشتان من الإناث مع الواحد قد أفادت الآية أن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا، ومعنى تضلوا تخالفوا الحق، فشبه مخالف الحق بمن ضل الطريق، وهو هنا عبارة عن الخطأ بسبب خفاء الدليل لو لم يبينه، أو هو عام للخطأ والعمد.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بالحكمة في الميراث وعلیم بحاجة العباد إلى بيان أدلة الأحكام لئلا يضلوا، وعالم بكل شيء، ولعل الحكمة في النص على الجمع من الرجال والنساء بخلاف النص في الإخوة لأُم، أن الإخوة إذا كانوا جماعة قد يطمعون في أخذ الميراث كله؛ لكثرتهم مع أن توريث النساء يسبب قلة ما يكون للواحد، فقطعت الآية الكريمة أطماع الجاهلية، أما الإخوة لأُم فقد قطع طمعهم بالتسوية بين الذكر والأنثى.



التفسير في التفسير



سورة المائدة







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۖ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا  
يَتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ تَحَكُّمٌ مَا يُرِيدُ ۖ يَأْتِيهَا

### تفسير (سورة المائدة)

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾  
تخصيص الذين آمنوا بالخطاب؛ لأنهم يبعثهم بإيمانهم بالله ورسوله وكتابه واليوم  
الآخر وما فيه من الحساب والجزاء يبعثهم على امتثال أمر الله ونهيه، أو لأن إيمانهم  
حجة عليهم، من حيث أنهم قد وقع منهم الإيمان الذي يدهم على وجوب  
الامتثال، ولعل هذا أقرب؛ لأنه أنسب لاختيار الموصول وصلته الفعلية ﴿الَّذِينَ  
ءَامَنُوا﴾ دون اسم الفاعل (أيها المؤمنون) في أكثر المواضع في القرآن الكريم.

و﴿أَوْفُوا﴾ أمرٌ من الوفاء وهو تطبيق ما سبق من العقود، العقود: جمع  
عقد - بفتح العين - وهو الكلام الموثق المستلزم للإلزام قائله حقاً، سواء كان  
عهداً أو عقداً من عقود المعاملات، أو قبولاً للتكليف من الله يفيد الالتزام  
بالطاعة، ومنه اليمين المعقودة، ولكنها خصت بالإذن بالكفارة.

قال السيد عبد الله بن أحمد الشرفي في تفسيره (المصابيح): «قال إمامنا  
المنصور بالله القاسم بن محمد - رحمه الله عليه - : دلت على انعقاد العقود  
كلها، وعلى وجوب الوفاء بها... الخ.

قلت: وقد جاء في بعضها الحث على الوفاء، نحو: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾  
[النحل: ٩١] ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] ﴿وَاذْكُرُوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]  
﴿وَأَخْلَدْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

ولعل قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ مع عمومه لكل عقد جاء في أول السورة للحث على العمل بما فيها، من حيث أن الذين آمنوا قد التزموا بالطاعة.

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ تَحَكُّمٌ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ الإحلال للأنعام مقابل التحريم وهو: الأذن بأكملها، وبذبحها ونحرها ولم يقل: (أحلت لكم الأنعام) كما في غير هذه السورة، والأنعام ثلاثة أنواع من البهائم، واسم البهائم يعمها ويعم غيرها.

قال الراغب في (المفردات): «والبهيمة: ما لا نطق له وذلك لما في صوته من الإبهام، لكن خص في التعارف بما عدا السباع والطيور».

قلت: الأقرب: أنها سميت بهيمة لأنها لا تعرف ما يعرف الإنسان، فالمعارف مستبهمة عليها مجهولة لديها، ليس لها إلا ما ألهمها الله لمعاشها ونحوه والانتفاع بها، ولذلك قال الهادي بن إبراهيم رحمته الله:

وما الناس إلا أنتم دون غيركم      وسائر أملاك الزمان بهائم

فقوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ بمعنى الأنعام التي هي بهائم، قال في (الكشاف): «إضافته على معنى من» انتهى.

ففي قوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ فائدة تتعلق بإحلال الأنعام، لعله الإشارة إلى رحمة الله بها؛ لأنه جعلها بهائم، فأحلالها مع كونها بهائم أهون عليها مما لو كانت تعرف ما يعرف الإنسان - والله أعلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي ما ذكر في الآيات القرآنية تحريمه من الميتة وأنواعها التي تأتي في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ الآية.

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَنَّانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٣١﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ مَحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي غير جاعليه حلالاً في حال إحرامكم، فقوله: ﴿غَيْرِ﴾ حال مما سبق، والمعنى: أن الله قد حرمه وأنتم قد آمتتم، فلا تحلوه وقد حرمه الله. انتهى.

أي لا يقع منكم إحلاله فيفيد أن من أحله فقد خرج من الإيمان ومعنى هذا تأكيد تحريمه وهو مذكور في أواخر السورة، ولعل ما يأتي نزل قبل هذا، أو أن هذا موجد قدم على التفصيل، و﴿حُرْمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ إشارة إلى أن له الملك، وإلى أن المخاطبين عباده له أن يتعبد لهم كيف شاء، ودلالة على أن هذه الأحكام العظيمة، ومنها تعميم التكليف بالعقود وإباحة ذبح الأنعام وأكلها على ما فيه من الألم والشدة عليها، والتحریم للصيد في حال الإحرام كل ذلك لأن الله يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، هذا وهو سبحانه أحكم الحاكمين لا يحكم إلا بالحق، فالأنعام لها في الآخرة عوض ما نالها في الدنيا عوض عظيم.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: هذا نهى من الله سبحانه للمؤمنين أن يحلوا شيئاً حرم الله عز وجل من هذه الأشياء،



والشعائر: فهي الإبل التي تشعر عند الإحرام، وإشعارها فهو شق أسنمتها، والهدي: فهو ما أهدها الحرم إلى مكة، والقلائد: فهي الإبل - أيضاً - المقلدة التي يقلدها الحاج بعد إحرامه.

﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ فهم القاصدون للبيت الحرام المتوجهون نحوه من حاج كان أو معتمر، فنهى الله - تبارك وتعالى - عن إباحتها ما ذكر، ومعنى الشهر الحرام فهو الأشهر الحرم، فقال: ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ وهو يريد الشهور، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار: ٦] وهو يريد الناس، والأشهر الحرم التي نهوا عن الإحداث فيها، فهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والحرم، ورجب، وهن اللواتي ذكر الله تبارك وتعالى حين يقول: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...﴾ [التوبة: ٣٦] الخ.

وحكى الشرفي رحمه الله في (المصابيح) عن المرتضى عليه السلام أنه قال: «والشعائر: فهي ما تعبد الله به خلقه في الحج مثل الصفا والمروة والمواقف والجمار والبُدن، فأمر الله أن لا يبيحوا ذلك ولا يتركوه ولا يفرطوا فيه...» الخ.

قلت: هذا صحيح؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصُّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَالْبُذْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦] (ومن) للتبعيض، ولعل الإمام الهادي عليه السلام أراد تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني: أن المراد بالشعائر: البدن المشعرة، لا أن الاسم خاص بها، يعني: أن النهي عن إحلال اعتراضها كما فعلت قريش حين صدوا رسول الله ﷺ وصدوا الهدي الذي كان معه، ولكن ليس مستحيلاً أن يقع من بعض الجبابرة إحلال المناسك بالبناء فيها لنفسه وأصحابه وخدمه وجعل بعضها بساتين ونحوها، فالأولى إبقاء الآية على عمومها.

و﴿الْقَلْتِيدَ﴾ جمع قلادة، وتفسيرها بالإبل المقلدة من التطبيق، وأما المفهوم فالظاهر: أن المراد احترام القلائد التي هي علامة أنها لله فيترك التعرض للإبل المقلدة احتراماً للقلائد، وقوله في الهدى: ما أهدها المحرم المراد إلى الحرم، أي أهدها لله.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ الفضل هنا ثواب الحج والعمرة وما فيهما من القرب. والرضوان غفران الذنوب وما يترتب عليه من التوفيق وتيسير سبل الخير؛ لأن من رضي عن عبده أراد له الخير ولذلك كان الرضوان في الآخرة أكبر، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وابتغاء ذلك إرادته والتوصل إليه بأم البيت الذي هو الكعبة من حيث هو توصل إلى الحج والعمرة وما فيهما.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فالواجب إنما هو اجتناب الصيد حال الإحرام وليس من الدين اجتنابه بعد الإحلال تورعاً، والإصطياد: أخذ الصيد وما يجري مجرى الأخذ من الاستيلاء عليه والسيطرة بكونه قد صار في الشبكة أو نحو ذلك.

﴿وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ ولا يكسبنكم بغض قوم لأن ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي لا يسبب البغض للعدوان عليهم وإن كان سبب البغض أنهم صدوكم عن المسجد الحرام.

قال الشرفي في (المصابيح): «معناه: لا يحملكم بغض أهل مكة وعداوتهم بأن صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعاملوهم معاملة تتجاوزون فيها حدَّ الحق إلى الباطل» انتهى

الْحَنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ

قلت: ويحتمل أنه نهى عن قتالهم في الشهر الحرام لتقدم قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ فخص هذه الحالة لثلاث يتوهموا أن صدهم عن المسجد الحرام يحل قتالهم في الشهر الحرام، لقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وهذا أقرب عندي.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾  
التعاون: تفاعل من العون أن يجعل كل من المتعاونين قوته مع قوة أصحابه لتحقيق شيء باجتماع القوى عليه. و ﴿الْبِرِّ﴾ اسم جامع، وقد بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، وهي في (سورة البقرة) [آية: ١٧٧] ﴿وَالْتَّقْوَىٰ﴾ اجتناب المعاصي لطلب السلامة من العذاب، وأصل التقوى استعمال الوقاية لدفع المكروه.

و ﴿الْإِثْمِ﴾ الذنب المسبب للعذاب، قال في (الصحاح): «الإثم: الذنب» انتهى ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم والجور، ومنه القتال في الشهر الحرام، ولا يشترط في مفهوم المعاونة القصد لها، كما حققه الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في (رسالة التحذير) وقد طبعت، وهذه الآية جامعة لفوائد كثيرة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقوى الله: طاعته في كل أمره ونهيه؛ وختمت هذه الآية بهذه الجملة ليحافظ الذين آمنوا على ما في هذه الآية وإن شقت على الأنفس، كترك العدوان على الذين صدوا الرسول ﷺ ومن معه عن المسجد الحرام، وفي ذلك دلالة على الوعيد على أهل الصلاة.

وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا  
بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ  
وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ  
الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ كُلُّ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُم

﴿٢٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ  
وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾  
﴿الْمَيْتَةُ﴾ - بتخفيف الياء - التي ماتت دون أن تذبح أي لم تمت من الذبح،  
ويلحق بها ما قطع من أعضاء أي الأنعام وهي في الحياة قبل أن تذبح  
للحديث ﴿وَالْدَّمُ﴾ لا يجوز شربه رائقاً ولا أكله خائراً مطبوخاً.

و﴿الْخَنَزِيرِ﴾ حيوان بالشام وغيره معروف عندهم ولحمه عند الإطلاق  
يعم العروق والشحم؛ لأن الجملة يسمى لحماً، وإنما يختلف عند المقارنة حيث  
يقال: لحم وشحم ﴿وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ مر تفسيره في تفسير (آية البقرة)  
﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي يخنقها ما يحبس نفسها من حبل أو غيره فتموت.

كذا قال الإمام الهادي عليه السلام في المنخنة، وقال عليه السلام: «وأما الموقوذة:  
فهي التي ترمى على موقذتها، أو تضرب فتموت؛ وأما المتردية: فهي التي  
تردى من رأس الجبل أو من المطارة أو في البئر أو في غير ذلك مما تسقط فيه  
الدابة فتموت ولا يلحق ذكاتها، وأما النطيحة: فهي ما تنطحه البقرة أو  
الشاة منهن فتموت، وأما ما أكله السبع: فهي الدابة يقتلها السبع ولا تلحق  
ذكاتها فحرم الله ذلك كله إلا أن يلحق منه ذكاة فيذبح وفيه شيء من حياة  
فيكون حيثئذ ذكياً» انتهى من (الأحكام).

وقال الشرفي في (الموقوذة) وهي: «المقتولة بغير حد رجماً أو ضرباً بعصى، يقال: وَقَدَهُ، يَقْدُهُ، وَقْدًا: إذا ضربه حتى أشفى على الهلاك» انتهى.

وفي (الصحيح) وغيره نحوه، ولم أجد تفسير الموقوذة، وليست شرطاً، أعنى أن الوقْدُ ضربٌ ونحوه يؤدي إلى الموت في أي موضع من الجسد، ولعل أصل الموقوذة التي تضرب على موقذتها، ثم استعمل في التي تضرب ضرباً يؤدي إلى الموت على الإطلاق؛ لأن هذا هو المعروف في اللغة، وقوله عليه السلام: «أو من المطارة» قال في (الصحيح): «وبئر مطارة واسعة الفم» انتهى والأقرب: أن الإمام الهادي عليه السلام أراد المكان المرتفع الذي يطير منه الطائر لارتفاعه، لأنه عليه السلام قال: أو في البئر.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ﴾ والنصب: فهي آهتهم المنصبة التي كانوا يذبحون لها وعلى اسمها، ومعنى قوله: ﴿عَلَى النُّصْبِ﴾ فإنما هو للنصب» انتهى.

قلت: أصل مفهوم ﴿عَلَى النُّصْبِ﴾ حول النصب بحيث يكون الظاهر أنه ذبح من أجلها ولها، قال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صَحْبِي عَلِيٍّ مَطِيَّهُمْ  
يقولون لا تهلك أسأ وتجمل

ومثله لطفة بن العبد، وقال بدل (وتجمل) (وتجلد) والمراد: حولي مطيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النور: ٥٨] وفي حديث الهرة: «إنها من الطوافين عليكم» وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ لَتَمُرُّوا عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (الأزلام): جمع زلم، وهو قِدْح - بكسر القاف وسكون الدال - أي قطعة قوية صلبة تستعمل في الاستقسام، وفي الميسر: قال في (الصحاح): «والزَّلم - بالتحريك - القِدْحُ، قال الشاعر:

بات يقاسيها غلام كالزَّلم خدلج الساقين ممسوح القدم

وكذلك الزَّلم - بضم الزاي - والجمع: الأزلام، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها» انتهى.

وإنما قلت في الزلم: قطعة قوية صلبة؛ لأن الشاعر أراد مدح نفسه بالقوة على سوق الإبل أو الغنم التي ساقها وهرب بها، وقصته مذكورة في (المصابيح) في تفسير الآية التي قبيل هذه.

قال: «قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري أتى رسول الله ﷺ وحده وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه رسول الله ﷺ فقال إلى ما تدعو؟ فأخبره، وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه: «يدخل عليكم اليوم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان» فلما أخبره النبي ﷺ قال: لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقبى غادر، فمر بسرح من سرح المدينة فاستاقه، وانطلق وهو يرتجز ويقول:

قد لفَّها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا عنم  
ولا يجزار على ظهر وضم باتوا نياماً وابن هند لم ينم  
بات يقاسيها غلام كالزَّلم خدلج الساقين ممسوح القدم

ثم أقبل من العام القابل حاجاً قد قلد الهدي، فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، فنزلت هذه الآية حتى بلغ: ﴿وَلَا آمِينَ النَّبِيُّ﴾ انتهى المراد.



وقال في (المصاييح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَغْفِرُوا بِأَلْزَلِمِ﴾: قال في (البرهان): أي تطلبون علم ما قُسم أو لم يُقسم من رزق أو حاجة بالأزلام وهي قدام ثلاثة، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث: غفل لا شيء عليه، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو حاجة أو غزواً ضربوا بها واستقسموا، فإن خرج: أمرني ربي فعلوه، وإن خرج: نهاني ربي تركوه، وإن خرج الأبيض أعادوه، فنهى الله سبحانه عنه، فسمى بذلك استقساماً لأنهم طلبوا به علم ما قسم لهم انتهى.

قوله: «وإن خرج الأبيض أعادوه» المراد بالأبيض: الذي لم يكتب فيه، وقوله: أعادوه، أي أعادوا الضرب بها، والذي يظهر: أنهم يجعلونها في شيء يغطيها ويحيلونها فيه، ثم يخرجون أحدها وينظرون أيها خرج.

وقرينة هذا قوله: فإن خرج.. وإن خرج.. وإن خرج، فظهر: أن الضرب إجالتها وتحريكها بقوة لتختلط ويختلف وضعها عما كانت عليه عند جعلها في الظرف.

وقد قيل أن المراد: الاستقسام عند أن تذبح الجزور، وتقسم سبعة أقسام ثم يتقامرون عليها بأزلام عشرة، والأقرب: أن الآية عامة لذلك كله، وأن العرب كانوا يتوهمون أن ما أخذوه بالقمار مقسوم لهم، فالعموم بواسطة هذا المعنى.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ أي معصية وجرأة على الله وخطيئة كما أفاده تفسير الإمام الهادي عليه السلام، لغير هذه الآية، وتفسير (صاحب البرهان): «أنه خروج عن أمر الله وطاعته وهو فعل ما تقدم ذكره - أي الاستقسام المذكور» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا﴾ في تأويل المصدر معطوف على ما سبق أي وحرّم عليكم أن تستقسموا بالأزلام، فظاهرها: تحرّم الاستقسام بنفسه، وتفسيره بتحرّم أخذ الجزور بالقمار إخراج لها عن ظاهرها فهو تأويل، ولو قيل: وما استقسموه بالأزلام لكان ظاهراً، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فُسْقًا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ولا حاجة إلى التأويل؛ لأنّ تحرّم الاستقسام بالأزلام يستلزم تحرّم ما أخذ بناء على أنه مقسوم اعتماداً على الاستقسام بالأزلام، وهو محرم لا يفيد أنه مقسوم، فهو مازال ملك مشري الناقة، أو ذابح الناقة، أو صاحبها، أو قد حرمت بالنحر على وجه محرم ليس ملك الذي أخذه بالاستقسام بالأزلام، فهو حرام عليه وعلى المساكين الذين أعطاهم هذا المستقسم.

﴿الْيَوْمَ يَبْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ ﴿الْيَوْمَ﴾ قد أظهر الله دينة فما بقي للكفار طمع في إذهابه، لأنهم قد أيسوا من قدرتهم على ذلك لقوة الإسلام بقوة أهله، واجتماع كلمتهم، وطاعتهم لقائدهم، وصبرهم على القتال في الدين ﴿وَاخْشَوْنَ﴾ ليبقى لكم دينكم وعزكم، فلا تغيروا ولا تبدلوا، واثبتوا على ذلك في حياة الرسول وبعده.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بكمال الشرائع ومطابقتها للحكمة فالتكاليف والأحكام قد نزلت على الرسول ﷺ كلها كاملة محكمة ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بإكمال الدين وجمعكم عليه أخواناً، قد أَلَّفَ بين قلوبكم فتمت لكم العزة، وحصل لكم الأمن في دينكم بتمكينه في الأرض. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ارتضيت لكم إسلام أنفسكم ووجوهكم لله ﴿دِينًا﴾ تدينون الله به؛ لأنه الحق وفيه لكم السعادة الدائمة في الآخرة والنجاة من النار، وأنتم أهل لذلك بشركم للنعمة، واستحقاقكم للهداية للإسلام والتوفيق له.

فإن قيل: فكيف دخلت هذه الجملة في حوادث اليوم المذكور، وهو يرضى لهم الإسلام ديناً من قبله؟

فالجواب - والله أعلم: أنه رضى زائد على ما سبق؛ لأنهم أتموا أركان الإسلام بالحج من بعضهم، وبغزهم عليه وسفرهم له من بعضهم ونشر كثير من أحكام الحج وغيره وتعلمها تلك الأيام، وكثرة العبادة والخشوع في مناسك الحج في عرفات وعند البيت وسائر المواقع، فقد رضى الله عنهم وأراد لهم الخير وأسباب الجنة والسعادة الدائمة فوق الرضى السابق.

ومعنى الرضى: غايته كمعنى الرحمة أي أن يفعل سبحانه فعل المحب الراضى والرضى في المخلوق ضد الكراهة والبغض، فالحب داخل في معنى الرضى؛ ولذلك جاء في الحديث الشريف: «وَمَنْ الَّذِي إِذَا رَضِيَ لَمْ يَدْخُلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ، وَمَنْ الَّذِي إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنَ الْحَقِّ».

أما اليوم المذكور، فهو اليوم الذي كملت فيه الأحكام ونزولها على الرسول ﷺ، ولعله يربطه بهذه الآية أن هذه الأحكام التي فيها على التفصيل الشامل للمقتولة من الأنعام آخر ما نزل من الأحكام، وليس المراد أن إكمال الدين بها، بل بإكمال الدين كله، ومنه: تحريم الميتة والمقتولة، كما يكون إتمام خلق الإنسان بخلق بنانه، فإذا تم الشيء بتحصيل آخر جزء منه وإن كان صغيراً صح أن يقال اليوم تم.

ولا ينافي أن ذلك (يوم عرفة) أو (يوم الغدير) فلعل ولاية أمير المؤمنين قد نزلت قبله بكثير، وذلك يوم إنذار عشيرة الرسول ﷺ أو في (تبوك) فإنزالها يوم عرفة ثم يوم الغدير تأكيد لما سبق.

ويمكن أن يقال: أنه وإن كان تأكيداً باعتبار فهو حكم جديد باعتبار تجديد التشريع والأمر والتكليف لوجوب امتثاله آخرأً كما وجب امتثاله أولاً، فمن هنا تكون ولاية أمير المؤمنين عليه السلام من حوادث يوم الغدير، ويكون إكمال الدين بما حدث منه في ذلك اليوم من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وغيرها.

والمراد بإكمال الدين - كما مر - إنزاله على الرسول ﷺ كاملاً، ومنه ولاية أمير المؤمنين، فهي حكم من أحكام الدين لا أنها تضمنت بقية الأحكام كما يزعم بعض الشيعة، كأنهم أرادوا أن إكمال الدين تبليغ الرسول ﷺ بعضه إلى الناس كافة، وإحالتهم في البعض الآخر إلى علي عليه السلام ليبلغه، وهذا غير معنى الآية عندنا.

بل إكمال الدين بإنزال ولاية أمير المؤمنين عليه السلام التي فيها تشريع القيادة التي تحمي الإسلام وتدفع عنه المفسدين، وتنفذ أحكامه بدفع التظالم، وإقامة الحدود، ونصب الولاية والحكام وغير ذلك، وهداية من يهتدي بالمواعظ والحكم والآداب، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلوات والجمع، وإيتاء الزكاة، ونشر المعلمين في بلاد الإسلام والمرشدين ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١] وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ الآية [آل عمران: ١٠٤].

وعلى القائد المسلم ما على العلماء من التعليم وإبلاغ الشرائع والوجوب عليه أكثر، لأن الحاجة إليه أكثر وهو أقدر؛ هذا في القيادة جملة، فأما أمير المؤمنين علي عليه السلام فيجب اتباعه وهو طريق من طرق الشريعة، لأنه «مع الحق والحق معه» وقد بسطت هنا للحاجة إليه.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾  
 ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أُلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ وَهِيَ الْجُوعُ الَّذِي يَخْشَى مِنْهُ التَّلَفُ، أَوْ  
 الْمَرَضُ الَّذِي يُلْجِئُ خَوْفَهُ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَ(المَخْمَصَةُ): الْجَمَاعَةُ سِوَاءَ كَانَتْ  
 عَامَةً لَهُ وَلِغَيْرِهِ أَمْ خَاصَّةً بِهِ حَيْثُ لَا يَجِدُ مَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنَ الْمَيْتَةِ أَوْ الْمَقْتُولَةِ.

﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ قَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «أَصْلُ الْجَنْفِ: مِيلٌ فِي  
 الْحُكْمِ فَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢] أَيُّ مَيْلًا ظَاهِرًا، وَعَلَى  
 هَذَا غَيْرُ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ أَيُّ غَيْرِ مَائِلٍ إِلَيْهِ» انْتَهَى، فَيَشْتَرِطُ أَنْ لَا يَأْكُلُ مِنْهَا  
 إِلَّا لِأَنَّهَا أُلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ لَا مَيْلًا إِلَى أَكْلِهَا حَرَامًا، وَقَدْ مَرَّ زِيَادَةُ تَحْقِيقِ فِي  
 تَفْسِيرِ (آيَةِ الْبَقَرَةِ) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلِذَلِكَ لَا يُوَاخِذُ الْمُضْطَرُّ غَيْرَ  
 الْمُتَجَانِفِ لِإِثْمٍ.

قَالَ فِي (المصابيح): «قَالَ إِمَامُنَا الْمَنْصُورُ بِاللَّهِ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ  
 تَعَالَى: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الشُّظَا وَمَا لَا ذِكَاةَ لَهُ، إِلَّا مَا  
 اسْتَشْنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ السَّمَكِ وَالْجَرَادِ، وَعَلَى تَحْرِيمِ جَمِيعِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ  
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَهِيَ نَصُوصٌ صَرِيحَةٌ، وَعَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْحَقِّ إِذَا كَانُوا  
 فِي مَنَعَةٍ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ التَّخَوُّفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ قَصْدُهُمْ لِإِقَامَةِ  
 الدِّينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ إِلَى آخِرِهِ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ  
 عَلَى أَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا نَقْصَ فِيهَا فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى رَأْيِ الْمُبْطِلِينَ وَأَنَّ اللَّهَ  
 قَدْ أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ وَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِيَمَا يَسْأَلُ اللَّهُ عَنْهُ  
 مِنَ النَّعِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [النكاثر: ٨] وَأَنَّ رِضَى  
 اللَّهِ بِالْإِسْلَامِ، فَيَحِبُّ الرِّضَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا رَضِيَ لَهُمْ سَبْحَانَهُ» انْتَهَى

مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ  
وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠٤﴾ أَلْيَوْمَ أُحِلَّ

وقد يستدل بالآية على إبطال القياس، ولكن إذا ثبتت علة الحكم بالدليل الشرعي جرى ذلك مجرى عموم الحكم للفرع، وقد سماه بعض الإمامية: عموماً وأثبتوه مع نفيهم للقياس، ولذلك لا يخفى تحريم ما نزل الماء عليه فقتله كالمنخقة؛ وقد يقال: هو من المنخقة؛ لأنه لا يشترط أن تنخق بجبل أو عودين وقد خنقها الماء؛ والأولى في المثال: ما جرح بحدٍ لغير ضرورة في غير المذبح فمات، فإن من فهم تحريم المذكورات لأجل أسباب هلاكها، وهذا سبب هلاك مثلها يفهم تحريمها، وهذا مع قوله الله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ولا يمكن الرد فيما لم يتناوله الحكم إلا بالقياس المذكور.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة يسألك الذين آمنوا ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ لعل المقصود ماذا أحل لهم من المأكولات ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ منها، ويحتمل ماذا أحل لهم العموم فيتناول السؤال المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات، فيكون قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ عاماً لها كعموم السؤال وإن كان السياق في اللحوم كما يأتي قريباً في النكاح، وهو خارج عن السياق.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ ما علمتم اسم شرط وفعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا﴾ جواب الشرط يدل على أن ما صاده الكلب المعلم إذا تمت الشروط حلال طيب، وتعليم الكلب تعليمه ليجيب صاحبه ويأتمر بأمره إذا أرسله على الصيد سواء كان جائعاً أم شبعاناً.



قال الإمام القاسم عليه السلام فيما رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) عن أبيه عن جده: «المكْلَبُ فهو المغري، وإكلاب الكلب فهو الإغراء، ولا يكون ذلك من المغري للكلاب إلا إشلاء وأمرًا».

قلت: يظهر أن التكليل: تحصيل الكلب على الصيد في الكلب بإشلائه على الصيد، أي إرساله؛ لأنه قد تعلم الإمثال فيحصل فيه الكلب على الصيد ولو كان شعبان، ولذلك قال الإمام القاسم عليه السلام: «والمكْلَبُ: هو المغري لأن أمر صاحبه له يكون إغراء له بسبب تعليمه».

وقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ يفيد: أن هذا من نعمة الله علينا لأنه علمنا كيف نعلم الكلاب وغير ذلك فعلينا أن نشكر النعمة ولأنه الذي سخر لنا الكلاب وأعدّها لذلك سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ دليل على حل الصيد بامساك الكلب له علينا أي ما أمسكن عليكم من الصيد، ومعنى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حولكم أو حولكم من أجلكم، قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي لا تفارقها والفراق كناية عن الطلاق، وقد أفاد هذا المعنى في (مغني اللبيب) حيث قال في (على): «تكون للاستعلاء، إما على المجرور وهو الغالب، أو على ما يقرب منه، نحو ﴿أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُنَّ﴾ [طه: ١٠] انتهى».

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعتها صفونا

قال شارحها: «يقول: قتلناه وحبسنا خيلنا عليه وقد قلدناها أعتها في حال صفونها عنده» انتهى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾ وقد مر تفسيره؛ وفائدة: اشتراط أن يكون الإمساك عليكم: أن يترك منه ما لم تمسكه إلا بعد غيابها عن صاحبها وغياب الصيد فأمسكته في غيابها إذا لم تدرك ذكاته؛ لاحتمال: أن يكون تردى مع الفرار فأعان التردى على قتله، أو أنه أعان عليه شيء مجهول.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «حدثني أبي، عن أبيه: أنه سئل عما قتل الكلب والصقر؟ فقال: ما قتل الكلب المعلم فحلال عندي أكله، وذكاة ما قتل الكلب المعلم فهو قتله له يؤكل ما قتل وإن أكله إلا أقله، ولا أعلم فيما أحببتك به في هذا اختلافاً بين الناس، إلا ما ذكر فيه من خلاف عن ابن عباس...» إلى قوله: «وظننت أن ابن عباس تأول في ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فكان عند ابن عباس أكله له غير إمساك منه على من أرسله، وهو عندي فقد يمسك بالقتل أكثر الإمساك، والمذكور المشهور أن عدي بن حاتم، وأبا ثعلبة الخشني، سألا رسول الله ﷺ عن أكل الكلب المعلم يأكل من صيده فأمرهما بأكل فضله، وقال أصحاب رسول الله ﷺ كلهم إلا ابن عباس وحده من بينهم: يؤكل فضل الكلب المعلم وإن لم يبق من الصيد إلا بضعة من اللحم» انتهى المراد.

وقد عني الإمام القاسم عليه السلام: أن الصيد قد حل بإمساكه قبل أن يأكله فلا يحرم بالأكل؛ لأن حله قد سبق الأكل، ثم قال عليه السلام: «فأما ما قتل الصقر والبازي، فأعجب ما قيل فيه من القول إليّ: أنه ليس بذكي؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿مُكَلَّبِينَ﴾ ولم يقل: ما علمتم مصقرين، والمكَلَّب فهو المغرى...» إلى قوله عليه السلام: «والصقر لا يؤمر ولا يشل» انتهى.

وهو يعني أن الصقر لا يقبل التعليم والتكليب، وإنما يجيب إلى الطعام لحاجته ويذهب إلى الصيد إذا كان جائعاً لا لأمر صاحبه، لأنه إذا كان شعبان لا يأتمر.

قال الإمام القاسم عليه السلام: «فإن كانت حالة الفهود كحالها - أي كحال الصقور - لا تشلاً ولا تؤمر فلا يحل أكل فضول أكلها، وإن كانت تؤمر وتشلاً فتأتمر فهي كالكلب يؤكل ما أفضلت وذكي ما قتلت؛ وبهذا فيما بلغني كان يقول علي عليه السلام وابن عباس وابن عمر» انتهى.

يعني: أن الفهد كالكلب إذا كان يقبل التكليل بالتعليم، فأما أكل الفضل فقد مر خلاف ابن عباس؛ وقد نقلت هذا الكلام لما تضمن من تفسير الآية.

فتحصل أن المعنى: ما علمتم من الكلاب وغيرها من الجوارح التي تجرح الصيد، وأن تعليمها جعلها تأتمر بأمر صاحبها من حيث أنه يحصل فيها بأمره كَلْبٌ وشبق على الصيد فتسرع إليه بسبب التعليم الذي جعلها يحصل فيها الكَلْبُ على الصيد.

وأن معنى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ مما أمسكن حولكم ولا إشكال أن الإمساك من أجل صاحبه لأنه بسببه، فسواء قلنا عليكم: حولكم، أو قلنا عليكم: حولكم من أجلكم؛ لأن الكلب أمسكه بسبب الكَلْب عليه والكلب عليه بسبب الإرسال، وأن أكل الكلب من الصيد أو تركه خارج عن معنى التعليم والتكليل.

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هذا أمر وجوب، فيجب ذكر اسم الله على الكلب عند إرساله، أو على الصيد عند إرسال الكلب كما في الروايات.

وظاهر الرواية: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ﴾ للكلب، أي واذكروا اسم الله على الكلب عند إرساله، كأنه قيل: إرسال الكلب على الصيد باسم الله أي بحكمه وإذنه وإباحته، كما يقول الذابح: (باسم الله).

والرواية في (أمالى أحمد بن عيسى): أخبرنا محمد، قال: أخبرنا محمد بن عبيد، قال: أخبرنا محمد بن فضيل، عن زكريا، عن عامر، عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد الكلب؟ قال: «إن وجدت عنده كلباً آخر فخشيت أن يكون أخذ معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكر اسمه على غيره» انتهى.

زكريا هو (ابن أبي زائدة) وعامر هو (الشعبي) وذكر صاحب (رأب الصدع): أن هذا الحديث متفق عليه، يعنى بين البخاري ومسلم.

قلت: وسنده على شرط (صاحب الصحيح المختار) من أصحابنا إلا بن فضيل وزكريا، وقال سيدي عبد الله بن الهادي في (الجداول) في (ترجمة محمد بن فضيل): «عداده في ثقات محدثي الشيعة» انتهى، وقال في زكريا: «وعده المنصور بالله من رواة العدلية» انتهى، قلت: ومع كونه كوفياً هو مظنة التشيع ولم أجد ما يدل على ميله.

وقال المؤيد بالله ﷺ في (التجريد) و(شرحه): «إذا أرسل المسلم الكلب المعلم على الصيد وسمى حين أرسله فأخذ الكلب الصيد فقتله قبل أن يلحق صاحبه ذكاته جاز أكله، وهذه الجملة لا خلاف فيها» انتهى، وهذا يؤكد: أن الضمير للكلب، فأرساله على الصيد بمنزلة الذبح في التسمية - والله أعلم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا تحذير من أكل الصيد بدون تمام الشروط، كأن يكون الكلب غير معلم، أو يصطاد بدون إرسال صاحبه المسلم، أو لا يكون قريباً منه بحيث لا يعلم أنه الذي قتله بإرساله، أو يعينه كلب آخر لم يرسله أحد، أو غير معلم، وسرعة الحساب تستلزم توفية الجزاء بحيث لا يغفل عن مثقال ذرة.

لَكُمْ الطَّيِّبَتُ<sup>ط</sup> وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ<sup>ط</sup> وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥٠﴾

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَتُ<sup>ط</sup> وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ ﴿الْيَوْمَ﴾ هو يوم نزول الآية، وعبارة (اليوم) مما يشير إلى ضرورة اعتبار الوضع بالنسبة للمسلمين ولأهل الكتاب.

وهذا واضح بالنسبة لوقت نزول الآية، فالمسلمون كانوا في قوة ومنعة، وأهل الكتاب على النقيض من ذلك، وهذا ما يدعو إلى القول بضرورة التفريق بين مدلول الآية في مرحلة نزولها، ومدلولها في هذا العصر الذي استقوى فيه أهل الكتاب، وكبرت مؤامراتهم على المسلمين، فيكون مدلول الآية باعتبار الوضع كما أسلفت، وهذا ما تشير إليه عبارة (اليوم) في بداية الآية - والله أعلم.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَتُ﴾ تأكيد للإحلال المذكور سابقاً، وتمهيد لإحلال طعام الذين أوتوا الكتاب كما مهد لإحلال صيد الكلاب، بقوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ فيدل على أنه من الطيبات.

و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اسم للذين رزقوا علم التوراة، ولا يشمل الجهلة الذين ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] بل هم من أهل الكتاب، فالإيتاء من الله يشعر في بعض المواضع بالتعليم، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فلا يقال للجاهل ولو قرأ ألفاظ الحكمة وهو لا يعلم معناها، لا يقال: (أوتي الحكمة) ولذلك قال تعالى في علمائهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧] كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] مع أنه قد يطلق ويراد أهل الكتاب جملة على طريقة التغليب، أو لحكمة يقتضيها سياق الكلام.

والمراد بطعامهم: ما سلم من سبب آخر يمنع من أكله، لا ما أخذوه بالربا، أو نجسوه بالخمر، أو لحم الخنزير، أو بغيرهما من النجاسات، فهو واضح في التمر والحبوب.

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ هُمْ﴾ يفيد: جواز إطعامهم، ولعله في أهل الذمة ونحوهم إذا كانوا في وضع لا يشكلون خطورة على المسلمين لضعف حالهم كما هو الحال في مرحلة نزول الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ...﴾ الآية [المتحنة: ٨] فمثل هذا الترخيص لا يدل إلا على أنه غير ممنوع من هذه الجهة التي علق عليها الترخيص، ولا يدل على أنه رافع لكل مانع، ومبطل لأدلة الموانع الأخرى.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] لا تدل إلا على أنه لا مانع من ذلك من جهة الصيام وليس رافعاً لكل مانع، فلا يدل على إباحة مقاربة الحائض ليلة الصيام، ولا على جواز أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير ليلة الصيام، وهذا واضح.



وعلى هذا: فلحومهم التي لم تذبح على الطريقة الإسلامية لا تحل، أما ما علمنا أنهم ذبحوه على الطريقة الإسلامية فإن كان الإسلام شرطاً في صحة الذكاة، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ والخطاب للذين آمنوا فذبحهم مانع من حل اللحم، وإن لم يكن الإسلام شرطاً وقد طابق الذبح الصفة المشروعة لم يبق إلا الإسلام فلا يكون مانعاً، فالآية هذه لا تدل بنفسها على حل ذبائحهم، بل لا بد من دليل آخر، وإلا فالظاهر التحريم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

فإن قيل: فما فائدة الترخيص إذا لم يكن المقصود حل اللحم؟

قلنا: هي كقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] لأنه قد يتوهم وجوب تركهم مبالغة في معاداتهم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ذكر المحصنات من المؤمنات في هذا السياق قد يكون تمهيداً لقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ على أن المراد المؤمنات من الذين أوتوا الكتاب، فهن حل لكم لأنهن مؤمنات، وهذا تفسير الإمام الهادي عليه السلام، وقد احتج له في (الأحكام) بما يكفي فليراجع في (كتاب النكاح) من (الأحكام).

ويؤكد أنه استعمال قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في علمائهم الذين قد آمنوا أظهر؛ لأنه مدح كما بينت، ومن أعظم مؤكداته: أن نكاح اليهودية والنصرانية مظنة أن تستخدم من قبل الكفار لإدخال الضرر على المسلمين في أي جانب وبأي طريقة وخاصة في هذا العصر الذي يحرص اليهود والنصارى على إدخال الضرر على المسلمين، وإفسادهم بمجد وعناية كبيرة.

كما أن نكاحها مظنة أن يكون لها أولاد تربيههم على دينها إذا مات زوجها أو غاب، مع أن كثيراً من المسلمين يغفلون عما يجري على أولادهم من التربية على الباطل، وخصوصاً العامة من المسلمين الذين لا يهمهم إلا أعمال دنياهم، فكيف يحل من يدعو إلى النار، وقد علل تحريم مناكة المشركين بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١] ومثل هذا لا يتصور أن يتخلف، فيشرع الله الدعاء إلى النار ويترك الدعاء إلى الجنة.

فإن قيل: إباحة المؤمنات من أهل الكتاب أمر مفروغ منه، فما فائدة ذكره؟

قلنا: إنه وإن كان أمراً مفروغاً منه في وقت الرسول ﷺ فيمكن أن التصريح به جاء لأجل المستقبل، ألا ترى أن في بلدنا هذه يتنزهون من نكاحهن ويعتبرونه معيباً، مع أنه تعالى قد قال: ﴿وَالْأَخْصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وحلهن أمر مفروغ منه، فما المانع في المعطوف عليهن، وأن يكون من عطف الخاص على العام.

ولو قلنا: أنها في الكافرة لقلنا فيها كما قلنا في الطعام، وإن شرطها أن لا يكون فيها مانع آخر غير كونها من الذين أوتوا الكتاب، فإذا كانت مشركة حُرمت لأجل الشرك، كما لو كانت أختاً من نسب أو رضاع، بل لو كانت قد أشركت فيما مضى ثم تركت فلا تحل، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١] فلا يرفع تحريمها مجرد الترك ولا يرفعه إلا الإيمان؛ ولعل الحكمة أن القلب قد يكون باقياً على الشرك، وقد يكون مستعداً للعودة فيه ما لم تؤمن.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ

﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾  
 ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فتحرم من منعها زوجها المهر  
 ظلماً، ولعل هذه هي فائدة ذكر المحصنات من المؤمنات لأنه حكم جديد  
 ﴿مُحْصِينَ﴾ بهذا النكاح، والإحصان الحماية عن الحرام فهو يحمي نفسه  
 وعرسه ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ توضيح لمعني الإحصان، والسفاح الزنا ﴿وَلَا  
 مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ قال الراغب: «قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾  
 جمع خِذْن، أي المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة، يقال:  
 خِذْنُ المرأة، وخدينها» انتهى. وقد مر في (سورة النساء) تفسيره.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله ﷺ: «دلت الآية  
 الكريمة على حل كل طيب والمحصنات من المؤمنات، وهن العفيفات من  
 الزنا، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهم الذين لم يشركوا بالله من  
 اليهود والنصارى دون من أشرك منهم...» الخ.

قلت: والأقرب: أنه لا يدخل فيها من تهود أو تنصر من غير بني إسرائيل  
 إذا كان المراد الكافرات، فأما اللاتي أسلمن فهن حل كلهن.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾  
 ﴿يَكْفُرُ﴾ بالإيمان يرجع عنه ويرفضه ويقطع عنه، مثل ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾  
 [المنحة: ٤] ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [النكبت: ٢٥] ﴿فَقَدْ حَبِطَ  
 عَمَلُهُ﴾ الماضي حين كان مؤمناً، فلا ينفعه ما سبق من إيمانه ﴿وَهُوَ فِي  
 الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير،  
 وصاروا في شقوة لا تنقطع، وهذا حث على الثبات على الإيمان.

إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾ وَاذْكُرُوا

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ لما كانت الصلاة في الغالب تكون في المسجد يقوم إليها الإنسان من مسكنه إما بعد النوم كالفجر، وإما بعد راحة الظهر كالظهر، وإما بعد الراحة من عمل النهار كالمغرب، وإما بعد العشاء - بفتح العين - قال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا تهيأتم لها.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ استعداداً لها، وذلك يستلزم النية، والوجه ما بين الأذنين من قدام، وحده من أعلا مقاص الشعر ومن أسفل منتهى الذقن. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فاليد كلها تغسل إلا ما فوق المرفق، والمرفق ما يرتفع عليه عند الإتكاء مجمع العضد والذراع.

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ ماءً، وقد أفاد الماء ذكر الغسل والسياق للتطهر وفي المسح بالماء تنظيف لظاهر الشعر، ومسح يتعدى إلى مفعول به فيختلف باختلاف المقصود، فإذا كان المقصود تخفيف اليد مثلاً، قلت: امسحها بالمنديل؛ لأنها هنا ليست آلة بل المسح موجه إليها واقع عليها، وإذا كان المقصود إزالة ما في اليد من ماء أو دهن أو دم، قلت: امسحه بالأرض أو برأسك أو برجلك أو نحو ذلك؛ لأن المسح موجه إلى ما في اليد واقع عليه، ومنه ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي ماء.

وفي التيمم في (سورة النساء) ﴿فَمَسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [آية: ٤٣] أي منه كما صرح به في (المائدة) ومنه الحديث: «إن رسول الله ﷺ وطئ بَعْرَ بَعِيرٍ رطب فمسحه بالأرض وصلى ولم يحدث وضوء ولم يغسل قدماً» رواه (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) و (أمالى أحمد بن عيسى).

والحديث الآخر: «فأمسَّ إبهامه أنفه فإذا دم، فأعادها مرة فلم ير شيئاً فأهوى بها إلى الأرض فمسحه، ولم يحدث وضوءاً ومضى إلى الصلاة» رواه (المجموع) و (أمالى) وفي (نهاية ابن الأثير).

وفي حديث فرس المرباط: «أن علفه وروثه ومسحاً عنه في ميزانه» يريد مسح التراب عنه. انتهى.

فالمفعول محذوف كما في الآية، وبهذا يظهر معنى (الباء) وأنها لإلصاق الماء بالرأس كما في ﴿فَمَسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء: ٤٣] لإلصاق بعض من الصعيد بالوجه، وأنها ليست زائدة؛ مع أن الإثبات لا تزداد فيه (الباء) إلا في نحو: بحسبك درهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٧٩] ومواضع مخصوصة، وهو سماعي لا يقاس عليه.

﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، فالرجل كلها تغسل إلا ما فوق الكعبين من الرجل، والكعبان: عظمان في أسفل الساق، وهما المقصود هنا بدليل التثنية؛ لأن الأرجل مجموعة، فإما أن يلحظ الجمع فيقال: إلى الكعب مثل إلى المرافق، وإما أن يلحظ الفرد، فلو كان المراد في القدم الواحد كعب واحد كعب الشراك لقل إلى الكعب، ولو قيل: والرجلين بالتثنية صح أن يقال: إلى الكعبين لتثنية الرجلين مع كون المقصود كعب الشراك، إذا كان حقيقياً وفيه نظر.

قال الراغب: «كعب الرُّجُل: العظم الذي عند ملتقى القدم والساق» ولم يذكر غيره، وقال في (الصحاح): «الكعب: العظم الناشز عند ملتقى الساق والقدم، وأنكر الأصمعي قول الناس: إنه في ظهر القدم» انتهى والوجه في غسل الكعبين: أن الغاية إذا احتمل دخول ما بعدها واحتمل خروجه كان هنا وفي المرفقين محمولاً على الدخول، لأن الأمر قد عم الأرجل والأيدي، فالأصل مع الالتباس الغسل إذا لم يتحقق الخروج من الحكم مع أنه أحوط.

وظاهر الآية: وجوب الوضوء عند كل قيام إلى الصلاة، فإن قام إلى كل فريضة قياماً توضاً لكل فريضة، وإن قام إلى الصلاتين قياماً واحداً توضاً لهما وضوءاً واحداً، فالحكم تابع للقيام.

وفي (أمالى أحمد بن عيسى): «حدثنا محمد حدثنا جعفر بن محمد، قال سألت قاسم بن إبراهيم عن الرجل يصلي الصلوات بالوضوء الواحد؟ فقال: قد أمر الله بالوضوء عند ما يقوم إلى الصلاة وهو المحكم عندنا...» الخ

نعم قولنا: بغسل الرجلين، هو العمل بقراءة (النصب) وهي القراءة المشهورة في العالم لم تختلف فيها قراءة حفص ونافع، وحمل العطف على المنصوب لفظاً وحكماً أقوى من دعوى أنه منصوب بالعطف على محل (رؤوسكم) لأن العطف على المنصوب لفظاً وحكماً ظاهر لا إشكال فيه.

وإن ادعى بعض الإمامية: أنه لا يجوز لأجل الفصل بقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾؟

قلنا: الفصل لا يمنع، وهو موجود في مواضع كثيرة في القرآن الكريم كآية التي قبيل (آية الوضوء): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ عطف على ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ وقد فصل ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.



والعطف مع الفصل في (سورة الأنعام) في مواضع منها: قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ \* وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ \* وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آية: ٨٤-٨٧].

فانظر كيف عطف: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على جملة: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ثم عطف ﴿زَكَرِيَّا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ وقد فصل بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم عطف إسماعيل، وقد فصل بقوله: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ثم عطف ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ ثم عطف: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ على ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ أي وهدينا من آبائهم، وقد فصل بقوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ثم عطف قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ على ﴿نُوحًا هَدَيْنَا﴾ وما بعده، وقد فصل بما ترى، فالعطف مع الفاصل لا وجه لمنع ولا استبعاد.

وقال في (مغني اللبيب) في أقسام العطف: «أحدها العطف على اللفظ وهو الأصل» انتهى، ولم يشترطوا عدم الفصل.

وأما قوله: إن العطف على أقرب ملفوظ هو الأصل، فلا نسلم أنه الأصل إلا إذا استوى المعطوف عليه الأقرب والأبعد، ولم يكن مرجح إلا القرب، فأما إذا كان العطف على اللفظ والمعنى فهو أرجح من العطف على المحل؛ لأنه تأويل خلاف الظاهر؛ لأن الأصل العطف على اللفظ، مع أن العطف على المحل لا يجوز إلا بشروط لم تحصل هنا؛ لأن من شروطه إمكان ظهور الإعراب في المعطوف عليه في الفصيح من الكلام، مثل: ليس زيد بقائم ولا قاعداً، ومنه قول الشاعر:

فلنسنا بالجبال ولا الحديد

فيصح: ليس زيد قائماً، ولسنا الجبال بالنصب الظاهر، وفي الآية لا يصح حذف (باء الإلصاق) وإيصال الفعل بنفسه، فاختل شرط العطف على المحل.

فإن قيل: لو قيل: (وامسحوا رؤوسكم) لجاز؟

قلنا: هذا ليس على حذف (باء الإلصاق) وتعديّة الفعل بنفسه، بل يكون (رؤوسكم) مفعول به، وهو استعمال آخر جعل فيه الممسوح هو الرأس، وإنما المثال لو قال: (وامسحوا رؤوسكم ماءً) أي برؤوسكم، فهذا لا يصح، فلهذا قلت: لا يصح حذف (باء الإلصاق) فاختل شرط العطف على المحل، أما ليس زيد بقائم فإنه استعمال واحد تحذف فيه الباء أو تزداد.

فإن قيل: نختار أن (الباء زائدة) والأصل: (وامسحوا رؤوسكم)؟

قلنا: لا يصح حمل القرآن على العدول عن الاستعمال الصحيح الفصيح إلى ما لم يثبت جوازه، لأن ذلك مغل بالفصاحة ومخالفة للظاهر؛ لأن المتبادر المعنى الثابت للباء الذي هو الإلصاق بلا خلاف المشهور بين العرب لا غرابة فيه ولا شذوذ، فالعدول عنه بلا حجة من عطف القرآن على الرأي والتحكم في التفسير.

وكون الباء للإلصاق معنى ذكره النحاة قال (صاحب مغنى اللبيب) في معاني (الباء المفردة): «أولها الإلصاق، قيل: وهو معنى لا يفارقها، فلهذا اقتصر عليه سيويوه» انتهى

وفي (المفصل): قال: والباء معناها الإلصاق، كقولك: به داء أي التصق به وخامره - ثم قال - : ويدخلها معنى الاستعانة، وذكر بقية المعاني، فقد جعل الإلصاق هو المعنى الأصلي.

قال ابن يعيش في (شرح المفصل): «واللازم لمعناها الإلصاق» انتهى، وابن الحاجب صدر الإلصاق في معاني (الباء) ولم نجد أحداً ذكر خلافاً بين النحاة في ذلك، فالظاهر إجماعهم عليه، وأما دعوى أن (الباء) للتبويض فلا دليل عليه.

وقولهم: إنه لا بد لها من فائدة وليست إلا التبويض؟

قلنا: لا نسلم انحصار الفائدة في التبويض، وقد بينا الفائدة وأن الرأس في الآية ليس هو المفعول به، بل المفعول به محذوف وهو (الماء) وإنما الرأس يلصق به الماء، فهي فائدة ظاهرة اقتضتها اللغة الثابتة، أما استعمال (الباء) للتبويض فلم يثبت، وتفسير القرآن به فرع ثبوته قياسياً، ولا يكفي وجوده في كلمة مخصوصة كما قلنا في استعمالها زائدة.

وأما قول بعض الإمامية أن: (أرجلكم) معطوف على (رؤوسكم) لأنه الأقرب، وإعمال الأقرب في باب التنازع أولى؟

قلنا: لا يصح القياس على التنازع؛ لأن طريقته استعمال خاص بتوجه عاملين مختلفين إلى معمول واحد وليس مما نحن فيه ولا يقاس عليه العطف، لأن اللغة لا تثبت بالقياس، مع أن النحاة اختلفوا في باب التنازع هل الأول أولى بالإعمال لسبقه أو الثاني لقربه، مع أن هذا حيث يجوز العطف، وقد بينا أن الأصل المتبادر العطف على اللفظ وأن العطف على المحل اختل فيه جواز العطف على المحل باختلال شرطه.

فإن قيل: إن الرواية عن بعض الأئمة تفيد: أن (الباء) للتبويض؛ لأنهم احتجوا على التبويض بوجود (الباء)؟

قلنا: الرواية عنهم غير صحيحة عندنا، ولو صحت لاحتمل أنهم أرادوا أنها للإلصاق، وأن الإلصاق يحصل بإلصاق الماء ببعض الرأس كما تقول:

(لصقت بجدار الكعبة) وإنما لصقت ببعضه، وهذا نظر واجتهاد لا حكاية لغة للعرب بإثبات أن (الباء) للتبويض، وقد اعترف الطوسي بأن (الباء) تأتي للإلصاق، ولكنه نفى أنها في الآية لذلك، وقد بينت أنها للإلصاق بما فيه كفاية.

ولو قيل: أن (الباء) في قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ للظرفية، والمعنى: امسحوا فيها ماء وكذا في آية ﴿فَلَمَسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي امسحوا وجوهكم من الصعيد، فالرأس محل للماء، والوجه محل لبعض الصعيد لكان محتملاً؛ لأن (الباء) تستعمل للظرفية بلا إشكال، والمعنى واحد، وامتناع العطف على المحل فيها وفي (باء الإلصاق) واحد لاختلال شرطه؛ وقد طولت هنا لكثرة ما وقع من الجدل في هذا الموضوع مع بعض الإمامية.

وقد احتج بعضهم للعطف على المحل بنحو ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَآئِي لَهُ وَبِئْرُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] في قراءة جزم (يذر) عطفاً على محل ﴿فَلَا هَآئِي لَهُ﴾ وهو من إثبات اللغة بالقياس؛ لأن هذا مع عدم ما يعطف عليه لفظاً، وهو في الفعل وفي العطف على جملة قامت مقام الفعل المجزوم، ونحن في العطف على المفرد للمفرد وقد مر ذكر شرطه.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ حين تقومون إلى الصلاة ﴿جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ من الجنابة بالغسل؛ لأن الجنابة مانعة من الصلاة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ [النساء: ٤٣] والتطهر بالاغتسال، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣] فهنا إحالة على ما تقدم في (سورة النساء).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ﴾ فلم تجدوا بسبب عجز المريض عن طلب الماء أو كنتم على سفر ﴿فَلَمْ تَجِدُوا

مَاءٌ ﴿ لبعدكم في القفر عن مواضع الماء، فذكر المرض والسفر، لأنهما مظنة أن لا يجدوا ماء، وفائدة ذكر المظنة تحسين فرض عدم الماء حتى لا يكون فرض الماء مستبعداً عند السامعين الذين عندهم الماء من أيسر الحاجات.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ لتحقيق أن التيمم يكون على الجنب وعلى المحدث، فقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ إشارة إلى الحدث لأن الذي يريد أن يبول أو يتبرز ينزل إلى منخفض من الأرض ليستتر فيه ففي هذا تعليم التستر عند قضاء الحاجة والإنفراد لقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ﴾ ولم يقل: (أو جئتم).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ يفهم منه: البحث عن الماء، لأنك في مثل هذا لا تقول: لم أجد إلا إذا بحثت، ويفهم منه: التأخير، لأن الماء لا يزال مرجواً بإنزال مطر أو غيره، فإذا كان ظاناً أنه لا يجد فلا يكفي ذلك لأن (لم) لنفي الوجدان وتحقيق النفي في الماضي وما دام مستقبلاً لا يقال: لم أجد، فأما من لا يجد فهو غير داخل في الشرط لأن معناه لا يجد في الحال أو في الاستقبال فهو غير المذكور، ولذلك يلزم التأخير إلى خشية فوت الفرض لأنه يصدق عليه حيثئذ أنه لم يجد.

وتيمم الصعيد: قصده والتوجه لتحصيله، وهو يدل على اختيار الطيب، ولا يكفي مطلق التراب أينما حصل، والصعيد: وجه الأرض وقد مر تحقيقه في تفسير آية (سورة النساء) والطيب: السليم من القذر والنجاسات السليم من التغير والفساد وقد مر فيه زيادة تحقيق.

﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الصعيد الطيب بأن يلصق بالوجه واليدين بواسطة المسح، وقوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ ولم يقل: إلى

المرافق، إما إحالة عليه، وإما إحالة على البيان من السنة إذا لم يكن المراد اليد كلها إلى الإبط، فأما تفسيره بالكفين قياساً على قطع السارق فبعيد، وقياسه على الوضوء أقرب.

فإن قيل: ليس قياساً، وإنما هو دليل على أن اليدين يصدق على الكفين؟ قلنا: ليس دليلاً؛ لأن اليد المقطوعة جملة اليد، وقطعها يتحقق من أي أبعاضها، ولذلك تحقق بقطع الكف كما تقول: قطعت الحبل، ولو كان قطعه من ربعه أو ثمنه أو نحو ذلك.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ هذا التشريع للوضوء والغسل ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ﴾ حرجاً، ولو قليلاً من الحرج، فليس المراد بهذه الأحكام.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأن الإنسان قد يتعد عن التنظف لقلة مبالاته بالنظافة أو كسلاً أو اشتغالاً، فكانت الحكمة أن يفرض عليه فرضاً، وكانت الصلاة أحق بالطهارة، فعين لها المفروض وفرضه علينا من الله كان الله مطهراً لنا بفرضه وبتيسير الماء للتطهر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: ١١].

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتشريع أسباب الكمال للإنسان المطيع وارتفاع درجته وتحصيل فوائد الطهارة الدينية كالنشاط للصلاة والدينية كالنظافة والصحة، وشكر النعمة إظهار اعتراف القلب بها باللسان والأعضاء، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة      يدي ولساني والضمير المحجبا

والكفر: تغطية النعمة بترك الإظهار.



نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا

﴿٧﴾ ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فامثلوا أوامره في الطهارات وغيرها لأن ذكر النعمة يذكر بحق المنعم ويدعو إلى شكرها ﴿وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ حين آمنتُم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقلتم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ غفرانك ربنا فالتزمت بطاعته ليغفر لكم، والميثاق: القول المؤكد الذي يكون حجة على قائله.

قال الشرفي في (المصاييح): «وهو الميثاق الذي أخذه الله على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة...» الخ، وهو ظاهر فيحمل عليه الميثاق، ويلحق به التزام العبد عند التوبة أن يطيع ليغفر له. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باتقاء عذابه، وذلك بالطاعة الخالصة لله وتجديد التوبة عند كل زلة، وهذا تأكيد لما في الآية الماضية من الأمر وتحذير من المخالفة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تذكير بوجوب مراقبة الله في كل عمل وكل اعتقاد وكل نية، لأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بالخصلة المضمرة في الصدر المكتومة في الضمير و﴿عَلِيمٌ﴾ بخبايا النفس التي قد يغفل صاحبها عنها، فعلى المكلف أن يتيقظ ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة.

وبهذه الآية تم الكلام في وجوب الطهارات، وعند إتيان موضوع آخر يبدأ بنداء الذين آمنوا إذا كان فيه تكليف لهم في هذه السورة الكريمة:

تَعَدِّلُوا<sup>٥</sup> أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى<sup>٦</sup> وَاتَّقُوا اللَّهَ<sup>٧</sup> إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ ﴿قَوَّامِينَ﴾ يدل على الاستمرار والتكرار، حتى يوصف الواحد بأنه قوام، والقيام لله يشمل: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدفاع عن الدين بالقلم، واللسان، والسلاح، ونصرة الحق كذلك، على أن يكون ذلك كله لله طاعة وتقرباً إليه وتعبداً له، فهذا واجب مستقل أضاف إليه واجباً هو منه فقال تعالى: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ شهداء بالحق، عام للمسائل العلمية الدينية، وللشهادة بالقسط فيما تشاجر فيه الناس من أمور الدنيا.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا<sup>٩</sup> أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿شُهَدَاءَ﴾ قد مر تفسيره في أول السورة، والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ﴿ءَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فتركوا العدل لأجل بغضهم، وهو يعم ترك الشهادة لهم بالحق، وترك الإنصاف لهم فيما استحقوه من أرش أو قصاص أو دين أو إجارة أو غير ذلك، فنهى وأمر بقوله تعالى: ﴿أَعْدِلُوا﴾ حثاً على العمل بهذا التكليف وإن شق على النفس، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي أقرب لاتقاء عذاب الله؛ لأنه من أهم عمل التقوى الذي هو الطاعة لله سبحانه فيما أمر ونهى فالطبع فيه أقرب إلى الطاعة في غيره من التكليف، فهو أقرب للتقوى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ<sup>١٠</sup> إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ حث على تقوى الله بطاعته في القيام له والإنصاف وفي كل شيء، فهو تأكيد ختمت به هذه، كما ختم الكلام في (الطهارة) بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
الْجَحِيمِ ﴿٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ  
أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ  
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا

وختمت (آية الصيد بالكلاب) بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
الْحِسَابِ﴾ وختمت آية: ﴿لَا تُجْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ  
شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فأفاد ذلك أن تقوى الله: طاعته في كل أمر ونهي، لا في ترك  
الشرك وحده، ودل ذلك على أن العصاة من الذين قد آمنوا يعذبون، ولا  
يدفع عنهم ترك الشرك بالله الذي خرجوا منه بشهادة التوحيد والدخول في  
الإسلام.

﴿١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾  
﴿الصَّالِحَاتِ﴾ الحسنات التي لم يصحبها مفسد ولا محبط ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ  
عَظِيمٌ﴾ هذا هو الوعد.

﴿١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢﴾ آيات  
الله: دلائله من القرآن وغيره، قال في (الصحيح): «الجميع: اسم من أسماء  
النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ  
بَنِينَ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧] انتهى

﴿٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ  
يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴿٣﴾ يمدوا أيديهم لقتالكم ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾  
هذا الوصف ينطبق على (يوم الأحزاب) الذي قال تعالى فيه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا يَغْظِيهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]

وقال تعالى فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ذكرهم بنعمته، ليطيعوه شكراً، وتجنباً لكفر النعمة الذي يتنزه عنه من استعمل عقله لقبحه عقلاً وعطف عليه الأمر بتقوى الله ليطيعوه ليقوا أنفسهم عذابه، وأمرهم بالتوكل ليشبوا على طاعته ولا يصرفهم عنها خوف عدو أو خوف فقر أو نحو ذلك. قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة العنكبوت): «والتوكل: هو الوثوق به، وإسناد الأمر إليه» انتهى.

وقال المنصور بالله ﷺ في (حديقة الحكمة شرح الأربعين السيلقية) في التوكل: «ومعناه - أي التوكل - أن لا تهتم بالأمر المهم اعتماداً على غيرك فيه، ولذلك سمي الرجل: وكلاً وهو الذي لا يهتم بالأمور اعتماداً على غيره فيها وهو ذم عندهم.

ومعنى التوكل على الله: أن تعتمد في كل مهم عليه، وترد كل ملِمٍ إليه، وتضع يدك في يديه، ولا ترجوا لكل شديدة سواه، ولا توالي خوفاً من المشاقّ عداه، تؤثر إن أعطاك لترضي وليه، وتشكر إن منعك لتكبت عدوه، ولا تطلب شيئاً من رزقه بمعصيته، ولا تعصه عزّ وعلا لرضى أحد من خلقه، ولا تقصر في شيء من عبادته ولو ازم تكليفه، فهذا معنى التوكل عندنا، وبه يسمى العبد متوكلاً شرعاً» انتهى من شرح (الحديث السادس).

وقوله في تفسير التوكل على الله: وتضع يدك في يديه، أي تتوجه حيث وجهك، لا يمنعك خوف من عاقبة الأمر، لأنك قد وكلت أمرك إليه، فما شاء أن يقضي لك بسبب طاعته فأنت راض به.

مِنْهُمْ أَتَيْتِي عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد: الحصر، فعلى المؤمن أن يتوكل على الله وحده لا يتوكل على غيره.

ولما أمر المؤمنين بذكر ميثاقه الذي واثقهم به، ذكرهم بما صار إليه بنو إسرائيل بعد نقض الميثاق الذي واثقهم به، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) قال: «في (البرهان): يعنى بإخلاص العبادة لله ولزوم طاعته» انتهى.

قلت: الأقرب أن الميثاق عليهم بما ذكره: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ الآية، فاخذ الميثاق منهم على ذلك، وأعطاهم العهد على أنهم إن وفوا بذلك ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دُخْلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ...﴾ إلى آخر الآية، ولذلك قال في (سورة البقرة): ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [آية: ٤٠] وهذا قد شمله كلام (صاحب البرهان) وهو أبو الفتح الديلمي من أئمة الزيدية.

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان): «أخذ من كل سبط منهم نقيباً والنقيب: الشهيد على قومه وهو الأمين والضمين أيضاً، وهؤلاء النقباء كانوا مبعوثين إلى الجبارين ليقفوا على ما عندهم وينظروا في أحوالهم ويرجعوا بها إلى موسى عليه السلام فرجعوا ينهون عن قتالهم لما رأوا من شدة الجبارين وعظم بأسهم» انتهى.

قلت: الظاهر: أن وظيفة النقباء تتعلق بالميثاق، وأنهم أمناء كل واحد على أصحابه لمتابعتهم بالوفاء بالعهد - والله أعلم.

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ لبني إسرائيل عند أخذ الميثاق ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ رقيب عليكم شهيد على ما يكون منكم من وفاء أو نقض للعهد، ثم رغبهم في الوفاء فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ من مضى ومن بعث بعد هذا العهد ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ قال الراغب: «التعزيز: النصره مع التعظيم» انتهى، وقال في (الصحيح): «التعزيز: التعظيم والتوقير» انتهى.

وقول الراغب أقوى؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَزَّزُوهُ وَتُوقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] والتوقير: التعظيم، والعطف ظاهره التغاير، وقال (صاحب الكشاف): «وعزرتموهم: نصرتموهم ومنعتموهم من أيدي العدو - ثم قال في الكشاف - : يقال: عزرت الرجل، إذا حطته وكففته، والتعزيز والتأزير من وادٍ واحد، ومنه: لأنصرك نصرًا مؤزرًا، أي قويا» انتهى.

ومثله في (المصابيح) فقد اتفق هو وقول الراغب في إثبات النصره، فهو الراجح والموافق للعهد على النبيين ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَلِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعم الإنفاق في سبيل الله، أو هو المراد.

﴿وَلَا دَخَلْنَكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فقلوه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يفيد: النجاة من عذاب الله، وقوله: ﴿وَلَا دَخَلْنَكُمْ﴾ يفيد: الفوز بالثواب الدائم.



نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ وَمِنْ

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ هذه النعمة العظيمة نعمة الدين والوعد العظيم فنكث العهد فقد غوى سواء الطريق، وتاه في غير الطريق، لأنه عدل عن طريق السلامة والكرامة بعد وضوحه، ثم بين تعالى ما صاروا إليه بعد الميثاق:

﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ بسبب نقضهم لميثاقهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا فمنعناهم الألفاظ وسلبناهم التوفيق ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ لا تؤثر فيها المواعظ، ولا تلين لذكر الله وعظمته وجلاله وعزته وجبروته، ونسبة القسوة إلى الله لأنه فطر القلوب على قبول التأثير بالخير والشر فتصلح بالخير وتفسد بالشر لأنها تألفه، وذلك بفعل صاحبه وقد تركه الله يفسد قلبه لاستحقاقه الخذلان، وفائدة نسبته إلى الله التخويف منه، وأن لا يخرج الكلام مخرج الشكوى منهم كما قدمت في ختم الله على قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ يبين قسوة قلوبهم ويذكر أثراً من آثار القسوة يدل على جرأتهم على الباطل وعدم المبالاة بفعل المنكر العظيم، والكلم: ما أنزل الله من كلماته، وتحريفها عن مواضعها: تحويلها عن سياقها المبين للمراد بها حتى يمكنهم تفسيرها بغير معناها، ولعلمهم كانوا ينقلون الكلمة دون سياقها في ورقة مستقلة ويكتمون السياق، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] والله أعلم.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٠٩﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا نصيباً مفيداً نافعاً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ في التوراة من المواعظ والترغيب والترهيب كأنهم نسوا لأن الناسي للشيء لا ينتفع به حتى فاتهم ما فيه من الخير.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ ﴿عَلَى خَائِنَةٍ﴾ على خيانة ﴿مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وإنما رجحت أنها بمعنى المصدر لأجل الاستثناء، فالمعنى أنها تتكرر منهم الخيانة فإن كان الخطاب لرسول الله ﷺ فهي تشير إلى جرأتهم بخيانة الرسول ﷺ وإن كان الخطاب للسامع فمعناه: إن عادتهم الخيانة عادة مستمرة، والأول أوفق للسياق قبلها وبعدها.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي اعف عما صدر من خيانة محتملة ﴿وَاصْفَحْ﴾ عن زلاتهم لفضل الحلم والإحسان وما فيه من الترغيب في الإسلام وزيادة الحجة عليهم، وهذا مطلق، مقيد بما في (سورة البقرة): ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [آية: ١٠٩]. أو أن آية (المائدة) نزلت بعدما أعطوا الجزية وصاروا أهل الذمة وهو الأقرب، لأن الذين يطلع على خائنة منهم هم الذين قد انتصر عليهم رسول الله ﷺ لا البعيدون الذين ليس بينهم وبينه عهد ولا ذمة ولا معاملة، وغير الذين أجلاهم إلى الشام.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ ومن الذين ادعوا أنهم نصارى وغيروا وبدلوا بعد ذلك ولم يثبتوا على النصرانية

لأنهم عدلوا عن التوحيد الذي هو أصل الدين، وحقيقته: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [البينة: ٥] فحين أشركوا كانوا قد خرجوا عن دين النصرانية الأصيل وبدلوه مع تمسكهم بهذا الاسم ﴿أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ على السمع والطاعة وإخلاص العبادة لله والإيمان برسول الله ونصرهم، أخذ ميثاقهم في الإنجيل مع أخذ الميثاق أولاً على بني إسرائيل جملة. ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وبذلك نقضوا الميثاق ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ قال في (الكشاف): «﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ فالصقنا وألزمنا، من غري بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره، ومنه الغراء الذي يلصق به» انتهى، أي أن الغراء سمي به من اللصوق.

قال الإمام الهادي عليه السلام يصف قتاله لأعداء الله:

غريت أنا مل راحتي بصفيحتي لله درّ خبعثن أغراها

فإغراء العداوة والبغضاء على أحد معنيين: إما على معنى جعلنا في قلوبهم العداوة والبغضاء فأغرينا عداوة وبغضاء كل حزب بالحزب الآخر فنسب الإغراء إلى العداوة والبغضاء وهو لصاحبها؛ لأن الإغراء لصاحبها وقع بها لأنها الباعثة على القتال، فهو مجاز لفظي.

المعنى الثاني: أغرينا بينهم: ألصقنا بقلوبهم العداوة بينهم والبغضاء، كما يلصق الشيء بواسطة الغراء، والإغراء في المعنى الأول هو مثل إغراء الكلب بالصيد، وهل يحتاج إسناد هذا إلى الله تعالى إلى تأويل أو لا يحتاج باعتبار كونهم كفار مستحقين للعقاب وهذا هو الراجح.

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيه دلالة على أنه سبحانه عليم بما ﴿يَصْنَعُونَ﴾ ولا ينساه، وأنه يحاسبهم عليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأوفى.

يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ﴾ خطاب عام للذين هادوا والذين قالوا إنا نصارى لدعوتهم جميعاً إلى الإيمان بالكتاب والرسول وترك الشرك.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ من أحكام الله تعالى وما في كتابكم ﴿كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ﴾ تخفونه عن الناس وعن جهلة أصحابكم، وهذه آية لكم تدلهم على أن الله أوحى إليه ذلك الذي يبينه لكم وأنتم تكتُمونه؛ لأنه لم يقرأ كتابكم ولا تعلم منكم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما كنتم تكتُمونه لعدم الحكمة في إظهاره.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ ربكم فعليكم أن تتبعوه ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد بالنور: القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فالعطف مثله في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١] فهو نزل نوراً يهتدى به، ونزل كتاباً يكتب ليحفظ وتتوارثه الأجيال.

وعلى هذا فترك العطف في أول الآية لتمام الاتصال، لأن الرسول جاء بالقرآن وهو برهان رسالته فهما كالشيء الواحد، ويحتمل أن المراد بالنور: الرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَمِيرَاجًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿مُبِينٌ﴾ يدل على أن القرآن واضح الدلالة على ما به يهتدى من اتبعه:

بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ

﴿١٦﴾ ﴿يَهْدِيَ بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَهْدِيَ بِهِ﴾ يهدي بالقرآن ﴿اللَّهُ﴾ الذي أنزله هدى للمتقين ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من اتبع سبب رضوانه بأن آمن وتاب إلى ربه واتقاه ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلام المؤدية إلى السلامة في الآخرة من العذاب ومن كل شر.

فإن قيل: هداية من اتبع رضوانه سبل السلام من تحصيل الحاصل؛ لأن من اتبع رضوانه فقد اهتدى إلى سبيل السلامة من العذاب؟

فالجواب: أن العاقل عندما يسمع آيات الله إما أن يؤمن ويتوب فيكون قد اتبع رضوان الله في هذه اللحظة، وإن كان لم يعلم شرائع الإسلام ولكن لا بدله من تعلم ما جاء به الرسول واتباعه، وإلا انحرف عن رضوان الله، فإذا تعلم واتباع كلما علم كان متبعاً لرضوان الله يزيده الله هدى، وهكذا ما بقي في دار التكليف فقد ظهر أنه ليس من تحصيل الحاصل؛ لأن سبب رضوان الله في أول أمره دون سبب رضوانه بعد أن أمكنه التعلم وسبب رضوانه بعد أن علم أكثر من سبب رضوانه قبل إمكان التعلم، فالطلب للعلم وسبب رضوانه بعد وجوب الجهاد عليه أكثر منه قبل ذلك، وهكذا سائر التكليف، ولعل هذا سبب جمع سبل السلام باعتبار تعدد التكاليف واختلاف درجات التكليف ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الباطل والجور كالشرك وسائر العقائد الباطلة والخرافات والظلم والفساد إلى نور الحق والعدل والصدق ﴿بِإِذْنِهِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي بأمره ولطفه وتيسيره، لا بالإجبار كما قال الجاهل» انتهى.

يُهْلِكُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

ولما كان خروج الإنسان مما ألفه واعتاده واستمر عليه من العادات الباطلة  
والعقائد التي هي ظلمات إلى نور الحق والعدل والصواب ثقيلاً على  
النفوس، بحيث أن كثيراً من الناس لا يريد إلا البقاء على ما ألفه، قال تعالى:  
﴿بِإِذْنِهِ﴾ ليعلم أن ذلك غير مستبعد ممن أذن الله بخروجه من الظلمات إلى  
النور بأن يسر له ذلك وحببه إليه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان،  
وذلك برحمة الله وفضله، وكون العبد لم يتمرد ويجادل في آيات الله ويتبع كل  
شيطان مريد، بحيث يستحق لو كان كذلك الخذلان وإرسال الشياطين عليه.  
﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذه الهداية هي قرينة الإخراج من  
الظلمات إلى النور، وهي تنوير القلب الذي يحصل معه الاستمرار على الحق  
والرغبة في ذلك والزهد فيما يشغل عن ذكر الله وشكره وحسن عبادته وهو  
الصراط الذي لا يعوج الموصل إلى السعادة الدائمة، الواضح الذي لا  
يلتبس على صاحبه ولا يخفى؛ لأنه بسبب الزهد في الدنيا لا يدخل في شبهة  
ولا يسلك طريقاً يشك في هدايته ويترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، فهو على  
طريق واضح يوصله السعادة الدائمة.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد  
عليه السلام: هذه الآية نص صريح في أن الكتاب العزيز هو الهادي إلى سبل  
السلام، وإلى الصراط المستقيم من الدين، ومن ذلك عرض ما لم يعلم مما  
ورد من السنة على الكتاب العزيز» انتهى.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ذكر سيد قطب

في (تفسيره): «أن بعض النصاري أحدثوا هذا القول في سنة ٤٣١ ميلادية» انتهى.



بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ  
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ

وذكر هناك في تفسير الآية أقوالاً لهم مختلفة، ولا يكاد يتصور القول بأنه  
الله مع القول أنه ابن مريم لولا أن إهمال العقل يتقبل الإنسان معه كل  
باطل ولا يبالي، فهذا الكفر كفر بالله، وكفر بما جاء في الكتب، وما أرسلت  
به الرسل من تسبيحه وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وأنه الخالق، وأنه  
الأول قبل كل شيء، وأنه لا شريك له، إله واحد، لا إله إلا هو، وهو مع  
ذلك كفر بنعمة الله ونسبة للنعمة إلى المسيح عليه السلام.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ  
وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا يبين: أن الذي خلق المسيح بن مريم  
قادر على إهلاكه وإهلاك أمه ومن في الأرض جميعاً، فالكل مخلوقون يقدر من  
خلقهم أن يهلكهم، فكيف يكون الله من يجوز عليه الهلاك ولا يملك أن يدفع  
عن نفسه ولا يملك من الله أن يرجع عما أراد من إهلاكه لو أراد الله إهلاكه،  
وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يفيد: أنه تعالى قادر على إهلاكهم في وقت واحد.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيه حصر  
بتقديم الخبر وهو ﴿لِلَّهِ﴾ فله الملك وحده لا شريك له، ولأن له الملك فهو  
﴿تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ومن ذلك خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق زوجته، وخلق  
عيسى من أم بلا أب ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه خلق عيسى من  
غير أب فليس يجب أن يكون له أب حتى قلتم أن الله أبوه سبحانه وتعالى.  
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ  
بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فرعوا على جعلهم (عزير بن الله) في

قول اليهود، وجعلهم (عيسى بن الله) في قول النصاري، فرّعوا على ذلك قولهم: ﴿خُنُّ أَبْتَنُوا اللَّهَ﴾.

وأما قولهم: ﴿وَأَحْبَبُّهُمْ﴾ فلعلهم اغتروا لجهلهم بكثرة نعم الله عليهم كغرق البحر لهم لإنقاذهم من آل فرعون وإهلاك فرعون وقومه بإغراقهم، وكالمناجاة لموسى ومعه سبعون من قومه لعلهم يكتبون ما نزل، وكإنزال المن والسلوى عليهم، وتظليل الغمام ونحو ذلك، وجعل الكتاب فيهم والأنبياء الكثير منهم، ولكن نعم الله ابتلاء للعبد أيشكر؟! أم يكفر؟! فإن كفر كانت الحجة عليه أعظم، وهو عند الله ألوم.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ فإن النعمة لو كانت دليلاً على الحب، لكان التعذيب يدل على البغض والكراهية ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فأنتم عباد مربوبون كسائر البشر المخلوقين.

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لأنهم عباده كلهم، يحكم فيهم ما يريد، والذي يشاء أن يغفر له التائب إليه، والذي يشاء أن يعذبه من عصاه وتمرد عليه ولم يتب إليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ لله وحده ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يشاركه فيه عزيز، ولا عيسى، ولا اليهود، ولا النصاري، بل هم عباده حق عليهم ووجب أن يعبدوه ويتقوه ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وحده يصير العباد كلهم فيحكم فيهم بحكمه، ولا يكون لحكمه راد ولا منازع فيه، فاليهود والنصاري مصيرهم كغيرهم إلى الله وحده لا إلى غيره معه، فلا ينفعهم هناك عزيز، ولا المسيح بن مريم، ولا أمه.

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ آذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ يَنْقُومِ آذْخُلُوا

﴿١٦﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴿١٧﴾ الْحَقُّ ﴿١٨﴾ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴿١٩﴾ قَدْ جَاءَتْ فَبَعْدَ عَهْدِكُمْ بِالرُّسُلِ، واحتجتم إلى رسول يبين لكم الحق، ويخرجكم مما لولاه لم تنفكوا عليه من الباطل، كما قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [سورة البينة].

﴿٢٠﴾ أَنْ تَقُولُوا ﴿٢١﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢٢﴾ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴿٢٣﴾ أَي لثلاثا تقولوا ﴿٢٤﴾ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ ولم يبق لكم عذر وقامت عليكم الحجة بمحمد ﷺ والقرآن الحكيم ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ فهو قادر على إرسال الرسل ﴿٢٨﴾ لثلاثا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿٢٩﴾ [النساء: ١٦٥] فكيف كذبتهم الرسول.

ثم بين تعالى بعض تمرد بني إسرائيل، ليبين: أنه لا يستبعد تكذيبهم للرسول ﷺ، فقال تعالى:

﴿٣٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ آذْخُلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ ذَكَرَهُم بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فإن الحجة عليهم أعظم والمعصية منهم أقبح.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ يدل على أنهم قد مكنهم الله في الأرض بعد ما كانوا أذلة، وقوله: ﴿وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من نعم الله التي يجب شكرها.

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٧٧﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى

﴿٢٧٧﴾ يَقُومُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ لما كان هذا التكليف شاقاً عليهم لما فيه من قتال الجبارين، مهّد له بتذكيرهم بعظم نعم الله عليهم، وأضاف إلى ذلك تشجيعهم بأن الله كتبها لهم، فهم مظنة أن يتصبروا ويدخلوها، وحذرهم المعصية، وبين لهم أنها ارتداد عن طاعة الله وانقلاب على الأعقاب.

وهذا دليل على تسمية الفسق ارتداد، إلا أن يقال: إنما عنى نهيهم عن الهزيمة والفرار من الزحف وهو محتمل، إلا أن قوله: ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ يبين أن المراد: الارتداد عن الطاعة؛ لأن الارتداد الذي بمعنى الهزيمة تولية الأدبار، لا على الإدبار الذي هو القهقري يتأخر مع بقاء اتجاهه، مع أن تولية الأدبار من جملة المعصية؛ لأنهم أمروا أن يدخلوا فإذا انهزموا عصوا هذا الأمر وارتدوا عن الطاعة إلى العصيان ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي خسارة الدين، وخسارة فوت نعمة أخذ الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يأخذوها يوماً من الدهر.

وقد قيل: أن اليهود اليوم يحتجون بهذه الآية على أن فلسطين لهم؟!

والجواب: أنا لا نسلم أنها كانت لهم من حيث هم يهود، وإنما كانت لقوم موسى قرية في (فلسطين) بدليل قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣] لأنهم بعد التوبة من عبادة العجل كانوا مسلمين، وأراد موسى أن يتمكن الإسلام في (فلسطين) لا لأجل عنصر اليهود ولذلك فسّتهم لما عصوا، لأن الغرض المقصود كان دينياً هو الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وتمكين

تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ تَخَرَّجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ تَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ

الإسلام في أرض الإسلام التي كانت بلد الإسلام من عهد إبراهيم الخليل - صلى الله عليه - وتطهير الأرض المقدسة من رجس الجبارين، ولو كان الغرض مجرد إسكان اليهود في القدس لما شدد عليهم فيه لأنه غرض دنيوي إن شاءوا نيله وإلا فلا يهم، واليهود اليوم في القدس بمنزلة الجبارين في وقت موسى عليه السلام، فينبغي للصائدين من المسلمين إخراج الجبارين من الأرض المقدسة.

﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ تَخَرَّجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾ جَبَّارِينَ قَهَارُونَ يجبرون الناس على ما يريدون وهذا معناه: الامتناع عن الجهاد يدعون أنهم لا يستطيعون قتال الجبارين.

﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ تَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴿٢٣﴾ مِنَ الَّذِينَ تَخَافُونَ ﴿٢٤﴾ من الذين يخافهم قوم موسى ﴿٢٥﴾ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴿٢٦﴾ بالهدى فلم يكونا مع قومهما الجبارين، فقالا نصيحة لقوم موسى العصاة: ﴿٢٧﴾ ادْخُلُوا ﴿٢٨﴾ على الجبارين ﴿٢٩﴾ الْبَابَ ﴿٣٠﴾ باب مدينتهم فذلك وإن شق عليكم يؤدي إلى النصر، لأنكم إذا ﴿٣١﴾ دَخَلْتُمُوهُ ﴿٣٢﴾ دخل الرعب على أهل البلد ﴿٣٣﴾ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴿٣٤﴾ بالتأكيد لأنه ما غزي قوم إلى عقر دارهم إلا ذلوا.

﴿٣٥﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ لأن شأن المؤمن أن يطيع الله، ويكل أمره إلى الله إن أراد له النصر أو الشهادة، فلا يمنعه الخوف من طاعة الله تعالى.



نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٩﴾ \* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ

﴿٢٧﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٨﴾ أَصْرُوا عَلَى الْامْتِنَاعِ، وَزَادُوا عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُمْ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ وَكَانَهُ جَوَابٌ عَنْ قَوْلِ مُوسَى لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إِذَا صَبَرْتُمْ نَصْرُكُمْ لِأَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ، وَقَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ تَأْكِيدٌ لَامْتِنَاعِهِمْ.

﴿٢٩﴾ قَالَ ﴿مُوسَى﴾ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٨﴾ الْمَلِكُ: بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ عَلَى تَوْجِيهِ قَوْمِهِ كَيْفَ أَرَادَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١] وَاسْتَشْنَى نَفْسَهُ وَأَخَاهُ لَعَلَّمَهُ أَنَّ أَخَاهُ يَطِيعُهُ وَلَا يَخَالِفُهُ أَبَدًا وَهُوَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ﴾ طَلَبٌ لِلإِذْنِ مِنَ اللَّهِ بِتَرْكِهِمْ وَالْهَجْرَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ؛ لِعَصِيَّتِهِمْ وَفَسَقِهِمُ الَّذِي هُوَ خُبْثُهُمْ وَفُجُورُهُمْ، فَقَدْ كَرِهَ مَسَاكِنَهُمْ، وَلَا نَدْرِي إِنْ كَانَ أَجِيبَ لِيْفَارِقَهُمْ فِرَاقًا مُؤَقَّتًا وَيَذْهَبُ فِي طَلَبِ الْخَضِرِ الَّذِي جَاءَتْ قِصَّتُهُ فِي (سُورَةِ الْكَهْفِ) اللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ تَوَفَاهُمَا وَأَرَاَحَهُمَا بِالْمَوْتِ مِنَ التَّكْلِيفِ كُلِّهِ.

﴿٢٩﴾ قَالَ ﴿اللَّهُ﴾ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۚ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَإِنَّهَا أَرْضُ الْمَقْدِسَةِ ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ مَمْنُوعَةٌ مِّنْعًا بَاتًا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَخُولَهَا كَقَوْلِ عَنَتْرَةَ:



ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ  
لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ

يا شاة ما نقص لمن حلت له حرمت علي وليتها لم تحرم

إلى قوله:

عَلَّقْتُهَا عَرَضاً وَاقْتُلْ أَهْلَهَا زِعماً لعمر أليك ليس بمزعم

وهذا لا ينافي أنها كتبت لقوم موسى؛ لأنه لم يكن مؤقتاً بوقت أمرهم بدخولها وقد صدق بعد الأربعين سنة، والمراد: قوم موسى عليه السلام، جملتهم لا الأشخاص بعينهم، لأن بعضاً لا بد أن يموت في خلال الأربعين، ويكون الداخل بعض شيوخهم وذرياتهم قد صاروا مع بقايا الشيوخ هم قوم موسى. وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يمشون في الأرض في حيرة، فلا هم راجعون إلى (مصر) ولعله للخوف وضرب الذلة على العصاة، ولا هم داخلون الأرض المقدسة، ولا هم صائرون إلى غيرهما من البلدان، ولا هم باقون في مكان من القفر يستوطنونه؛ لأنها عقوبة كتب عليهم التيه والله غالب على أمره ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال الراغب: «الأسى: الحزن، وحقيقته: إتياع الفاتئ الغم» انتهى.

وفي (الصراح): «وأسى على مصيبته بالكسر يأسى أسى أي حزن» انتهى، فالمعنى: فلا تحزن عليهم لأنهم فاسقون أي لا تحزنك مصيبتهم التي هي التيه أربعين سنة؛ ولعل هذه القصة آخر قصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ يقرن ذكر القصص ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأن أكثر القصص لا يكون صدقاً، بل يختلط الصدق والكذب، أو يكون القصص كله كذباً، أما قصص الله فكله حق وصدق، لأنه علام الغيوب، حكيم لا يجوز عليه الكذب سبحانه وتعالى.

لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۖ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨١﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۖ وَذَلِكَ

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ ظاهره: أنه قربان واحد اشتركا فيه، كما يشترك المضحون في أضحية واحدة فقوله: ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ نائب فاعل ﴿فَتُقْبِلَ﴾ وكذا ﴿مِنَ الْآخَرِ﴾ نائب فاعل ﴿يُتَقَبَّلُ﴾ أو أن نائب الفاعل صح ضمير القربان، كما ذكر أن لكل منهما قرباناً؛ وإنما لم يثن لأنه في الأصل مصدر فذلك محتمل.

﴿قَالَ﴾ الذي لم يتقبل منه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ غاظه قبول قربان أخيه مع عدم قبول قربانه، فتوعده بالقتل ليشفي غيظه، وهكذا يجر الحسد إلى الظلم ﴿قَالَ﴾ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿فالفارق حكمة الله، التي اقتضت أن يتقبل مني دونك، وأنت الذي لم تتق الله، فالسبب من عندك فلم نفسك ولا تلمني.﴾

﴿لَبِنُ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۖ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ بسط اليد: مدها مقابل قبضها، وقوله: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ يدل على أنه يتورع من قتل أخيه وإن كان قد توعده بالقتل؛ ولعل ذلك لم يكن مرخصاً وإن ظن صدقه، فليس له أن (يتغدها قبل أن يتعشاه) أما الدفاع عند المواجهة للقاتل فلعله واجب؛ لأنه نهى عن منكر.

وقوله: ﴿إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يبين: سبب تورعه من قتل أخيه، وفي ذلك موعظة لأخيه، وليس فيه دلالة على أنه لا ييسط يده إليه ليدفعه عن قتله، لأنه إنما نفى بسط يده إليه ليقتله لا ليدفع عن نفسه.

جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ  
الْحَاسِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى

﴿٦٦﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ  
جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ أن تطهرني بالشهادة، وتحمل ذنوبي أي مثلها،  
أو تحمل إثم قتلي، كما لو جعل على القاتل ما على المقتول من الدين جزاء  
مع القصاص - والله أعلم.

﴿وَإِثْمَكَ﴾ الأول والآخر ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ بجرائمك  
﴿وَذَلِكَ﴾ أي الكون من أصحاب النار ﴿جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ﴾ كلهم القتلة  
وغيرهم.

قوله: ﴿أَنْ تَبُوءَ﴾ قال في (الصحيح): «المبءة: منزل القوم في كل موضع  
- ثم قال - : وبوأت للرجل منزلاً وبوآته منزلاً أي هيأته ومكنت له فيه، ثم  
قال: وأبأت الإبل رددتها إلى المباءة، وأبأت على فلان ماله، إذا أرحت عليه  
إبله أو غنمه - ثم قال - : قال الأخفش: ﴿وَبَاءُوا يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ﴾ [١١٢] عمران  
رجعوا به، أي صار عليهم، قال - أي الأخفش - وكذلك باء  
بإثمه ييؤ بؤءاً انتهى.

قلت: الأظهر: أنه بمعنى الرجوع إلى المباءة أي المنزل كما قالوا: أبأت  
الإبل رددتها إلى المباءة، إذ ليس في أبأت الإبل إلا زيادة همزة التعدية، فظهر  
أن أصله: باءت الإبل، أي رجعت إلى مباءتها، فظهر صحة كلام الأخفش،  
فأما تفسير (باء) أي حل مبعوا فلم يثبت استعمال (باء) بهذا المعنى، إنما  
يقال: تبوأ بمعنى اختار مباءة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ  
يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

سَوَّءَ أَخِيهِ ۖ قَالَ يَوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ  
سَوَّءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٦﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي

﴿٦﴾ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾  
(طوعت له نفسه) زينت له نفسه ﴿قَتَلَ أَخِيهِ﴾ حتى جعلته طوعاً غير كره  
والطوع ضد الكره، وجعل القتل طوعاً، بمعنى: أن يقع طوعاً تسمية  
للمسبب باسم سببه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أبلغ من (سولت له نفسه) أو  
سهلت، لأن التسويل والتسهيل قد يكون مع بقاء الكره، بخلاف التطويع  
فهو يدل على عدم الكره ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ من أهل النار الذين  
خسروا أنفسهم وفاتهم كل خير، ذلك هو الخسران المبين.

﴿٦﴾ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَّءَ أَخِيهِ ۖ  
قَالَ يَوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوَّءَ أَخِي فَأَصْبَحَ  
مِنَ النَّادِمِينَ﴾ بعث الله ﴿غُرَابًا﴾ أثاره ووجهه إلى هذا العمل ﴿يَبْحَثُ فِي  
الْأَرْضِ﴾ ويدفن فيها ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَّءَ﴾ يوارى: يستر ﴿سَوَّءَ  
أَخِيهِ﴾ ما يسوء رؤيته أي جسده بعد القتل أو عورته.

﴿قَالَ يَوَيْلَئِي﴾ ﴿يَوَيْلَئِي﴾ كلمة ندب يقولها المصاب بمصيبة شديدة،  
والويل الهلاك ﴿فَأُوَارِيَ﴾ بالنصب، عطفاً على أكون، فلما بعث الله غراباً  
ليريه أن يبحث في الأرض ليوارى فيها سوء أخيه، أي ليريه أن يوارى  
سوء أخيه بطريقة البحث في الأرض والدفن فيها، وهذا يدل على أنه لم  
يكن مات قبله أحد من أولاد آدم عليه السلام فلم يكونوا عرفوا دفن الميت.  
أما قول القاتل: ﴿يَوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ فإنه يظهر منه: أنه تنبه  
لخسارته من جهة جهله وعدم عاطفته على أخيه، حيث تركه مكشوفاً لم  
يدفنه لعدم مبالاته به.

إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ  
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ  
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٦﴾  
إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ لانتباهه لخسارته بقتله أخاه ثم تركه بدون دفن،  
يشير إلى ذلك قوله: ﴿فَأَوْرَىٰ سَوْءَةَ أَخِي﴾ لأن قتله أشد من ترك مواراته،  
وقد علق ذلك الإنكار على نفسه على كونه أخاه وهذه الخسارة عنده أن  
خسر أخاه بجهله وفرط قسوته، وذلك لأن باعته على القتل قد زال، فحصل  
ندمه على أخيه ولسوء تصرفه بترك دفنه، والحاصل: أن عاطفة الأخوة  
رجعت بعد قتله، فندم نداماً مستمراً.

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ  
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ قتل  
ابن آدم أخاه، مع ما بينهما من القرب بسبب الباعث النفسي الذي هو  
الحسد ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ زجراً عن القتل بغير حق ﴿أَنَّهُ﴾  
أي الشأن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ غير قصاص، ولا دفع للفساد في الأرض  
﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ في أن ذنبه لا يغفر بل هو من أصحاب  
النار كما لو قتل الناس جميعاً، وهذا قطع للطمع في مغفرة القتل والتهاون  
به، فالمناط كون المقتول نفساً وكون قتله غير قصاص ولا دفع فساد، فلا  
يختلف في هذا كون المقتول صغيراً أو كبيراً أو معتوهاً أو مريضاً أو شيخاً  
كبيراً أو قريباً أو بعيداً أو أنثى أو غير ذلك.

ومن هنا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]

فاحتاج إلى التوبة لقتل رجل من آل فرعون قبل الأذن بقتله.

وفائدة ذكر هذا لبني إسرائيل: منع تساهل اليهود بقتل النفوس البريئة، كقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم الجماعي للفلسطينيين، فهم في حاجة إلى الزجر الشديد لتهاونهم بالقتل وخصوصاً لمن كان من سائر الأمم الذين لا يرى اليهود لهم حرمة الإسرائيليين، فبين الله: أن أي نفس من أي جنس قتلت بغير قصاص ولا دفع الفساد في الأرض، فإن قاتلها معذب في جهنم خالد فيها، كما لو قتل الناس جميعاً، وهذه الآية تبدأ الكلام في بني إسرائيل بحسن تخلص من قصة ابني آدم.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ في أن الله يشبه ثواباً عظيماً ويؤتيه أجراً عظيماً، ولا مانع هنا أن يؤتى تفضلاً من الله من أحى نفساً كما لو أحى الناس جميعاً، بعضه ثواب وبعضه تفضل؛ لأن الثواب بقدر العمل، والتفضل لا مانع منه وإن كثر، وإحياء النفس: إنقاذها من الموت عند حصول سبب الموت لولا الإنقاذ، كإنقاذ الغريق، والجنين، ومن أراد الظالم قتله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ولقد جاءت بني إسرائيل رسل الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة بينة على أنهم رسل الله و ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الناهية عن القتل بغير حق، والدالة على الحق ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك الذي هو حجة قاطعة للعدر ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ من بني إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل بغير حق في الأرض إسرافاً منتشرأ في الأرض كثيراً عظيماً، بحيث يقتلون النبيئين، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وذلك فساد يعم شره في الأرض.

قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر» انتهى.



يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ  
الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

وحيث قد جاء ذكر الفساد في الأرض من بني إسرائيل والفساد في  
الأرض الذي يفهم من الآية أنه يجوز قتل فاعله، أتبع ذلك بمد المفسدين في  
الأرض على اختلاف طبقاتهم، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الحرب: ضد السلم وهو  
القتال، ومحاربة الله: محاربة الدعاة إلى الله وإلى دين الله، كأئمة الهدى،  
والذين يأمرون بالقسط من الناس، ومحاربة الرسول: محاربة لله من هذه  
الجهة، ومحاربة للرسول من حيث هي محاولة لإبطال تبليغ الرسالة واتباعها.  
﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بتقوية الباطل ومدافعة الحق بأي طريقة.  
قال الشريفي في (المصاييح): «قال إمامنا المنصور بالله - رحمة الله عليه - : الآية  
صريحة في حدود المحاربين والساعين في الأرض بالفساد، كجند الظالمين،  
وقطاع السبيل و(أو) بمعنى (الواو) كقول الشاعر:

سيان كسر رغيفه      أو كسر عظم من عظامه»

انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ يفيد: مسارعته في عمل الفساد، لأن السعي  
مسارعة في السير، والمعنى: يسعون ليفسدوا، كقوله تعالى: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ  
لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وعلى هذا: فالآية لا تخص قطاع الطريق، بل قد لا تعمهم إذا كان  
قطعهم للطريق فساداً دنيوياً لا يضر الدين، وإن جاز قتلهم دفاعاً.

﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ الصلب: تعليق المقتول أو شده إلى خشبة أو نحوها، أو هو الشد إلى الخشبة والتعليق لحي أو ميت، قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) كالمفسر لهذا الآية: «يجب بحكم الله ورسوله على من حمل السلاح وأخاف به المسلمين: أن ينفي من الأرض».

فإن أخذ: أدب وعزَّر إن لم يكن أحدث حدثاً يلزمه فيه بعض أحكام الله، فإن لم يؤخذ: اتبع بالخيل والرجال حتى يبعد ويذهب.

وعلى من أخاف الطريق وأخذ المال: قطع اليد والرجل من خلاف تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم يخلى ليذهب حيث شاء، وعلى من أخاف الطريق وأخذ المال وقتل، القتل والصلب من بعد القتل، ولا يجوز أن يصلب حياً» انتهى.

وقال الشرفي في (المصاييح): «والمراد: أن يقتلوا إن أفردوا القتل، أو يصلبوا مع القتل حيث جمعوا بين القتل وأخذ المال فيقتل ويصلب ثلاثة أيام، فلا صلب فوق ثلاثة أيام عند آل الرسول (عليه السلام)» انتهى المراد.

وظاهر كلام الراغب: أن الصلب للحي، حيث قال: «والصلب الذي هو تعليق الإنسان للقتل» انتهى.

ولكنه قد أفاد: أن الصلب لا يكون إلا مع القتل، وهو الذي يشعر به قول الذين آمنوا - وكانوا سحرة - لما قال لهم فرعون: ﴿فَلَا قُطْعَنُ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١] فأجابوا، وفي جوابهم: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَّةَ الدُّنْيَا﴾

وإذا كان الصلب يستلزم القتل قبله أو بعده فيمكن إبقاء (أو) على أصلها أي أحد هذه العقوبات، فيكون المعنى: أن يقتلوا بغير صلب، أو يصلبوا أي مع القتل للتلازم، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا، والمعنى على حسب مقتضى المحاربة، وما قد أوجب عليه الحد.

وتقطع الأيدي، قالوا: أن تقطع اليمنى إذا كان المحارب قد أخذ المال، والأرجل أن تقطع الرجل اليسرى، وهو معنى: ﴿مَنْ خَلَفَ﴾ ولعله لو تعين قطع اليد اليسرى لضرورة أو غلط لوجب قطع الرجل اليمين ليكون من خلاف جهة اليد المقطوعة كما هو ظاهر الإطلاق وله حكمه، بدليل ما روى في سارق قطعت يسراه غلطاً فأجزأ ذلك.

وأما النفي من الأرض: فهو إخافته بحيث يهرب ويبعد عن بلاد يمكن إفساده فيها على المسلمين، فإن كفى إخراجه من بلاده لأنه يضعف مع الغربة ويعجز عن الفساد، فلعله يكفي، وإلا طرد حتى يصير حيث لا يتمكن من الفساد؛ لظاهر الآية، لأنه قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ثم قال: ﴿أَوْ يُنْفَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فالأرض الثانية هي الأولى، لأن المقصود دفع فساد في الأرض الذي هو مظنة أن يعم ضرره بسبب إضعاف المؤمنين بحرب اقتصادهم أو غير ذلك، كمنع المدارس الدينية.

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الحد والعقاب ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ وإهانة واستخفاف عاجل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ زاجر له ولغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع العذاب في الدنيا، وفيها دلالة على عدم صحة الحديث في «إن من أصابه حد في الدنيا فهو كفارته ولا يعذب في الآخرة» أخرجه الحاكم في (المستدرک) وهو مخالف للقرآن، فهو غير صحيح.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ

﴿٢٨﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن تاب في حال يجوز فيه تمكنه من الاستمرار على فسادِهِ؛ لأنه لم يقبض ولا صار في محل حصار غالب فهي توبة صادقة ليس ملجأ إليها ولذلك فهي مقبولة؛ لأن ﴿اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر للتائبين ويرحمهم، ويجب علينا أن نعلم ذلك ونعمل بموجبه فلا نؤاخذ التائب بأن نجري عليه الحد المذكور بل يسقط عنه، أما القصاص فلا يسقط لأنه حق لولي المقتول وهو غير هذا الحد الذي أسقطته التوبة، وكذلك وجوب إرجاع المظالم لأهلها؛ لأن الأصل وجوب ذلك، إلا أن تصح الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أسقط ذلك كله.

قال الشريفي في (المصابيح): «وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: هذه الآية تدل على سقوط حد من تاب قبل أن يظفر به ولا يسقط القصاص، لأن هذه الآية في سياق آية الحد فقط» انتهى

﴿٢٩﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ لما مر ذكر المحاربة لله ورسوله والفساد في الأرض، وذكر نوع مدافعة لذلك، أتبعه بالدفاع الأكبر الذي هو الجهاد في سبيله، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وفي آية: ﴿لَهْلُمْتُ صَوَامِعُ﴾ إلى آخرها [الحج: ٤٠].

ولما كان الجهاد شاقاً على النفوس قدم على الأمر به الأمر بتقوى الله، وابتغاء ما يتوسل به إليه؛ لأن من امتثل ذلك امتثل الأمر بالجهاد، واتقاء الله اتقاء عذابه بطاعته، وابتغاء «الْوَسِيلَةَ» إليه: طلبها بالفعل المقرب لنيلها، أو بالنية التي تصير العمل وسيلة، فالأول: كالشهادة، والثاني: كالتوبة وكل عمل مقرب.

قال الراغب: «الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوسيطة؛ لتضمنها معنى الرغبة» انتهى المراد.

وقال في (الصحيح): «الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الواسيل، والوسائل، يقال: وسّل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسل إليه بوسيلة: أي تقرب إليه بعمل» انتهى باختصار.

قال في (الميزان): «وإذا كانت - أي الوسيلة - نوعاً من التوصل وليس إلا توصلاً واتصلاً معنوياً بما يوصل بين العبد وربّه ولا رابط يربط العبد بربه إلا ذلة العبودية، فالوسيلة هي التحقق بحقيقة العبودية، وتوجيه وجه المسكنة والفقر إلى جنبه تعالى، فهذه هي الوسيلة الرابطة، وأما العلم والعمل فإنما هما من لوازمها وأدواتها...» الخ.

قلت: ذلة العبودية تكون بالعمل المعبر عنها كتسليم النفس لله في الجهاد والانقياد لأمر الله فيما يشق على النفس وإخلاص الخضوع لله في الصلاة والدعاء، وجهد المقل في الصدقة والإيثار على النفس تقرباً إلى الله وكل عمل ورد فيه أنه مقرب إلى الله كالسجود على التراب وذلك كله إنما يعرف بالأدلة من الكتاب والسنة وليس للعبد أن يجعل وسيلة غير ذلك لأنه إما شرك وإما بدعة، وذلك مبعّد من الله لا مقرب وقد نقلت كلام (صاحب الميزان) لتحقيق هذا.

أما قول بعض الإمامية في تفسير هذه الجملة: «يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتقاء في مدارج الكمال الإنساني عبر التقوى واتباع السبل والوسائل إلى الله تعالى وهو الكمال المطلق، قال: ويعم هذا كل سبيل مقرب إليه، ومن الوسائل: التأسي بالرسول العظيم وأهل بيته الطاهرين، والتوسل والاستشفاع بهم باعتبارهم عباداً مقربين إليه جل وعلا» انتهى.

فقوله: «والتوسل والاستشفاع بهم» هو غير التوسل بالعمل، ومعناه: اتخاذهم وسيلة إلى الله وهذا غير مسلم، لأن اعتبارهم عباد مقربين لا يستلزم صحة التوسل بهم؛ لأن كونهم مقربين باسم المفعول لا يستلزم أن يكونوا مقربين باسم الفاعل، فلا يصح منا دعاؤهم لهذا الغرض، وسؤالهم أن يقربونا إلى الله.

نعم التوسل إلى الله مجبهم واتباعهم فيما هو صحيح عنهم لا إشكال فيه، إنما الإشكال في اتخاذ وسيلة لم يثبت أنها وسيلة بنفسها؛ لأن الآية الكريمة لا تدل على ذلك كما أفاده كلام (صاحب الميزان) وهو المحقق في تفسيرها، وكم كنت أحب أن تطهر بلادهم من دعاء الأئمة والسجود لبعضهم تعلقاً بهذه الآية الكريمة من بعضهم وهو عندي غلط جرهم إلى ما يعاب عليهم ويجري خصومهم على جعلهم مشركين بسبب ذلك.

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ والجihad في سبيل الله: هو القتال لنصر دين الله، وإعلاء كلمة الله، كما جاء في الرواية عن النبي ﷺ: «من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو جهاد في سبيل الله» رواه أبو طالب عيسى في (أماليه) ومحله (الباب الثالث والخمسون) والمعتمد اللغة في تفسير الآية، ومعنى الجهاد ومعنى في سبيله.



لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ  
الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ  
النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ قال الراغب: «والفلاح: الظفر، وإدراك بغيته»

انتهى، والظفر هنا: هو السلامة من النار ودخول الجنة، وتضمنينه معنى  
النجاة في هذا الموضع أقرب، وقد جاء في الشعر:

لو أن حياً مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرماح

يريد النجاة من الموت، ويناسب هذا المعنى التعليل بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ  
لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾  
فالآية التي قبل هذه الآية حث على طلب النجاة من عذاب يوم القيامة.

قال الشرفي في (المصابيح): «والمقصود من الكلام، يعني في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ إلى آخر الآية: التمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا  
سبيل لهم إلى الخلاص منه» انتهى.

قلت: وقد أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدل على أنه

لا يدفعه شيء لا الفدية ولا غيرها.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ

مُّقِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا﴾ يحاولون ذلك لرغبتهم في الخروج، والدليل  
على أنه كناية عن المحاولة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ  
أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فقله تعالى: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ يدل على أنهم يتزحزون عن  
أماكنهم لمحاولة الخروج؛ لأنهم لو لم يحاولوا لما كان للإعادة معنى.

فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾  
فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

وقد استبعد بعضهم: إرادة أن يخرجوا وقد أيقنوا أنهم لا يخرجون؟  
والجواب: أن من الجائز غفلتهم عن هذا اليقين، وأن تحدث الإرادة في  
سكرات الألم، قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ  
اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ فالمحاولة للخروج زيادة في العذاب لما يتكلفون  
فيها من سحب السلاسل والتحرك على الجمر ثم العذاب النفسي والجسدي  
بإعادتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿مُّقِيمٌ﴾ باق لا ينقطع بموت ولا غيره، وهذه  
الآية والتي قبلها تابعتان للحث على الجهاد الذي هو دفع الفساد في الأرض.

ولما كان السارق يشبه قاطع الطريق في الظلم بأخذ المال وفي الظلم  
بتسبيبه للحاجة إلى الحراسة التي تشغل عن كثير من الأعمال وقد تشغل عن  
طلب العلم وعن الصلاة في جماعة وغير ذلك جاء زجره بالحد فقال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ  
اللَّهِ﴾ هذا الأمر بقطع يد السارق موجهاً إلى الذين آمنوا، ومثله الأمر بجلد  
الزاني، دليل على أنه يجب على المسلمين إيجاد أمة تدعو إلى الخير وتأمّر  
بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الحدود.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١] يدل على أن إلى هذه  
الأمة إلزام الأزواج جعل الطلاق على السنة، وغير ذلك من الخطابات  
العامة مثل: ﴿وَإِذَا نَدَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ فالأحكام التي يقيمها قائد الأمة  
بسبب تأييد الأمة له وانقيادهم له منسوبة إلى جملتهم، وهم مأمورون بها  
جملة أن تقيمها دولتهم لأن عليهم إعانة الدولة الإسلامية ونصرها.

رَحِيمٌ ﴿٢٩٤﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩٥﴾ \* يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا

فهذه الآيات من دلائل الإمامة لأن الفرد لا يتهيأ له إقامتها وحده ولو حاول أحد بدون سلطة إقامتها لكان ذلك سبباً للفوضى والقتال بين المسلمين فتعين وجوب تحضير سلطة قادرة على ذلك، فهي من أدلة الإمامة عندنا وأدلة ولاية الفقيه عند من أثبتها من الإمامية، والمعنى متقارب.

وجمع (الأيدي) لعموم السارق والسارقة؛ لأن المقطوع من السارق يد واحدة فقط كما هو معلوم من السنة والمقطوع الكف؛ لأنه يحصل به الامتثال، فلا موجب لأكثر منه، وليس المحل محل تخيير لما في الزيادة من الضرر الشديد فيبعد التخيير مع الفرق الكبير، مع أن السنة قد عينت القطع من مفصل الكف وتعين اليمنى للقطع حكم آخر لا تفسير للآية، ولذلك أجزأ قطع اليسرى عند الغلط.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ دليل على أن القطع عقوبة فليس للسارق فيه عوض فهو ظلم نفسه ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ زجراً من الله للسارق ولغيره ودفعاً لهم عن السرقة فهي فائدة عظيمة للمجتمع.

وقوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ دليل على أنه حق وصواب فليس لأحد أن يعترض حكمه ولأنه تصرف الذي خلق اليد المالك للعبد ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلعزته وحكمته يعذب المجرمين فليسوا محل رحمة؛ لأن الرحمة لا تعارض العزة والحكمة لأنها ليست رحمة رقة وضعفاً وإنما هي رحمة كمال.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يتوهم من تعجيل عقابه بالقطع أنه لا تقبل له توبة تنجيه من عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ أي من بعد أن سرق فاستحق العذاب بظلمه؛ لأن السارق ظلم المسروق عليه وجار وظلم نفسه أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ يفيد إلزامه أن يرجع السرقة إذا كانت باقية، بل وظاهره: وجوب إصلاح ما أفسد على المسروق عليه بكسر بابه أو خرق جداره أو نحو ذلك، فأما السرقة إذا كانت قد تلفت فقد قيل تسقط بالحد لأنه لا يجتمع حد وغرم.

فأما قبل الحد إذا تاب فقال الشريفي في (المصاييح): «وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد - رحمه الله عليه - : دلت الآية على أن التائب إلى الله ممن سرق المصلح برء ما أخذ والمستحل من المأخوذ عليه يسقط عنه الحد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا قول بعض التابعين ومروي عن الشافعي، وذهب الثوري وأبو حنيفة وابن حنبل وإسحاق: أن السارق إذا غرم سقط الحد وقد قال عليه السلام: «ادرءوا الحدود بالشبهات» وقال عليه السلام لسارق: «ما أخالك سرت» يلقيه بما يدرأ به الحد، والعمل بهذه الآية أولى.. الخ.

قلت: أما الحديث: «ما أخالك...» فلا بد أنه عليه السلام لا يخاله سرق، أي لا يظنه، فهو صادق في ذلك، وعليه يحمل تلقينه لثلاثين أقره لبيعة الرسول عليه السلام وهو بريء، فالاحتجاج بالآية أولى، كما قال عليه السلام، ولعله يعنى التائب قبل رفعه إلى الإمام، وفي حال تجويز أن لا يرفع الاحتمال ذلك فأما من قد رفع فلا مجال من قطعة إذا لم يكن تاب كما ذكرت لأنه عند أخذه إلى الإمام ويأسه من السلامة من القطع ملجأ إلى إظهار التوبة فلا يعلم أنه تائب حقاً، وعند وصوله إلى الإمام وجب قطعه؛ لأن الله قد أوجب القطع ولم يرخص في تأخيره انتظاراً للتوبة المحققة.

يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

﴿١١﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ هذه الآية ترد على الكفار الذين يعيرون القطع في الإسلام، وتدلل على أنه حق من الله الذي ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يحكم ما يريد و﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لاستحقاقه العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يؤكد كلام الإمام القاسم بن محمد عليه السلام، لأنه قابل التعذيب بالغفران، فكانه قال: ويترك تعذيب من يشاء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو غالب على أمره، فمن شاء قطعه على كل حال فلا بد أن يقطع، وهذا تحذير للسارق من أن يسلط الله عليه وهو يمتنى نفسه السلامة من القطع فيسرق وهو لا يدري، لعل الله يسلط عليه فينكشف سره ويؤخذ وتقطع يده بأمر الله ومشيئته.

﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴿١١﴾ لَا يَحْزَنُكَ ﴿١١﴾ لا تحزن من أجلهم، إما على معنى: لا تحزن عليهم لكونهم هالكين فهم متمردون مستحقون لفتنتهم؛ لأنهم سماعون للباطل مائلون عن الحق فهم ظلموا أنفسهم، وإما على معنى لا يحزنك كيدهم للإسلام أو الخوف من كيدهم فالله لا بد أن يظهر دينه.

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعم الذين في قلوبهم مرض المنافقين وغيرهم ممن لم يؤمن ولما ينافق، ومسارعتهم في الكفر سماعهم لكذب الكفار في تكذيبهم للرسول ﷺ أي قبولهم له وتصديقهم لهم، وقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو قول انفردت به أفواههم ولم يصدر عن قلوبهم، فالإيمان الصحيح هو الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، أما مجرد القول فليس إيماناً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: من الذي آمنوا بأفواههم.

والدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤] فهذا فائدة قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وذلك لأن قولهم آمنا إنشاء يوهمون به إيمانهم وليس خبراً عن إيمان قلوبهم؛ ولهذا لم يقل: (من الذين قالوا آمنا ولم تؤمن قلوبهم) لأنهم لم يدعوه كما فعلت الأعراب وإنما أنشأوا بأفواههم إنشاءً، فقال: ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ ليبين أن قولهم آمنا مجرد قول باللسان لا يطابقه الجنان لا لإبطال قولهم آمنا وتكذيبه لأنه ليس خبراً ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ عطف على ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ فالفرقان مسارعون في الكفر وهم حول الرسول ﷺ حيث ينزل القرآن وآيات النبوة، فلا تحزن لأجل مسارعتهم في الكفر.

﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ هؤلاء المسارعون في الكفر هم ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ مكثرون من سماع الكذب وهو يعم ما يعلمون أنه كذب وما يغترون به مما يفترونه فيقبلونه اتباعاً للهوى، كقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيْلَماً مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] سماعون لقوم من اليهود ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهؤلاء اليهود مفسدون مضلون.



﴿مُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ إفساداً وإضلالاً لمن يسمع منهم  
 ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ فكما أنهم  
 مضلون بكذبهم وتحريفهم الكلم من التوراة من بعد أن جعله الله في  
 مواضعه التي اختارها له لئلا تدل على معناها المقصود، أو ليتمكنهم أن  
 يزعموا لها معنى غير معناها، فكما أنهم ضالون مضلون بهاتين الطريقتين  
 فهم مضلون بأمرهم أن لا يقبلوا إلا الباطل وتحذيرهم من قبول الحق؛  
 لزعمهم أنه الباطل.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «ومن الدليل على أن الرجم  
 حكم من الله قديم على المحصنين، ما أخبر الله به نبيّه عن اليهود وتبديلها  
 له وطرحها إياه من التوراة وتحريفها لحكم الله، وذلك قول الله سبحانه:  
 ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ  
 يَأْتُولْك مُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ يريد: يحرفون ما في التوراة من  
 حكم الرجم، وهذه الآية نزلت فيما كان من أمر بشرة اليهودية... الخ، ذكر  
 قصتها حتى أمر رسول الله ﷺ برجمها هي والزاني بها، وقصة اليهود في  
 إنكارهم حكم التوراة واقتضاهم وذلك في الأحكام في باب القول في حد  
 الزاني في الكتاب فليرجع إليه.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ كهؤلاء المضلين ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾  
 الفتنه: بمعنى العذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾ \* ذوقوا  
 ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣-١٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي  
 تعذيب من أسلم، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] لا  
 يعذب مسلم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [البروج: ١٧٠] وقال  
 تعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [النكبت: ١٧٠] أي تعذيبهم لمن أسلم.

فقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلَلِهِ شَيْئًا﴾ لن تملك له من الله أن يعفو عنه أو أن يخفف من العذاب أو أن ينظره بعد مجيء وقت العذاب أو نحو ذلك؛ لأن الحكم لله لا معقب لحكمه، وليس لأحد لا رسول الله ﷺ ولا غيره أن يتدخل بين الله وعباده ليحول الله سبحانه عن إرادته إلى إرادة ما يطلب منه المتدخل؛ لأنهم كلهم عباد، والملك يومئذ لله وحده: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩].

وهذا هو معنى ما فسرنا به الإمام الهادي عليه السلام، كما حكى في (المصابيح) عنه عليه السلام، وقال الناصر عليه السلام في (البساط) في مسألة في الفتنة وجوابها: «فيقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلَلِهِ شَيْئًا﴾ وفي هذا الموضع يريد: من يرد الله عذابه فلن تستطيع أن تدفع عنه ما يريده الله من عذابه، والله سبحانه فلا يريد أن يعذب إلا من هو مصر على معاصيه وقد علم أنه لا يرجع عن كفره ولا يتوب... إلخ.

فقد اتفق الهادي والناصر عليه السلام على تفسير الفتنة هنا بالعذاب، وهو مناسب لتفسير: ﴿لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بأن المعنى: لا تحزن عليهم لهلاكهم، فيكون المعنى: ولو حزنت عليهم والله يريد تعذيبهم، فلن تملك لهم من الله شيئاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ لأنهم متمرّدون مصرّون على رجسهم، لا يستحقّون من الله أن يطهر قلوبهم، أو لم يستحقّوا؛ أو لأنهم لا يقبلون لطفاً ولا يمكن تطهيرها إلا بالقسر والإجاء الذي لا يفيدهم الخروج إلى الطاعة ولا يدفع استحقاقهم النار بما قدموا؛ ولذلك فهم يموتون على ما في قلوبهم من الإصرار على باطلهم مستحقّين للفتنة على النار.

قال الناصر عليه السلام في (البساط): «وليس من حكمه أن يعذب من يعلم أنه يتوب ويرجع يوماً ما؛ لأنه قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] يقول: لا أعذب من أعلم أنه يتوب ويستغفر، وقال جل ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] يقول: لو علمت أنهم يقبلون لأسمعهم ما طلبوا وأريتهم من الآيات ما سألوا، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] فهذا وأشباهه في القرآن كثير يُعلمُ الله - جلَّ ذكره - أنه عالم باختيارهم معاصيه وعاقبة أمرهم، وأنهم لا يتوبون مختارين غير مضطرين، وأنه لا يعذب من يعلم أنه يتوب ويرجع عن كفره وضلاله.

وأما قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ...﴾ الآية، فمعنى ذلك: أنه لا يريد أن يحكم لقلوبهم بالطهارة والإيمان وهي كافرة، ولا يشهد لها بالطهارة وهي نجسة ولا يزيها، وإنما صاروا بهذه المنزلة لكفرهم وشركهم الذي اختاروه وأصروا عليه» انتهى المراد.

وقوله: ولا يزيها؛ لعله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩] أو إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧] ومثل تفسير الناصر عليه السلام حكى في (المصابيح) عن الهادي عليه السلام.

فأما تفسير المجبرة أو بعضهم (الفتنة) بمعنى الضلال، فهو غير معروف في اللسان وإن ادعوه في كتبهم في اللغة فلا يُقبل منهم؛ لأنهم جارون لأنفسهم مع أنه غير مناسب لهذه الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ لو جعلناه على تفسيرهم لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من

الفتنة بإزالتها منها، لصار المعنى: ومن يرد الله فتنه أي ضلاله، فلن تملك له من الله شيئاً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من الفتنة، والترتيب على هذا لا يصح؛ لأنه إذا أراد فتنهم فقد أغنى عن ذكر أنه لم يرد طهارتهم من الفتنة؛ لأن إرادة الفتنة أبلغ من عدم إرادة الطهارة منها كما لا يخفى على منصف؛ وهذا لأن قوله: ﴿لَمْ يُرِدِ﴾ لنفي وقوع الإرادة في الماضي فليتأمل!!

ولذلك لا يصح أن نقول على تفسير (الهادي) و(الناصر) للآية: إن المعنى لم يرد أن يطهر قلوبهم يوم القيامة، وإنما يصح أن يكون المعنى: لم يرد أن يطهر قلوبهم في الماضي، وإن زكوا أنفسهم وزعموا أنهم مطهرون.

والراجع عندي في قوله تعالى: ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ أنه كناية عن أن في قلوبهم رجساً هو سبب تعذيبهم، وفائدة الكناية: تسلية رسول الله ﷺ بأنه تعالى أراد أن يتركهم على رجسهم، فلا يحزن لشدة رغبته في إيمانهم حباً منه ﷺ لله وكراهة أن يعصى، ثم رتب على ذلك قوله تعالى:

﴿هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كما دل تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ على إرادته تعذيبهم فما أراداه وقع.

فإن قيل: إذا كان ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ من يرد تعذيبه فقد أفاد أنه يعذب فما فائدة قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟!  
فالجواب: أن له فائدة، وهي: أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ اسم شرط وفعل الشرط، وذلك ليس صريحاً في أنه يريد للمسارعين في الكفر تعذيبهم، فصرح بأنه يعذبهم، وفائدة أخرى وهي: الإخبار بوقوع ما يريده فهو أبلغ لما فيه من التصريح بتعذيبهم.

سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ  
أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم  
بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٦﴾ وَكَيْفَ تُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ

وفائدة أخرى وهي: بيان أنهم يعجل لهم في الدنيا خزي ويؤجل لهم في  
الآخرة عذاب عظيم، وفي هذا تفصيل ليس في الإخبار بإرادة تعذيبهم.  
قال في (الصحيح): «وخزي - بالكسر - يخزي أي ذل وهان» انتهى.

قلت: الأولى أن ذل وخزي متقاربان لا مترادفان؛ لقوله تعالى حاكياً:  
﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزِيَ﴾ [طه: ١٣٤] قال الشريفي في (المصابيح): «من قبل أن  
نذل بالعذاب ونخزي بالفضيحة على رؤوس الأشهاد» انتهى، وقال في  
تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾: «أي فضيحة وهوان» انتهى،  
وقال (صاحب القاموس) في تفسير: (خزي): «وقع في بليّة وشهرة، فذل  
بذلك، قال: وأخزاه الله: فضحه» انتهى.

وقال في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾:  
«ذلّ وفضيحة» انتهى، وقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ  
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [نص: ١٦] وأضاف العذاب إلى  
الخزي وهو الذل والإستكانة... الخ.

فظهر: أن الخزي انفعال يسببه العذاب من حيث هو عار على الفاجر؛  
لأنه الذي سبب له وجرّه على نفسه بسوء اختياره.

﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلشُّحِّ﴾ ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾  
لهوهم في قبوله، أو لاعتقادهم وجوب قبوله حيث صدر من الأخبار أو  
الرهبان، فالمدحوم ثلاثة أقسام:

الأول: ما علم أو ظن أنه كذب.

الثاني: ما قُبِلَ اتباعاً للهوى مع الشك في صدقه أو مع كونه في مسألة قطعية، وهو لا يفيد القطع مع معارضته للقاطع الذي يجب اتباعه.

الثالث: ما كان سبب قبوله اعتقاد وجوب قبوله لصدوره عن الأحبار والرهبان بناء على أن قبول خبرهم واجب على كل حال بناء على وجوب اتباعهم على كل حال.

﴿أَكْتَلُونَ لِلْسَّخْتِ﴾ الحرام، كالرشوة والهدية التي هي مكافأة على واجب. ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ لستحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ لأن حكمك الحق ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لأنهم لا يقبلون حكمك إلا إن وافق هواهم ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ وإن زعموا أنك لم تدر ما تحكم، أو أنك كتمت الحق، أو غضبوا عليك من الإعراض عنهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ قال في (الصحيح): «والقسط - بالكسر - العدل، ثم قال: والقسط - أيضاً - مكيال، وهو نصف صاع، والفرق ستة أقساط».

قلت: هذا الصواب أن القسط العدل؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] ولعله يؤخذ في معناه تحقق العدل الذي ليس معه أي ميل فيكون أبلغ من الأمر بالعدل، وذلك لمناسبته القسط الذي هو كيل محدود، والقسطاس لميزان محكم - والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهذا ترغيب عظيم في العدل لكل من يخاف الله ولكل من يعلم حاجته إلى الله.



التَّورَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ  
الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ  
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِي  
ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾ وَكُتِبْنَا

﴿١٢﴾ وَكَيْفَ تُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴿١٣﴾ هذا دليل  
واضح على أن الكلام من قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ كان في  
اليهود، أي كيف يصدر عنهم ذلك وهم لم يسلموا، بل هم ضالون مضلون،  
فهؤلاء لا يصدر عنهم إلا لغرض فاسد وفي سبيل اتباع الهوى، ورجاء أن  
تحكم بما يهونون لا لطلب الحق؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله، فلو كان  
غرضهم التوصل إلى الحق لاكتفوا عن تحكيمهم لك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ فلو كانوا  
يتبعون حكمك ولا يتولون عنه من بعد أن حكمت بينهم لما كان ذلك معيياً  
بل هو الحق، ولكنهم يتولون من بعد ذلك ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ المعروفون باتباع  
الهوى والميل معه حيث مال والمعروفون بالكفر والصد عن سبيل الله  
والتكذيب بآيات الله ما هم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك عَظُمَ باطلهم بتكامل  
معاييهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد يدل على  
بعدهم من الإيمان وأن بينهم وبينه مسافات ومراحل.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الهدى: تعليم سبيل الله وهي  
دينه، والنور: المواعظ التي ترشد في الدنيا وكل ما يستنير به القلب وتقوى به البصيرة  
﴿تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾

الذين أسلموا أنفسهم لله فحكمهم بالتوراة لله ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ العلماء الدعاة إلى الله المكثرون من ذكر الله ومراقبته ﴿وَالْأَحْبَابُ﴾ العلماء فهم يحكمون بها.

﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ بسبب أن الله تعالى استحفظهم كتابه أو بعض كتابه أي أمرهم أن يحفظوه من الضياع ومن التحريف ومن الزيادة والنقصان، أو بما استحفظوا جعلهم الله حافظين له لا ينسونه، والأولى عموم المعنيين فهما من حفظه فقد كلفهم الله أن يحكموا وصاروا يحكمون بالتوراة بسبب أن الله جعلهم حافظين لها.

ويحتمل أن قوله: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾ بدل من قوله: ﴿بِمَا﴾ أي يحكمون بما استحفظوا منها؛ لأنها كتاب الله ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون أنه من التوراة لعلمهم وتيقنهم أنه منها؛ ولعل في هذا مأخذاً أن الرواية شهادة، وأنه لا بد من اثنين يرويان الحديث أو أكثر كما في الشهادة.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ أيها الحكماء بـ (التوراة) ﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ فلا يجوز الحكم بغير الحق لخشية سلطان أو حزب وليس يعذر حاكم بخشية الناس؛ لأن عليه أن يخشى الله ويتقي عذابه فيحكم بما في (التوراة) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تستبدلوا بالحكم بآياتي ثمناً قليلاً هو الرشوة فهي قليل في جنب ما هي عوضه، وقليل في جنب العذاب الذي تؤدي إليه وكل ما في الدنيا قليل؛ لأنه زائل فهذا تحذير من العدول عن الحكم بما أنزل الله رغبة في الرشوة أو نحوها، والأول تحذير من تركه للرهبة.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأن الحكم بغير ما أنزل الله جحد لما أنزل الله فهو كفر.

عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ  
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ  
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٦﴾  
وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ عَآثِرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ﴾ خطاب لهذه الأمة أي  
عليكم أن تحكموا بكتاب الله الذي هو القرآن كما حكم النبيون والربانيون  
والأحبار بالتوراة، وهذا هو ظاهر كلام الناصر عليه السلام في (البساط) وقال:  
يعنى بالناس أهل مكة، وجعل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ في هذه الأمة، والظالمون في اليهود، والفاسقون في  
النصارى.

والراجع عندي: أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا...﴾ إلى آخر الآية حكاية  
لما كلف به النبيون الذي أسلموا والربانيون والأحبار؛ لأن الكلام في القرآن  
يأتي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ..﴾ الآية التي تأتي قريباً، والتي  
بعدها.

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ  
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ ﴿وَكُتِبْنَا  
عَلَيْهِمْ﴾ أي على بني إسرائيل ﴿فِيهَا﴾ أي في (التوراة) ومعنى ﴿كُتِبْنَا  
عَلَيْهِمْ﴾ أوجبنا عليهم هذه الأحكام التي هي جعل النفس بدل النفس  
المقتولة، والعين بدل العين، وهكذا بقيتها، والجروح قصاص: يجرح الجاني  
بمثل ما جرح المجني عليه، و(الباء) للمبادلة مثل الحديث النبوي: «الذهب  
بالذهب، والفضة بالفضة...» إلى آخر الحديث.

التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فمن تصدق بما استحقه أي عفى عن الجاني ﴿فَهُوَ﴾ أي المتصدق به أو التصدق كفارة له يكفر به عنه من سيئاته، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

قال الشريفي في (المصابيح): «وفيه دليل على أن العفو كان جائزاً في شريعة بني إسرائيل» انتهى.

قلت: هو ظاهر السياق، ولعله مشروط بأن يكون العفو مجاناً ليكون كفارة، أما سيد قطب فزعم أن ليس في (التوراة) وإنما هو في شريعتنا، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهم من أهل النار؛ لأنها جزاء الظالمين، فقد أفادت أن من لم يحكم بما أنزل الله اجتمع له الوصف بالكفر، والوصف بالظلم.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ﴿قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا لأن التابع يكون قفا المتبوع ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا أو الربانيين والأخبار، فهو على طريقتهم في الحكم بما في (التوراة) إلا ما نسخه الله في شريعة عيسى حال كونه ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي بما معه من الآيات الدالة على صدقه ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه ﴿مِنَ التَّوْرَةِ﴾ فالنبيون يصدقون كتب الله ولا يتفرقون، ولعل بعض النصارى كانوا قد كفروا بالتوراة في قولهم: ﴿لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] فهذا ردٌ عليهم.

فِيهِ وَمَنْ لَمْ تَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا

﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وآتيناه عيسى بن مريم ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ كتاب الله الذي أنزله على عيسى اسمه الإنجيل ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما قال في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ فالإنجيل مصدق لها كما عيسى عليه السلام مصدق لها ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هدى للمتقين وموعظة لهم، ولا تكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وصف للإنجيل يبين كماله في نفسه مع قطع النظر عن من ينتفع به أولاً ينتفع.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان لمن ينتفع بالهدى والنور أنهم المتقون، ونظيره وصف القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ من حكم عام أو مخصص لبعض ما في التوراة أو ناسخ لبعضها أو دلالة على النبي الأمي الذي من بعد عيسى وهكذا في التوراة، فالحكم عام لكل ما أنزل الله وما تجدد إنزاله ناسخاً لما قبله وجب العمل بما تجدد، ولا يجوز إهماله تعظيماً لما سبق؛ لأن الأول إنما ثبت حكمه لأن الله أنزله، فوجب اتباع الناسخ لأن الله أنزله.

﴿وَمَنْ لَمْ تَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخبيثة الفجار، وهذا عام لكل من لم يحكم بما أنزل الله أضاف لهم اسماً ثالثاً فهم كافرون، وهم ظالمون، وهم فاسقون، وفي هذا الاسم الأخير زجر لمن زينت له طريقة مخالفة لما أنزل الله من اليهود، أو من غيرهم كغلاة النصاري،

عَلَيْهِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُم

وغلاة الشيعة، وغلاة الصوفية، وكاليهود، والنصارى التاركين للقرآن بعد نزوله، فهؤلاء وإن زينت لهم أنفسهم دينهم، وظنوا أنهم صالحون أبرار، ليسوا إلا خبثة فجاراً خارجين عن دين الله، وإن ظنوا أنهم صالحون مصلحون، ويدخل في هذا من يترك بعض أحكام الله ويبدله بالقانون لمصلحة اجتماعية يظنها.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ هذا الذي هو القرآن الحكيم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدم قبله من كتب الله جملة أو تفصيلاً ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ على الكتاب الماضي أي الكتب عبر عنها بالكتاب؛ لأن أصله مصدر: كَتَبَ كِتَابَةً وَكِتَابًا ولذلك يستعمل كما هو من غير فرق بين مفرد ومثنى ومجموع.

ومعنى إنزاله بالحق أنه أنزله رب العالمين الذي له الحكم في عباده، والذي اقتضت حكمته إنزاله على العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ثم عطف عليه: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] فالإنزال بالحق؛ لأنه من الله العزيز الحكيم، والنازل فيه الحق من الشرائع والوعد والوعيد وقصص الأولين والآيات وغير ذلك.



وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ أي القرآن مهيمن على ما بين يديه من الكتاب أي شاهد عليه مصدق أمين فيما نسبته إلى الكتب التي قبله؛ لأن القرآن كلام الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

قال الناصر عليه السلام في (البساط): «﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾: أي شهيداً عليه» انتهى، قال في (الصحيح): «المهيمن الشاهد» انتهى.

وفي (تفسير الطبري) بإسناده عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال: يقول شهيداً، وفيه سند عن السدي: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال: شهيداً عليه، وبسند عن قتادة: أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله.

وروى الطبري بأسانيد عن أبي اسحاق، عن رجل من تميم، عن ابن عباس: «﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً عليه» انتهى، وهو مثل الأول، وروى الطبري أيضاً - بسند آخر - عن ابن عباس قوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال: والمهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، انتهى، وأورد الطبري روايات عن بعض المفسرين مثل هذا.

وفي (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ فالمهيمن: المصدق لما قبله والأمين عليه» انتهى، ويحتمل أنه عليه السلام أراد تفسير قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ أو أنه عليه السلام، يعني أن المهيمن الأمين عليه مع كونه مصدقاً له. وقال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿مُهَيِّمًا﴾ أي رقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة ويبين بعض ما حُرِّفَ فيها، وقيل: الأمين - إلى قول الشرفي -: فلهذا قال المفسرون: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ أي أميناً على الكتب الذي [كذا] قبله» انتهى المراد.

فجعله بمعنى رقيباً، وجعل الرقابة عليه: بمعنى الشهادة بصدقه، والشهادة عليه فيما بين أنه محرف منه، فصار المعنى مثل الأول أو قريباً منه.

وقال الشرفي رحمه الله في تفسير اسم الله تعالى: ﴿الْمُهَيِّمِينَ﴾ [الحشر: ٢٣]: «الرقيب على كل شيء الحافظ له» انتهى.

فأما (صاحب الكشاف) فقال: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ ورقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات» انتهى، وقال في (الكشاف) في تفسير اسم الله تعالى ﴿الْمُهَيِّمِينَ﴾ [الحشر: ٢٣]: «الرقيب على كل شيء الحافظ له، مفعِل من الأَمْنِ إلا أن همزته قلبت هاء» انتهى.

والراجح في معنى (الرقيب): أن أصله بمعنى الراصد فيكون الرصد للشيء لحفظه، ويكون الرصد عليه لمعرفة ما يكون منه، ويكون الرصد للشيء لانتظاره، فمن الأول قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ومن الثالث قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [مرد: ٩٣] إلا أنه سمي الانتظار رقيباً، وفي (الصحاح): «الرقيب: الحافظ، والرقيب: المنتظر، تقول: رقت الشيء أرقبه رقباً إذا رصدته» انتهى باختصار.

وقال الشرفي رحمه الله في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]: «والرقيب: هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك» انتهى.

وعلى هذا: فالرقيب قريب من معنى (الشهيد) ولكن تفسير (المهيمن) في قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ بالشهيد الأمين أقرب من تفسيره بالرقيب،

وأحسن ما أراه في معنى (المهيمن) أنه: بمعنى الرعاية لعبادة، والتولي لشئونهم، والحفاظ لهم، من قولهم: «هيمن الطائر إذا رفر ففراخه».

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بالقرآن لأن الله أنزله إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فاتباع خلاف ما أنزل الله إتباع للأهواء وأهل الكتاب يريدون اتباع أهوائهم وإن خالف ما أنزل الله.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فلا عذر ولا رخصة في العدول عما أنزل الله وإن أدى إلى التفرق؛ لأن الله قد شاء ذلك ولو شاء لجعلنا على شريعة واحدة حتى لا تفرق، لكنه أراد أن يبلونا فيما جعل لنا من الشريعة والمنهاج أتبعه أم نعدل عنه للأهواء والمصالح الدنيوية، حتى يتبين من يجعل أمر الله فوق الأغراض والمصالح الدنيوية الموهومة، ومن يعدل عن أمر الله إلى الأهواء.

و(الشريعة): الشريعة، والمنهاج: الطريق المستقيم الواضح، فجعل لليهود شريعة قبل نسخها، وللنصارى - أيضاً - كذلك قبل نسخها، وجعل لنا شريعته التي ارتضاها للعالمين فأرسل بها محمداً ﷺ وأنزل بها هذا الكتاب.

قال الشرفي في (المصاييح): «ومعنى الآية، كما قال الهادي عليه السلام: فالشريعة هي الفرائض المفروضات والأحكام المجعولات، المأمور الخلقُ بفعلهن، والمحكوم عليهم بأداء فرضهن، والمنهاج: فهو الطريق الواضح الدال على ما ذكرنا من الشريعة الناطقة لها السنة المتبعة، والجعل فلا يكون إلا فعلاً لله» انتهى.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ ما أعد الله لعباده الصالحين، واستباقه باتباع ما أنزل الله فينبغي لمن أراد نفع نفسه أن يتبع ما أنزل الله ولا

بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا  
 أُنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ  
 وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ

يأنف من ترك المنسوخ إلى الناسخ ولا ينظر إلى من تخلف عن ذلك؛ لأنه في  
 عمل يسبق به الخيرات وهو سابق لمن تخلف، ومن تخلف فإنما خسر  
 الخيرات، وعلى هذا فلا خير ولا صلاح في العدول عما أنزل الله وإن سماه  
 أعداء الدين خيراً، بل هو الخسران المبين، بل وإن توهم البشر الضعيف أنه  
 أصلح للمجتمع وأوفق للوقت الحاضر فإنما هو الخسران والضلال المبين؛  
 لأن الله أعلم بمصالح عباده وليس لهم أن يعصوه نظراً للمصلحة في ظنهم.

﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾  
 فهناك في الآخرة حين يرجعون إلى الله، وقد ضل عنهم ما كانوا يميلون إليه  
 من الأغراض الدنيوية من الرئاسة وجمع المال وغير ذلك، يبين لهم الحق  
 الذي كانوا يختلفون فيه، ويجزي كل عامل بعمله حيث لا ينفع قانون ولا  
 استحسان ولا مصلحة، إلا تقوى الله واتباع ما أنزل، كما أن الرجوع إليه  
 وحده، لا إلى رئيس ولا شارع قانون ولا حزب ولا أنصار.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ  
 يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿و﴾ أنزلنا إليك ﴿أَنِ احْكُم  
 بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل الكتاب ﴿بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾ على كل حال رضوا أم سخطوا  
 أطاعوا أم عصوا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فمخالفة ما أنزل الله إليك في أي  
 شيء من أجلهم إنما هو اتباع لأهوائهم، وإن كان من دينهم وشريعتهم؛ لأنه  
 بعد النسخ بما أنزل الله قد صار هواهم لا غير ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾  
 بأي حيلة وبأي ترغيب يفتنوك، لتعدل عن جزء مما أنزل الله إليك أو كلمة

مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣١٤﴾ يَتَّيِبُهَا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ  
وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ

أو حرف، ولو وعدوك إذا طاوعتهم فيه أن يسلموا أجمعون، فمساعدتهم إنما هي افتتان وفساد ووقوع في الهلكة.

ومثل هذا ما يغرر به بعض عملاء الكفار من دعوى أن الزمان هذا لا يصلح بتطبيق الدين كله، وأنه لا بد من التعديل فيه وإلا بقي المسلمون في التخلف والرجعية ونحو هذا من التغرير.

فعلينا: أن نحذرهم، وأن لا نتنازل عن شيء من دين الله لا صغير ولا كبير، وأن نعلم أن العزة والقوة في اتباع دين الله؛ لأن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] ولا يذل من أعزه الله، ولم يضر المسلمين اليوم إلا تساهلهم في مخالفة ما أنزل ومخالفتهم لأمر الله حتى تفرقوا وضعفوا وقوي عليهم عدوهم، ولا يزالون حتى يرجعوا إلى دينهم كله ويتوكلوا على الله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عنك بسبب الحذر منهم وترك مساعدتهم بإهمال شيء مما أنزل الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فلا تحزن عليهم وارض لهم بما أراد الله لهم، وإذا أراد تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم فبالأولى إصابتهم بسبب ذنوبهم كلها، ففيه دلالة على أن بعضها كافٍ في استحقاقهم للعذاب، وأن بعضها عظيم يستدعي وحده أن يصيبهم الله، فاعلم ذلك، ولا يحزنك توليهم عنك ولا عليك منهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ فهو الخبث والفجور يصرفهم عن قبول الحق بعد وضوحه ولذلك فلا تبال بهم وتوكل على الله.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾ أن تحكم به بينهم، فكل حكم خلاف ما أنزل الله فهو حكم الجاهلية، وإن ادعوا أنه هو العلم أو أنه مقتضى الحكمة؛

لأن الله أعلم بالحكمة والصواب، فالحكمة والصواب فيما أنزل؛ ولذلك فإن خلافه إنما يستند إلى الجهل وإن ظنوه العلم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون يقيناً أنه أحكم الحاكمين وأنه علام الغيوب الذي لا يخفى عليه الصواب ولا يرضى لعباده أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وأن الخير في اتباع حكمه والأحسن عاقبة كما أخبر بذلك وهو أصدق القائلين.

وما أحسن قول سيد قطب هنا: «ومن ذا الذي يجروّ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم، وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الإدعاء العريض؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟!

أيستطيع أن يقول: إن الله سبحانه وهو يشرع شريعته الأخيرة ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ويجعل شريعته شريعة الأبد.. كان سبحانه يجهل أن أحوالاً ستطرأ وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته؛ لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان..».

إلى قوله... ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين.. الظروف والملابسات عدم رغبة الناس الخوف من الأعداء.. ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته وأن لا يُفْتَنُوا عن بعض ما أنزله قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة والأوضاع المتجددة والأحوال المتغلبة، ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير، يستطيع غير المسلم أن يقول ما شاء، ولكن المسلم أو من يدعون الإسلام.



اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ

ما الذي يقولونه من هذا كله ثم يبقون على شيء من الإسلام أو يبقى لهم شيء من الإسلام، إنه مفرق الطريق الذي لا معدى عنده من الاختيار، ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال، إما إسلام وإما جاهلية، إما إيمان وإما كفر، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون..» الخ كلامه الجميل المفيد لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وبعد هذه الآيات التي توجب الحكم بما أنزل الله حذر سبحانه من موالة اليهود والنصارى أعداء ما أنزل الله على رسول الله ﷺ فقال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ الْوَلَايَةُ تَكُونُ بِالْحَبِّ وَالصَّدَاقَةِ، وتكون بالمخالفة على النصرة والمعية في الموقف أو في الرأي، والتوجه أو نحو ذلك.

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَافِقِينَ ۚ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا \* الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةُ﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩] مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ...﴾ الآية [الحشر: ١١].

وظاهر كلام الإمام الهادي في (الأحكام) أن الميل إليهم بأي نصرة ولو بمجرد تأمينهم أن ذلك موالة لهم، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وتلك ولاية المحبة والتناصر لاتفاق الدين لا للحلف.

بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَنِدِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خُسِرِينَ ﴿٥٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ في أنه كافر عدو لله ورسوله، والقدر المشترك بين اليهود والنصارى هو الكفر والمعادة لله ورسوله ﷺ فهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] فليس المعنى: أن المتولي يهودي نصراني، وإنما المراد ما ذكرت فهو كافر ضال مثلهم في الغواية والبعد عن الهدى؛ لأنه قد صار من القوم الظالمين الذين لا يهديهم الله؛ لاستحقاقهم الخذلان.

وفي قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ دلالة على أنهم لا يتولون المنافقين ولا ينصرونهم، فهو زجر عن موالاته اليهود والنصارى طمعاً في نصرتهم.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ خَشِيَ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ ﴿فَتَرَى﴾ فبعد النهي عن اتخاذهم أولياء ترى ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الذين هم شاكون مرتابون لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وإنما يدعونه وليسوا صادقين، ولأجل هذا المرض لا يثقون بعزة المؤمنين ولا يعتقدون أن الله ينصرهم.

بل ينظرون إلى ظاهر الحال من كثرة الكفار وقوتهم المادية، فهم يخافون غلبة الكفار لهم إن ثبتوا مع المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] أي فأظهروا الإيمان فرقاً من المؤمنين، وناقفوا فرقاً من الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ يفيد: أنهم يخاطبونهم ويمشون من عند بعضهم إلى عند بعض مسرعين؛ ذلك لأنهم يتولونهم بالصدقة والحبة لعدم الإيمان في قلوبهم يريدون رضاهم عنهم وأن يأمنوهم إن غلب الكفر ويعتذرون عن ذلك بقولهم ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَإِرَةٌ﴾ شر يأتي به تقلب الأحوال، فنحن ننتقيهم تقاة.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ \* وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ﴾.

(الفتح): الحكم فعسى الله أن يأتي بالحكم بين المؤمنين والمنافقين بعقاب عاجل للمتولين لليهود أو النصارى ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ ينكشف سر هؤلاء المنافقين وأنهم قد تولوا الكفار حقيقة لا مجرد اتقاء بحيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في هؤلاء المنافقين ﴿أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية جهدهم في التأكيد ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ باتخاذ اليهود أو النصارى أولياء بعد ما نهى الله عنه ﴿فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ﴾ لأنهم بذلك أصبحوا منافقين في الدرك الأسفل من النار نادمين بسبب ما أسروا في أنفسهم انكشف وخرج عن كونه سراً في أنفسهم إلى فضيحتهم به وخزيهم أو لذلك والفتح.

ويحتمل الفتح الحكم بين رسول الله ﷺ وبين الكفار، بإعزاز دين الله وإظهاره، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] بحيث يندم المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من موالة الكفار وتوقع أن يغلبوا المسلمين؛ لأنهم لم ينالوا خيراً وإنما نالوا به الخزي، ولم يكونوا محتاجين إليه ليأمنوا جانب الكفار.

يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ

ولما حذر تعالى من تولي اليهود والنصارى ووقع بعد ما حذر منه عقب ذلك بالزجر عن الردة؛ لأن سببها وسبب النفاق واحد فقال تعالى:

﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ هذه الآية منفصلة عما قبلها كما يفيد تصديرها بقوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كما يظهر في نظائرها التي تكون في موضوع جديد، ويكون أولها: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولو كانت تابعة لما قبلها مرتبطة به، لكفى قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في صدر التحذير من تولي الكفار.

والارتداد عن الدين: يحتمل عودتهم إلى الكفر الذي كانوا عليه؛ لأن الارتداد الرجوع، قال تعالى: ﴿فَارْتَدُّ بِصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] وهذا هو الظاهر هنا لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن الكفر والخروج من الملة يستلزم الجهاد، ويؤكد هذا وصفهم ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا السياق يفهم منه أن الردة ستكون، وجهاد أهلها سيكون.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لحبهم وعلمهم بحق المؤمن عند الله، وقوله: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لبغضهم في الله وتوكلهم على الله وحرصهم على تطهير الأرض منهم وقوتهم بالآلفة بينهم.

وقوله تعالى: ﴿تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يفيد: صلاح نياتهم في الجهاد، ليس حماية على وطن أو غضباً لأنفسهم، بل لإعلاء كلمة الله في الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يشير إلى ما يكون من كثرة القتلى بحيث يلامون على سفك الدماء، وأنهم لا يبالون بلوم من لامهم في سفك الدماء لأنه بالحق لله وفي الله.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الإتيان بهم وإلى ما هداهم له من صفاتهم وأعمالهم والله واسع يسع فضله من يشاء من عباده ولا يقف على رضى المخلوقين، وفي هذا إشارة إلى أنهم محسودون، كما قال في (سورة آل عمران) بعد ما حكى عن أهل الكتاب: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آية: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يرّد على من يحسد، أو يستبعد بأن الله أعلم حيث يجعل ذلك ومن يصلح لذلك ومن يشكر النعمة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟! أو أن قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ صرف للأذهان عن تعيين مدلولها على ظنهم وحسبانهم، ونظير ذلك في (سورة الروم): ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي يَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣-٤] فالسياق يوهم أنهم يفرحون بغلب الروم على فارس، ولكنه تعالى حول الفهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥] فهو غير نصر الروم لتقييده بالحال الذي أحال ذلك إلى من يشاء الله أن ينصره، وهو رسول الله ﷺ ومن معه نصرهم يوم (بدر).

هذا وفي (الميزان) تدقيق في تفسير هذه الآية، قال: «وفي الآية ملحمة غيبية» انتهى، وقد رجح في (الميزان) أن الردة المذكورة في الآية هي تولي اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وغيرها وهذا محتمل؛ لأن الارتداد الرجوع والنفاق بعد الإيمان رجوع عن الدين، ولكن لا يتعين ما ذكره فقد روى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول فيما ذكر عن المهدي عليه السلام) قال: وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تكرس الفتن في جرائم العرب حتى لا يقال: الله، ثم يبعث الله قوماً يجتمعون كما يجتمع قزع الخريف فهناك يحيي الله الحق ويميت الباطل» انتهى.

فأما الشرفي رحمه الله فقال: قال في (البرهان) وغيره: هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، قال الشرفي: وهذا قول أهل البيت جميعاً وشيعتهم - رضي الله عنهم - ويقولون: أنها نزلت في عهد علي عليه السلام كرم الله وجهه وبدل عليه وجهان:

الأول: أنه ﷺ لما دفع الراية إلى علي عليه السلام يوم (خيبر) قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» وهذا هو الصفة المذكورة في الآية، فشهد له بذلك، ورقته على المؤمنين وغلظته على الكافرين هي أشهر من الشمس.

والوجه الثاني: أنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهذه الآية في حق علي عليه السلام فكان الأولى جعل ما قبلها - أيضاً - في حقه، انتهى.

وقد رجح هذا الرازي في تفسيره لأجل (حديث الراية) ويمكن الربط بين هذه الآية الكريمة والآيتين الآتيتين بعدها، بأن السياق لبيان حماية الله لدينه



وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنْ

ودفع أعدائه عن هدمه، فبين في هذه الآية: أنه من يرتدد عن دينه فسوف ينصر الله دينه بالقوم الذين يأتي بهم الصالحين لذلك لأجل صفاتهم المذكورة، فيجاهدون في سبيل الله.

وفي الآيتين الآتيتين بعدها يبين: أن علياً عليه السلام هو قائد حزب الله ورسوله، وأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ كما أنه عليه السلام مع الرسول أكبر المجاهدين في سبيل الله بعد رسوله، فالسياق لنصر دين الله بالقيادة الصالحة، وفائدة ذلك: أن لا يتوهم المنافقون عدم صلاحية الموجودين لذلك من سياق الآية التي فيها: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ ونظير هذا ما تقدم في (آل عمران): ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية [١٠٤:١] ثم قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية [١١٠:١] راجع تفسيرها هناك.

فإن كانت الآية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ في علي عليه السلام، وخاصته، مثل: عمار، وأبي أيوب، ومحمد بن أبي بكر، والأشتر، فلا إشكال من ناحية الربط. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ \* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الله ولي المؤمنين، يدير شؤونهم، ويحسن رعايتهم، ويهديهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وفي الحديث النبوي: «اللهم اهْدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت» فهذه ولاية خاصة حاصلها حسن الرعاية، والرسول ﷺ ولي الذين آمنوا يحسن رعايتهم، لأنه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَلَّاهُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعلي ﷺ يحسن رعايتهم؛ لأنه يحبهم في الله يواسيهم بنفسه ولا يستأثر عليهم بشيء، ويسير فيهم سيرة رسول الله ﷺ لا يضعف عنها بقله علم ولا بقله نصح للمؤمنين، ولا يعجز عن تحمل أعبائها.

كيف لا.. وقد خصه ﷺ بقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وبقوله: «أنت مني وأنا منك» وقوله: «أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لاني بعدي» فهو شريكه في أمره إلا النبوة، وهو وزيره كما كان هارون ﷺ، لموسى ﷺ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥] وذلك كله يدل على كمال كفاءته لولاية المؤمنين الولاية العامة لإصلاح مجتمعهم، ودفع المفسدين عنه، وحفظ دينهم، وحمايته من أعدائهم، فولاية الله سبحانه هي أصل الولاية؛ لأنه لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين، وولاية رسوله من جملة ولايته للمؤمنين، وكذلك ولاية الإمام علي ﷺ هو رحمة للمؤمنين، ونعمة وحسن رعاية من الله لهم ومن رسوله ﷺ.

أما نزول هذه الآية في علي ﷺ فقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال القاسم بن إبراهيم ﷺ: لا خلاف بين الأمة أنها نزلت في علي ﷺ، ولم يدعها أحد غيره» انتهى.

قال الشرفي: «ونزول هذه الآية في علي ﷺ، وكونه المراد بها هو إجماع أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم، وإجماعهم حجة للأدلة المعلومة من الكتاب والسنة» اهـ.

وقد قطع بنزولها في علي عليه السلام الإمام الهادي عليه السلام كما أفاده في أول كتاب (الأحكام) وعقد المنصور بالله عليه السلام لذلك فصلاً في (الشافعي) [ج ١/ ص ١٢٢] جمع فيه روايات عديدة من (تفسير الثعلبي) و(السنن الكبرى) للنسائي و(مناقب ابن المغازلي) قال: «وقد أوردنا أسانيد أهل البيت في ذلك في آخر الكتاب وهو فصل مفيد فليراجع».

وكذلك الحاكم الحسكاني بسط في تحقيق نزولها في علي عليه السلام، فرواه عن ابن عباس رضي الله عنهما بسنده عن مجاهد عنه، وبسنده عن طاووس عنه، وبسنده عن الضحاك عنه، وبسند عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس، وبه عن سفيان قال: وحدثني الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر ذلك مع تفسير للآية وقصة نزولها في علي عليه السلام، ورواه في (شواهد التنزيل) أيضاً عن أنس بن مالك، بإسناد عن إبراهيم بن هذبة، عن أنس، وخرجه الحمودي من (فرائد السمطين) للحموي، ومن (كفاية الطالب) للكنجي.

وأخرجه في (شواهد التنزيل) عن أنس - أيضاً - من رواية حميد الطويل عن أنس، وأخرجه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه، بإسناده عن عطاء بن السائب، وابن جريج، وخرجه الحمودي في (تخريج شواهد التنزيل) من رواية أبي نعيم في (الحلية) بإسناده عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس.

ورواه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن عمار بن ياسر، وعن جابر رضي الله عنهما، ورواه في (شواهد التنزيل) عن علي عليه السلام، وخرجه الحموي في (تخريج شواهد التنزيل) من عدة كتب، وأخرجه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن

المقداد بن الأسود، وبسند عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وخرجه الحمودي، ورواه في (شواهد التنزيل) بسند عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه، ورواه بسند عن عبد الله بن محمد بن الحنفية.

وأخرج في (شواهد التنزيل) بسنده: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ نزلت في علي خاصة، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ في علي، وقوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ نزلت في علي، أمر رسول الله أن يبلغ فيه، فأخذ بيد علي وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه... الخ».

وخرجها الحمودي من (مناقب محمد بن سليمان) قال الحمودي: ورواه أيضاً أبو الليث السمرقندي - ثم قال - : وقريباً منه رواه أبو نعيم مطولاً بسنتين عن ابن عباس في كتابه [ما نزل من القرآن في علي] ثم بسط في التخريج فليراجع، ونقله في التخريج من (أمالى المرشد بالله الخميسية) كما في الأمالي بتمامه.

ثم أخرج في (شواهد التنزيل) عن ابن عباس رضي الله عنه أن نزول قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ في علي عليه السلام من طريقين، وفي (الدر المنثور) للسيوطي: وأخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكم، فقال النبي ﷺ للسائل: «مَنْ أعطاك هذا الخاتم»؟ قال: ذاك الراكع، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه: عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الآية، قال: نزلت في علي بن أبي طالب، وأخرج الطبراني في (الأوسط) وابن مردويه عن عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو راكم في صلاة التطوع فنزع

خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه ذلك فنزلت على النبي ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ على أصحابه ثم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه: عن علي بن أبي طالب، قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في بيته: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ إلى آخر الآية، فخرج رسول الله ﷺ فدخل المسجد وجاء الناس يصلون بين راع وساجد وقائم يصلي، فإذا سائل فقال: «يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً؟» قال: لا، ذاك الراكع - لعلي ابن أبي طالب - أعطاني خاتمه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر: عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راع، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية، وأخرج ابن جرير: عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راع.

وأخرج ابن جرير عن السدي، وعتبة بن حكيم.. مثله الخ التخريج، فليراجعه من أراد الزيادة، وقد حكى الأميني في (الغدير) عن ابن تيمية: أنه نفى ذلك في كتابه المسمى (منهاج السنة) ورد الأميني عليه بنقل نزولها في علي عليه السلام من ستة وستين كتاباً، في بعضها ذكر اتفاق المفسرين على نزولها في علي عليه السلام ومحل ذلك في (الغدير) [ج ٣/ ص ١٥٥] وما بعدها إلى [صفحة ١٦٢].

يؤكد هذه الروايات أنه تعالى قال: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فجملة: (وهم راكعون) حال من يؤتون أي يؤتون الزكاة حال الركوع أو الركعة، وحمل الركوع على المعنى الشرعي الأكثر استعمالاً هو أرجح من

حملة على الخضوع؛ لأن كلام الشارع يتبادر منه المعنى الشرعي مع أنه يمكن حملة على المعنيين أو المعاني لاجتماعها في الركوع، فظهر أنها علامة تميز مصداق الثلاث الجمل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فتعين مصداقها الذي هو المراد بإثبات الولاية له، كما هي لله ورسوله بقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

فأما استعمال الجمع ومصدقه واحد، ففي القرآن الكريم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا...﴾ [المنافقون: ٧] ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ [المنافقون: ٨] وذلك عبد الله ابن أبي، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَلَّ لَهُمُ النَّاسُ...﴾ [آل عمران: ١٧٣] وذلك نعيم بن مسعود.

ويؤكد ذلك - أيضاً - أن الخطاب للذين آمنوا المذكورين في الآية قبلها، فلو كان المراد العموم لقال: (وبعضكم أولياء بعض) كما في (سورة الأنفال): ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [آية: ٧٢] وفي (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لو كان المراد به العموم في سياق خطاب الذين آمنوا يكون بمنزلة ما لو قال: (وأنتم ولي أنفسكم) والشيء الواحد لا يكون ولي نفسه، ولذلك يكون التعبير ضعيفاً؛ لأن الجملة كالشيء الواحد، والموالة بمنزلة التقارب لا تكون إلا بين شيئين، بل لو كان المراد ذلك لقال: (وأنفسكم) بدل ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.. الخ.

ولا يقال: إن الولاية للصالحين من الذين آمنوا لا لكلهم فارفع الإشكال؛ لأننا نقول: إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من صفات المؤمنين والخطاب لهم فلا خصوص، أما أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من صفاتهم



فلقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: ٧١] فدلّت على أن من لم يكن كذلك فليس بمؤمن؛ لأن الآية في سياق الفرق بين المنافقين والمؤمنين، فقال تعالى في المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ [التوبة: ٦٧] إلى آخر الآيات في زجرهم، ثم قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ الآية [التوبة: ٧١].

وأما أن الخطاب لهم، فلأن أول الكلام: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ...﴾ فهي تدل على أن الخطاب لهم في حال إيمانهم قبل أن يرتدوا، تحذيراً لهم من الارتداد، ومن خرج من الإيمان إلى ترك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة خاضعاً لله، فقد ارتد عن دينه الذي هو الإيمان؛ لأنه رجع إلى العصيان عن الإيمان، والارتداد: الرجوع، وإن خصّة العرف بالخروج من الملة، فالقرآن لا يفسر بالعرف الحادث بعد نزوله.

نظّم: أنه لا يصح أن يكون ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الآية مصداقه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في التي قبلها بل هو مخصوص، وذلك يؤكد الروايات أنها نزلت في علي عليه السلام.

فأما فائدة استعمال العموم بدل الخصوص: فلعل الحكمة - والله أعلم - أنه لو قال: (والمؤمن الذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وهو راع) وكان علي عليه السلام هو المعروف بإيتاء الزكاة في حال ركوعه، لكان ذلك كالتصريح باسمه، ولم يكن من الحكمة التصريح في علي عليه السلام لكثرة أعدائه وشدة عداوتهم، وكثرة حساده، أو للإبتلاء في هذا الباب، وفتنة المسلمين كما فتن الذين من قبلهم - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تولى الله اتخاذه ولياً بطاعته وإتباع رسوله، والكون مع الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة إلى آخر الآية في صفه وعلى طريقته، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يفيد: أن من كان مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ ومع الإمام علي عليه السلام فهو من حزب الله الغالب بنصر الله، وقوى أن حزب الله ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ بـ (إن) وقصر القلب الحاصل بتعريف اسم (إن) وخبرها المفيد للحصر وضمير الفصل، وهذا ترغيب عظيم ومؤكد، لكون السياق في نصر الله لدينه بأوليائه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ﴾.

وحزب الله: الذين يتولون الله ورسوله، ولا يوادون من حاد الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١-٢٢] قال في (الصحيح): «حزب الرجل: أصحابه» انتهى.

فأما الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ والقصر، فهو إما بالنسبة إلى وقت نزول الآية إلى آخر عهد علي عليه السلام حتى قتل، ثم بعده يجب تولي أشبه الناس به في حسن الرعاية للناس بطريقة القياس وبعموم الأدلة، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وإما للدلالة على أن من بعده من أئمة الهدى لا يبلغ مبلغه في الولاية التي قرنها الله بولاية الله ورسوله ﷺ وإن بلغوا في حسن الرعاية ما بلغوا فرعايتهم للمؤمنين دون رعايته عليه السلام، فصح القصر على الدوام، لكن هذا يصير القصر مجازاً كقول الشاعر:

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

فتعين: أن الحصر بالنسبة إلى وقت نزول الآية، والموجودين إذ ذاك. والأولى أن يقال: هذا (قصر القلب) وهو في سياق التحذير من الردة يبين أنه لا حاجة للردة ولا فائدة لها في التخلص من خوف غلبة الكفار، فإن الله ورسوله والذين آمنوا يحسنون رعاية الذين آمنوا، وإذا تولوهم فإنهم غالبون، فكأنه قيل: إنما وليكم الله لا رؤساء الكفر كما يتوهم المنافقون، وعلى هذا لا إشكال في الحصر والقصر؛ لأنه ليس قصر الأفراد، بل هو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي لا على غيرها، ولا ينافي أنها تكسب لنفسها.

فإن قيل: يلزم من هذا: أن له ولاية في عهد الرسول ﷺ والمعلوم خلافه؟ قلنا: لا نسلم قولكم: والمعلوم خلافه، وإنما المعلوم: أن ولايته كانت لا تعارض ولاية الرسول ﷺ بل هي وزارة وخلافة إذا غاب، و(حديث الغدير) و(حديث المنزلة) يدلان على ولايته في عصره ﷺ.

ولما تقدم قبل هذه الآيات الثلاث الزجر عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وكانت حال المسلمين وحال اليهود والنصارى تستدعي مزيداً من التحذير قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

\* وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فَبَيْنَ تَعَالَى: أَنِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقْبَحُ اتِّخَاذُهُمْ أَوْلِيَاءَ مَعَ قَبْحِهِ لَكُونِهِمْ أَعْدَاءَ اللَّهِ يَقْبَحُ لَاتِّخَاذِهِمْ دِينَنَا الَّذِي هُوَ دِينُ اللَّهِ هُزُوءًا وَلَعِبًا، وَفِي هَذَا الْإِسْنَادِ إِثَارَةُ حُمِيَّةِ الْمُسْلِمِ حَيْثُ عُلِقَ النَّهْيُ عَلَى الْمَوْصُولِ، لِأَجْلِ أَنَّ الصَّلَاةَ تَسْتَدْعِي الْحُمِيَّةَ الْمَانِعَةَ مِنْ مَوَالَاتِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿دِينَكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: دِينِي.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فَهُوَ تَشْنِيعٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ اهْتَدَوْا بِالْكِتَابِ لَأَمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَاتَّبَعُوا دِينَهُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا وَغَلِبَهُمُ الْحَسَدُ فَاتَّخَذُوا الْإِسْلَامَ هُزُوءًا وَلَعِبًا؛ جَرَاءَ عَلَى اللَّهِ وَخَبْثًا، فَكَيْفَ يَتَّخِذُهُمُ الْمُسْلِمُ أَوْلِيَاءَ؟!

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرَ﴾ مِنْ عَطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِّ، لِيُفِيدَ: النَّهْيَ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِ أَوْلِيَاءَ مِنْ أَيِّ صَنْفٍ كَانُوا مِنْ أَصْنَافِ الْكَافِرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلنَّهْيِ وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَعْذِبُهُمْ إِنْ عَصَوْا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَفِيدُ: أَنَّ شَأْنَ الْمُؤْمِنِينَ تَقْوَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الصَّادِقَ يَبْعَثُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَيَأْمُرُ بِهَا؛ لِأَنَّهُ يَسَبِّبُ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ وَالْحَذَرَ مِنْ عَذَابِهِ.

وَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ مُنَاسِبٌ غَايَةُ الْمُنَاسَبَةِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَوَلَّى الَّذِي كَفَرُوا، وَالْحَثُّ هُنَا عَلَى التَّقْوَى حَثٌّ عَلَى تَرْكِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ [الْمُجَادَلَةُ: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ﴾ الْآيَةُ.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ

ففي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إلهاب وتحريك للذين آمنوا ليجتنبوا اتخاذ الكفار أولياء، ثم عطف على قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ عطفًا خاصًا بالصلاة؛ لأن اتخاذها هُزُؤًا واضح في القبح، والدلالة على قسوة اليهود وعنادهم حيث اتخذوها هُزُؤًا ولعبًا، وهي خضوع لله وتذلل وعبادة لا ينكرها دينهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾.

ثم سجل عليهم بإهمال العقول، وأنهم صاروا كالأنعام بل هم أضل فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فدل: على أن جرأتهم على اتخاذ الصلاة هُزُؤًا ولعبًا سببها إهمال العقول، ولو استعملوا عقولهم لعلموا أنه لا ينبغي الاستهزاء بعبادة الله وذكره.

﴿٥١﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ تَنْقِمُونَ ﴿٥٣﴾ هل تعيرون وتنكرون منا إلا أن آمننا، وهذا ليس عيبًا، قال الراغب: «نَقَمْتُ الشَّيْءَ ونَقَمْتُهُ، إذا أنكرته باللسان أو بالعقوبة» ولكنهم عابوه كفرًا منهم بالقرآن وبالإنجيل إذا كان المنكرون هم اليهود؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعم (الإنجيل).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ قيل في تفسيره: إنه نظير قول القائل: هل تكره مني إلا أنني عفيف وأنت فاجر، وهل تنكر مني إلا أنني غني وأنت فقير.



الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٦٤﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا

قلت: إن صح وقوع هذا في لغة العرب بلفظ - مني - في المثالين وبلغظ - وأنك - فهو لا يستقيم في سياق ﴿هَلْ تَنْقُمُونَ﴾ أي تنكرون بالقول، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وإن لم يصح فالراجح: أن أهل الكتاب حملوا ذنوب فساقهم على المسلمين، وجعلوا إسلام المسلمين هو سبب فسقهم، وذلك يتصور بطريقتين:

الأولى: ترغيب اليهود لفساقهم بإباحة الجريمة؛ لئلا يدخلوا في الدين الذي يجرمها قولاً وفعلاً.

الثانية: أن يسهلوا لهم ويجعلوها مكفرة بنباتهم على اليهودية ويزعموا لهم أنها صغيرة في جنب الدخول في الإسلام، فلما كثر الفسق وانتشر بجعله خيراً من الإسلام وبتهوينه لفساقهم لئلا يدخلوا في الإسلام حملوا الإسلام عيهم وجعلوه سبب فسقهم، فكان عندهم من جملة ما يعييون به الإسلام أنه سبب لانتشار الفسق فيهم - والله أعلم.

وعلى هذا: يصح التركيب أنهم يعييون من المؤمنين الإيمان، ويعييون منهم فسق فساقهم، مخالفة للعدل الذي يقضي بأنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقد ذكر في (الكشاف) وجوهاً أربعة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فراجع إن شئت.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظَبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب يا أهل الكتاب المتسبون إليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ﴾ مما نقمتم علينا وهو الإيمان وليس مما يحق أن ينقم وفسق أكثركم ونحن منه براء وبريثون فما



بقي إلا الإيمان فشر منه مرجعاً ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عمل ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ بذنبه ﴿وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾ وقد مر في السورة: ﴿لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ إلى آخر الآية، ومر في (سورة النساء) تعديد جرائمهم ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ﴾ كما مر في (سورة البقرة) ويأتي في (سورة الأعراف).

وقوله: ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ لعلمهم قوم من النصارى كفروا بعد إنزال المائدة عليهم قال الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ إِنِّي أَعَدُّهُ عَذَابًا لَّا أَعَدُّهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

قال الشريفي رحمه الله في (المصابيح): «قيل: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار أهل مائدة عيسى عليه السلام، وقال ابن عباس: المسخين في أصحاب السبت فشبابهم مسخوا قردة ومشائخهم خنازير، ثم قال الشريفي: وقال الهادي عليه السلام: فهؤلاء قوم من بني إسرائيل مسخوا حين عتوا واجترأوا فجعلوا صور ما ذكر الله ﷻ عن أن يحويه قول أو يناله من القردة والخنازير، فجعل الله لهم تحويله لصورهم وإحلاله لنقمه سبحانه بهم على ما كان من فعلهم وما استوجبوا بجرمهم» انتهى المراد.

وما ذكره الإمام الهادي عليه السلام يكفيننا؛ لأنه الذي دل عليه القرآن من دون تعيين المسوخين خنازير، وأما ما حكى عن ابن عباس فلا يصح عنه؛ لأنه مخالف للقرآن؛ لأنه دل على مسخ الذين اعتدوا في السبت من أصحاب القرية قردة، وذلك ينافي جعلهم قسمين قردة وخنازير، وابن عباس أجل من أن يخفى عليه أو يعتمد من الأساطير على رواية تخالفه.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ حكى الشريفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام أنه قال: وأما قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فإنما هو على التقديم والتأخير،

أراد سبحانه هل أنبتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فجعلها في اللفظ مؤخرة وهي في المعنى مقدمة، وفعل الطاغوت فليس من فعل الله؛ لأن الطاغوت هو ما أطغى من الفعل وأفسد من العمل، وخالف الحق وجنب عن الصدق» انتهى.

قلت: قد جعل الإمام الهادي عليه السلام في (آية الوضوء) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ معطوفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ ومثل ذلك أراد هنا؛ ولعله جعل اللعنة والغضب شيئاً واحداً، هو خذلانهم وسلبهم التوفيق، بحيث يصيرون إلى عذابه.

والعبادة للطاغوت: إما أنها طاعتهم للشيطان في ترك عبادة الله على قول الناصر عليه السلام: أن الطاعة للشيطان عبادة له كما بسطه في (البساط) وبناء عليه يصلح تفسير (الطاغوت) بالشيطان، وبالمملوك الذين كانوا يأمرونهم بالفساد في الأرض حين علوا علواً كبيراً.

ويحتمل: أن عبادتهم للطاغوت: إيمانهم بهم، وقد مرّ التفسير له عند ذكر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] والظاهر: أن منهم من عبد الطاغوت حقيقة، ولذلك عابه عليهم لكونهم أهل كتاب يدعون اتباعه. ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي أسوأ حالاً، والمراد أنهم أشر في أنفسهم، ونسب ذلك إلى مكانهم على طريقة الكناية، كقول الشاعر:

بيت بمنجاة من اللؤم بيتهما إذا ما بيوت بالملامة حُلّت

والمعنى واضح؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يغضب عليهم ويلعنهم إلا وهم شر، ولا يجعل منهم القردة والخنازير إلا وهم شر؛ ولأن من عبد الطاغوت شر ممن آمن بالله وكتبه، وهذه المفاضلة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [نصحت: ٤٠].

بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: المستوى من الطريق فلا انحراف فيه ولا طلوع ولا نزول، فهو لا يخفى على السائر فيه، ولا يضل عنه إلا من هو أعمى البصر والبصيرة، وهؤلاء الموصوفون من أهل الكتاب قد شبهوا به؛ لأنهم عدلوا عن الصراط المستقيم وهو بين لهم في (التوراة).

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي هؤلاء الذي نهاكم الله عن اتخاذهم أولياء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً ﴿إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ استهزاء بكم؛ لأنهم قالوا ذلك وقد دخلوا مضمرين للكفر، مصرين عليه، مصاحبين له، وهم وإن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ قد خرجوا من عندكم بالكفر كما دخلوا به.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ في الماضي قبل مجيئهم وعند دخولهم وخروجهم، فكيف تتخذونهم أولياء وقد نهاكم العليم الخبير؟!

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ﴾ ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي ذلك ظاهر منهم مكشوف، لا يتسترون فيه كما في زماننا الذي حذا كثير من أهله حذو أهل الكتاب و﴿الْإِثْمِ﴾ المعاصي كشرب الخمر و﴿الْعُدْوَانِ﴾ التعدي على الناس، ومسارعتهم إلى ذلك: إقدامهم عليه بسرعة لفرط جراتهم على الله، وحرصهم على الإثم والعدوان.

﴿وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ﴾: أكلهم الربا، والرشوة، وأكلهم أموال الناس بالباطل بأي طريقة كان ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي والله لبئس ما كانوا يعملون، فكيف تتخذونهم أولياء وهم ضالون مضلون!!

الرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ لبئس ما كان الربانيون والأحبار يصنعون من المصانعة بترك النهي والمداهنة، كأن ذلك كان صناعة لهم يتقنونها لتحقيق أغراض دنيوية، فهلا كانوا ينهونهم وهم ربانيون وأحبار. قال الشريفي: «و﴿الرَّبَّنِيُّونَ﴾ علماء أهل الإنجيل ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ علماء اليهود».

قلت: الراجح: أن (الأحبار) علماء الفريقين، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ [التوبة: ٣١] و(الربانيين) الدعاة إلى الرب، فهم يدعون الناس إلى تقوى الله، ويأمرونهم بالبر من دون أن ينهوا فاعل المعصية عنها بعينه، ولعل الحرام سمي سحتاً؛ لأنه سبب هلاك صاحبه وخلوده في النار، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] أي يهلككم بعذاب.

وقال الراغب: «السُّحْتُ: القشر الذي يستأصل، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] وقرئ ﴿فَيُسْحِتْكُمْ﴾ يقال: سحته، وأسحته، ومنه السحت للمحذور الذي يلزم صاحبه العار، كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته» انتهى.

قوله: القشر الذي يستأصل: عبارة (الصحيح): وسحتُ الشحم عن اللحم إذا قشرته عنه، وفي (الصحيح): «وَسَحَّتْهُ وَأَسَحَّتْهُ أَي اسْتَأَصَلَهُ» انتهى.

وعلى هذا: فمعنى: ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] فيستأصلكم، أي يهلككم أجمعين، وعلى هذا: فلا ينبغي اتخاذهم أولياء حتى الربانيين والأحبار.

قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَمَّا زِدَنَّهُ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا تُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا

﴿٦٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿٦٥﴾ مجاز عن البخل أخزاهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] أي لا تترك الإنفاق ولا تكثره إلى حد يحيف بحالك.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ (غريب القرآن): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: «معناه: هو يجب أن يمسك خيره» انتهى.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذا من الرد على اليهود، يعبر عن سخط الله عليهم، ومقته لمقاتلتهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فأكذب الله قوْلهم وبين أن عطاءه مستمر على ما يشاء؛ لأنه حكيم في إنفاقه في البسط والتقدير، وسواء في قدرته وكرمه بسط أو قدر، فلا يصعب عليه البسط ولا يقدر لمشقة البسط سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال في (الكشاف): «غل اليد وبسطها، مجاز عن البخل والجود، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلًا، لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد، كقوله:

جاء الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداءه تلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد للشَّمال يداً، في قوله:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال: بَسَطَ اليأس كفيه في صدري، فجُعِلَت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كَفَّان، ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية» انتهى باختصار.

ويدل على ما ذكره قول الله تعالى: ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلَّةِ مِنَ الرُّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] وليس للمخاطب جناح حقيقي، ومن الغلط البين تسمية هذه الآية وأمثالها باسم (آيات الصفات) فليست من الصفات، وإنما تسميتها دعوى بلا بيئة؛ لأنها لم تخرج في القرآن مخرج الوصف لله سبحانه بأن له أعضاء - سبحانه وتعالى - وإنما جاءت مجيء ذكر الجناح واليد، في قوله تعالى: ﴿وَآخِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر: ٨٨] ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلَّةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

ألا ترى أن هذا السياق ليس بصدد وصف العذاب بأن له يدين، وكذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧] في القرآن وفي الإنجيل.

ومن العجيب قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، ولم ينزهوا الله عن اليد، فكأنهم يقولون: معنى الآية إثبات اليد؛ لأن الله يداً، وعلى هذا فاحتجاجهم بالآية دور؛ لأنهم أثبتوا له يداً بناء على احتجاجهم بالآية، ولو أنصفوا مع قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، لقالوا: ليس المعنى إثبات اليد؛ لأن الله ليس له أعضاء، أو على أقل تقدير وقفوا في المعنى ولم يثبتوا يداً، بناء على أصلهم أنه يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، وهم لم يثبتوا للعذاب يداً بناء على هذا الأصل.



ومن الدور قولهم: ثبت ما أثبت القرآن؛ لأنه مبني على أنه أثبت عضواً، لا على مجرد لفظ اليد، ألا ترى أنهم لا يقولون: ثبت للقرآن يدين، كما أثبت في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧] ولا يقولون: ثبت للعذاب ما أثبت القرآن لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

فظهر: أنهم قاسوا الخالق على المخلوقين، وجعلوا الإضافة في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ كإضافة اليد إلى المخلوق، وزعموا أن خلاف ذلك تعطيل بناء على هذا القياس، وهو جهل عظيم، بل التعطيل تشبيه الخالق بالمخلوق؛ لأنه يلزم منه عبادة غير الله، أي الصورة التي يتوهمونها ونفي غيرها بناء على أنها هي الله سبحانه وتعالى.

فأما البَلْكَفَةُ فلا تفيدهم بعد إثبات العضو، وكذلك قولهم: «تليق بجلاله» لأنه ليس إلا كقولنا: للملائكة أجنحة ليست كأجنحة الطيور التي نراها، بل أجنحة تليق بهم وتناسب خلقهم وأجسامهم، فكما أن هذا لا ينفي الجناح الذي هو آلة الطيران، فكذلك قولهم بزعمهم تليق بجلاله؛ لأنه يكفي عندهم نفي كونها من جنس أيدي المخلوقين، وليس إلا كنفي كون أجنحة الملائكة من جنس أجنحة الطيور التي نراها؛ لأنهم لا يعنون بقولهم: «تليق بجلاله» نفي العضو، فلذلك لم يخلصهم من التشبيه - وبالله التوفيق.

ولو خرج ذكر الأعضاء في القرآن مخرج وصفه تعالى بأسمائه الحسنی كما في آخر (سورة الحشر) بأن كان فيه مثلاً هو الله ذو الوجه واليدين والجنب والعين لساغ جعل ذلك من المتشابه، فأما وهو لم يقع كذلك، فليس ينبغي عده من المتشابه إلا عند من يجهل اللغة العربية، ولذلك لم يجر عند العرب إشكال في معناها؛ لأنه لا يخطر ببال العربي الأصيل إلا المعنى الذي سيق له الكلام،

كإثبات العطاء المستمر، ولا يخطر بباله إثبات عضو الله - سبحانه وتعالى - وعلى هذا فتسمية هذه وما أشبهها (آيات الصفات) بدعة؛ لأنها لم تكن في الكتاب هذه التسمية، ولا السنة، وإنما ابتدعوها ليتوصلوا إلى إثبات مذهبهم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وذلك لخذلانهم واستمرارهم في الكفر، مثل أن يسمعوا قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فيزعموا أنه فقير؛ لأنه بزعمهم طلب القرض ولا يطلبه إلا الفقير، وغير ذلك من أنواع الطغيان والكفر يتوصلون إليه بالقرآن كما مثلت، فيزيدهم ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إلقاء الشيء: طرحه، والعداوة: المباينة مع البغض وإرادة الضرر بالغير، وذكر إلقاء العداوة دون جعل العداوة يشعر بسهولة تحصيلها بينهم، وهو على معنى التخلية مع فطرة النفوس على قبول العداوة والبغضاء بسبب ما يقع بينهم من اختلاف مع تركهم تحكيم العقول، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

أو على أنهم يستحقون كلهم تسليط بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُلْزِقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] وهذا أظهر، فهم على ذلك إلى يوم القيامة، وهذا يدل: على أن المهدي المنتظر لا يستطيع إدخالهم في الإسلام، وغاية قوته عليهم أن يضرب عليهم الجزية والصغار، كما أمر الله.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ لما بينهم من العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ

لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا  
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ  
أَرْجُلِهِمْ مِمَّنْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ \* يَأْتِيهَا

شَلِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴿الحشر: ١٤﴾ فاما عدوانهم على مصر وسوريا  
والأردن في حرب الأيام الستة، فهي محمولة على أن الموقد لها الحقيقي هو  
أمريكا، وإنما هي باسم اليهود، وكذا عدوانهم السابق على مصر مع دولتين  
عظيمتين، أو المراد: كلما أوقدوا ناراً لحرب المؤمنين، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا  
اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا يَحْبِلَ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿يَسْعَوْنَ﴾ يدل  
على شدة عنايتهم بالفساد، والسعي: سير سريع، وقوله تعالى: ﴿فِي  
الْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يسعون لنشر الفساد في الأرض وإشاعته في أقطار  
الأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيرجى منه أن لا يخليهم وشأنهم؛ لأنه  
لا يحب الفساد، وذلك كله دليل على أنه لا ينبغي لمؤمن اتخاذهم أولياء.

﴿٥٠﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٥١﴾ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر  
﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله بطاعته ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ﴾ ما مضى من ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالتغطية  
لها، كأن لم تكن ﴿وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ مثل كل مؤمن تقي.

﴿٥١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ مِمَّنْ  
كتب الله التي منها القرآن في عهد محمد ﷺ، وإقامتها: إحيائها والعمل بما  
فيها، فتركها ونسيانها إضاعة وإهمال ضد الإقامة.

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ بنزول بركات السماء وظهور  
بركات الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

الرَّسُولُ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ<sup>١</sup> وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ [الأعراف: ٩٦] لكنهم لم يقيموا (التوراة) و(الإنجيل) وما أنزل إليهم فعوقبوا بنقص البركات وقلة الأرزاق، حتى قالوا: ﴿يَذُ اللّٰهُ مَغْلُوبَةً﴾ والسبب من عند أنفسهم فما كان ينبغي لهم إلا أن يلوموا أنفسهم ويرجعوا إلى ربهم لا أن يزدادوا كفرًا إلى كفرهم.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ دفع لإيهام أنهم كلهم لم يؤمنوا ولم يقيموا (التوراة) قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]. ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ما أسوأ أعمالهم التي يعملونها مستمرين على أعمال السوء، وقد مر تفصيل بعض أعمالهم السيئة قريباً، وفي (سورة البقرة) تفصيل كامل يدل على سوء أعمالهم، وكذلك مرّ قولهم: ﴿فَذُغِبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وفي (سورة النساء) كلام كثير في جرائم اليهود، ويأتي في هذه السورة في جرائم النصارى.

﴿يَتَأْتِيهَا الرّسُولُ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ﴾ ﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ منزل مخصوص ليس كلما أنزل؛ لأنه لو كان عاماً، لكان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ﴾ كتحصيل الحاصل، كما لو قال: (وإن لم تفعل فلم تفعل) فتبين: أنه منزل مخصوص لو لم يبلغه لحبط تبليغه الماضي وصار لم يبلغ رسالات الله أو رسالته.

وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرّسُولُ﴾ مقدمة للأمر بالتبليغ مناسبة ما على الرسول إلا البلاغ، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ تنبيه على وجوب طاعته؛ لأنه المالك المربي.

﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا قطع للعللة في ترك التبليغ، وفيه إشارة إلى أن الأمر الذي أمر بتبليغه مما يخشى منه عدوان أعداء الله على المبلغ.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: أين العصمة وقد شج في وجهه يوم أحد وكسرت ربايعته صلوات الله عليه؟! انتهى.

قلت: لا وجه للسؤال، لأن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ﴾ مضارع فليست العصمة إلا من حين نزول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ﴾ ولا يلزم عصمته في الماضي مع أنه تعالى قد عصمه من القتل في الماضي لكن قوله تعالى: ﴿يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا يختص بالقتل ولم يخبره في الماضي بأنه يعصمه من الناس ليباشر المعارك باذلاً نفسه لله، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ [النساء: ٨٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ولذلك احتجّت إلى العصمة من الناس وإخبارك بها لتبلغ هذا الأمر المخصوص الذي يثير بعض الناس، فقلوه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ﴾ والتعليل: بأن ﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ كقلوه تعالى: ﴿وَحُذُّوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢] في أنه تعليل بتركهم على كفرهم، إلا أنه هنا عبر عنه بترك هدايته لهم، وهناك عبر عنه بإعداد العذاب لهم المسوغ لتركهم على كفرهم يقاتلون المسلمين ويحتاج المسلمون إلى أخذ الحذر منهم.

قال السيوطي في (الدر المنثور): «وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر: عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلِّغٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم (غدِير خُم) في علي بن أبي طالب.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إن علياً مولى المؤمنين ﴿وإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ انتهى.

وروى المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية) [ج ١/ ص ١٤٥-١٤٦] بإسناده عن ابن عباس رضيهما الله عنهما في قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿نزلت في علي عليه السلام أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» انتهى.

وفي (مناقب أمير المؤمنين علي عليه السلام) تأليف محمد بن سليمان الكوفي: محمد بن سليمان، قال: حدثنا محمد بن منصور، عن عباد، عن علي بن هاشم، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: لما أمر الله رسول الله ﷺ بما أمر به قال: قومي حديث عهد بالجاهلية، إذ أتاه جبريل فقال: ﴿يَتَأْتِيَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فأخذ بيد علي فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» انتهى.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في أول كتاب (الأحكام): «وفيه - أي في علي عليه السلام -: أنزل الله على رسوله بـ (غدير خم): ﴿يَتَأْتِيَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فوقف ﷺ وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة حتى ينفذ ما عزم به عليه في علي عليه السلام... الخ (حديث الغدير).



وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية: بإسناده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما أسري بي إلى السماء سمعت تحت العرش: أن علياً راية الهدى، وحبيب من يؤمن بي، بلغ يا محمد» قال فلما نزل النبي ﷺ أسر ذلك فأنزل الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ..﴾ في علي بن أبي طالب ﴿..وإن لم تفعل فما بلغت رسالتهُ وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية في علي ابن أبي طالب: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ..﴾ الآية، نزلت في علي أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله بيد علي، فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وفيه بإسناد قال: حدثنا عبد الله ابن أبي أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم (غدیر خم) وتلا هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ثم رفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ثم قال: «ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، ثم قال: اللهم اشهد».

وفيه: بإسناد عن زياد بن المنذر، يقول: كنت عند أبي جعفر - محمد بن علي - وهو يحدث الناس، إذ قام إليه رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعشى، كان يروي عن الحسن البصري، فقال: يا ابن رسول الله جعلني الله فداك إن الحسن يخبرنا أن هذه الآية نزلت بسبب رجل، ولا نخبرنا من الرجل: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؟

فقال: لو أراد أن يخبر به لأخبر به، ولكنه يخاف، إن جبريل هبط على النبي ﷺ فقال له: «إن الله يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم...» إلى قوله عليه السلام: «...ثم هبط فقال: إن الله يأمرك أن تدل أمتك على وليهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة في جميع ذلك» فقال رسول الله ﷺ: يارب إن قومي قريبوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليهم وإني أخاف، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يريد فما بلغت تامة ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلما ضمن الله له بالعصمة وخوفه أخذ بيد علي بن أبي طالب ثم قال: «يا أيها الناس من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وابغض من أبغضه» قال زياد: فقال عثمان: ما انصرفت إلى بلدي بشيء أحب إلي من هذا الحديث» انتهى، وأنا اختصرته وهو بتمامه في (شواهد التنزيل).

وفيه بإسناد عن ابن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما قالوا: أمر الله محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابا ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: ﴿يَتَأْتِيَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ..﴾ الآية، فقام رسول الله بولايته يوم (غدیر خم) انتهى.

قال المحمودي في (تخريج أحاديث شواهد التنزيل): «والحديث رواه ابن مردويه في كتاب (مناقب علي عليه السلام) بعدة طرق...» الخ.

وفيه بسند عن ابن عباس: عن النبي ﷺ رواية فيها بعض الطول، قال في آخرها: حتى كان يوم الثامن عشر أنزل الله عليه: ﴿يَتَأْتِيَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا

يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ

أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿١٨﴾ إلى قوله.. ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فرفعها حتى رأى الناس بياض إبطيهما، ثم قال: «أيها الناس الله مولاي، وأنا مولاكم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» وأنزل الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ انتهى، وفي تخريجه زيادات، فليراجع من أراد.

وقد بسط الأُميني في (الغدير) تخريج نزول قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في (غدير خم) في ولاية علي عليه السلام، وذلك في (الغدير) [ج ١/ ص ٢١٤-٢٢٣] فراجع، وفي (الميزان) بيان مفيد ينبغي تأمله، وهو في [ج ٦/ ص ٤٢-٤٨]. وفي (الشافي) تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في [ج ١/ ص ١١٤] نقل من (تفسير الثعلبي) بإسناده عن ابن عباس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ..﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يبلغ فيه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد علي عليه السلام، فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» اهـ، وقد أسند المنصور بالله عليه السلام، (تفسير الثعلبي) منه إلى المؤلف [ج ١/ ص ٥٤].

فحصل من ذلك كله: أنها نزلت في علي عليه السلام، وقد أكدته القرائن في الآية كونها في منزل مخصوص، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ فلا يكفيكم اتماؤكم إلى بعض كتب الله مع ترك ما بعدها فما أنتم عليه ليس شيئاً؛ لأنه لا يقبل منكم.

هَادُوا وَالصَّابِرُونَ وَالنَّصِرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي

قال في (الكشاف): «كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه، وفي أمثالهم: أقل من لا شيء» انتهى.

﴿حَتَّىٰ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ تَقِيمُوا﴾ حتى تعملوا بها كلها، وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعم كل ما أنزل الله إليهم ومنه القرآن لا عذر لكم في تركه؛ لأن الله أنزله إليكم كما أنزل التوراة، أو قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي القرآن الذي أنزل إليكم، وقوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بين أنه خطاب لأهل الكتاب كما هو خطاب لغيرهم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿طُغْيَانًا﴾ تجاوزاً للحد المعهود في العصيان وحسداً وكبراً ﴿وَكُفْرًا﴾: تكذيباً وجحوداً لآيات الله، أو كفر نعمة ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن على القوم الكافرين؛ لأنهم متمردون لا يريدون الحق فهم أهلكوا أنفسهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرُونَ وَالنَّصِرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الذين قد آمنوا بمحمد والقرآن، ودخلوا في دين الله، وأهل الملل الثلاث، لا ينفعهم ما هم عليه، دون الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فالمراد في الذين آمنوا اشتراط صدق الإيمان، بكونه مقروناً بالعمل الصالح الذي يبعث عليه الإيمان الصادق والاستمرار عليه في المستقبل.

وأما أهل الملل الثلاث فلا بد لهم من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كذلك، وذلك يتضمن: توحيد الله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وعن الشريك، وعن الولد، ويستلزم: الإيمان بالرسول، والقرآن، من حيث أن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على الإيمان بآيات الله الدالة على أن القرآن من الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وسائر ما يجب الإيمان به.

ويستلزم: أن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان كما أمر الله به، وشرع في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لأن ما خالفه منسوخ قد صار غير مشروع، فالآية في الملل الثلاث بالنسبة إلى ما قبل البعثة، لتبين: أن العمدة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، لا الأسماء، فهي ترد قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

﴿وَالصَّبِئُونَ﴾ أهل ملة غير ملة الإسلام، وغير ملتي اليهود والنصارى، وقد بسط في بيان دينهم (صاحب الميزان) [ج ١/ ص ١٩٥] أما سيد قطب فقال في (تفسيره) [ج ١/ ص ٩٥]: «﴿وَالصَّبِئُونَ﴾ الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم...» إلى قوله: «...فقال عنهم المشركون: إنهم صباؤا، أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة» انتهى المراد.

والتعبير بقوله: تلك الطائفة من مشركي العرب، لا يناسب تفسيره، فصواب العبارة: تلك الطائفة الذين كان أصلهم من مشركي العرب، وقوله: فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد فيه أنه يوهم ضياع التوحيد بالكلية.

إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] أنه لم يزل التوحيد يتوارثه عقب إبراهيم عليه السلام، ولذلك قالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم.

وقد اتفق التفسيران للصابئين: على أنهم قوم يوحدون الله، ليسوا من اليهود ولا النصارى، وكانوا قبل بعثة الرسول ﷺ، إلا أن تفسير (الميزان) أثبت لهم أصناماً، فنافى ذلك قوله: إنهم أناس يوحدون الله.

والحاصل: أنهم أهل ملة دينية غير اليهود وغير النصارى، وقد قدمت في تفسير (البقرة) حكايات لدينهم خلاف ما هنا، ولكن المحقق هذا الحاصل.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كما مر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْ أَوْسِيَاءَكُمْ﴾ الآية، فذكر أخذ الميثاق هنا مقدمة لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ليبين نقضهم للميثاق، وأنه لا يفيدهم انتسابهم للكتاب وهم مخالفون لما فيه عادلون عن الإيمان الصحيح والعمل الصالح إلى ضدهما..

كيف لا وهم كلما جاءهم رسول من الرسل الذين أرسلوا إليهم استكبروا، ففريقاً من الرسل كذبوا وفريقاً يقتلون، أي كذبوا فريقاً من الرسل وقتلوا فريقاً؛ وقدم المفعول؛ لأنه المهم، من حيث هو رسول أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به ونصرته فكذبوه أو قتلوه.



وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

قال في (الكشاف): «فإن قلت: لِمَ جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالأخر مضارعاً؟ قلت: جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها» انتهى؛ ولعل قوله: للتعجب، غلط في النسخة، والصواب: والتعجب منهم.

وقد اعتبر باقياً بالنسبة للموجودين من أهل الكتاب ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] فقال - والله أعلم - ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لأنهم مشاركون فيه في الحال، فكانه باق إلى الآن - والله أعلم - أو أنه على استحضار الحال، ففيه رد على من زعم أنه جيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لكونه آخر الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ ليس آخر آية.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فلذلك تجرؤا على تكذيب وقتل من كذبوا وقتلوا من الأنبياء، وهم قد تعرضوا للفتنة بتلك الجرائم لكنهم يظنون أنهم أحباء الله فلن يؤاخذهم بذنوبهم.

والفتنة: إما عذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أو تكليف يشق عليهم ويكونون معه إذا عصوا أذا هم للعذاب، كتكليف أصحاب السبب وابتلائهم بالحوث، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ لأن آيات الله تتلى عليهم في التوراة، وهم يقرؤونها ولكنهم لا يتفعمون بها، كأنهم عمي لا يبصرونها، وصم لا يسمعونها؛ لجراتهم على المعاصي، وقسوة قلوبهم لحسانهم أن لا تكون فتنة.

مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿٢٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فهداهم، ولعل ذلك بني من أنبيائهم أو زاجر عظيم حدث لهم ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بعد اهتدائهم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازي بقدر المستحق من خير أو شر، وينزل كلاً من الضال والمهتدي منزله، ولا يخفى عليه شيء من عملهم ولا من توبة التائب وإصرار المصر.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهم يعلمون أنه ابن مريم، ومع ذلك يزعمون أن الله هو ابن مريم؛ كأنهم يريدون أن الله ﷻ تجسد أي تحول جسداً ﷻ.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى) [ص ٢٩٩/خ]: «وزعمت الفرق الثلاث من النصارى - فنعوذ بالله من الجهل بالله - أنها تجد فيما في أيديها من كتب الأنبياء: أن المسيح ابن مريم هو الله وابن الله، فجعلوا في قولهم هذا الابن أباه» انتهى المراد.

وقد حقق عليه السلام مقالاتهم أحسن تحقيق، ورد عليها بواضح الرد النافع المفيد، فليطالعه من أراد التحقيق، وأقرب الرد وأنفعه: القرآن الحكيم، فإذا علموا أنه كلام الله علموا بطلان مقالهم، وقد تبين: أن القرآن كلام الله بتعجيزه للعرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يأتوا بشيء؛ وبإخباره أنهم لن يفعلوا، فكان خبره صدقاً.

إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ

وبناء على ما حكاه الإمام القاسم عليه السلام يظهر: أن الآية الكريمة تعمهم بالتكفير؛ لأنهم تارة يقولون: هو هو، وتارة يقولون: ثالث ثلاثة، فكفرهم الله بكلا القولين، وذكر الإمام القاسم عليه السلام: أن النصارى أخذوا مذاهبهم في المسيح عليه السلام من اليهود، فأنكر عليهم قبوله من اليهود؛ ولكن لعله دخل على النصارى بواسطة يهودي تنصر سعيًا في إفسادهم وخداعاً لهم، ليضلهم عن التوحيد، لئلا ينتصروا على اليهود في الحرب بينهم.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فبين لهم عيسى عليه السلام: أن الله ربه وربهم، وأمرهم أن يعبدوا الله، والعبادة اعتراف بالعبودية ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ فأنذرهم المسيح فوات الجنة عليهم بالشرك والخلود في النار، وأنه لا يكون لهم من ناصر لا المسيح ولا غيره؛ والعلة في ذلك أنهم ظالمون، لأنه أقام ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ مقام: وما لهم، فظهر: أن العلة الجامعة لأهل النار هي الظلم، وإن كان الشرك ظلماً عظيماً.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ كل واحد من الثلاثة إله بزعمهم، وهم بزعمهم: (الله، وروح القدس، وعيسى) فقالوا: الله أب، وعيسى: ابن جوهره بزعمهم جوهر الأب وهو مولود غير مخلوق في قولهم، وروح القدس ليس أباً ولا ابناً، ومجموع الثلاثة واحد بزعمهم، راجع كتاب (الرد على النصارى) للقاسم عليه السلام.

رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُنَبِّئُ لَهُمُ

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ واحد غير متعدد، وهو الله لا إله إلا هو (مِنْ) تفيد تقوية عموم النفي ﴿وَأِنْ لَّمْ يَنْتَهُوْا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَنْتَهُوْا﴾ يمثلوا نهى الله لهم ويطيعوه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، والذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، علق الوعيد على الكفر، بعد أن أخبر أنهم كفروا؛ ولعل الحكمة دفع التوهم من قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ للعموم لكل ما يقولون من حق وباطل - والله أعلم.

وإنما رجحت أن قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعم القولين؛ لأن ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على التكرار، والقولان تكرر من حيث هو قول شرك، وقد ابتداء بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ فعدوله عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وهو الفعل الذي يكون عادة لفاعله فيعبر عنه بالمضارع.

﴿٧٥﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(الهمزة) سؤال للتوبيخ إن لم يتوبوا، وللدعاء إلى التوبة، و(الفاء) للتفريع على ما مضى في الآيات، من بيان كفرهم، ومن الوعيد الشديد عليه؛ لأن من شأنه أن يبعثهم على التوبة والاستغفار لطلب النجاة من العذاب الشديد وحرمان الجنة؛ لأن الله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل التائبين المستغفرين، فيغفر الذنوب المهلكة، ويبدل أهلها من غضبه عليهم رحمة.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الفراء: هذا أمر بصورة الإستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ في آية الخمس» انتهى.

الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ

﴿٧٥﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴿أي فليس إلهاً وهذا قصر القلب، أي ما هو﴾ إِلَّا رَسُولٌ ﴿لا إله، وقوله:﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴿يحقق أن الرسالة لا تعني أنهم آلهة؛ ولذلك خلوا أي مضوا من هذه الدنيا مع أنهم جاءوا بالآيات الدالة على صدقهم مثل ما جاء على يدي موسى وعصاه من الخوارق.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ صِدِّيقَةٌ، مصدقة بكلمات الله وكتبه، أو كثيرة الصدق كما في الحديث الشريف: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» انتهى، أو كما قال عليه السلام.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ وذلك دليل الحاجة والضعف المنافي للربوبية، قال الشرفي في (المصابيح): «وقال في (البرهان): هذا رد على اليهود والنصارى في قولهم إنه: ﴿ابْنُ اللَّوْ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود في نسبتها إلى الفاحشة، والصديقة: المبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها» انتهى.

قلت: يعني أن قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ رد على النصارى في قولهم إنه ابن الله، وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى) [ص ٢٨٤/خ]: «وليس أحد من النصارى يثبت لمريم ما يثبت لابنها من الإلهية، بل كلهم يقول: إنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية، وقد يلزمهم صاغرین فيها من إضافة الإلهية إليها ما قال الله تبارك و تعالى - ملزماً لهم - فيها...» الخ.

والقول المشار إليه قد نبّه عليه في [ص ٢٨٢-٢٨٣] حيث قال عليه السلام: وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لعيسى - صلوات الله عليه ورضوانه - فيما نزل من الكتاب في يوم البعث والحساب توقيفاً وتعريفاً له وللعباد، على أنه قد يجب للوالد في الذات ما يجب للأولاد وتوبيخاً لمن أفردته دون أمه في العبودية والإلهية وحالهما في الذات حال واحد مستوية فعبدوه عماية وجهلاً دونها وهم يعلمون أنه ابنها ومنها، ويوقنون ولا يشكون أن أباهاً أبوه فهي وآباؤها أولى منه بما أعطوه..

إلى قوله عليه السلام: «...إذ يقول له - صلى الله عليه - في ذلك عن غير ما سخطه ولا لوم ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ...﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿...وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مع بعض تفسير لغرض الاحتجاج على النصارى، فراجعه فإنه مفيد، وكلام (صاحب البرهان) هنا كأنه مبني على ما ذكره الإمام القاسم عليه السلام.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ فتبيين الآيات لهم يبين عدل الله وحكمته وفضله ورحمته حيث لم يتركهم، مع أنهم لو استعملوا عقولهم لاهتدوا للصواب، وعلموا بطلان جعل المسيح إلهاً ورباً ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ﴾ بعد إكمال الحجة عليهم وقطع المَعذرة ببيان الآيات ﴿أَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ من أين يؤفكون، فإنك إذا نظرت وبجشت لم تجد لهم شبهة من شأنها إضلالهم وقلبهم من التوحيد إلى الشرك، وإنما هي خرافات مكذوبة على الأنبياء قبلوها بواسطة إهمالهم لعقولهم أو ما في كتبهم من المتشابه الذي جاء في أصحاب المسيح كما جاء فيه ولم يزعموا أن الحواريين أبناء الله كما زعموا في عيسى عليه السلام.



﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وهو عيسى عليه السلام، ولعل هذا وهو كونه ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لازم لهم من قولهم: إنه لم يستطع تخليص آدم وبني آدم من ملك الشيطان إلا بتعرضه للصلب والأذى، فلو كان يملك الضر والنفع لاستطاع إنقاذهم واشتراهم بفدية غير صلبه وتعرضه للضر والأذى، هذا إذا كانت خارجة مخرج الإلزام، وكذلك يلزم من قولهم: إن الأب خلق الخلق بواسطة الابن، وأن تدبير أمور الخليقة وظيفه روح القدس.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى) [ص ٢٨٤ - ٢٨٥]: «وكذلك قالت النصارى: إن الله خلق الأشياء بآنية نفسه وحفظها ودبرها بروح قدسه، وأن الابن خلق الخلق وفطره، وأن روح القدس حفظ الخلق ودبره، وزعموا أن قوة الخلق غير قوة الحفظ والتدبير، وأن الأب لم ينفرد من ذلك بقليل ولا كثير» انتهى المراد.

فإذا كان الحفظ وتدبير الأمر ليس إلا وظيفه روح القدس وله وحده دون عيسى قوة الحفظ والتدبير كان عيسى لا يرجى منه نفع ولا يخشى منه ضرر؛ لأن ذلك كله من الحفظ وتدبير الأمر.

هذا ويحتمل: أن الله تعالى قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ليبين للنصارى الحقيقة أن عيسى عليه السلام لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ومعنى ملكه له قدرته عليه مستقلاً غير متوقف على إذن الله وإقداره عليه، بل متى شاء فعل بدون قيد ولا شرط فنفى الله ذلك عن عيسى وهو أصدق القائلين.

الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ  
 ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ  
 بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فيفيد: أنه الذي يسمع الدعاء  
 من العابد حين يعبد، ويسمع الذاكر له حين يذكره ويعلم العبادة وخلوص  
 النية بها، فهو الذي يرجى منه نفع العبادة لدفع الضر وجلب النفع.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الغلو:  
 تجاوز الحد المشروع تديناً، كالإفراط في تعظيم عيسى بجعله رباً، وكاتخاذهم  
 أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ  
 غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غلواً غير الحق، وهذا ذم للغلو بأنه غير الحق، وتعريف  
 بالفصل بين الغلو وغير الغلو لمن قد غلا وهو لا يرى أنه غال.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ  
 سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يخبرهم الله أن اتباعهم لأسلافهم الذين يعظمونهم، إنما هو  
 اتباع لأهوائهم وليسوا إلا قوماً قد ضلوا وأضلوا كثيراً، فهم مع ضلالهم في  
 أنفسهم مفسدون لا يستحقون أن يعتبروا قدوة في الدين، ومع أن ضلالهم  
 واضح لمن استعمل عقله لأنهم ضلوا عن الحق الواضح الذي هو سواء  
 السبيل الذي لا عوج فيه.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى  
 ابْنِ مَرْيَمَ﴾ دعا عليهم داود وعيسى ابن مريم بلعنة الله، ولما كان ذلك  
 حكم الله فيهم كان لعنة من الله على لسان دود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ﴾

فَعَلَوْهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَيْسٍ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي

لعنهم المذكور ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فهو جزاء لهم ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ ربهم كتركهم للنهي عن المنكر، وكتوليهم للذين كفروا، وبما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كاعتداء أصحاب السبت، وكتتل الأنبياء، والذين يأمرون بالقسط من الناس.

﴿٧٦﴾ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ تركوا النهي عن المنكر فيما بينهم حتى لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر قط، ولعل النهي المذكور في الحديث لم يكن يعد نهياً؛ لأنه قول غير جاد بل هو لاحق بالهزل.

قال الناصر عليه السلام في (البساط) [٩٤-٩٥]: وحدثنا بشر، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا علي ابن بذيمة، قال: سمعت أبا عبيدة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما وقع النقص في بني إسرائيل جعل أحدهم يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، ولا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وجليسه، فصرف الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى آخر أربع آيات ﴿...وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾».

قال: وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: (كلاً والذي نفسي بيده حتى يأخذوا على يدي الظالم، ويأطروه على الحق أطراً) قال الناصر الحسن بن علي عليه السلام: «يأطروه على الحق: أي يعطفوه على الحق عطفاً» انتهى.

قوله: فصرف الله...، هكذا في النسخة، ويمكن تفسيره: بالخذلان، على معنى الصرف عن الهدى، ولو جاء بلفظ: فضرَّب - بتشديد الراء - لكان معناه: الإغراء بينهم، كما أفاده في (الصحيح).

الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ \* لَتَجِدَنَّ

والحديث في (سنن أبي داود) [ج٤/ص١٢١] بلفظ: «ضرب...» ولعله بدون تشديد - مجاز عن إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، كأن قلب المبغض إذا رأى عدوه أو سمعه يضرب بالعصا، فجعل العدو يضرب به قلب عدوه - والله أعلم.

وقد خرج الحديث السيوطي في (الدر المنثور) من كتب عديدة بلفظ ضرب، وأورد الحديث ونحوه عن ابن مسعود، ومعاذ، وأبي موسى الأشعري.

والحديث - أيضاً - في أمالي المرشد بالله ﷺ بلفظ ضرب من طريقين: عن عبيدة وفي آخر أحدهما: «كلًا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم...» الخ - بالمشاة من فوق - راجع (أمالي المرشد بالله) فله طرق، إلا أنه يجمعها طريقان، وفيهما معاً باللفظ أو المعنى الخطاب في آخره بالمشاة من فوق، والذم لهم على ترك النهي عن المنكرات التي فعلوها موجه إلى تركهم له في وقته لا إلى تركه بعد وقوعه، وإنما ذكر وقوعه يفيد أنه قد جاء وقت النهي فلم ينهوا عنه، ونظيره قوله تعالى في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كلهم العصاة والمداهنون، وهذا ذم مؤكد بـ (لام القسم).

﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لوقت نزول القرآن وما قبله يتولون من هم في دين أهل الكتاب كفار لا يجوز توليهم، أي يصادقونهم ويصافونهم المودة.

﴿لَيْسَ مَا قَدَمْتَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿مَا قَدَمْتَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ هو ما كانوا يفعلون، ونُسِبَ إلى أنفسهم لأنها هي الأمانة بالسوء التي ورطتهم فيه، وجعل تقديماً لأنفسهم، لأن من شأن العاقل الذي سمع الوعد والوعيد أن يقدم لنفسه عملاً صالحاً ينجيه من العذاب ويبلغه الجنة، فلما كان المذكورون من أهل الكتاب جعلوا مكان ذلك المعاصي الموبقات جعلت تقديماً لأنفسهم، على طريق المشاكلة التقديرية، أو تهكماً بهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إما مخصوص بالذم أي هو سخط الله عليهم؛ لأن معاصيهم سبب السخط، وإما تعليل للأفعال المذمومة أنها وقعت منهم؛ لأن سخط الله عليهم، أي أن معاصيهم جرّت معاصي أكبر منها بسبب خذلان الله لهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منه كما زعموا أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ..﴾ إلى ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ النبي الذي يتمنون إليه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ كما يدعون ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لأن الإيمان لا يدع صاحبه يتولى أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] لأن المؤمن يحب في الله ويبغض في الله كما في الحديث: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله».

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب، وهم الذين قال فيهم: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ وهو احتراس لثلا يوهم أن أهل الكتاب كلهم فاسقون مع أنهم

أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَىٰ

ليسوا سواء، فهؤلاء ليسوا مؤمنين بل هم ﴿فَسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله خيبة فجار، ومن كان كذلك لا يستبعد منه الشرك فلا يغتر بهم من بعدهم.

وقد قيل: إن بعض النصارى احتج لقولهم في عيسى بأنه مذهب واضح البطلان في بادئ الرأي، فلو لا أن فلاناً وفلاناً وفلاناً من أسلافهم قد علموا صحة ذلك لما دانوا به؛ لأنهم أهل عقول ودين فلعل ما ساقه القرآن من ذكر معاصي أهل الكتاب من ترك التناهي عن المنكر وتولي الكفار ساقه لإبطال هذه الشبهة وتحقيق أن ضلالتهم إنما هي أهواء أنفسهم لا برهان لهم بها.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لعلّه خطاب عام لكل سامع لوضوح عداوتهم لكل من يعرفهم ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عام لكفار العرب المشركين وللمشركين من أهل الكتاب وغيرهم؛ وذلك لأن دين الله الذي عليه المؤمنون ينافي دين المشركين وهم يحبون من يتخذونهم أنداداً لله كحب الله؛ ولذلك يبغضون المؤمنين الذين يبرءون من شركائهم، فسواء في هذا الغلاة من النصارى الذين أشركوا بعيسى وسائر المشركين؛ لأن شدة حب النصارى الغلاة لعيسى تجعلهم يبغضون على من ينفي إلهيته على قدر غلوهم فيه؛ فلذلك لا فرق بينهم وبين سائر المشركين، بل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ في غلاة النصارى الذين أشركوا بعيسى أظهر؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ولم يقل والمشركين لأن الشرك حادث في النصارى كما هو حادث في بعض اليهود، وأصل دينهم الذي يتمون إليه هو التوحيد.



الرَّسُولَ تَرَىٰ أُعْيِنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ﴾ أي ولم يشركوا وهم النجاشي ومن أشبهه ﴿ذَلِكَ﴾ أي قرب مودتهم للذين آمنوا ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿قِسِّيَّيْنَ﴾ كبار علماء النصارى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والقسيسون، فهم كبار النصارى يصلون بهم ويقدمونهم ويعظمونهم» انتهى.

وقال في (الصحيح): «والقسّ - أيضاً - رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم وكذلك القسيس» انتهى.

وأصل الرهبان: من الرهبة، وهي الخشية، ثم صار اسماً للزاهد الذي يتخلى للعبادة ويترك شواغل الدنيا، ثم صار يستعمل في المتخلي للعبادة المظهر للزهادة والتخلي من الشواغل الدنيوية.

فأحصل: أن في هؤلاء النصارى قدوةً مهيأة لقبول الإيمان بدين الله الذي جاء به الرسول ﷺ وأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى كلهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فهم بذلك مهيئون أيضاً لقبول الحق لسلامتهم من الكبر المانع منه لثقل الخروج من الدين المألوف إلى غيره لمجرد اتباع الحق فقد سلموا من هذا المانع كما سلموا من الغلو الذي يمنع المشركين من التوحيد، فكانوا قريباً من قبول الحق غير نافرين من الذين آمنوا، بل هم أقرب مودة لهم لموافقتهم في التوحيد وتجويزهم قبل النظر وسماع القرآن أن الدين الذي دخلوا فيه هو الحق قد أرسل الله به محمداً ﷺ.

رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٦﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَثْبِتْهُمْ

﴿٣٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴿٣٧﴾ مَا أُنْزِلَ ﴿٣٨﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿٣٩﴾ تَرَى أَيُّهَا الْحَاضِرُ لَهُمْ ﴿٤٠﴾ مِمَّا عَرَفُوا ﴿٤١﴾ بِسَبَبِ مَا عَرَفُوا ﴿٤٢﴾ مِنَ الْحَقِّ ﴿٤٣﴾ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَ الرَّسُولَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى مَصْدَقًا لِمَا جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿٤٤﴾ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٥﴾ ءَامَنَّا ﴿٤٦﴾ بِمَا أُنْزِلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿٤٧﴾ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٨﴾ بِهِ.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يغرونه عليهم ويطلبون هلاكهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟

قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم: ٣٤] وقرأ (سورة طه) إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩] فبكى النجاشي، وكذلك قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم: سورة يس» انتهى.

﴿٣٦﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا لَنَا ﴿٣٨﴾ أَيُّ مَانِعٍ يَمْنَعُنَا، وَأَيُّ حَالَةٍ لَنَا تَنَافِي الْإِيمَانِ وَتَمْنَعُ مِنْهُ، وَهَذَا اسْتِبْعَادُ مِنْهُمْ لَتَرْكِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ اللَّاتِقَ بِجَاهِهِمْ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَطَمَعُ أَنْ يَدْخُلَهُمْ رَبُّهُمْ مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمُ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ ﷺ يَدْخُلُهُمْ مَعَهُمُ الْجَنَّةُ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ فِيهِمْ مِثْلُ الْآيَاتِ فِي (سورة القصص): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ...﴾ [القصص: ٥٢-٥٣] الْآيَاتُ .

اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَتَأَيَّمُوا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي

﴿٨٥﴾ فَأَتَيْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٨٦﴾ أثابهم الله جنات جعلها لهم ثواباً فصارت لهم بحكمه وجعله، ويحتمل: أن ذلك وعد مؤكد بإخراجه مخرج الماضي، كأنه قيل: فأحلهم جنات خالدين فيها، وهذا أقرب لجعل ﴿خَالِدِينَ﴾ حالاً محققة، وعلى الأول يكون خالدين حالاً مقدرة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنون: هم المؤمنون المتقون فجزاهم الله ما يجزي المحسنين لأنهم منهم.

﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٧﴾ وهذا يعم المشركين من أهل الكتاب وسائر الكفار المكذبين، و﴿الْجَحِيمِ﴾ نار جهنم، وأصحابها أهلها.

﴿٨٧﴾ يَتَأَيَّمُوا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٨﴾ التحريم هنا منع النفس ذلك باليمين أو بقوله: هو حرام عليّ مثلاً، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي تتجاوزوا الحد المشروع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لأنهم تدينوا بما لم يشرعه لهم وفيه مفسدة المشقة عليهم وتثقل المشروع لاختلاطه بالزيادة، مع أنه لا فائدة في الاعتداء وتجنب ما وهب الرب الكريم.

﴿٨٨﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ يأكل المؤمن من طيبات الرزق ما تيسر وحضر، ولكنه لا يشغل

أَيْمَنِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ بِالْأَيْمَنِ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَنِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَنِيكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

وقته بالسعي لتحصيل الفضلات من المأكول، ويتجنب تعويد النفس بما يسبب اشتغالها بالشهوات، ولا بأس بترك الأكل في بعض الحالات إيثاراً للمحتاجين، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا﴾ يخرج الحرام، لأنه رزق من أعطاه الله لا من اغتصبه، وقوله تعالى: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ كالتفسير لما رزقنا، لأن الحبيث محرم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامثال أمره ونهيه الذي أنتم به مؤمنون، فأنتم تعلمون أنه يعلم ما تسرون وما تعلنون، وأنه يجزي كل نفس بما تسعى.

قال الشرفي في (المصاييح): «روى أنه ﷺ وصف القيامة يوماً لأصحابه فبالغ في الإنذار، فرقوا واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يباتوا [كذا ولعل الأصل: يناموا] على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء والطيب، ويجبوا مذاكيرهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأكل اللحم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» فنزلت» انتهى، يعنى قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا...﴾ الآية.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو: الخطأ الذي لا ينسب عليه حكم فهو ملغي، قال الشرفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام:

اللغو فهو ما لا يعتمد فيه اليمين ولا يقصد فيه جرأة على رب العالمين، وإنما تقع من طريق الغفلة والسهو، واللغو: ما لا يكون له حقيقة ولا قصد ولا ضمير، وقد قيل في اللغو: إنه الرجل يحلف على الشيء ما فعله وقد فعله، وليس هو عندنا كذلك» انتهى.

وتفسير المرتضى حسن؛ لأنه جعله الحلف خطأ الذي لم يعتمده الحالف ولا قصد أن يحلف، وهذا داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥] فأما من تعمد اليمين بناء على ظن الصدق فليست يمينه من اللغو، بل إذا اقتطع بها حق مسلم دخل في عموم الوعيد لأنها مما كسب القلب، وليس له أن يحلف إلا على اليقين بما يحكم به الحاكم لو علمه لأنه شاهد لنفسه.

فإن قيل: فإن الهادي عليه السلام فسرهما بالتي يظن الحالف صدقها؟ قلنا: إن الذي يحلف خطأ لا بد أن يكون ظاناً للصدق، وإلا كان آثماً لتعمده الكذب وإن لم يعتمد اليمين، فلا بد أن يكون اليمين خطأ ممن يظن الصدق، وهذا جمع بين التفسيرين، هذا الراجع عندي.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ عقد اليمين: الحلف على فعل في المستقبل أو ترك، كقوله: (والله لا أكلت من هذا) قال الشريفي: «قال في (البرهان): وعقدها: هو لفظ باللسان، وقصد بالقلب، لأن ما لم يقصده الإنسان بقلبه فهو لغو لا يؤاخذ به، والعقد يجب أن يكون على فعل مستقبل ولا يكون على فعل ماضٍ، والفعل المستقبل نوعان: نفي، وإثبات...» الخ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ﴾ أي بسبب تعقيدكم الأيمان، وذلك إذا لم تحفظوها، ولا حاجة لتقدير محذوف بنكت أيمانكم؛ لأن المؤاخذة على النكت بسبب التعقيد لليمين ولولا التعقيد ما وقع نكت؛ ولأن الظاهر أن سبب الكفارة هو اليمين وإنما النكت شرط.



﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ﴾ أي كفارة تعقيد الأيمان ليصير كأن لم يكن، والتكفير: الستر والتغطية ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كفارة اليمين) كال تفسير للآية: «يطعم عشرة مساكين غداءهم وعشاءهم من أوسط ما يطعم أهله من الطعام، ويأدمهم بأوسط الأذم، يطعم كل واحد منهم نصف صاع من دقيق أو صاعاً من تمر أو شعير أو صاعاً مما يأكله هو وأهله من الذرة وغيرها من الطعام، أو يكسوهم كسوة تجمع جسد كل مسكين منهم إما قميصاً سابغاً، وإما ملحفة يلتحف بها، وإما كساء، ولا تكون الكسوة إلا كسوة جامعة للبدن، لا يجوز أن يكسى أحدهم عمامة وحدها ولا سراويل وحده، أو يعتق رقبة مسلمة صغيرة أو كبيرة، وهو في هذه الكفارات الثلاث بالخيار» انتهى المراد.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ يجزيه كفارة ليمينه، قالوا: ويجب أن تكون الثلاثة متتابعة ومن كان لا يجد طعاماً ولا كسوة ولا رقبة ولكنه يجد ثمن أحد هذه الأشياء فلا يجزيه الصوم، وكذلك من كان له مال أو عرض إذا باعه تمكن من تحصيل الطعام أو الكسوة أو الرقبة فلا يجزيه الصيام.

فأما من لم يجد عشرة مساكين فيرسل الكفارة لتنفق حيث يوجد المساكين المسلمون، فإن عدموا انتظر حتى ييأس، ومتى يأس فالراجع عندي: أنه يجزيه الصوم حيث يأس من تحصيل الرقبة والمساكين؛ لأنه في المعنى كمن لم يجد طعاماً ولا كسوة ولا رقبة، بل لا يبعد دخوله في عموم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ وإنما قلت ينتظر تحصيل المساكين للرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام ذكرها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام).



ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ

﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيَمَنِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ ذلك المذكور كما ذكر كفارة إيمانكم، وهو يدل على أن التكفير لليمين نفسها كما دل عليه أول الآية ﴿وَأَحْفَظُوا أَيَمَنِيكُمْ﴾ أدوا حقها ولا تهملوها فمن أهملها فقد أضاعها ولم يحفظها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ...﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضَيِّعُ عَمَلَكُمْ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وفي الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول» رواه الإمام زيد بن علي عليه السلام في (المجموع) وفيه بحث نفيس في اليمين والكفارة، قال في (الصحيح): «حفظت الشيء حفظاً أي حرصته» انتهى.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كذلك البيان في هذه الآيات يبين الله لكم آياته في القرآن وغيره، أو المراد آيات القرآن، وهذا دليل على أن الآيات بينات بالنسبة للعرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فلا تحتاج إلى بيان من النبي ﷺ ولا من إمام ولا شيخ.

فأما تفصيل ما أجمل في القرآن أي عبر به عن جملة مفصلة في السنة فليس من البيان بها؛ لأن اللفظ القرآني عبارة عن الجملة وهي معروفة بالسنة فصارت بينة؛ لأنها معروفة جملة، وليس ذلك من باب الترجمة للكلام الذي لم يفهم كما أن اسم الإنسان مفهوم المعنى، ولا ينافية أن معرفة بعض أجزائه يحتاج إلى علم التشريح، فنحمد الله على بيانه، ونسأله الهداية لتعلمه واتباعه، فإنه من أعظم النعم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال في (لسان العرب):

«والخمر: ما أسكر من عصير العنب؛ لأنها خامرت العقل، ثم قال: وقال أبو حنيفة: قد تكون الخمر من الحبوب، فجعل الخمر من الحبوب قال ابن سيده: وأظنه تسميحاً منه؛ لأن حقيقة الخمر إنما هي من العنب دون سائر الأشياء» انتهى.

وقد فسر الإمام الهادي عليه السلام هذه الآية في (الأحكام) في (الحدود) فقال عليه السلام: الخمر: كل ما خامر العقل فأفسده، فإذا أفسده كثيره كان حراماً قليله، ولذلك سميت خمرأ لمخامرتها للعقل وإبطائها له، سواء كانت من عنب أو تمر أو عسل أو ذرة أو شعير أو حنطة أو زهو أو غير ذلك من الأشياء» انتهى المراد هنا، ويأتي إن شاء الله بقية تفسيره لهذه الآية.

والمختار عندي: أن الخمر وإن سميت خمرأ لمخامرتها العقل، فهو اسم لها لا مجرد صفة بالمصدر، فإن كانت تصنع من غير العنب فتحصل جامعة للصفات التي يطلبها شارب الخمر من الخاصة المحصلة للنشاط والإطراب، والتفريح، والتنبيه للأعصاب، وغير ذلك مما يعرفه أهلها ويطلبه منها شاربها فقد حصلت حقيقة الخمر، وأصلها الذي صنعت منه خارج عن مفهومها.

ألا ترى أن خمر الجنة يسمى خمرأ وليس من العنب، وعسلها عسلاً وليس من النحل، ولبنها لبنأ وليس من الأنعام، وذلك لأن الاسم للذات بصفاتها غير مأخوذ في معناه أصلها؛ ولعل سبب الخلاف في الخمر هل هو خاص بما أخذ من العنب؟ أم عام لكل شراب خمر وأسكر من غير نظر إلى أصله؟ لعل سبب الخلاف أن العرب لم يكونوا يستطيعون صنعها جامعة لأوصافها ومميزاتها إلا من العنب، وما صنعوه من غيره يكون - والله أعلم - بخلافها في بعض معناها، إلا أنه موافق لها في الإسكار.

فأما في هذا العصر فلعل بعض النصارى وغيرهم يصنعها جامعة لأوصاف نبت العنب من غير العنب، فهي خمر بلا إشكال؛ لأنه لم يفقد فيها إلا النسبة إلى العنب وهي خارجة عن مفهوم الخمر.

وعلى هذا: فالنبيذ المسكر المصنوع من غير العنب الذي لم تكمل فيه أوصاف الخمر التي من العنب إنما يحرم لإسكاره، وللحديث: «كل مسكر خمر» فإنه يدل على أن كل مسكر له حكم الخمر، وهذا هو المقصود في الحديث لا تعليم الاسم، لأن العرب لا تحتاج إلى من يعلمها لغتها.

وأيضاً لو كان مفهوم الخمر مفهوم المسكر، لكان الحديث بمنزلة ما لو قيل: (كل مسكر مسكر) فظهر: أن ليس إلا مثل قوله ﷺ: «الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله أباح فيه الكلام» أو كما قال.

وأوضح من هذا ما رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) وهو في (أماله أحمد بن عيسى): عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي عليه السلام أنه قال: «السكر بمنزلة الخمر» أي حكمه حكم الخمر، ولو كان كل سكر خمرأ حقيقة ما استقام هذا الكلام.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول في حدّ الخمر): وحدثني أبي عن أبيه، أنه قال: بلغنا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول: «لا أجد أحداً يشرب خمرأ ولا نبيذاً مسكراً، إلا جلده الحدّ ثمانين» انتهى.

وأما «الْمَيْسِرُ» فقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «والميسر: فهو التَّردُّ والشطرنج والقمار كله، وكل ما كان من ذلك مما يلهي عن ذكر الرحمن ويشغل عن كل طاعة وإيمان» انتهى، وظاهره: أن اللعب بالتَّردُّ والشطرنج ونحوهما من الميسر من غير اشتراط القمار.

وفي (لسان العرب): والميسر: اللعب بالقِداح، قال: وفي التنزيل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] قال مجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز.

وروي عن علي - كرم الله وجهه - : «الشُّطرنج ميسر العجم» شبه اللعب به بالميسر وهو القِداح ونحو ذلك، قال: والياسر: الجازر؛ لأنه يجزئ لحم الجوز، وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاريين بالقِداح والمتقمارين على الجوز: ياسرون؛ لأنهم جازرون إذا - كذا - كانوا سبباً لذلك، الجوهري: الياسر اللاعب بالقِداح» انتهى المراد من (لسان العرب).

وفي (الصحيح): «والياسر: اللاعب بالقِداح كما حكاه في (لسان العرب) قال: والميسر قمار العرب بالأزلام» انتهى، وقال في القمار: «قال ابن دريد: والقمار: المقامرة، وتقامروا: لعبوا بالقمار، وقَمَرَت الرجل اقمَره - بالكسر - قَمَرًا إذا لاعبته فيه فغلبته، وقامرته فقَمَرْتُهُ اقمَره - بالضم - إذا فاخرته فيه فغلبته» انتهى.

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام رواه في (نهج البلاغة): «فإن المرء المسلم ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت وتغرى بها لثام الناس، كان كالفالج الياسر الذي ينتظر أول فورة من قِداحه توجب له المغنم ويرفع بها عنه المغرم، وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنين...» الخ، انتهى، وفيه توضيح الياسر.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: «أنه مر يقوم يلعبون بالنرد، فضربهم بدرته حتى فرّق بينهم - ثم قال -: ألا وإن الملاعبة بهذه قماراً كأكل لحم الخنزير، والملاعبة بها غير قمار كالمُتلطخ بشحم الخنزير وبدهنه، ثم قال عليه السلام: هذه كانت ميسر العجم، والقِداح كانت ميسر العرب، والشطرنج مثل النرد» انتهى.

بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٢١٩﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فالميسر: القمار» انتهى، ومثله في تفسير هذه الآية.

فترجح أن الميسر القمار بواسطة القداح أو النرد أو الشطرنج أو غيرها، ولعل الإمام الهادي عليه السلام ذكر النرد والشطرنج؛ لثلاثتهم أن الميسر خاص بالقداح.

وأما ﴿الْأَنْصَابُ﴾ فقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): والأنصاب: فهي أنصاب الجاهلية التي كانوا ينصبونها من الحجارة لعبادتهم يعبدونها من دون الله وهي اليوم فموجودة في شعاب الأرض وفي آثارهم منصوبة على حالها قائمة منذ عهدهم.

وأما ﴿الْأَزْلَامُ﴾ فقال الإمام الهادي عليه السلام: والأزلام: فهي القداح التي كانت الجاهلية تضرب بها وتستقسم بها وتجعلها حكماً في كل أمرها، عليها كتب وعلامات لهم، فما خرج من تلك الكتب والعلامات جعلوه لهم هداية ودلالات، فأخبر الله تعالى أن ذلك كله من فعلهم أمر عن الله يصددهم ومن طاعته يمنهم ومن التعاهد لأوقات فرائض الصلوات يشغلهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ انتهى

قال الراغب: «﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذلك أبلغ من قولهم اتركوه» انتهى. قلت: لأن معناه المجانبه له، أي الكون في جانب غير جانبه.

﴿٢٢٠﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي والواجب عليكم: التحاب والتألف والتآخي، ليتمكنكم الجهاد في سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى، و﴿يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ

يُوقَعُ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ ﴿لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي مِنْ أَهْمِهَا: الضَّعْفُ عَنْ حِمَايَةِ الْإِسْلَامِ.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي بسبب الخمر والميسر؛ ولعله من الكناية بأن جعل الخمر والميسر محلاً للعداوة والبغضاء، وفي هذا مأخذ لتحريم أسباب العداوة والبغضاء بين المسلمين:

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ ويصرفكم ويمنعكم ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بقلوبكم وألسنتكم لاشتغالكم بالخمر والميسر ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ كذلك، والاشتغال بالميسر ظاهر لشدة حرص المتقامرين على الغلبة واشتغاله بسبب القمار، وأما الخمر فمن جهتين: جهة التجارة فيه، وجهة السكر.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فهل أنتم يا مسلمون تاركون لهما بعدما بيّن الله فيهما تلك المعاييب التي ينبغي للمسلم أن يبغضهما ويشدّ حذره منهما فهما، رجس وشأنكم التطهر من عمل الشيطان عدو الله وعدوكم، وشأنكم الحذر منه واجتناب خطواته، يريد ﴿أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ وشأنكم الولاية والحب ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وشأنكم ذكر الله كثيراً ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ وشأنكم المحافظة عليها، فهذه العيوب تدل على أن شأن المسلم أن يجتنبهما وينتهي بنهي الله عنهما.

وهذا الخطاب للمؤمنين رحمة من الله، ليتركوا عن قناعة، فيه لطف يشبه لطف الوالد بولده، ونظيره خطابهم في أول (سورة الممتحنة) للتحذير من اتخاذ الكفار أولياء فتأمل ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فلهم رحمة خاصة بهم زائدة على الرحمة للناس جملة.



تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ

﴿١٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴿١٤﴾ فِي كُلِّ حَكْمٍ وَمِنْ ذَلِكَ اجْتِنَابُ مَا ذَكَرَ قَبْلَ هَذِهِ فَيُجْتَنَبُ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ الرَّسُولِ ﴿١٥﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴿١٦﴾ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا يَقِيناً أَنَّ الَّذِي عَلَى الرَّسُولِ هُوَ ﴿١٧﴾ الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، فَلَا تَغْتَرُوا إِنْ خَفِيَ عَلَى الرَّسُولِ تَوَلِّيَكُمْ أَوْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَهْرَكُمْ، إِذْ لَمْ يَرْسَلْ إِلَيْكُمْ لِهَذَا الْقَهْرِ كَلِمًا عَصِيَّتًا.

وقوله تعالى: ﴿١٢﴾ الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾ أي الموضح لحكم الله الدال عليه دلالة بيّنة، وفي هذا رد على الباطنية، ومن يثبت التوصل إلى الأحكام بالرموز والإلهام، دون البلاغ من الرسول ﷺ البلاغ المبين الذي تفهمه العرب.

﴿١٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ طَعِمُوا ﴿١٥﴾ أَكَلُوا أَوْ شَرَبُوا مَعَ تَقْوَى اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ تَعَمُّدِ مَعْصِيَتِهِ وَذَلِكَ الْمُبَاحَاتِ، وَمَا طَعِمُوا خَطَأً لَمْ تَعْمَدْ قُلُوبُهُمْ بِهِ مَعْصِيَةً فَهَذَا الَّذِي يَكُونُ مَعَ التَّقْوَى. فَأَمَّا تَعَمُّدُ الْحَرَامِ بَعْدَ الْعِلْمِ بِتَحْرِيمِهِ فَهُوَ تَرْكُ التَّقْوَى وَتَعَرُّضُ لِلْعِقَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ الآية [النساء: ١٤] وغيرها.

أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ  
فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن

وقد روى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول في حد  
الخمر): عن علي عليه السلام في قصة أنه قال عليه السلام في تفسير هذه الآية: إن الله لما  
حرم الخمر شكوا المؤمنون إلى النبي ﷺ فقالوا: كيف بأبائنا وإخواننا الذين  
ما توا وقاتلوا وهم يشربون الخمر؟! أي قبل تحريمها - وكيف بصلاتنا التي  
صلينا ونحن نشربها؟! أي قبل تحريمها - هل قبل الله منا ومنهم أم لا؟

فأنزل الله فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ  
فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ  
اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ تَحِبُّهُمُ الْحَسَنِينَ﴾ فكان ذلك معذرة للماضين، وحجة  
على الباقيين» انتهى.

وفي قوله: أم لا، فائدة نحوية وهي جواز استعمال (أم) بعد (هل) وقد  
منع ذلك صاحب (المغني) وفي (حاشية) عن ابن مالك: أن (هل) تأتي بمعنى  
(الهمزة) قال الدسوقي: وحينئذ فتعادلها (أم) المتصلة كحديث: «هل  
تزوجت بكرة أم ثيباً» انتهى دمايني اهـ.

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (الخطبة الغراء): «هل من مناص أو  
خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو محار أم لا؟» انتهى.  
وعندي: أن المعادلة بلفظ (أم لا) لم تخرج (هل) عن أصلها.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ  
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الآية تخبر بأن الله تعالى سيبولوا الذين آمنوا، أي يختبرهم

قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ  
مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا  
لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ  
عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٥﴾ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ

من يخاف الله ويصبر عن التعدي فيشبهه، وهذا الابتلاء فيما حرم من الصيد  
مع الإحرام أو صيد الحرم، ولا تعم الصيد كله؛ لأن قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ  
الصَّيْدِ﴾ يفيد بعضاً منه، ولو كان المراد العموم لكفى أن يقول: بالصيد.

وقوله تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي قريب بحيث ﴿تَنَالُهُ  
أَيْدِيكُمْ﴾ إن اصطدتموه، أو لا ينال إلا بالرمح؛ ولعل فائدة هذا التنبيه على  
عظم البلوى به، حيث أن صيده سهل ينال بالأيدي أو بالرماح لا يحتاج إلى  
الكلاب ولا إلى السهام، وهذا ليستعد المؤمن بالعزم على الصبر عنه ﴿لِيَعْلَمَ  
اللَّهُ مَنْ تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ مع أنه عالم من سيخاف، لكن المراد أن يعلم ذلك  
واقعاً؛ ليثيب عليه لأن الثواب يترتب على وقوعه.

﴿فَمَنْ أَعْتَدَى﴾ بعد هذا التقديم أو بعد الاختبار بالصيد مع العلم  
بتحريمه، وفي قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى﴾ دلالة على أن الصيد المحرم يكون  
اصطياده اعتداء عليه وظلماً؛ لأنه لم يبق للإنسان حق فيه بعد تحريمه، وقوله  
تعالى: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد بعذاب الآخرة.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ جمع  
حرام، وهو الْمُحْرَم - بسكون الحاء، وكسر الراء، وضم الميم في أوله - ولا يدخل  
فيه صيد الحرم لغير الحرم، فتحريم صيد الحرم بدليل ثان؛ لأن داخل الحرم إذا لم  
يكن محرماً فليس حراماً، وإن صح أن يقال: له محرم أي ضائر في الحرم، كما يقال:  
منجد أو متهم أو معرق، لمن صار إلى نجد أو إلى تهامة أو إلى العراق.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ كما سماه تعدياً في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَلَى﴾ سماه قتلاً، فلا يكون ذكياً وإن ذبحه، وقوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ يخرج الخطأ فهو معفو ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ يكفي للتخلص من هذا الاعتداء، وعلى قراءة إضافة (جزاء) إلى ﴿مِثْلُ﴾ يكون المعنى: جزاء مثل المقتول، فما وجب في مثله فهو جزاؤه، وعلى ترك الإضافة يكون المعنى: فجزاء يكفيه، وذلك الجزاء هو مثل ما قتله ﴿مِنَ النَّعْمِ﴾ أي المثل من النعم.

قال في (الصحيح): «والنعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل» انتهى، وفي (لسان العرب): «والنعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية، قال ابن سيده: النعم الإبل والشاة» انتهى المراد. وفي (مفردات الراغب): «النعم خاص بالإبل» ومثله حكى في (لسان العرب) عن ابن الأعرابي، وقال في (اللسان) في قوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾: «قال الأزهري: دخل في النعم هاهنا الإبل والبقر والغنم» انتهى.

وهذا ظاهر كلام الإمام الهادي عليه السلام، لأنه ذكر ذلك في سياق ما دلت عليه الآية، ونذكر هنا كلامه، قال عليه السلام في (الأحكام): «قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لَّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ والمتعمد لقتل الصيد من المحرمين الذي جعل الله عليه الجزاء فهو الذي يريد قتله متعمداً، يرميه بالسهم أو يطعنه بالرمح أو يضربه بالسيف يريد قتله ويتعمد أخذه، وهو ناس لإحرامه غير ذاكر لما هو داخل فيه من حجة.

فأما من قتله متعمداً ذاكراً لما هو فيه من إحرامه، فلا بد له من التوبة النصوح إلى الله من ذلك، وهي كبيرة أتاها يجب عليه الخروج إلى الله منها، ويجب عليه معها الجزاء، والجزاء فهو مثل ما يقتل يحكم به عليه ذوا عدل، والعدل: فهو البصير بالحكومة في ذلك، مع الصلاح في الدين والخشية لرب العالمين، فمن كان قتل ما يكون جزاؤه شاة فلم يجد الشاة أطعم عشرة مساكين إن أحب، أو صام عشرة أيام، فإن قتل المحرم بقرة وحش أو نعامة، فعليه في النعامة بدنة يحكم بها ذوا عدل، فإن كره البدنة لثقل مؤنتها وأحب أن يحكم عليه بالإطعام، فإننا نرى أن عليه إطعام مائة مسكين، وإن أحب أن يحكم عليه بالصيام حكم عليه بصيام مائة يوم.

وهو في الجزاء والصدقة والصيام بالخيار أيهن شاء فعل؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿هَدْيًا بَلَغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ فقال: أو فجعل بذلك إلى صاحبه الخيار، وكذلك - أيضاً - عدل البقرة من الإطعام إطعام سبعين يوماً» انتهى باختصار، وقد بين معنى التعمد، ومعنى النعم، ومعنى العدلين.

وأما قوله تعالى: ﴿هَدْيًا﴾ فالهدى ما يهدي إلى الكعبة من النعم و﴿بَلَغَ الْكَعْبَةِ﴾ بالغ عند الكعبة في حرمة، قال الشريفي رحمته الله في (المصابيح): «قال في (البرهان): «وعنى بالكعبة: الحرم، لأنها فيه، ولا يجوز أن يهدي في الجزاء ما لا يجوز في الأضحية من صغار النعم» اهـ.

قلت: لعله يعني أن معنى بلوغ الكعبة بلوغ حرمة، كما قال تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] والبيت العتيق هو الكعبة البيت الحرام.

وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ

قال الشرفي رحمه الله في تفسير ﴿ثُمَّ مَجَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]:  
«والمعنى وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت العتيق، والمراد: الحرم الذي في  
حكم البيت...» إلخ.

قلت: ويمكن أن محلها اسم مكان حلها فيكون المعنى مكان حلها إلى  
البيت أي قريب منه يليه، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَالْهَنِي مَعْكُوفًا أَنْ  
يَبْلُغَ مَجَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥] قال الشرفي: «ومحله: هو مكانه الذي يحل فيه نحره أي  
يجب» انتهى.

وقوله تعالى ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِه﴾ أي ليزوق من قتل الصيد عقوبة أمره  
وضرره الثقيل، وفي تفسير الهادي عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾  
[الطلاق: ٩]: «معنى ﴿فَذَاقَتْ﴾ هو وجدت، ومعنى ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ هو عاقبة  
أمرها، ومعنى ﴿أَمْرِهَا﴾ فهو فعلها وما تقدم من فسقها» انتهى من  
(المصابيح) [ج/١ ص ٢٥٤ - خ].

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قبل نزول هذا الحكم من قتل الصيد في الإحرام  
في زمان الجاهلية أو في أول الإسلام ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ لقتل الصيد متعمداً  
﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ يجزيه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ومن عزته أن يجزي من تعدى ﴿ذُو  
أَنْتِقَامٍ﴾ ذو جزاء وعقاب لمن عصاه متعمداً ولم يتب.

قال الراغب: «والنقمة: العقوبة» انتهى المراد.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿صَيْدُ  
الْبَحْرِ﴾ ما صيد من البحر أضيف إلى البحر؛ لأنه من حيوان البحر الذي



الْحَرَامَ وَاهْدَى وَالْقَلْبَ ذَٰلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

يعيش فيه ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما أخذ من غير اصطياد، وقد جزر عنه البحر فأخذ من مكانه بدون اصطياد، فأما الطافي على الماء ففيه رواية تدل على تحريمه ﴿مَتَعًا لَكُمْ﴾ أينما كنتم ورزقتم منه ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ قال الراغب: «السير: المضي في الأرض» انتهى، ولعله أعم من السفر، وفي (معلقة امرئ القيس):  
فقلت لها سيري وارخي زمامه

فهو متاع للسيارة: صيد البحر وطعامه.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ﴿صَيْدُ الْبَرِّ﴾ حيوان البر الذي يؤخذ بالاحتياال؛ لأنه متوحش لا ينال إلا بالاصطياد، ويدل على أنه اسم للحيوان الذي يصاد قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوكُمُ اللَّهُ شَيْءًا مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَالُكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ الآية، وسمي صيداً؛ لأنه يصاد في العادة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فلا تأكلوا شيئاً حرمه عليكم؛ لأنكم ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ ﴿لَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥].

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ قواماً للناس وإقامة لحالهم وصلاًحاً لهم لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية لمن حج، ومن حج أو اعتمر، فالتجارة تحبى، والأسواق تقوم، ومنافع الناس بالتعارف والتلاقي في مواضع الحج والعمرة، كما قال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ جعله قياماً للناس وهو عام لكل شهر من الأربعة الحرم، لما فيه من نعمة الأمن، وترك الحرب، فيمكن مع الأمن ما لا يتهاى مع الخوف من السفر وطلب المعاش وسائر الحاجات.

﴿وَالْقَلْتَيْدَ﴾ جعل ذلك كله قياماً للناس، فبائع الهدى يستفيد الثمن، ومشتريه يستفيد الثواب، والفقراء والملاك ينتفعون بالأكل منه ﴿وَالْقَلْتَيْدَ﴾ إمّا ما يقلد من الهدى إشعاراً بأنه هدى.

وتقليده: جعل القلادة في عنقه.

قال الراغب: «والقلادة: المفتولة التي تجعل في العنق من خيط وفضة وغيرهما، وبها شبه كل ما يتطوق وكل ما يحيط بشيء» انتهى.

أو القلائد في الآية: قلائد ما يقلد من الأنعام المهداة لله، فإن كان كناية ففائدته الإشارة إلى ما في الهدى المقلد من النعمة التي يفرح بها الفقراء حين يرون القلادة، ويحترم الهدى من رأى القلادة كي لا يتعرض له بسوء احتراماً للكعبة، وإن كان المراد القلادة: فهي شعار تحصل به الفائدة المذكورة وهذه النعم المذكورة في الكعبة وهداياها عظيمة وشاملة.

قال في (الميزان) [ج ٦/ص ١٤٢]: «ولو استقرأ المفكر المتأمل جزئيات ما ينتفع به الناس انتفاعاً جانياً أو ثابتاً من بركات البيت العتيق والشهر الحرام، من صلة الأرحام، ومواصلة الأصدقاء، وإنفاق الفقراء، واسترباح الأسواق، وموادة الأقرباء والأداني، ومعارفة الأجانب والأبعد، وتقارب القلوب، وتطهر الأرواح، واشتداد القوي، واعتضاد الملة، وحياة الدين، وارتفاع أعلام الحق ورايات التوحيد، أصاب بركات جمّة ورأى عجباً» انتهى.

الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ

﴿ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن تدبير أسباب النعمة التي هيأها لعباده دليل على علمه بأحوالهم وحاجاتهم وما فيه صلاح أمرهم، كدلالة إتقان الصنع على أن الخالق ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لكثرة المصنوعات التي لا نحصىها، وعموم أثر التدبير والإحكام، ففي السماء النيرات وإحكام سيرها في أفلاكها على نظام لا يغيره طول الزمان، واختلاف الليل والنهار على نظام محكم، وما في الأرض من الدواب والأشجار على اختلاف أنواعها وكثرتها وفوائد ثمار الأشجار، وتدبير خلق الإنسان وتدبير أسباب معيشته وسائر الحيوانات، آيات لا تحصى تدل على سعة علمه تعالى، وإحاطته بكل شيء؛ لأن دليله في كل مخلوق، فكلها دليل على أن الله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنه عالم بذاته لا بعلم مخلوق فيكون محدوداً.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا أمر يدل على وجوب العلم، وطريقة النظر المؤدي إلى العلم بصدق الوعد والوعيد، وفائدة العلم بشدة عقابه تعالى: تقواه، وفائدة العلم بأنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: طلب مغفرته ورحمته بالتوبة والاستغفار، والمحافظة على التقوى، وقد بيّن القرآن أسباب العقاب، وأسباب المغفرة والرحمة، ولا تعارض بين أسمائه تعالى ولا بين أفعاله، ولا بين أفعاله ولا بين أقواله؛ لأنه عليم حكيم.

الْخَبِيثَ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

﴿٢٦﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْأَلْبَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبَدُّونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٧﴾ فَقَدْ بَلَغَ الْإِنْذَارَ وَبَيَّنَّ أَسْبَابَ الْعِقَابِ، وَبَلَغَ التَّبَشِيرَ وَأَسْبَابَ الرَّحْمَةِ ﴿٢٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا نَعْلَنَ وَمَا نَخْفِي وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ، وَهُوَ الَّذِي يَحَاسِبُ وَيَجَازِي، فَعَلِينَا أَنْ نَر\_اقِبَهُ وَنَتَّقِيهِ.

﴿٢٦﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْتَوِي الْفَاسِقُ وَالْمُؤْمِنُ ﴿٢٨﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٢٩﴾ [السجدة: ١٨] ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَلَيْسَ لَهُ وَزْنٌ عِنْدَ اللَّهِ بِكَثْرَتِهِ ﴿٣١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٣٢﴾ لَتَكُونُوا طَيِّبِينَ ﴿٣٣﴾ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ ﴿٣٤﴾ فِيهَا تَهْتَدُونَ لِلتَّقْوَى، وَهِيَ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ لَمْ تَتَّقُوهُ ﴿٣٥﴾ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾ تَظْفَرُونَ بِالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢] ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَغْضَةً عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وَلَعَلَّ ارْتِبَاطَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ بِمَا قَبْلَهَا لِتَأْكِيدِ ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَأَنَّهُ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَأَنَّهُ أَرْسَلَ لِيُبَلِّغَ الْإِنْذَارَ وَالتَّبَشِيرَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حَكِيمٌ لَا يَسْوِي بَيْنَ الْمُجْرِمِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ ثَوَابِ الْمَطِيعِ وَلِذَلِكَ فَلَا بَدَّ مِنَ الْآخِرَةِ لِتَجْزِي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَكَانَ التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ تَنْبِيْهُاً عَلَى أَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَا يَسْوِي بَيْنَهُمَا بِتَرْكِ الْجَزَاءِ لِهَمَا مَعَا كَمَا يَظُنُّ الْكَافِرُونَ.

الْقُرْءَانُ تُبَدِّلُكُمْ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَّحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدِّلُكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدِّلُكُمْ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية هذه أولها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كما بدئت الآيات في هذه السورة بهذا المطلع الفاصل لما بعده عما قبله، والدال على استقلال ما بعده، وأنه موضوع جديد، والنهي عن السؤال عن أشياء وصفت بثلاث صفات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن تُبَدِّلُكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ فخرج السؤال عن ثواب الأعمال وعقوبات المعاصي ليرغب في العمل الصالح ويتجنب المعاصي، ونحو ذلك السؤال عن الأحكام الشرعية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدِّلُكُمْ﴾ فإذا لم يكن حين ينزل القرآن فلا تبدى للسائل فلا بأس بذلك، وفي هذا دلالة على أنه إذا انقطع الوحي انقطع علم الغيب، وإذا انقطع وقت نزول القرآن فلا وحي، فبطل إثبات علم الغيب بالإلهام أو الاتصال بالرسول ﷺ بعد وفاته ليخبر ببعض المغيبات.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ فسترها رحمة بعباده، وهذه تدل على أن الإخبار بما سئل عنه يستلزم الكشف عن رذيلة يفتضح بها صاحبها ويتألم بذلك السائل؛ لأن العفو يدل على أن المعفو عنه سوء، فظهر بهذه الصفات الثلاث أنها تجتمع في مثل سؤال بعضهم للنبي ﷺ من أبي؟ فإذا اتفق أنه كان غير الذي يتسبب إليه ويظنه أباه وأنه كان لغير رشدة كان هذا هو المنهي عنه سؤاله.

فإن قيل: النهي عن السؤال لما يحتمل هذا فهو خلاف ظاهر الآية أم لما يتحقق فيه فهو خلاف ما يفيدُه ﴿إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ لأنه يفيد: أنه عند السؤال لم يبد لهم، فهو خفي عليهم غير محقق؟!

قلنا: النهي عما هو في الواقع جامعٌ للثلاث الصفات، وذلك يستلزم اجتناب مظنة الوقوع فيه والمحتمل له؛ لأنه شبهة يقف عندها المؤمن، أو المراد به النهي عن مظنة وفائدة تعليق الحكم على الواقع: التنبيه على المفسدة في السؤال إذا اتفق جامعاً للصفات الثلاث.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكَ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ قال الراغب: «والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بالجار» انتهى.

قلت: إذا تعدى بنفسه كان ذلك باعتبار المسئول عنه مطلوباً بالسؤال؛ لأنه أي السؤال طلب للجواب، وفي (الصحيح) أفاد نحو ما ذكره الراغب. وفي (لسان العرب): «قال ابن بري: سألته الشيء، بمعنى استعطيته إياه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦] وسألته عن الشيء: استخبرته» انتهى.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ولم يقل: (قد سأل عنها)؟

قلت: الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ ليس برافع إلى ﴿أَشْيَاءٍ﴾ حتى تجب تعديته بـ﴿عَنْ﴾ وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾ يعني: قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أي بمرجوعها أو بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ انتهى.



وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا

قلت: الراجح: أن الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ يرجع إلى الإجابة المفهومة من ﴿تُبَدَّ لَكُمْ﴾ لأن السائل يطلب الإجابة، وهذا هو المناسب لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي كافرين بالإجابة، التي هي إبداء الأشياء المستول عنها، ف(الباء) على ظاهرها، إذا قيل: كفر بكذا لم يخرجها إلى السببية، والمعنى: أنهم طلبوها، ثم كفروا بها بعد أن طلبوها، ولو تركوا السؤال ما أنزلها الله فلم يحتاجوا إلى الكفر.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الذبائح): «والبحيرة: التي كانوا جعلوها: فهي الناقة من الإبل كانت إذا ولدت خمسة أبطن فتتجت الخامس سقياً وهو الذكر ذبحوه فأهدوه للذين يقومون على آلهتهم، وإن كانت أنثى استبقوها وغذوها وشرموا أذننها وسموها بحيرة، ثم لا يجوز لهم بعد ذلك أن يدفعوها في دية، ولا يحلبوا لها لبناً، ولا يجزؤا لها ويراً، إلا أن يحلبوا لبنها إن خافوا على ضرعها في البطحاء، وإن جزؤها جزؤها في يوم ريح عاصف يذرون وبرها في الرياح، ولا يحملون على ظهرها، ويخلون سبيلها تذهب حيث شاءت، وإن ماتت اشترك في لحمها الرجال والنساء فأكلوه» انتهى.

قلت: فالبحيرة: هي التي يشقون أذننها، ويجعلون لها هذه الحرمة لأنها أنثى، وكانت البطن الخامس مما نتجت أمها، ونحوه في (لسان العرب) عن ابن عرفة، وقد قال بعضهم: «إذا كان الخامس ذكراً بحروا أذنه أي شقوها وأعفوا ظهره من الركوب والحمل والذبح...» إلخ.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «وأما السائبة: فهي من الإبل كان الرجل إذا مرض فشفي أو سافر فأدي أو سأل شيئاً فأعطي سبب من إبله ما أراد أن يسببه شكراً لله، ويسمونها سائبة، ويخليها تذهب حيث شاءت مثل البحيرة، ولا تمنع من كلاً ولا حوض ماء ولا مرعى» انتهى، ومثله في (الكشاف).

قال الإمام الهادي عليه السلام: «وأما الوصيلة فهي من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة خمسة أبطن عندهم فكان الخامس جدياً ذبحوه، أو جدتين ذبحوهما، وإن ولدت عناقين استحيوهما، فإن ولدت عناقاً وجدياً تركوا الجدي ولم يذبحوه من أجل أخته، وقالوا: قد وصلته، ولا يجوز ذبحه من أجلها، وأما الأم فمن عرض الغنم يكون لبنها ولحمها بين الرجال دون النساء، فإن ماتت أكل الرجال والنساء منها واشتركوا فيها.

وأما الحام، فهو: الفحل من الإبل كانوا إذا ضرب عشر سنين وضرب ولد ولده في الإبل، قالوا: هذا قد حمى ظهره فيتركونه لما نتج لهم، ويسمونه حامياً ويخلون سبيله، فلا يمنع أين ما ذهب، ويكون مثل البحيرة والسائبة فلا يجوز في دية، ولا يحمل عليه حمل، فهذه الثلاثة من الأنعام التي حرمت ظهورها» انتهى المراد.

وقوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْدَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ معناه: أنه لا وجود لها في مخلوقاته، فما ادعاه الكفار من إثبات بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام، فهو كذب لا أصل له؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَيْكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثْرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فالتى سموها بحيرة ليست بحيرة؛ لأن (التاء) فيها زيدت، لأنه اسم لها يعبر عن حكمها عندهم، والتي سموها سائبة ليست سائبة.. وهكذا؛ لأن الكل حلال كسائر

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولَوْكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٩﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا

الأنعام، وفيه رد على المجبرة الذين زعموا: أن أفعال العباد من الله، فعلى قولهم: هو الذي جعل بحيرة وسائبة.. إلخ؛ لأن فعل المشركين على قول المجبرة وفي مذهبهم من الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ..﴾ الآية [الفرقان: ٤٤] أي لا يستعملون عقولهم ليعرفوا الحق، بل يهملونها، فلا يعقلون الحق، أي لا يفهمونه، بل هم ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ لتعرفوا حكم الله في الأنعام وغيرها في كتابه ﴿وَالِیَ الرَّسُولِ﴾ ليبين لكم حكم الله ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه آبائنا، فلا نحتاج إلى ما أنزل الله ولا إلى الرسول.

﴿أُولَوْكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيكفيهم ما وجدوهم عليه ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون لحق؟! وهذا الرد كافٍ لإبطال دعواهم أنه يكفيهم سنة آبائهم؛ لأن ذلك لا يستند إلى حجة بلا احتمال جهل آبائهم واحتمال ضلالهم واقع لا شك فيه، فاستنادهم إليه مجرد تعصب لآبائهم بلا حجة، وعلى قولهم: يلزم احتمال أنهم على جهل وضلال مثل آبائهم.

وهذا جواب حكيم بأسلوب جميل، وفيه دلالة على أن مجرد احتمال بطلان الدعوى يكفي في ردها لأن (لو) تستعمل في المحتمل النادر، مثل: للسائل حق ولو جاء على فرس، وبذلك كان الجواب في غاية الرفق بالجهلة المتعصين لآبائهم.

أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةً بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴿١٥﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: معنى الآية وتفسيرها: لا يضرركم ضلال الضالين، ولا تحاسبون بفعل المبطلين، ولا تسألون عن شيء من أعمال المفسدين، وإنما أفعالهم عليهم وضررهم في رقابهم، وقد ذكر أن اليهود قالوا للمسلمين: كيف تطمعون بالنجاة وآبأؤكم مشركون ولستم بناجين من فعلهم؟ فأنزل الله هذه الآية، وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] فأخبر أنه لا يعدب أحد بجرم أحد والدأ كان أو ولدأ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ دليل: على أنه لا يسقط عن المؤمن تكليفه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك، كإقامة الحدود، واجتناب الموالات؛ لأن ذلك من الهدى الذي شرعه الله في القرآن، فمن ترك ما أمر الله به فلم يهتد.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فإنما هو إغراء لحفظ النفس من أسباب الهلكة، وليس معناه: لا تبالوا بضلال غيركم، ولا تأمروا بمعروف، ولا تنهوا عن منكر.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أنتم ومن ضل ترجعون مجتمعين للسؤال والجزاء ﴿فَيَنْبِئُكُمْ﴾ فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يخف عليه شيء من أعمالكم وهو يحاسبكم ويميزكم.

ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتُمْ مَّصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ غُبِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخِرَانِ يَقُومَانِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ هي الشهادة التي تؤدي بين المؤمنين عند الحاجة، والمراد هنا: تحملها، بدليل قوله تعالى ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وتحملها ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ وهي الشهادة على ما أوصى به الميت فلا بد من استشهد اثنين ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ العدل ضد الجور فهما ملتزمان بالعدل مجتنبان للجور ﴿مِّنْكُمْ﴾ أي من الذين آمنوا.

﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتُمْ مَّصِيبَةَ الْمَوْتِ﴾ فلا يكفي شاهدان من غير الذين آمنوا، إلا في حال الضرورة الملجئة إلى استشهد شهيدين من غير الذين آمنوا، وذلك إذا ضربنا في الأرض وخرجنا من بلاد الإسلام ولم نجد إلا من غير الذين آمنوا لتضييق الحادثة بحضور الموت، وظاهره: الإطلاق، بل هو ظاهر في الكفار الذين يؤدي إليهم الضرب في الأرض، حيث كان الإسلام لم ينتشر في الأرض، وكان الضرب في الأرض مظنة الخروج من بلاد الإسلام.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ عند أداء الشهادة، راجع إلى أول الكلام فهو في العدلين من الذين آمنوا، وإنما قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ﴾ إلى الموت شبه المعارض بين الكلامين.

مَقَامُهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُنَا  
أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ أَذْنَى

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾

يقسمان بالله بعد الصلاة: لا نكتمها أو نغيرها لأجل مال نعطاه لنكتم  
الشهادة أو نلويها فيكون بدلاً من أدائها على وجهها.

وقوله تعالى ﴿إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ أي قلقتم لتجوز أن يكتمها شاهد أو يغير فيها  
والشك في ذلك، فخذوا منهما العهد المذكور، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا  
قُرْبَى﴾ أي المشهود عليه فـ ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ بالشهادة ﴿ثَمَنًا﴾ لأن المشهود  
عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ﴾ هذا تمام ما يقسمان عليه:  
الالتزام بأن لا يكتما الشهادة، والاعتراف بأنها حق لله عليهما، وأنهما إذا  
كتماها من ﴿الْأَثِمِينَ﴾ فيكون اعترافهما هذا حجة عليهما إن كتما يوم  
القيامة، وفي الدنيا إن عثر على كتمانها، وحبس الشاهدين من بعد الصلاة  
ليؤديا اليمين هو توقيفهما ليحلفا قبل أن يشهدا، وهذا عند أداء الشهادة.

﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ عثر عليه: انكشف وظهر أن  
الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بتغيير في الشهادة، إما بتبديل، أو بزيادة، أو  
نقص، فلم يؤدياها على وجهها، فاستحقا عقوبة ذلك الإثم، كقوله تعالى:  
﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثْمًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

﴿فَتَاخِرَانِ يُقَوْمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾ لأن  
الشاهدين كتما الشهادة أو غيرها، فكاد الحق أن يفوت، وكاد المستحق عليه  
أن يضيع الحق عليه، فكان الآخران اللذان ينال بشهادتهما الحق من



المستحق عليه هما ﴿الْأَوَّلَيْنِ﴾ بأن يشهدا ويعمل بشهادتهما؛ لأنهما قاما من الذين استحق عليهم الحق مقام الصدق، وشهدا عليه بالحق وهو مقام الشاهدين الأولين لو أقاما الشهادة ولم يكتما أو يغيرا، فمقامهما من المشهود عليه هو قيامهما عليه بأداء الشهادة بالحق، فلما تخلف الأولان عن مقامهما من المشهود عليه كان الآخران الأولين بذلك المقام.

(آخران) مبتدأ، وجملة ﴿يَقُومَانِ..﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ صفة سوغت الابتداء بالنكرة، والأوليان خبر المبتدأ، و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنْ الَّذِينَ﴾ وجرورها متعلقان بمقامهما وهي (من) التي تحدد المسافة والنسبة، كالحديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وقول عنزة: ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

بناء على أن قوله: (مني) متعلق بـ(نزلت) وهو الظاهر عندي، ومنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] و﴿مَقَامُهُمَا﴾ مصدر، أو ظرف مكان.

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيداً لشهادتهما ﴿وَمَا أَعْتَدَيْنَا﴾ في شهادتنا على المستحق عليه، أي لم نعتد عليه ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إنا إذا اعتدنا عليه وشهدنا عليه بما ليس عليه ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تسجيلاً على أنفسهم بالظلم وإقراراً بإثم الظلم إن اعتديا، وهذا من تأكيد الشهادة.

فإن قيل: كيف يتصور العثور على أن الأولين كتما مثلاً؟

قلت: إذا شهدا على إقرار الميت ببعض الحق الذي يعلمه الآخران عليه فالمستحق عليهم الورثة، وإذا شهدا على دعوى الميت بعض الحق له الذي يعلمه الآخران فالمستحق عليهم المدعى عليهم، فالعثور: هو الإطلاع

أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ

على ما كتم الشاهدان بسبب معاينة المعاملة سابقاً قبل ضرب الأرض أو سماع الإقرار سابقاً من الميت أو من غرمائه، أو بسبب إقرار الشاهدين من بعد الشهادة على ما كتما، أو بسبب من حضر عند الوصية من المسلمين ولم يكونا باسم متحملين للشهادة، أو حضرا في مرض الموصي قبل أن يوصي، وسمعا منه ما يناقض شهادة الشاهدين ويبين ما كتما، هذا الظاهر عندي، ولا يجب تنزيل الآية على قصة تميم الداري.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمر الله به في الآيتين ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أن يأتوا الأولان والآخران، فالأولان بتحليفهما قبل الشهادة بعد الصلاة، والآخران بقسمهما: ﴿لَشَهِدْتُنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِادَتَيْهِمَا﴾ إلخ، والكل من الأولين والآخرين لخوف الفضيحة بورود إيمان تكشف كتمانهم. ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي أدنى أن يخافوا ﴿أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ﴾ يؤتى بها بعد غيابها عن موقف الشاهدين فتكشف كتمانهما، وهذا الخوف يصلح للأولين والآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ بالجمع.

فإن قيل: فلماذا قيل: ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ ولم يؤت بـ(الواو) مكان (أو)؟ قلت: إذا أتوا بالشهادة على وجهها لأجل ما ذكر كله فهو المراد، وقد تضمن ذلك الخوف المؤدي إلى أداء الشهادة على وجهها، وإنما جيئ بـ(أو) لأجل حالة الكتمان أو التغيير؛ لأنه جعل مقابل أداء الشهادة على وجهها الخوف من انكشاف الكتمان أو التغيير، وفائدة ذلك: أنه إذا خان مع خوفه أن يفتضح كان مستحقاً للفضيحة أكثر من غيره؛ لأنه قد تعرض لها عمداً.

فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ  
 اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُتِدَّتْكَ  
 بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف على الأوامر المذكورة في الآية للتحذير من المخالفة  
 في شيء منها أو في غيرها، وتمهيداً للأمر بالسمع ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أوامر الله  
 سماع من يريد الاتباع، أو بمعنى: اقبلوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾  
 الذين تركوا التقوى والسمع، فهم مخذولون.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ  
 أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ اذكر يوم يجمع الله الرسل يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَا  
 أُجِبْتُمْ﴾ أي إجابة أجبت في الدنيا من أمكم الذين أرسلتم إليهم إجابة  
 حسنة؟ أم سيئة؟ أم ماذا؟ سؤال عن إجابة أمهم كلها، وهم لا يحيطون  
 بها علماً؛ لأن من أمهم من لم يشاهدوه لغيابه عنهم، أو لأنه كان بعد  
 توفيقهم، وكذلك من أمهم من لا يعلمون سره ونيته وما بطن من إجابته،  
 ولذلك نفوا العلم بما يطابق السؤال.

أما العلم ببعض الإجابة فهو غير مستول عنه هنا، وفيه دلالة على أنهم  
 لا يعلمون الغيب لا علماً ذاتياً، ولا بإعلام الله تعالى لهم؛ لأنهم نفوا العلم  
 عموماً، ولو كانوا يعلمون ذلك كله لما ساغ النفي للعلم في جواب هذا  
 السؤال، فتأويله: بأنه لا علم لنا ذاتياً خلاف الظاهر، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَدرِي  
 مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩] وفي هذا رد على بعض الإمامية الذين  
 يدعون أن المهدي يعلم أنصاره ومن خالفه ومن هو متبوع له على التفصيل  
 بأسمائهم، ويعلم ما يفعلون.

وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾ وَإِذْ

﴿١١﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴿١٢﴾

هذا يكون يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، واختص بالكلام لما سبق في الدنيا من غلو بعض النصارى فيه، وهذا الكلام يشير إلى أنه عبد الله أنعم عليه.

﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾  
﴿أَيْدَتُكَ﴾ قويتك، و (روح القدس) جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] فهو له معين، ولعل هذا في صغره وكبره، أما الصغير فإنه ضعيف يحتاج إلى من يرعاه، وأما الكبير فلأنه يحتاج إلى من يعينه على أعدائه وفي بعض مهماته، و﴿الْمَهْدِ﴾ ما يمهد للصبي من فراش يجعل عليه، والكهل: فوق الشباب، أي من تجاوز سن الشباب، أو هو في آخر الشباب.

وحكى الشرفي في (المصاييح) عن الإمام أبي الفتح الديلمي - صاحب البرهان -: أن الكهل: ابن ثلاثين سنة، وأفاد الراغب في (مفرداته): أنه من شارف الشيب، ولعله يعني: من ظهر فيه بياض بعض شعره، ولم يغلب على السواد.

وقال (صاحب الكشاف): «وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد، والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء» انتهى، وفي (الصحيح): «الكهل: الذي جاوز الثلاثين، وخطه الشيب» انتهى.

والمعنى متقارب، وهذا التكليم في المهد وكهلاً نعمة، من حيث أن التكليم في المهد نعمة عليه بالمعجزة، وعلى والدته بالتبرئة، والدلالة على فضلها، وفي المهد من حيث أنه كان يكلم الناس بما أرسله الله به، وعلى والدته برسالة ابنها وسلامته حتى بلغ الكهولة، مع أن القدرة على تكليم الناس نعمة على كل حال.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿الْكِتَابَ﴾ اسم يعم الكتب، كقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أو هو مصدر (كُتِبَ) أي علمتك الكلام، وعلمتك الكتاب الذي هو أحد اللسانين وبه تحصل العلوم المكتوبة، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] و﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ المعلومات النافعة كأسباب الزهد في الدنيا.

وقد حكي عنه عليه السلام كثير من الحكم في كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) للإمام الموفق بالله عليه السلام، و (التوراة) التي أنزلت على موسى و (الإنجيل) الذي أنزل على عيسى، والإنجيل لم ينسخ التوراة، بل هي معمول بها في دين عيسى عليه السلام، إلا ما خصه دليل من كلام عيسى عليه السلام أو من (الإنجيل) لقوله: ﴿وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنَفَّخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أذن الله له بالتصوير، ولعل هذا يشير إلى أن الأصل التحريم في تصوير صورة الحيوان، وإنما أذن الله لعيسى عليه السلام لما في ذلك من الحكمة الخاصة ﴿فَتَنَفَّخُ فِيهَا﴾ أي من الصورة المفهومة من قوله: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾.

والظاهر: أنه النفخ المطلق الذي هو إرسال النفس من الفم بقوة، ولو كان المراد نفخ الروح لقليل: فتنفخ فيها الروح؛ لأنه لا يعبر عن نفخ الروح

بمطلق النفخ، فتكون طائراً ﴿بِإِذْنِي﴾ بإذني أن تكون طائراً بذلك السبب، وهو صناعة الطين كهيئة الطير والنفخ، فكان سبباً لحياته يجعل الله له سبباً، كما جعل حضانة البيضة سبباً لحياة الفرخ.

وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾ دلالة على إحاطة قدرة الله تعالى وعلمه بما صنعه عيسى عليه السلام فلو شاء لم تكن طيراً، ودلالة على سهولة الأمر الخارق على الله، حتى كأنه في وجوده لا يحتاج إلا إلى الإذن بوجوده، وفيه - أيضاً - رد على النصارى الذين زعموا أن إحياءه عليه السلام للموتى راجع إلى أنه إله سبحانه الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ ﴿الْأَكْمَةَ﴾ الأعمى الذي ولد أعمى وإيجاد البصر له من الله، وأذن تعالى أن يكون على يد عيسى عليه السلام معجزة له كسائر المعجزات الخارقة للعادة، فقله: ﴿بِإِذْنِي﴾ كذلك رد على النصارى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ كذلك يصعب علاجه، فإبرأؤه معجزة تكون بإذن الله، ولا يستقل بها عيسى بقدرته، كسائر المعجزات التي تكون على أيدي الرسل، كفلق البحر بضربة عصى موسى، والبرص: بياض يكون في الجلد ويكون به الجلد خشناً في ملمسه، وهذا الفارق بينه وبين البهق.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ ﴿الْمَوْتَى﴾ أي الجنس، مثل: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] قال في (المصابيح): والذي أحى من الموتى رجلين وامرأة، ذكره في (البرهان) انتهى.

وهذا نظير إحياء الطير، و(إخراج الموتى): إخراجهم من قبورهم، وهذه آية عظيمة لدلالة هذا على إحيائه وقوته على الخروج من بين التراب، فهذه المعجزات تقوية له وتصديق من الله له.



أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٣٢﴾ وَإِذْ نَصَرْتُكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَحَاولُوا قَتْلَكَ، بَأَن كَفَفْتَهُمْ عَنْكَ ﴿٣٣﴾ إِذْ جِئْتَهُم بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَذَلِكَ كَفَفْتُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهَدَايَتِهِمْ لِلإِيمَانِ، فَالْكَفَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ جَمْلَةً؛ لِأَنَّهُمْ أَشْدَاءُ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ، وَلَوْ لَا إِيْمَانُ مَنْ آمَنَ لَكَانَ مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرِيدُ قَتْلَكَ.

أَمَّا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَقَالُوا ﴿إِنْ هَذَا﴾ أَيَّ مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ وَتَخْيِيلٌ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَاقِعياً بِزَعْمِهِمْ كَصَنْعِ السَّاحِرِ فِي تَخْيِيلِهِ قَلْبَ الْجَبَلِ حَيَّةً، وَقَوْلُهُمْ: ﴿مُبِينٌ﴾ أَيَّ بَيِّنٌ أَنَّهُ سِحْرٌ، مَبَالِغَةٌ مِنْهُمْ فِي الْكُفْرِ.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (الخواريون) الْخَلَصُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ دَعَاهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْهُمْ، وَهَذَا الْوَحْيُ الرَّاجِعُ: أَنَّهُ هَدَايَتُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] فَالْمَعْنَى: هَدَايَتُهُمْ لِلإِيمَانِ بِي وَبِرَسُولِي، لِيَكُونُوا أَنْصَاراً لَكَ وَمُصَدِّقِينَ لَكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ﴾ [الصف: ١٤].

فَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِنَصْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَدَايَتُهُمْ لِلإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنَ النِّعَمِ عَلَيْهِ؛ لِتَأْيِيدِهِ بِهِمْ ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ اللَّهُ لَا نَجْعَلُ لَهُ شَرِيكاً، وَهَذَا مِنَ الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى.

﴿١١٢﴾ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا

﴿١١٥﴾ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٨﴾ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴿١١٩﴾ هل يقدر على هذا الأمر الخارق للعادة؟! وقولهم: ﴿١٢٠﴾ رَبُّكَ ﴿١٢١﴾ يشير إلى أنهم يريدون أن يدعو لهم أو يسأل الله عن ذلك فيجيب من أجل عيسى عليه السلام، وقولهم: ﴿١٢٢﴾ عَلَيْنَا ﴿١٢٣﴾ لأنهم يريدون المائدة لأنفسهم.

﴿١٢٤﴾ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٥﴾ فلا تشكوا في قدرته على كل شيء، لأن المؤمن لا يرتاب في أن الله على كل شيء قدير، أو لا تسألوا هذا السؤال الموهم للشك في الله لما فيه من قلة الأدب، أو لا تطلبوا الأمر الخارق وقد رأيتم من الآيات ما كفاكم للإيمان بالله وبرسوله، واشتغلوا بتقوى الله عن طلبه، أو أراد الكل من هذه المعاني، فأجابوه عن المعنى الأخير:

﴿١٢٦﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٨﴾ نَأْكُلُ مِنْهَا ﴿١٢٩﴾ لنسد جوعنا ﴿١٣٠﴾ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴿١٣١﴾ بوقوع الآية التي طلبنا، فنزداد إيماناً، وتسكن قلوبنا عن الخواطر التي تدعو إلى الشك ونحتاج إلى مدافعتها بالتذكر لما مضى من الآيات ﴿١٣٢﴾ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴿١٣٣﴾ في كل ما أخبرتنا به عن الله، وعن قدرته، وعن رسالتك، وعن اليوم الآخر ﴿١٣٤﴾ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٣٥﴾ لنشهد لمن لم يعاينها أنها وقعت هذه الآية العظيمة وعايناها، أي لتحمل الشهادة بها.

مَآيِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤٠٢﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ

﴿٤٠٢﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤٠٢﴾ اللَّهُمَّ أَي يَا اللَّهُ رَبَّنَا كُلْنَا، يقابل قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ﴿أَنْزِلْ﴾ عَلَيْنَا طَلَبَهَا لَهُ وَلَهُمْ، لعله أراد بذلك أن يعرفوا جده في الدعاء.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: وإنما سألوا أن تكون المائدة لهم عيداً، وكان ذلك يوم عيد من أعيادهم، فقالوا: ﴿لَا وَلَنَا وَآخِرِنَا﴾ وأرادوا جميعهم، وهذا موجود في لغة العرب، تقول: بلغت الرسالة أولهم وآخرهم، وهذا الكلام حسن جميل جائز، وقلت: هل أنزلها عليهم أم لا؟!

قال عليه السلام: بل قد أنزلها، ألا تسمع كيف يقول - وقوله الحق -: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقد قيل: إنها لم تنزل عليهم، وليس ذلك عندي كذلك؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقوله الحق، ووعدته الصدق، تعالى علواً كبيراً، انتهى.

قلت: ويؤكد أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَا وَلَنَا وَآخِرِنَا﴾ لجميعنا قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ولو كان المراد أن تتكرر للموجودين ومن سيوجد لقال: تكون لنا أعياداً، وقوله: ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ يدل به على أن سؤال المائدة ليس لمجرد العيد، بل لأنه طلب رزق ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ثناء على الله بما هو أهله مناسب لطلب الرزق.

فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ

﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ فَمَنْ يَكْفُرْ يَجِدُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةَ الَّتِي طَلَبُوهَا وَجَاءَتْ لَطَلِبَهُمْ، أَوْ يَكْفُرُ النِّعْمَةَ بَعْدَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَزِدُّادُونَ بِهَا إِيمَانًا مَعَ مَا فِيهَا مِنَ التَّكْرِيمِ لَهُمْ.

قال الراغب: «والمائدة: الطبق الذي عليه الطعام، ويقال: لكل واحدة منهما: مائدة» انتهى، وقال في (الصحيح): «وهي خوان عليه طعام، فإذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وإنما هو خوان» انتهى، والأولى: أنه في الآية الطعام على الخوان؛ لقوله: ﴿تَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وكما أفاده الراغب.

وقوله تعالى: ﴿لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ لعل المراد: أنه عذاب خاص، يكون خزيًا عليهم من حيث أنه خصهم، وما يروى أنهم طلبوا عيسى أن يريهم من هذه الآية أية أخرى ثم كفروا بعد ذلك فمسخوا قردة وخنازير لا ينبغي اعتماد الرواية إذا لم تأت من مصدر صحيح؛ لأن القرآن أثنى على الحواريين، ولم يذكر عنهم سوى هذا السؤال الذي يعاب عليهم، ولا أستبعد أن الرواية من كذب اليهود، اختلقوها على الحواريين عداوة لهم.

﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴿١١٧﴾ هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ

مَرِّمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي ﴿ وهذا السؤال شبه سؤال الموءودة: ﴿يَكُنْ ذَنْبِي قُتِلْتُ﴾ [التكوير: ٩] وفيه فائدة أخرى: استدعاء التوبيخ والتقريع للنصارى، الذين اتخذوا عيسى إلهاً بما في جواب عيسى عليه السلام، وذكر أمه لبيان أنه سواء اتخذه إلهاً واتخاذها إلهاً؛ أو لأن بعض النصارى أشركوا بها كما يحكى عن بعض الحبشة، ولعل شركهم ليس تصريحاً بإلهيتها، بل بالغلو فيها ونسبة ما لا يقدر عليه إلا الله إليها، من مثل: شفاء المريض، وإطالة العمر، وبركة الرزق، وإنزال المطر، ومنع المطر عن العصاة غضباً عليهم، فاتخاذهم لها إلهاً: دعاؤها لجلب النفع الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ومعنى ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يتخذوهما إلهين قرييين منهم في اعتقادهم، يعتبرون نفعهما وإجابتهما للدعاء أقرب من إجابة الله، ويتخللون الله بعيداً منهم، فهذا معنى ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وليس معناه: نفى إلهية الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ [الكهف: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] أي الشمس، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧] وغير ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي عيسى ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً وتبعيداً عن أن يكون معك إله ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن عبوديتي لك وإيماني بالتوحيد لك يمنعني أن أقول ما ليس لي بحق، ونظير هذا النفى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ [النساء: ٩٢] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥] فهو نفى مؤكد بالدلالة على المانع.

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ نفى أن يكون قال للناس: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ﴾

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الْرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

بطريقة إثبات علم الله به لو كان؛ لأنه ﴿عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ونفى عن نفسه علم الغيب، تحقيقاً لإقراره بأنه ليس بـ(إله).

﴿١٧﴾ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لأنك أمرتني أن أمرهم بعبادتك وحدك، فما قلت لهم إلا ذلك المأمور به، وبينت لهم أنك ربي وربهم، فعلينا أن نعبدك وحدك لا شريك لك إن جعلت (أَنْ) مفسرة، فعلى تضمين ﴿قُلْتُ لَهُمْ﴾ أمرتهم وعدل عن لفظ الأمر إلى لفظ القول، ليناسب قوله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ ليناسب مقام الاعتراف بعبوديته لله تعالى الذي هو مقتضى الحال، فلم يقرن أمر الله له بأمره لهم؛ لأن أمره لهم إنما هو أمر تبليغ عن الله تعالى وليس إلهاً من دون الله سبحانه وتعالى، فقد نفى أنه قال لهم ذلك بوجه:

من ذلك قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ومن ذلك قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إلخ، ومن ذلك قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ومن ذلك ما حكاه عن نفسه: ﴿آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وهذا ينافي دعوى الإلهية، وينافي أمر الناس باتخاذها واتخاذ أمه إلهين من دون الله.

وإن جعلت (أَنْ) مصدرية، فعلى تأويل: ﴿أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بمصدر هو أمرهم بعبادة الله ربي وربهم إن صح ذلك؛ لأن الأصل في (أَنْ) المصدرية أن يكون المعنى على أن تسبك بالمصدر هي والفعل بعدها، والفعل (اعبدوا) فالأصل: ما أمرتني به عبادتهم لله ربي وربهم، أي ما أمرتني بقوله:



عبادة الله ربي وربهم، وهذا لم يستقم، ولا يصح تأويل القول بالمقول فيه، مثل: ﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مریم: ٨٠] لأن الاستثناء للقول الحقيقي المأمور به الذي هو قول عيسى عليه السلام، لا فعلهم الذي هو عبادة الله وحده.

فجعل (أن) مفسرة أولى وإن كانت في لفظ القول، وذلك لأن الحكم يختلف مع التضمن للفظ الآخر إذا روعي التضمن، وقد جعلها مفسرة بناء على التضمن الزخشري في (كشافه) وهو من علماء العربية، حيث جَوِّز جعلها مفسرة على تأويل القول بالأمر، وحسنه ابن هشام في (مغني اللبيب).

ولا إشكال أن معنى ﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ما أمرتني أن أقوله لهم؛ لأنه مستثنى من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ غاية ما فيه أنه روعي التضمن باستعمال (أن) المفسرة، وروعي لفظ القول بتعديته إلى المستثنى بنفسه، فروعي اللفظان، كما روعي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] التضمن لتضموها المناسب لاستعمال (إلى) مع بقاء معنى الإلتاف أو نحوه مما يعبر عنه بالأكل.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ متحملاً للشهادة عليهم ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ معانياً لأعمالهم سامعاً لأقوالهم مشاهداً لهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لم أعلم ما يفعلون، و﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعلم ما يفعلون لا يخفى عليك شيء منهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ في كل حال، وفي الآية هذه دلالة على أن الشهداء على الأمم هم ممن شاهد أعمالهم فقط، فالرسول ﷺ شهيد على أمته الموجودين في عهده الذين شاهدتهم، أما من بعده فالشهداء عليهم هم خيارهم المشاهدون لهم.

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿١١٨﴾ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ بِسَبَبِ شُرْكَهُمْ بِي وَبِأَمِي ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ليس لي من أمرهم شيء، بل أمرهم إليك وحدك تحكم فيهم ما تريد ﴿وإن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلن تكون المغفرة على وجه يخالف عزتك وحكمتك لمجرد إسعاد شفيع متدخل بشفاعته أو نحو ذلك، وعلى هذا ففرض العفو ليس لاحتمال وقوعه، وإنما هو للدلالة على أن أمر العباد إلى الله وحده، وأنه يقضي فيهم بعزته وحكمته، فالمؤمنون يرحمهم بعزته وحكمته.

قال في (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله ﴿..أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية: ٧١] وقال في أعدائه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] فمن عزته وحكمته رحمة أوليائه، ومن عزته وحكمته تعذيب أعدائه، فلا مغفرة للمشركين إلا على فرض إمكانها من دون مخالفة لعزته وحكمته وذلك لا يكون لأعداء الله؛ لأنه قد ثبت بقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] أن مقتضى عزته وحكمته تعذيبهم.

﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ لعيسى عليه السلام، بشارة له بصدقه في الحياة الدنيا: ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون: هم الذين صدقوا الله في إيمانهم فوافق

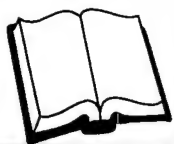
قولهم عملهم ونيتهم، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وأخلصوا دينهم لله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

﴿هُمُ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهذا لاستحقاقهم الثواب والتكريم، فبالأولى أن صدقهم نفّعهم بأن نجاهم من النار، فتم بالصدق نفع الصادقين.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لعله بمعنى رضوا عنه في إثابتهم بما أنابهم به من النعم، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] أو هو تعبير عن عظم سعادتهم برضوان الله عنهم، وبرضوانهم عنه وحبهم له ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة عظيمة دائمة، ونجاة من كل شر.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وحده ﴿لِلَّهِ﴾ وذلك يعم المسيح ابن مريم وأمه عليها السلام، والملك لله وحده ليس لهما فيه نصيب يشاركان به ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما قد تقرر من الاحتجاج في هذه السورة على أهل الكتاب وغيرها، تقرر أن الله ملك السموات والأرض وما فيهن، وأنه على كل شيء قدير.

التيسير في التفسير



سورة الانعام





## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ

### تفسير (سورة الأنعام)

قال الشريفي في (المصاييح): «مكية غير ست آيات فإنها مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات، ومثل هذا في (البرهان)» انتهى من (المصاييح) وذكر أنها نزلت جملة واحدة.

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿١﴾ هو المستحق للحمد ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وذلك دليل على قدرته التي لا تساويها قدرة ولا تقاربها، وعلى سعة علمه وإحاطته بكل شيء، لأن صنعه محكم، والإحكام دليل على العلم، ولأن الظلمات والنور مقدران بمقادير محكمة تابعة لمقدار حجم الأرض ومقدار سرعة دورتها، ومقدار نسبة المسافة بين الأرض والشمس، خلق ذلك وقدره بقدرته وعلمه نعمة منه على عباده، والمذكور هنا جعل الظلمات.

فأما تقديرها ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولعل جمع الظلمات هنا لتعدد الحجب التي تحجب النور، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن دل خلقه على عظمته وجلاله بما خلق وجعل، ف﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله وبأنعمه قابِلُوا ذلك بأنهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بربهم شركاءهم، أي يجعلونها عديلة لله؛ لأنهم جعلوها آلهة تستحق العبادة بزعمهم.



أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۖ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ  
وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «معناه: تجعلون له مثلاً وتشركون به» انتهى، وفي (الصحيح): «والعديل: الذي يعادل ذلك في الوزن والقدر» انتهى، قال الشرفي في (المصاييح): «وفائدة ﴿ثُمَّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.. إلخ.

وفي هذه الآية إشارة إلى معظم ما يأتي في هذه السورة من ذكر آيات الله، وما يأتي فيها من الرد على المشركين، والعدل بالله يصدق على أنواع الشرك كلها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۖ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ وهذه آية أخرى تدل على قدرته وعلمه وملكه للإنسان، يتصرف فيه كيف يشاء، وقدرته على إحيائه بعد الموت وجزائه.

﴿خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ﴾ بدأ خلق الإنسان من طين، وهو خلق أبينا آدم عليه السلام من الطين بتسوية صورته من الطين، الذي هو تراب ممزوج بالبلل

﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ ثم قضى لكم أجلاً في الحياة أو للممات، والمعنى متقارب، فالحياة حتى الممات هي بقضائه تعالى، وذلك يستلزم أن الممات بقضائه تعالى، والممات هو بقضائه في حينه المقضي يكون لا يتقدم ولا يتأخر، وذلك يستلزم أن بقاء الحياة بقضائه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وأجل آخر ﴿مُّسَمًّى﴾ معين وقته محدود

﴿عِنْدَهُ﴾ في قدرته وعلمه يأتي بالمؤجل به في حينه، والأقرب: أنه أجل القيامة، وهكذا في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) فحياة كل شخص مؤقته بتأجيل الله، وتناسل القرون في هذه الحياة الدنيا مؤجل بتأجيل الله،

ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤١٣﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَتُوءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١٤﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ

فبقضائه حياة كل فرد وموته، وبقضائه الحياة الأولى والحياة الآخرة وانتهاء الحياة الأولى لكل الناس أجمعين بقضائه.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) معناه: تشكُّون، أي تشكُّون في صدق الوعد والوعيد؛ استبعاداً للقدرة على إحياء العظام وهي رميم، وقد خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلقكم من طين، وحدد آجالكم وحدد هذه الحياة الأولى التي هي تقدمة للآخرة.

قال الشرفي في (المصابيح) - حاكياً عن الحاكم الجشمي المفسر - : «قال الحاكم: فإنه نبه بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على إبطال قول من يقول بقدم العالم، وبقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ على إبطال قول الثنوية القائلين بقدمهما لأنهما أجسام [كذا] بمنزلة غيرهما، وبقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ طِينٍ﴾ على إبطال قول الطبائعية» انتهى.

قلت: هكذا القرآن شفاء من كل داء.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ يدعوهم أهل السماء لله وأهل الأرض يدعوهم الله؛ لأنه الإله في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى السَّمٰوٰتِ ٱلْأَرْضِ ٱلْإِلٰهَ وَهُوَ ٱلْحَكِىْمُ ٱلْعَلِىْمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فهو الذي يعلم دعاءكم له وسائر عبادتكم إياه، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من سيئات أو حسنات فاتقوه وراقبوه.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولذلك فهم يشركون بالله ولا يتقونه مع قيام الحجة عليهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بآيات الله ورسوله وكتابه، وما دلت عليه من توحيده وغيره بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قال الراغب في (مفرداته): «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة» انتهى.

وقوله: «ذو فائدة عظيمة» لعل الصواب: ذو فائدة مهمة؛ لقول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثم      ويات الخلي ولم ترقد  
ويات ويات له ليلة      كليلة ذي العائر الأرمد  
وذلك من نبأ جائي      وخبرته عن بني الأسود

وقوله عنتره:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي      والكفر مخبئة لنفس المنعم

وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إن أريد به القرآن الذي كان المكذبون يستهزئون به، فأنباؤه ما فيه من الوعيد، وإتيانه إتيان المتوعد به، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] أي ما وعد به، وإن أريد ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عامة من الكتاب والرسول وخزنة جهنم والعذاب وغير ذلك، فالنبأ عنه: الإخبار عنه بأنه لم يكن مما يستهزئ به أهل العقول والنبأ هذا هو الجزء الناطق بلسان الحال أنهم كانوا في استهزائهم في غواية بعيدة، أو القول المقارن للعذاب ذوقوا العذاب بما كنتم تستهزئون أو نحو هذا القول مما يحصل به ندمهم على ما قدموا من التكذيب والاستهزاء، وهذا أظهر والاستهزاء استخفاف، والسخرية مثله.

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ  
وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ  
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخِرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي

﴿٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ  
نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ  
فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخِرِينَ ﴿٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا  
قَدْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْكَثِيرَةِ فَيَعْلَمُوا كَثْرَتَهَا، أَوْ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴿٦﴾ كَمْ  
أَهْلَكْنَا ﴿٦﴾ أَي جَوَاب كَمْ أَهْلَكْنَا أَي أَنَّهُمْ كَثِيرٌ، يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهِمْ،  
وَيَحْذَرُوا أَنْ يَهْلِكَ كَمَا أَهْلَكَ الْقُرُونُ الَّتِي أَهْلَكَهَا مِنْ قَبْلِهِمْ، فَمَا بَالُهُمْ لَمْ  
يَعْتَبِرُوا بِهِمْ وَيَحْذَرُوا التَّكْذِيبَ وَالِإِسْتِهْزَاءَ بِالْحَقِّ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا  
قَبْلَهُمْ، فَالسُّؤَالُ لِلتَّوْبِيخِ.

وأما (القرن) فقال الشرفي في (المصابيح): «وفي القرن يقول المرتضى  
عليه السلام: القرن: الخلف الذي يكون بعد الأول الفاني، فأما ما يقال به من  
ثمانين سنة فليس ذلك بشيء؛ لأننا قد رأينا قوماً يزيدون على الثمانين في  
عصر واحد، ولكن القرن ما خلف من قد مضى، ويقال: القرن؛ لأنهم غير  
الأولين، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيه      وخُلِّفْتَ في قرن فانت غريب»

انتهى.

﴿مَّكَّنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بما جعلنا لهم فيها من المستقر والمال والقوة ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ﴾ أي هو قليل بالنسبة لما جعلنا لهم ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا﴾ بالأمطار المتتابعة الكثيرة.

﴿٧﴾ قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٩﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ ﴿١٠﴾

﴿٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليتقنوا أنه كتاب ليس خيالاً كما يخيل الساحر للبصر لقالوا بعدما علموا أنه كتاب أنزله الله من السماء على رسوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي رأيناه ولمسناه بأيدينا إلا سحر تخيل من ساحر لا حقيقة له ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي بين أنه سحر مكابرة منهم وعناداً.

﴿٨﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بينك يا محمد وبين الذين كفروا؛ لأن الرسول أرسل إليهم منذراً لهم ليؤمنوا ويتقوا في حال التكليف وسعة الاختيار غير ملجئين، ولا في حال رؤيتهم للعذاب، وهذا ينتفي بنزول الملك، وتقلب الحال حال هلاك لا ينفع معها إيمان، ولا بقي معها للإنذار معنى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

فالملك لا ينزل إلا بما تقتضي الحكمة إنزاله به، ولا تقتضي الحكمة إنزاله لأجل اقتراح المتبردين الذين قد جاءتهم الآية البينة وهي القرآن فلم يؤمنوا، ولو نزل الملك ما آمنوا، إنما هم لاعبون متمردون، فلذلك لا تقتضي الحكمة إنزال الملك نذيراً مع محمد ﷺ إنما تقتضي لو أنزله الله أن ينزله بهلاكهم، وبذلك ينقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الله، وهذا



وَلَقَدْ آسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

معنى (قضي الأمر) أي انتهى الإنذار والدعوة إلى الإيمان ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ لأن العذاب يكون قد حضر مع الملك فلا يمهلون.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾

قال الشريفي في (المصابيح): «وما أحسن جواب الإمام القاسم بن ابراهيم عليه السلام عن من سألته عن معنى هذه الآية؟ فإنه قال: كانوا يقولون: لولا أنزل عليه ملك فيكون معه شهيداً فيشهد له برسالته بما ينكرون، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ يقول تبارك وتعالى: ثم لا يتركون ساعة ولا يؤخرون، فما ينفعهم إذا أخذوا أيمانهم بعد رؤيتهم للعذاب وعيانهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ ما أيقنوه إلا أن يروه رؤية ويعاينوه، وما كانوا ليروه عياناً إلا أن يجعله الله مثلهم إنساناً في الصورة والحلية وما للرجال من الهيئة لا في جميع حدود البشرية ولكنه في الرؤية والمنظر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ يقول سبحانه ولو فعلنا ذلك به فجعلناه رجلاً كما يعرفون، لزادهم لباساً إلى لبسهم، ولما أيقنوا أنه ملك في أنفسهم ولو نزلنا عليه الملك على حاله لما كان أحد منهم معانياً له ولا مدركاً... إلخ.

وأحاصل: أن الملك إن جاءهم على صفته الأصلية لم يروه، وإن كان رجلاً في صورته لم يؤمنوا أنه ملك، وكان الله تعالى قد لبس عليهم كونه ملكاً بجعله رجلاً، وهم لبسوا على أنفسهم ويلبسون عليها بطلب ملك مع إنكارهم المعجزات، حتى خذلوا وبعدوا عن الإيمان، بسبب تعنتهم وتمردهم، والرين على قلوبهم.





ومن كرمه ﴿كَتَبَ﴾ وأوجب على نفسه ﴿الرَّحْمَةَ﴾ فهو لا يعاجل العاصين، وهو يدعو إلى التوبة ويعد قبولها، ويحذر عباده نفسه، ولذلك أرسل الرسل رحمة للعالمين.

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ إلى موقف العرض على الله يوم القيامة وإلى ما يكون في يوم القيامة من الحساب والجزاء، فالجمع ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ جمعهم إلى ما فيه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الشَّرفي في (المصابيح): «﴿الَّذِينَ﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والمعنى: ليجمعن هؤلاء المشكرين الذين خسروا أنفسهم» انتهى.

وهذا عندي أحسن الأقوال فيها، فأول الآية احتجاج عليهم وآخرها تسجيل عليهم بالخذلان، وأنهم بسبب تمردهم وعنادهم قد خسروا أنفسهم، بأن فوتوا عليها سبيل السلامة، وسببوا لها الخذلان المؤدي إلى الخسارة الدائمة، فأول خسارتهم أنفسهم: بُغدهم عن قبول الحق بقسوة قلوبهم وكراحتهم للحق وتكبرهم عن قبوله، حتى لم يبقَ لهم صلاحية لقبوله وصاروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾ فلذلك كانوا قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في سبب الخسارة الدائمة بدخول النار، وترتب أنهم لا يؤمنون على خسارة أنفسهم بوقوعها في الخذلان الشديد والضلal البعيد.

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

﴿١٢﴾ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهذا يعم الأرض كلها، والآية الماضية تشمل ما في الأرض وما في السموات، ويحتمل: أن الليل والنهار يكونان شاملين للسموات والأرض - والله علم.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَكَنَ﴾ إما من السكنى، فيكون التعبير به لفائدة الليل والنهار لما اشتملا عليه لنفع الشمس فيما تظهر عليه، ثم نفع الليل فيما يأتي عليه بعد الشمس، فكانا للجماد وغيره بمنزلة المسكن الذي يتنفع به ساكنوه، وإما من السكون وهو بعيد؛ لأن الراجع: أن الأرض تتحرك جملتها بما فيها وإن كان أهلها لا يحسّون حركتها.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهو الحقيق بالعبادة؛ لأنه رب كل شيء، ولأنه الذي يسمع الداعي ويعلم عبادة من عبده، وهو الذي إليه يرجع العباد في الآخرة لأنه ربهم وحده ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم ﴿لَا يَفْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] وكل من في السموات والأرض عباده ليس لهم من الأمر شيء، وهو جامع عباده يوم القيامة ﴿لِتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥] لأنه ربهم فما في الآيتين دال على هذه المعاني كلها.

﴿١٣﴾ ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى أموري ويرعاني ويدبر مصالحتي ويدفع عني، ولا يكون هكذا إلا الله العالم بأحوالي، القادر على إصلاح أمري، السميع لدعائي، فأما غيره فإنه يجهل ويعجز وييخل، فكيف أتخذ غير الله ولياً؟!

عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ مَن يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾  
وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۚ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ

قال الشرفي في (المصابيح): «وإنما أولى غير الله (همزة الإستفهام) دون الفعل الذي هو ﴿أَتَّخِذُ﴾ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي» انتهى.

قلت: يعني أن محط الإنكار غير الله كيف يتخذ ولياً مع وجود ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ القادر على كل شيء العليم بكل شيء الذي ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو الوهاب الكريم، الغني الذي لا يحتاج، فهو الذي ينفع من اتخذه إلهاً يدعو ويرجوه لرعاية مصالحه.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فلا بد لي من إسلام وجهي لله قبل الناس كلهم، وهذا دليل على أهمية الإسلام لله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهم أعداء الله عباد الشيطان، فلا تكونن واحداً منهم، وفي هذا زجر للمشركين عن الشرك، حيث نهى أن يكون واحداً منهم، ولم يقل: ولا تشرك.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الذي أمرني أن أكون أول من أسلم ونهاني أن أكون من المشركين نهياً مؤكداً فإني أخاف إن عصيته في ذلك أو غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بسبب معصيته فالشرك قبيح من حيث هو اتخاذ غير الله ولياً، ومن حيث هو معصية لله، وفي هذا تحذير للمشركين، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٢٥] ووصف اليوم بأنه عظيم لما فيه من الأمور العظيمة.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾  
قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا

﴿١٧﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾  
﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ عذاب اليوم العظيم يوم إذ يأتي ذلك العذاب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله الرحمة العظمى؛ لأن النجاة من النار أهم ما يكون يومئذٍ ﴿وَذَلِكَ﴾ إي صرف عذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أو رحمة الله له هو ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ قال في (مفردات الراغب): «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» انتهى.

و﴿الْمُبِينُ﴾ البين، فهو ظفر بالخير عظيم بنفسه من غير شرط أن يصير إلى الجنة، إن كان قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ﴾ إشارة إلى صرف العذاب، فأما إن كان إشارة إلى رحمة الله، فيحتمل: أن جعله من أهل الجنة بعض هذه الرحمة.

﴿١٧﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ۖ إِلَّا هُوَ ﴿١٨﴾ وهذا دليل على أن شركاء المشركين لا تفيد شيئاً، وأن الله هو الذي يفعل ما يشاء، فهي لا تشفي مريضاً، ولا تؤمن خائفاً، ولا تنصر مقاتلاً.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِضُرٍّ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا راد لفضله، وهذه الآية تدعو إلى: عبادة الله وحده، والتوكل عليه، ورجائه وحده لكشف الضر وإبقاء الخير، وتشير إلى بطلان الشرك كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٢٣٨]  
﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا ممسك لما أعطى.



الْقُرْءَانُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾ قال الراغب في تفسير (المفردات): «القهر: الغلبة والتذليل معاً، ويستعمل في كل واحد منهما» انتهى، وفي (الصحاح): «قهره قهراً: غلبه، وفيه: وقهر غلب» انتهى. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لأنه مالکهم ومالک قواهم، وله الملك عليهم وعلى كل المخلوقات، وهو المحيط بقدرته وعلمه على كل قدرة وعلى كل معلوم، فقهره لعباده من حيث أنه فوقهم بملكه وملكوته ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في قهره فلا يظلم ولا يقهر قهراً يعارض مقتضى الحكمة ﴿الْخَبِيرُ﴾ فلا يغلط في قهره، بل قهره مطابق لمقتضى علمه ببواطن الأمور وحقائق الأشياء وبمقتضى الحكمة.

﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿١٩﴾ قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ ﴿أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أَىُّ شَيْءٍ أَصْدَقُ وَأَحَقُّ وَأَنْفَعُ شَهَادَةً؟!

وجواب هذا السؤال، وهو أن الله ﴿أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ جواب لا ينازع فيه خصومه الذين بلغهم آيات الله الدالة على صدقه وصدق إنذاره وصدق كل ما بلغهم عن الله، فالله شهيد له بإقامة الحجة عليهم، وقيامه بواجبه، وشهيد عليهم بالتمرد بعد بيان الحق من الله ربهم ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فراقبوه واتركوا الشرك والتكذيب وآمنوا.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ﴿لِأَنْذِرْكُمْ﴾ بما في القرآن من كلام الله ووعيده فاحذروا ما أنذرتكم، ولأنذر به من بلغه من العالمين، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].



الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ

﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ ﴿أَيُّكُمْ﴾

سؤال توبيخ على هذه الشهادة الكاذبة الآثمة ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما تشهدون.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْإِلَٰهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو الله، أما غيره فليس ياله ﴿وَإِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا﴾ تشركونه في الإلهية أنفي إلهيتهم، وأبرأ من عبادتهم، ولا صلة بيني وبينهم، بل هم عدو لي.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون (القرآن) أنه من الله أوحاه إلي، أو يعرفون أنه أوحى إلي هذا القرآن ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ تحقيق للمعرفة التي في قلوبهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: الذين أوتوا الكتاب فهم اليهود والنصارى، وهم يعرفون محمداً ﷺ، ويثبتون صفته، ويقفون على صحة أمره وما أمروا به من طاعته كما يعرفون أبنائهم مشروح ذلك في كتبهم مبين لهم، ولكن جحدوا ما عرفوا، وأنكروا ما علموا فضلوا وخسروا، ذلك هو الخسران المبين» انتهى.

قلت: عبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ لأن الكتاب الذي آتاهم الله - جل جلاله - هو سبب معرفتهم للرسول وما أنزل إليه أنه من الله تعالى، ويظهر أن القرآن يجعل القرآن والرسول كالشيء الواحد؛ لأن الإيمان بأن القرآن أوحاه الله إلى محمد يستلزم الإيمان بأن محمداً رسول الله، ولعله هو السر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا \* رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

وفي (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَلِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [آية: ٨٩] قيل كانوا يستفتحون يطلبون الفتح من الله أي الحكم بينهم وبين الذين كفروا بالنبي الذي يتوقع ظهوره، وفي آية في (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَلِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٠١] وكتاب الله هنا: (التوراة) أو (الإنجيل) أو هما، كأنهم لا يعلمون ما في كتاب الله وما في نبذه وراء ظهورهم، فهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وإذا جعلنا الضمير في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ لإيحاء القرآن إلى محمد ﷺ فلا التفات فيه، أما إذا جعلناه للرسول ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة أو من الخطاب إلى الغيبة، لابتداء الكلام بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وهذا أظهر.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حقت على أنفسهم كلمة العذاب؛ لأنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم قد خذلوا وسلطت عليهم الشياطين وكرهوا الحق وكرهوا النظر النافع وأعرضوا، فصار بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] فخسارتهم أنفسهم فسادها ومصيرها بحيث لا تصلح أبداً وحقت عليها كلمة العذاب.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ الراجع: أنه خبر لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ والمراد به: كفارهم المعاندون.

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ

﴿٦٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أَيُّ لَّا أَظْلَمُ مِمَّنْ وَقَعَ مِنْهُ إِحْدَى الْجُرِمَتَيْنِ اخْتِلَاقَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ أَيْ تَعَمُّدَ الْكُذْبِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وَكِلَا الْجُرِمَتَيْنِ وَقَعْنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لِأَن مَصِيرَهُمْ إِلَى الْعَذَابِ وَفَوَاتِ كُلِّ خَيْرٍ، وَهَذَا عَامٌ لِكُلِّ ظَالِمٍ، وَقَدْ يَعَجَلُ لِلظَّالِمِ بَعْضُ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وَهَذَا يَعْمُ الْمُفْتَرِينَ.

﴿٦١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وَاذْكُرْ لِبَيَانِ مَصِيرِ الْمُشْرِكِينَ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ وَالضَّمِيرُ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ وَالْمُفْتَرِينَ السَّابِقَ ذَكَرَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَمِيعًا﴾ أَيُّ مُجْتَمِعِينَ فِي مَوْقِفِ السُّؤَالِ ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَقَدْ عَايَنُوا أَهْوَالَ الْآخِرَةِ وَعَلِمُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ نَقُولُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَدْعُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ، وَذَلِكَ تَوْبِيخٌ لَهُمْ، وَتَنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ ضَلُّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾

إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٤﴾ وَهُمْ

﴿١٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿ثُمَّ﴾ بعد توبيخهم وامتحانهم بسؤال الله لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] لم يؤدِّ هذا الإمتحان إلا إلى قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فالفتنة: الإمتحان المذكور وكونه قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ تأديته إليه وتسبيبه له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

وحاصل المعنى: لم يجدوا جواباً عن هذا الإمتحان الشديد إلا جحد الشرك، والقسم بالله والإعتراف بربوبيته، وذلك لشدة الهول عليهم وانقطاع حجتهم.

﴿١٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ثُمَّ﴾ أَنْظِرْ ﴿ثُمَّ﴾ في حالتهم التي صاروا إليها من الذلة وسوء الحال التي أدت بهم إلى أن يقولوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿و﴾ انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا﴾ في الدنيا يفترونه، من دعوى نصر شركائهم لهم وشفاعتهم لهم، ونحو ذلك من افتراءهم، أي اختلاقهم وكذبهم المتعمد.

﴿١٤﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۚ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿و﴾ من المشركين من يستمع القرآن دانياً ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ليسمع لا رغبة في الحق، بل إما حبُّ الإطلاع لينظر كيف هذا القرآن وهذا في أول استماع، وحبُّ الإطلاع من غرايز الإنسان، وإما للتعجب من فصاحته وحسن بيانه وجمال أسلوبه.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب: «والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء، والجمع: أكنة» انتهى.

وهذا تمثيل كالحتم؛ لما أفسدوا قلوبهم وقد خلقها الله قابلة للصالح والفساد، وصاروا بذلك لا يؤمنون ولا يفهمون القرآن من حيث دلالة آياته على الحق؛ لكرهتهم لما هو ضد اعتقادهم ودينهم الذي زين لهم وتزيين الشياطين لهم الإعراض عن الإهتداء بالقرآن، صاروا كأن بينهم وبين فقه غوامضه ودلالاته النافعة أكنة تحول بين قلوبهم وبين فقهه.

وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى: الدلالة على أنهم مستحقون للخذلان؛ بتمردهم، مستاهلون لإرسال الشياطين عليهم عقوبة لهم على تمردهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فهو تعالى غير مبال بهم بل قد أراد خذلانهم، ولما كان خذلانهم كالسبب لبعدهم عن فقه القرآن بحيث أن قلوبهم حين خذلت تواردت عليها أسباب البعد عن الفهم حتى أشبهت ما عليه كنان حائل بينها وبين الفهم أقيم ذلك مقام الخذلان، فنسب إلى الله تعالى للدلالة على أنه غير مبال بهم، وعلى أنهم استحقوا الخذلان الذي صاروا من أجله لا يفقهون، والذي هو عقوبة لهم على تمردهم.

ونظيره ما يقال لمن أهمل ابنه وسهل له الحصول على ما يهواه وأهمله ولم يربه تربية الصلاح: أفسد ابنه، ومن فائدة هذه النسبة: تنزيه كلام الله عن مشابهة الشكوى، وأعظم من ذلك التحذير من الخذلان المؤدي إلى أن يصير القلب كأنه في كنان، وقد مرّ في تفسير ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] نحو هذا.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وجعلنا في آذانهم ﴿وَقْرًا﴾ أي ثقلاً يمنع السمع وهذا من المجاز واضح؛ لأنهم يسمعون ولكن لا يصغون له إصغاء راغب في الحق، بل يسمعونهم وهم له كارهون فشبهوا بمن لا يسمع كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريدُ

ولو كانوا لا يسمعون حقيقة ما كان للأكنة على القلوب معنى، وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ \* لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر: ١٢-١٣] فدلّ على أنهم يسمعون ويصل إلى قلوبهم، ولكنهم لا يقبلونه ولا يهتمون بهداه، فشبهوا بمن لا يفهم ولا يسمع، لحائل بينه وبين الفهم والسمع.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأن قلوبهم فسدت وصارت لا تقبل الآيات، كما ترى الطبيعي الملحد تذكر له دلائل الخالق فلا يقبلها كأنها لا تعمل في قلبه شيئاً، والمراد بفساد القلوب: فقدانها لصلاحية الإهداء بالآيات مع بقاء العقل والسمع والبصر؛ لأن نفوسهم تأباه وترده قبل أن ينتفع به القلب، مع بعده عن الإنتفاع بذهاب استعداد له.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لمدى بعدهم عن قبول الحق أنهم ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ يا محمّد وأنت مصدر الهدى جادلوك بشكل عجيب، هو مجرد الجحود وقول الزور الذي ليس له أي حجة، بل هو واضح البطلان؛ لأن القرآن مخالف لأساطير الأولين في المواضع وأحكام المواضع، حيث أنهم أرادوا بـ(أساطير الأولين) أكاذيب سطرها الأولون من المبطلين يتلهى بها السامعون ولا تفيدهم شيئاً، والقرآن ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]



يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

آيات محكمات نافعات بأدلة صحيحة تعرفها العقول، وحكم وإنذار وتبشير، وعلوم تخرج من اهتدى بها من الظلمات إلى النور، وأساطير: جمع أسطورة، والجدال: المجادلة أي المغالبة بالقول، قال تعالى: ﴿وَيُجَالِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُلْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿وَهُمْ﴾ أي المذكورون فيما مر كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فالضمير لهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿يَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ عن الذي يقولون فيه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولو كان أساطير الأولين لكان واضح البطلان ولما احتاجوا إلى النهي عن استماعه، ولكنهم حين استمعوه سمعوه قرآناً عجباً فنهوا عن استماعه حذراً من إيمان من يستمع وقلبه سليم، ونهيهم عنه من جملة جرائمهم المذكورة في هذه السورة؛ لأنه صد عن سبيل الله.

﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ يبعدون عنه، كراهة له بعد ما سمعوه ووجدوه كلاماً لا يطيقه البشر ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ بالنهي عنه والنأي عنه ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وبال ذلك عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بسوء عاقبتهم لكفرهم، ولا يضررون بجدالهم ونهيهم ونأيهم دين الله ولا القرآن ولا الرسول ﷺ وإن ظنوا أنهم بذلك يضعفون الحق؛ لأن الله يظهر دينه وينصر رسوله وكتابه، وما يشعر الكافرون المذكورون فهم يهلكون أنفسهم ولا يدحضون الحق وما يشعرون بذلك، أي ما يعلمون.

ثم بين تعالى بعض وخامة كفرهم وهلاكهم به فقال تعالى:

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا  
يُهْوَىٰ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِقَايَتِ رَبِّنَا  
وَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ حالهم بعد تكذيبهم وجرائمهم في الدنيا حين  
أشرفوا على دخول النار وعابوها فقالوا متمنين ﴿يَلَيْتُنَا نُرَدُّ﴾ إلى دار التكليف  
والعمل ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِقَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونَنَّ﴾ فيها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لنتجو من النار.

﴿٢٨﴾ ﴿بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿بَلْ﴾ تجلّت الحقيقة  
وكشف الغطاء وعلّموا علماً ضرورياً أن الحق هو الإيمان، وأن الباطل ما  
كانوا عليه، كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩] وقد كان هؤلاء المتمرّدون الذين فيهم السياق  
يعرفون الحق، كما قال في بعضهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]  
ولكنهم كانوا في غفلة وكبر وهوى حال بينهم وبين الإيمان، وكانوا يخفون  
معرفتهم؛ لأنهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَتَأَوْنَ عَنْهُ﴾ فكيف يعترفون به ولم يتمنوا ذلك  
الذي تمنوه رغبة في الحق ولكن حباً لأنفسهم وخوفاً من النار التي قد أشرفوا  
عليها - نعوذ بالله - فهم مجذّون في التمني.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا يُّهْوَىٰ عَنْهُ﴾ لأنهم يتبعون هوى أنفسهم، فلو  
﴿رُدُّوا﴾ ورجع الإبتلاء والاختبار لمالوا عن الحق لتلك الأسباب الأولى  
ولأملوا أنهم إن رجعوا إلى الله مرة أخرى ردهم إلى دار الخيار كما ردهم  
أول مرة فاتخذوها تجربة لإمكان الرد، أو أن بعضهم يؤمل أن سيتوب في  
آخر عمره حتى يحييه الموت وهو على كفره. والحاصل: أن الله علام  
الغيوب قد أخبر بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهو عنه، وهو أصدق القائلين.

بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٣٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٣٣﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَا عَلَىٰ مَا

﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ في زعمهم الذي يفهم من كلامهم أنهم لو ردوا لتركوا التكذيب بآيات الله ولأمنوا، وفي هذه الآية: دلالة على أن الكذب ما خالف الواقع وإن طابق الاعتقاد، وإنما لا يقال لبعض القائلين المعتقدين للصدق تأديباً وتجنباً للإيهام.

﴿٤٣٢﴾ وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٣٣﴾ وَقَالُوا عطف على أقوالهم التي مر ذكرها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا أي ليس بعدها حياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت كفرأ منهم بالبعث والجزاء، فبين الله عاقبة هذا الكفر بقوله تعالى:

﴿٤٣٣﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿٤٣٤﴾ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٤٣٥﴾ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٣٦﴾ فبين ذلتهم في الآخرة، وإقرارهم بالحق وقسمهم عليه بالله ربهم، ثم لم يفدهم ذلك شيئاً، بل قال تعالى لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ تفریعاً بـ(الفاء) على ما أقرؤا به ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهناك يندمون حين لا ينفع الندم، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟! إشارة إلى البعث وإرجاعهم إلى الله إلى موقف السؤال والحساب والحكم من الله فيهم.

فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا  
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا

﴿٦٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً  
قَالُوا يَحْسِرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا  
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٦١﴾ قَدْ خَسِرَ ﴿٦٢﴾ تحقيق لوقوع الخسارة العظمى، كقوله تعالى:  
﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ في تحقيق الرحمة العظمى، وهذه الخسارة  
عند بلوغهم غاية التكذيب بلقاء الله، وهي ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ﴾ فجأة  
﴿قَالُوا يَحْسِرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ انقلبت الحال في قدر لمح البصر  
وانكشفت الحقيقة بمجيء الساعة، فعند ذلك قالوا: ﴿يَحْسِرَتْنَا﴾ تحولوا من  
التكذيب بها إلى التحسر على ما فرطوا فيها.

والحسرة: الغم الشديد، قال في (لسان العرب): «وحسر، يحسر، حسراً،  
وحسرة: إذا اشتدت ندامته على أمر فاتته» انتهى باختصار، وقال:  
«والحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة  
فيه» انتهى، وقولهم: ﴿يَحْسِرَتْنَا﴾ كقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ فهو دعاء للحسرة  
والغرض تنبيه السامع، وذلك تقوية للدلالة على الحسرة وتنويه بها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال أبو عبيدة: يقال فرطت في الشيء، أي  
ضيعته، فقوله: ﴿فَرَطْنَا﴾ أي تركنا وضيعنا، وقال الزجاج: ﴿فَرَطْنَا﴾ أي  
قدمنا العجز، جعله من قولهم: فرط فلان إذا سبق وتقدم، قال الواحدي:  
فالتفريط عنده تقديم التقصير» انتهى، وكلام أبي عبيدة أقوى؛ لقوله تعالى:  
﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠] فالتفريط لا يختص بالعجز.

تَعْقِلُونَ ﴿٢٦﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي ذنوبهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ قد لزمتهم ذنوبهم لم تنفك عنهم ولم يستطيعوا طرحها عن ظهورهم على ثقلها وعارها عليهم ووبالها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ساء ما يحملون يومئذ في ذلك الموقف الشديد ساء ما يزررون ما أسوأه.

وقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع، ليصغي لهذه الجملة، فما أسوأ تلك الأحوال الثقيلة الوبيلة التي تؤديهم إلى نار جهنم، وهذا تمثيل لسوء حالهم في موقف السؤال والحساب بسبب ذنوبهم، فهم يتحسرون من تفريطهم في الساعة وهم يحملون ذنوبهم لا تنفك عنهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فلم يكن ينبغي لهم أن يؤثرها على الخذر من النار وعلى السعي للدار الآخرة؛ لأن أغراض الدنيا متهية بلا فائدة، فهي أشبه باللعب واللهو الذي لذته إنما هي في وقته ثم ينتهي بلا ثمرة. قال الراغب الأصبهاني: «اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه» انتهى، وصواب العبارة: ما يشغل به ليفيد الاختيار له ويخرج ما شغله اضطراراً كالوجع الشديد فلا يسمى لهواً، وعبارة (الصحيح): ولهوت بالشئ، الهو، لهواً: إذا لعبت به وتلهيت به مثله، وقال في (الصحيح): «وألهاه: أي شغله» انتهى، فجعل الشغل تفسير الإلهاء لا تفسير اللهو.

﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الدار الآخرة هنا: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا؛ لأن نعيمها دائم وسعادتها دائمة فلا قيمة للدنيا في جنبها، لأنها تقنى مع قلتها وما فيها من المنغصات والحن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حين تتركون الخير العظيم الدائم من أجل القليل الفاني، فمن شأن العاقل أن يتدبر العواقب ويختار الخير العظيم الدائم على القليل الفاني الذي يسبب له العذاب الدائم.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ من التكذيب بالآخرة وغيره، كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾. ﴿فَأَيُّهُمْ لَا يُكَذِّبُوكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ تَجْحَدُونَ﴾ قال الراغب: «الجاحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه» انتهى.

وفي (الصحيح): «الجاحود: الإنكار مع العلم، فالمعنى: أنهم ينكرون آيات الله الدالة على صدقك كالقرآن وهم يعلمون أنها آيات الله صدقك بها، فلا تحزن مما يقولون فإنهم ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أما على قراءة نافع [بسكون الكاف وتخفيف الذال] فالمعنى: لا يجدونك كاذباً؛ لأن آيات الله قد صدقتك وهم قد علموا أنها آيات الله.

وفي (الشافعية) لابن الحاجب و(شرح الرضي) عليها في معاني (أفعل): ولوجوده عليها أي لوجودك مفعول أفعل على صفة وهي كونه فاعلاً لأصل الفعل نحو: أكرمت فاربط أي وجدت فرساً كريماً، وأسمنت أي وجدت سميناً، وأبخلته أي وجدته بخيلاً» انتهى المراد.

وأما على قراءة ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ [بفتح الكاف، وتشديد الذال] فالمعنى: إنه تكذيب بالسنتهم وهم يعلمون أنك صادق فهو كلاً تكذيب؛ لأن الذي يهملك أن يعلموا أن الذي جئت به هو الحق من ربك، فقلوبهم مصدقة لك فلا يحزنك التكذيب بالسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي ولكنهم ﴿بَيَّاتٍ اللَّهُ تَجْحَدُونَ﴾ ولكنه أقام الظاهر مقام المضمّر لإفادة أن ظلمهم جرّاهم على هذا المنكر العظيم وأوردهم ذلك المورد الوخيم الذي لا يليق بعاقل منصف أن يرضاه لنفسه.



فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَتْنَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ  
وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْرُسَلِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ  
أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِغَايَةٍ وَلَوْ  
شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنَّمَا

﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا ۚ

﴿رُسُلٌ﴾ أرسلهم الله من قبلك ﴿فَصَبَرُوا عَلَى﴾ تكذيب المكذبين لهم وأذى  
الكافرين لهم ﴿حَتَّى أَتْنَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ كوعده رسوله  
بالنصر فلا مبدل لوعده؛ لأنه لا مبدل لكلمات الله، وهي نعم الوعد  
والوعد والحكم والقصص وغير ذلك فلا مبدل لها؛ لأنها صدق وعدل،  
﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْرُسَلِينَ﴾ مافيه لك تسلية وتشجيع على  
الصبر، ووعد بالنصر، ونحو ذلك.

﴿٢٥﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي  
الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِغَايَةٍ﴾ قال في (الصحيح): «والنفق:  
سرب في الأرض له مخلص إلى مكان» انتهى، وقال الراغب: «والسُّلَّم ما  
يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما  
يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب» انتهى المراد، وفي (الصحيح): «السلم  
واحد السلالم التي يرتقى عليها» انتهى. ولم يزد: ثم جعل اسماً.. إلخ.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام، هذا تسهيل من الله  
سبحانه على نبيه ﷺ لِمَا عَلِمَ مِنْ غَمِهِ بِإِعْرَاضِ الْخَلْقِ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ  
وَمَعْصِيَتِهِمْ لَهُ وَخَالَفَتَهُمْ لِحُكْمِهِ، فَلَمَّا كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَظَمَ عِنْدَهُ

إِعْرَاضُهُمْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ مَا يَرَى مِنْ شَرَارَتِهِمْ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أَي عَظُمَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُ الْمُشْرِكِينَ وَعَدَمُ إِيمَانِهِمْ وَتَوَهَّمْتُ لِرَغْبَتِنَا فِي إِيمَانِهِمْ أَنْ كَثُرَ الْآيَاتُ تَوَثَّرَ فِيهِمْ ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يَقُولُ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ وَهَذَا غَايَةُ الْإِجْتِهَادِ فِي الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ جِئْتَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ بِمَا فِي أَقْلٍ مِنْهُ يُوْمِنُ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ مَعْرِفَةٌ، وَلَمْ تَتْرِكْ غَايَةَ فِي حِرْصٍ وَنَصِيحَةٍ وَاجْتِهَادٍ أَوْ مَوْعِظَةٍ، فَمَا تَرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ وَلَيْسَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا مَا قَدْ فَعَلْتَ» انْتَهَى الْمُرَادُ.

وَقَوْلُهُ: وَتَوَهَّمْتُ لِرَغْبَتِنَا فِي إِيمَانِهِمْ، أَقُولُ: أَظُنُّ الْأَصْلَ لِرَغْبَتِكَ فِي إِيمَانِهِمْ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِيمَانِهِمْ، فَالرَّاجِحُ أَنْ قَوْلُهُ: لِرَغْبَتِنَا، تَصْحِيفٌ مِنْ بَعْضِ النَّسَاجِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَاءَ أَنْ يَتْرَكَهُمْ وَشَأْنَهُمْ؛ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْخِذْلَانَ مَعَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى؛ لِأَنَّهُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى إِظْهَارَ دِينِهِ وَنَصْرَ رَسُولِهِ، فَكُلُّ أَمْرٍ وَأَمْرِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَلَا تَبَالُ بِهِمْ.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بِمَحَاوَلَةِ أَنْ يُؤْمِنُوا أَكْثَرَ مِمَّا قَدْ فَعَلْتَ أَوْ بِالطَّمَعِ فِي أَنْ يُؤْمِنُوا وَهُوَ طَمَعٌ فِيمَا لَا يَكُونُ أَوْ بِمَحَاوَلَةِ الْإِثْيَانِ بِأَيَّةٍ كَمَا يَقْتَرِحُونَ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَأْبَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَ مَا اقْتَرَحُوهُ.

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

قال الشريفي في (المصابيح): «وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة، كما أن قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١٠] لا تدل على أنه ﷺ أطاعهم وقبل دينهم.. إلخ.

قلت: يعني أن النهي لا يدل على أنه يقع منه المنهي لولا النهي، ولقائل أن يقول: أن ذلك النهي من التثبيت والعصمة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ بُشِّنَاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فليس معنى العصمة استغناءه عن النهي والتحذير.

﴿٦٠﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٦١﴾ و ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هم الذين يريدون الحق، فهم الذين يسمعون سماعاً يعتد به لأنه السماع الذي يتفجعون به، أما المعرض الكاره للحق فهو وإن سمع فسماعه كلا سمع؛ لأنه معرض عن طلب الحق وكاره، فالذي يسمع سماع طلب للصواب، هو الذي يستجيب لله ورسوله، أما الكاره للحق المعرض عنه المخدول فهو كالميت الذي لا يسمع، فقراءة القرآن عليه بمنزلة درس عند ميت، ولكن عاقبته أن يبعثه الله من الموت الحقيقي، ثم إلى الله وحده يرجع ليحاسبه ويوفيه حسابه، وهناك يسمع حين لا يفيد السمع شيئاً.

﴿٦١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴿٦٢﴾ أَي هَلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿٦٣﴾ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴿٦٤﴾ إِنْ كَانَ أَرْسَلَهُ كَمَا يدعي، وهذا من كفرهم بآيات الله، واعتبارهم لها أنها ليست آيات، وقد رد الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَרَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۚ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُنْزِلْهُ

﴿قُلْ إِنْ أَلَّهِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾  
 ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهِ قَادِرٌ﴾ فلم يترك ذلك، إلا لأنه قد بين صدق الرسول ولا تقتضي الحكمة إجابته إلى ما تقترحون، ولولا ذلك لنزله، لأنه قادر على تنزيله، ولكن أكثر هؤلاء الكافرين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على ذلك لجهلهم بالله واستبعادهم لقدرته سبحانه على ما يقترحون.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ﴾  
 هذا بيان لقدرة الله وسعة علمه تعالى بأن جعل كل دابة تدب في الأرض أمماً كل نوع منها أمة، وجعل سبحانه كل ﴿طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ صغيراً أم كبيراً أمماً كل نوع أمة يجمعها تدبيره لمعاشها وما يتوقف عليه من كمال خلقها الذي به صلحت للمعاش وتدبيره تعالى لتناسلها وتقديره لأعمارها وتدبيره لأسباب سلامتها من أضدادها فيما قدر من حياتها:

فمنها: ما يستطيع الدفاع عن نفسه بما خلق له من آلة الدفاع وقوته، ومنها: ما هو سريع الفرار والاختفاء، ومنها: ما بيته ضيق لا يتسع لضده، ومنها: ما يحتاج للسلامة بإيهام أنه قد مات كما يفعل الثعلب، أو بإعداد مخرج من بيته للفرار من غير بابه كما يفعل اليربوع، أو بالسكون مكانه كما تفعل الدويبة الصغيرة التي تدل عليها حركتها فإذا سكنت اختفت.

فهذه الأنواع وسائر أنواع الحيوانات والطيور لكل منها تدبير معيشتها ورعايتها، لا يخفى على الله تعالى ولا يشغله شأن عن شأن، فهي في رعايته سبحانه كما الإنسان في رعايته على كثرة الأنواع، ولكل نوع ما يختص به

من العادات المعيشية وطلب الرزق والمسكن والمحافظة على الحياة، فهو أمة وحده لاجتماعه على ما خصه من بين سائر الأنواع.

قال في (الصحيح): «والأمة: الجماعة - ثم قال -: وكل جنس من الحيوان أمة» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما... إلخ. وقوله تعالى: ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾ أي في أن كل أمة لها أسباب معيشتها ولها خلقها ورزقها ورعايتها وآجالها وغير ذلك.

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال في (البرهان): يعني من أمور الدين إما مفصلاً يستغني عن التفسير أو مجملأ جعل إلى تفسيره سبيلاً، قال الحسين بن القاسم رحمته الله: معنى ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي لم نتوان في شيء في الكتاب ولكننا جعلنا فيه أصول جميع الأسباب، ولم نتوان في الخبر عن رحمتنا حتى ذكرنا البهائم والطير والدواب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون في ذلك اليوم إلى الله وينشرون» انتهى.

قلت: والحشر في هذه الآية: إحياء الحيوانات والطير، وسوقها إلى حيث تجمع لإعطاء كل منها ما يستحقه، بسبب ما لحقه في الدنيا من مشقة أو ألم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه تنزيل الحيوانات والطير منزلة العقلاء، ولعل السرف فيه أنها حين تحشر تعطى من الفهم ما تعرف به عدل الله في قضائه، وأنها قد وُفيت ما تستحقه من الأعواض والأجور على ما سخرت له من نفع الإنسان وغيره، وعلى ما ألهمت من ذكر الله ونحوه، وقد قيل: إن لها تكليفاً بقدر معين تفهمه - والله أعلم.



يَشَاءُ تَجْعَلَهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ

﴿٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴿٧﴾ لَمَّا كَانُوا لَا يَتَنَفَّعُونَ ببيان الله لهم ورده لأقوالهم الباطلة بما ينفع من يقبل الحق، شبههم بالصم الذين لا يسمعون، وأضاف تشبيههم بالبكم الذين لا ينطقون؛ لأنهم لا ينصفون فيعترفوا بالحق عند وضوحه، بل هم عن ذلك كالخرس.

ثم قال: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ بدلاً من تشبيههم بالعمي، فدل على أنهم لا يبصرون الحق، بسبب ما هم فيه من ظلمات الباطل التي تحول بينهم وبين الرؤية للحق، مثل: الكبر، والحسد، وحمية الجاهلية لأبائهم المشركين، ولما يعبدونه من دون الله، ومثل: عقائدهم التي استمروا عليها وتعصبوا لها، ومثل: هواهم فيما ورثوه عن آبائهم وما نشأوا عليه.

﴿مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءِ تَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومشـيئته سبحانه ليست مشيئة شهوة؛ لأنه لو أراد إرادة الشهوة لعمت إرادته كل مشتهى بل كل شيء؛ لأن ذاته لا نسبة بينها وبين شيء دون شيء، بل ذاته مخالفة للأشياء كلها، فليس كالمخلوق الذي جعلت له شهوة فيما يكمل معيشتة واستمرار وجوده فإما أن يشتهيها كلها، وإما أن يستغني عنها كلها، فلما رأينا الأشياء تنقص وتتغير والأحياء تموت بعد تمام خلقها، علمنا أنه غير محتاج إليها؛ لأنه لو كان محتاجاً إليها لحافظ عليها، ولما جاز عليه تغير الحاجة، لأنها لو كانت لكانت ذاتية توجد ما دامت الذات.

فدل ذلك على أنه غير محتاج إلى شيء منها، وأنه غني عما خلق كله كما هو غني عما لم يخلق، وإذا ثبت أن مشيئته ليست مشيئة شهوة لم يبق إلا أنها مشيئة الحكمة، وليس من الحكمة إضلال عبده وهو يدعوه إلى الهدى وهو



مستعد للإجابة، ولم يسبق منه ما يستحق به الإضلال، فدل ذلك على أنه لا يشاء الإضلال إلا على ما تقتضيه الحكمة، وهو الإضلال لمن استحق الإضلال؛ بتمرده عن قبول الحق بعد بيانه، الإضلال الذي لا يسلب الاختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة؛ لأنه لو سلبه الاختيار والتمكن من الفهم والطاعة لرفع عنه التكليف، ولما عاقبه على ما صدر عنه في حال الإضلال؛ لأنه حكيم وهو ﴿يَالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] و﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسُ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فما هو الإضلال الذي لا يسلب الاختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة، وقد استحقه العبد بتمرده؟

قلنا: قد بينه الله تعالى في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ولم يقل: إنه يخلق الضلال، أو يسلب الاختيار، أو يسلب قدرة الفهم والطاعة، وإنما هو جعل صدره ضيقاً فإذا ضاق صدر العاصي بسبب عصيانه وتمرده كان هواه في ترك ما ثقل عليه فاتبع هواه كما اتبع هواه قبل الإضلال، فلما اتبع هواه كان قد أضله هواه عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وجعل صدره ضيقاً بسبب تمرده وإن كان منسوباً إلى الله، فيمكن مع ذلك أن له نسبة إلى العاصي من حيث أنه عود قلبه اتباع الهوى وترك ما كلف، حتى أثرت العادة في قلبه فصار الحق عليه ثقیلاً، وهذا الثقل النفسي هو سبب ضيق الصدر؛ لأنه مفطور على تأثره بالآثار النفسية، وعلى هذا تكون العقوبة بخذلانه عند تصرفه المفسد لقلبه وترك لطفه؛ لأنه استحق الخذلان - وبالله التوفيق.

فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَوْلَا إِذْ

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ترغيب كامل في التعرض لهداية الله تعالى؛ لأنها هداية يكون عندها ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بسبب حبه للإيمان، وانسراح صدره للإسلام، فإذا عاين الصراط المستقيم سار فيه بغير تردد ولا تراخ، فاعتبرت هدايته جعله على صراط مستقيم لأنها سببه. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿أَغْيَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم الشرك، فإذا كنتم عند هول العذاب أو الساعة لا تدعون غيره، تبين: أن إشراككم ليس عن اعتقاد أن شركاءكم يسمعون دعاءكم ويكشفون عنكم الضر، وإنما هو التقليد الأعمى والتعصب.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي بل الله وحده تدعون لكشف الضر ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ ولا يشاء كشف الساعة ولا كشف العذاب إذا كان قد نزل وعاینوه، ولكنه قادر على ذلك فلو شاء لكشفه، فهي تدل: على أنه هو الذي يسمع الدعاء، ويكشف العذاب إن شاء؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠٠] فهو الذي ينبغي أن يدعى ويخشى ويرجى ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ لاشتغال أذهانكم بطلب النجاة من يقدر عليها ويسمع الدعاء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال في (الصحاح): «البأساء: الشدة» انتهى، وقال: «والبأساء، والضراء: الشدة» انتهى.

جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ

قلت: لعل في مفهومها اختلافاً، باعتبار البؤس في البأساء أي هو يقابل النعمة، واعتبار الضر في الضراء - والله أعلم.

وفي التعبير بأخذهم دلالة على عظم المصيبة وقهرها لهم واستيلائها عليهم، بحيث عجزوا عن دفعها واستسلموا لها، وذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الله إذا علموا أن سببها هو الكفر، فيؤمنوا برسولهم، والتضرع التذلل الذي هو ضد التكبر وإذا تركوا الكبر وتذللوا لله آمنوا.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ لأن الشدة هي من الله، فهلا تضرعوا إليه حين جاءت، لأن من شأن العاقل طلب النجاة إذا أمكن، وهو ممكن بالتضرع ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم تؤثر فيها الشدة لتلين وتذل لله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ما تكرر منهم وألفوه من الشرك وسائر الباطل وتزيين الشيطان لهم: وسوسته لهم بما يرغبهم فيما هم عليه حتى يرغبوا فيه، فيكون في رأيهم حسناً لأنفسهم له ورغبتهم فيه، فاستحسنوه استحسنان النفس لما تستهيه، فلم يتضرعوا بل تحملوا الشدة وصبروا عليها.

والفرق بين البأس هذا والعذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّوْءِ﴾ أن البأس هذا لم يبلغ بهم الخوف الشديد الملجئ إلى الرجوع الذي يكون عند ظن الهلاك، فلذلك تحملوه وصبروا عليه إصراراً على كفرهم.

﴿قَطَعَ دَايِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وهو البأساء والضراء التي أخذهم الله ليتذكروا، ومعنى نسيانهم: غفلتهم عنها، من حيث هي تذكير لهم وعدم تذكُّرهم بها وإعراضهم عنها من حيث هي تذكير لهم حتى كأنهم نسوها حقيقة، ومنه قوله تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ﴾ أبواب النعم المختلفة بتيسير أسباب الثمار والمراعي، وازدهار التجارة ونمو الإقتصاد، وكثرة الأنعام والدواب، وأسباب توفر المأكول والمشروب على اختلاف أنواعهما، وأسباب اللباس والفراش، وغير ذلك كالصحة والقوة والأمن، فقوله تعالى: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعم أسباب مطالبهم المعروفة في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالى في الحرم: ﴿تُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الفصل: ٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ﴾ إشعار بإتيان الأسباب ونزولها عليهم بغزارة، وإقبال الخير شبه نزول الأمطار، ولما كان هذا الإقبال فتنه واختباراً ناسبه أن يقول عليهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال في (المصابيح) - ونعم ما قال - : «ومعناه: حتى إذا تقلبوا في ضروب النعم وتصرفوا في أنواع اللذات واطمأنوا بها وركنوا إليها، أخذناهم» انتهى المراد.

وأخذ الطمأنينة والثقة في معنى الفرح، وأنه ليس مجرد السرور هو الظاهر من تأمل مواقعه في القرآن؛ لأن الفرح بالدنيا مذموم والفرح بنصر الله غير مذموم، والفرح بما أنزل الله من الهدى مأمور به.

والفرق: أن الإطمئنان إلى الدنيا مذموم لأنه اغترار، والإطمئنان إلى الدين حق وصواب لأن عاقبته محمودة محققة.

وحكى الشرفي في (المصاييح) عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي - في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] قال: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] من العوافي والنعم التي لا توجب الفرح بها لفنائها وقلة بقائها» انتهى.

فهذا يفيد: أن توقع زوال النعمة ينافي الفرح بها، فيدل على أن الطمأنينة إلى الشيء لازمة للفرح به، مع أن الإنسان مجبول على السرور بحصول ما يحتاجه، وإن كان يعلم أنه لا يدوم، فظهر الفرق بينهما.

وقوله تعالى: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ عذبتهم فجأة لم يكونوا يتوقعون العذاب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ المبلس: المتحير في المخرج مما هو فيه، وفي تفسير المرتضى الذي حكاه الشرفي في (المصاييح): «والمبلس: فهو الذي ليس له ولا في يده شيء، العادم لما كان معه، الآيس مما كان يؤمله فدامت حسراتهم... إلخ.

وفي (الكشاف): «واجمون متحسرون آيسون» فزاد الوجوم: أي السكوت، وفيه نظر، لأن الله تعالى قال في (سورة الأنبياء): ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ \* فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿[الأنبياء: ١٤-١٥] فإن أراد ساكتون بالموت فهو خلاف الظاهر، لأن الموتى لا يوصفون بالتحسر واليأس، فالأولى: أن الإبلas عند العذاب وتحقق الهلاك، ففجأة العذاب تبعتها فجأة الإبلas.

يَأْتِيَكُمْ بِهِ ۖ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَتْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ

﴿٤٦﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ هلكوا كلهم لم يبق لهم عقب بسبب عموم العذاب لهم كلهم، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أقيم مقام الضمير أي دابرهم وهو يفيد أن هلاكهم بسبب ظلمهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أهلكهم وطهر الأرض منهم لينقطع ظلمهم وفسادهم، لأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المالك لهم المدبر لأموالهم ولإظهار الحق ونصره بتدمير أعدائه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ ﴿خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى لا تفهم شيئاً؛ لأنها مسدودة بالختم، وهذا تمثيل لمنع الفهم، فالله تعالى هو القادر على ذلك، وشركاء المشركين لا يقدرُونَ على تعويض ما أخذ أو فتح ما غلق، وقوله تعالى: ﴿يَهْ﴾ أي بالفائت المدلول عليه في الكلام، فالذي يملك السمع والأبصار والعقول، هو الذي يستحق العبادة؛ لأنه المالك المنعم لا من لا يقدر على ذلك فلا معنى لعبادته بل هي عين الباطل.

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿أَنْظِرْ﴾ فكّر  
﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على بطلان الشرك وعلى صدق القرآن والرسول ﷺ نأتيهم بآية، ثم نأتي بأخرى من معنى آخر، ثم نأتي بأخرى كذلك آيات متنوعة متعددة، ومن حيث تنويعها باعتبار معانيها سمي تصريفاً مثل ﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ [البقرة: ١٦٤].



الظَّالِمُونَ ﴿٤٤٨﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٤٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

﴿ثُمَّ﴾ بعد تصريح الآيات لهم ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ قال الراغب: «صدف عنه: أعرض إعراضاً شديداً» انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يعرضون» انتهى، ومثله في (الصحيح) ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ أي المشركون ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بعد تصريح الآيات، يستمرون على إعراضهم كلما جاءتهم آية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قال تعالى في هذه ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وفي التي قبلها ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ ولعل وجه الحكمة: أن لفت أنظارهم في الأولى إلى قدرة الله ونعمته وعجز شركائهم، وفي هذه الآية لفت أنظارهم إلى أنفسهم كيف يصنعون إن أتاهم ﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾ وهم على ظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ يصور لهم حالة نزول العذاب حين ينزل إما بشدة المباغتة وإما بهول المجاهرة ومعانيته عند نزوله حتى وصوله لا يستطيعون دفعه ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ أي بالعذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي فلم يأتكم إلا لأنكم ظالمون فأنتم الذين سببتم لإتيان العذاب بإصراركم على الظلم والإعراض عن آيات الله.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فالرسل كلهم جاؤوا الأمم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن وأصلح ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن كفر ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالرسل وما جاؤوا به ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وعمل صالحاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بل هم آمنون في الآخرة مستبشرون.

يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ

﴿١٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فلم يؤمنوا برسولهم ﴿يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يباشرهم العذاب بسبب ما كانوا في الدنيا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ أي ما تكرر من فسقهم كله، يؤاخذون به كله أوله وآخره.

﴿١٧﴾ ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ في قلبي إني رسول الله إليكم ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ من الأموال وما يحتاج الناس إليه فهي بيدي فإذا لم أدع هذا، فليس لكم أن تقترحوا علي ما ليس في وسعي، بل عليكم أن تنظروا في دلائل صدقي.

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي وقل لهم: ﴿لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وهذا أقوى من نفي دعوى علم الغيب، وهو عام يخصه ما أوحاه إليه ليلغيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفَهُ رَصَدًا \* لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أُنْزِلُوا رِسَالَاتٍ رَبِّهِمْ..﴾ [الحج: ٢٦-٢٨] وذلك لأن الآخرة غيب والجنة والنار والملائكة كل ذلك غيب بلغته الرسل إلى أمهم ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فليس لكم أن تكذبوا رسالتي، بدعوى أنني بشر أكل الطعام وأمشي في الأسواق ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فأقول ما أمرني الله به، لا أتبع غير وحيه.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فالؤمن المتبع لما أوحاه الله كالבصير، والكافر كالأعمى، ومن تفكر واستعمل عقله علم أن البصير أعرف بالهدى من الأعمى.

﴿١١﴾ أَنْ تُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ ۚ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۚ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

﴿١١﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ ۚ أَيُّ بِمَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ يَتَّقُونَ بِالْإِنْذَارِ، لَأَنَّكَ إِذَا أَنْذَرْتَهُمْ خَافُوا أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ وَيَحَاسِبَهُمْ وَيَجْزِيَهُمْ بِمَا عَمَلُوا ﴿١٤﴾ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴿١٥﴾ أَنْ تُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿١٦﴾ فِي حَالِ أَنَّهُمْ ﴿١٧﴾ لَيْسَ لَهُمْ ﴿١٨﴾ مِنْ دُونِ رَبِّهِمْ ﴿١٩﴾ وَلِيٌّ ﴿٢٠﴾ يَتَوَلَّىٰ أُمُورَهُمْ وَيُدَبِّرُ مَا يَصْلَحُ شَأْنَهُمْ ﴿٢١﴾ وَلَا شَفِيعٌ ﴿٢٢﴾ يَتَدَخَّلُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ بِشَفَاعَتِهِ فَيَصْرِفُ عَنْهُمْ الْعِقَابَ، وَقَوْلُهُ: ﴿٢٣﴾ مِّنْ دُونِهِ ۚ أَيُّ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ يَحُولُ دُونَ جَزَائِهِمْ، فَهُمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ بِالْإِنْذَارِ، أَنْذَرَهُمْ بِالْقُرْآنِ ﴿٢٤﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ الْعَذَابَ، وَالْإِنْذَارُ بِالْقُرْآنِ: تِلَاوَةُ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ، وَتَقْيِيدُ الْإِنْذَارِ بِهِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبِيَّ إِذَا سَمِعَهُ عَرَفَ أَنَّهُ خَارِقٌ فِي إِحْكَامِهِ وَحَسَنُ نِّظْمِهِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، فَالْإِنْذَارُ بِهِ إِنْذَارٌ مَّقْرُونٌ بِالْحُجَّةِ. ﴿٢٦﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۚ لَا تَطْرُدُهُمْ مِنْ عِنْدِكَ كَمَا أَرَادَ الْمُتَكَبِّرُونَ الْمُحْتَقِرُونَ لَهُمْ، وَالِدَعَاءُ: طَلَبُ الْحَاجَاتِ مِنَ اللَّهِ، وَالرَّغْبَةُ إِلَيْهِ فِي قَضَائِهَا، وَ(الْغَدَاةُ): أَوَّلُ النَّهَارِ، وَأَمَّا ﴿الْعَشِيِّ﴾ فَقَالَ الرَّاعِبُ: «العشي: من زوال الشمس إلى الصباح».

وفي (لسان العرب): «وأما العشي، فقال أبو الهيثم: إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ دَعِيَ ذَلِكَ الْوَقْتُ الْعَشِيَّ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَصَلَاتَا الْعَشِيِّ هُمَا الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: يَقَعُ الْعَشِيُّ عَلَى مَا بَيْنَ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ غُرُوبِهَا كُلِّ ذَلِكَ عَشِيٍّ، فَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ فَهُوَ الْعِشَاءُ، وَقِيلَ: الْعَشِيُّ: مَنْ زَوَالَ الشَّمْسِ إِلَى الصَّبَاحِ» انتهى باختصار.

وقد جاء في روايات (حديث الغدير): وراح يصلي عشية. مع وصفهم تلك الحال بشدة الحر، فالراجح: أن العشي من زوال الشمس، وأما آخره فإما الغروب، وإما بعد ذلك.

والآية الكريمة تفيد: أن المذكورين يكثرون ذكر الله في أوقات الفضيلة، وقد جاء في الغداة روايات كثيرة تدل على فضل الذكر فيها، وجاءت روايات في فضل الذكر بعد العصر إلى غروب الشمس، فأما الذكر من بعد الزوال إلى بعد العصر فلعله في الصلوات وأدبارها.

وأما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فالراجح في معناه: يريدون التقرب إليه، والتوسل إلى رضوانه، لأن الراضي يقبل على المرضي عنه بوجهه، كما أن الساخط يعرض عن المسخوط عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] وهو تعبير عن الغضب عليهم، فأرادة وجهه: إرادة نظره إلى عبده أي رضوانه، وقد قال أولاد يعقوب: ﴿لْيُؤَسِّفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَنَا..﴾ إلى قولهم: ﴿..أَقْتُلُوا يُؤَسِّفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ﴾ [يوسف: ٨-٩] يريدون نظره بوجهه إليهم وحدهم، كناية عن حبه لهم وحدهم، وليس بمعنى الذات.

فالمعنى في الآية هذه وأمثالها: خلوص النية للتقرب إلى الله وطلب رضوانه، ليس لهم غرض دنيوي لا رياء ولا سمعة ولا غير ذلك، فهم أهل للتقريب والإكرام لا للطرود والإبعاد.

قال الشرنبلالي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى عليه السلام: «ومحمد عليه السلام، فلم يطرد أحداً، وإنما قالت له قريش لما دعاهم إلى الله سبحانه، فقالوا: كيف تؤمن يا محمد وقد سبقنا من ليس له قدر فينا ولا رئاسة من أوساط الناس

وأتباعنا، فاطردهم فإن طردتهم آمنا بك، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، تعريفاً لهم ورداً عليهم، وأمر بخلاف قولهم، وشهد الله سبحانه لمن اتبع رسوله بالدين وإخلاص النيات، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فأخبر أنهم يقصدون ويطلبون ما عنده، فكان هذا مدحاً لهم وثناء عليهم» انتهى المراد.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ وهذا وجه آخر للنهي عن طردهم يفيد: أنه لا يحتاج إلى طردهم؛ لأنه لا يحاسب بعملهم ولا يحاسبون بعمله، وهو يشير إلى أن ضعف الإنسان وحقارته ليس لقلة ماله أو رجاله، إنما هو لقلة عمله الذي يستحق به المدح والثواب، أو سوء عمله الذي يستحق به الذم والعقاب.

وهؤلاء الذين نهيت عن طردهم سواء كان عملهم صالحاً أو سيئاً ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بسبب مجاورتهم، فلا حاجة إلى طردهم لأجل أعمالهم التي لا تعلمها، وإنما ترى منها خيراً، وكذلك لا ينالون بمجاورتك شيئاً من حسابك يصير عليهم فينقصوا عليك من حسناتك، ولهذا فلا حاجة لك في طردهم، وفيه - أيضاً - إشارة إلى أنه لو حسن طردهم لما حسن إلا لحاجة النبي ﷺ خاصة لا لإرضاء الكفار المتكبرين، فلا يتصور وقوعه من الرسول ﷺ ولذلك لم يذكر.

والحاصل: لا تطرد الذين يدعون ربهم المذكورين ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ﴾ منصوب في جواب النهي، يفيد: أنه لو طردهم لكان من الظالمين، وحاشاه ﷺ من أن يطرد المؤمنين أو يكون من الظالمين، ولكن هذا ردُّ على المتكبرين كما أفاده المرتضى عليه السلام، وبيان لقدر المؤمنين عند الله وكرامتهم.

لَيَقُولُوا أَهْتُولَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهْتُولَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ﴾ كذلك الفتن الذي فتنا المستكبرين من قريش بالمؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم، كذلك الفتن فتنا بعض الناس ببعض امتحناً بعض الناس ببعض، يمتحن الكبراء أو المستكبرين بالفقراء والمستضعفين، وفي كلام الإمام علي عليه السلام في الخطبة (القاصعة): «فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون بن عمران عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب إعظماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه... إلخ .

هكذا يتلى من يراه الناس عظيماً بمن يرونه حقيراً، ولعل مثل هذا وقريباً منه يحدث لغالب كبراء الناس من الرؤساء والعلماء ومشائخ القبائل وكبار الأغنياء وغيرهم، فنسأل الله الثبات على الحق.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُوا أَهْتُولَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ﴾ امتحناهم ليظهر ما يكون منهم عند الفتنة، وقولهم: ﴿أَهْتُولَاءِ﴾ سؤال احتقار للمشار إليهم لنفي أن يمين الله عليهم ويختارهم من بين المستكبرين يريدون ﴿لَوْ كَانَتْ﴾ ما عليه المستضعفون ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١] لأننا أحب إلى الله منهم، ولذلك يعطينا ويمنعهم، ونحن أحق منهم أن يمين الله علينا لو كان خيراً ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فهم أحق بالنعمة لا الكافرون.



عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّيَسْتَبِينَ سَبِيلُ

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُوا أَهْتُولَاءُ﴾ التعليل من المتشابه، ومثله متعدد في هذه السورة، والأقرب في تأويله: أن المراد بيان علم الله سبحانه بما يكون منهم عند الفتنة قبل أن يفتنهم، فلما جعلوا الفتنة سبباً لهذا القول وترتب القول على الفتنة وهو سبحانه يعلم ذلك من قبل، كان كأنه فتنهم ليقولوا، فهو مجاز عن علم الله به وعدم مبالاته به، حتى كأنه مقصود - والله أعلم.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا يَبَيِّنَاتَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا يَبَيِّنَاتَا﴾ يعم كل مؤمن، ولا يخص الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تكريم لهم وتأمين ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أوجب على نفسه، تحقيق للرحمة أنها واقعة لهم على كل حال، لكن إذا عمل أحدهم ﴿سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ فالرحمة له من بعد التوبة والإصلاح، وهي بشرى بقبول توبته والمغفرة لمن تاب وأصلح كلما عمل سوءاً، وقوله: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ كالقيد الواقعي، لبيان أن ذلك لا يليق بالمؤمن وأنه يكون جهالة بمعنى سفاهة وقع فيها، بسبب غفلته وذهوله عن الإيمان، ومفارقتها عند غلبة غضبة أو شهوة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح ما أفسد لأن عامل السوء قد يكون أفسد بل ذلك كثير في معاصي المعاملة والغيبة والنميمة والكذب وأذى المسلم وغير ذلك، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا﴾ [البقرة: ١٦٠] وهذا أظهر من تفسيره بإصلاح العمل؛ لأنه يقال فيه: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢] والله أعلم.

﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا  
لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يفيد: أنه يغفر للتائب ويرحمه، لأنه  
﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو تأكيد للوعد.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾  
التفصيل الكامل المبين للمعنى ﴿نُفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ فلا يصح دعوى: أن القرآن  
رموز لا يفهما إلا الإمام أو الشيخ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرئ برفع  
﴿سَبِيلُ﴾ على أنها فاعل (تستبين) أي تتبين، وقرئ بنصب ﴿سَبِيلُ﴾ على أنها  
مفعول به، أي تستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، والمجرمين هنا ظاهر في الذين  
هم ﴿يُرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ والذين هم ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ وأمثالهم ممن مر  
ذكرهم في السورة، التي تبين فيها سوء سبيل المجرمين وضلالتها، وأنها سبيل  
العذاب والخذلان، وسبيل التمرد عن قبول الحق والعناد وغير ذلك من  
عيوبها، فتفصيل الآيات لحكم عديدة، ومنها تبين سبيل المجرمين.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا  
محمد للمشركون: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهو يعم  
عبادتها بالدعاء وعبادتها بغيره كالذبح وغيره، كما يأتي ذكره في هذه السورة،  
وهذا تنبيه للمشركون على أن من دين الرسول ﷺ اجتناب الشرك.

﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ لأنني ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فكيف أدع الحق  
الواضح لأتبع الباطل الذي لا برهان له وإنما هو مجرد اتباع الأهواء ﴿قَدْ ضَلَلْتُ  
إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ إن اتبعت أهواءكم ضلالاً لا أهتدي  
معه أو بعده، فهو ضلال مجرد، أو ضلال يسبب الخذلان وسلب التوفيق، وفي هذا  
دلالة للمشركون أنهم ضالون بطريقة حكيمة فيها رفق ولطف في التعبير.

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنْ  
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا  
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾

تبين لي أن الحق هو التوحيد وأن الشرك ضلال بعيد، والبينة: هي القرآن الحكيم الذي هو من الله سبحانه، فرسول الله ﷺ على بيان الله الذي بينه له، لكن الكفار كذبوا بالقرآن فحرموا أنفسهم سبيل الهدى.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من القيامة أو العذاب، لأنني لا أملك ذلك، وإنما أنا نذير لكم فإن آمتتم فقد تبين لكم الحق، وإن كفرتم فقد تبين، ولا عذر لكم في عدم إتياني بما تستعجلون، وليس لكم ولا بائكم أن تحكموا بما شئتم من شرك أو غيره أو لزوم اتباعي أو تركه لعدم ما اقترحتم. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أمر أن لا تعبدوا إلى إياه، فليس لكم أن تحكموا باشتراط ما اقترحتم ﴿يَقْضِي الْحَقَّ﴾ يقص القصص وقد قص بالحق ما أصاب المشركين قبلكم بشركهم وتكذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ﴾ لأنه يفصل بالحق ولا يغلط ولا ينسى، وهو يستطيع تنفيذ فصله بين عباده، فهو فصل نافذ يحق الحق ويبطل الباطل فلا بد أن يفصل بيننا وبينكم.

﴿قُلْ لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

لأن الساعة أو العذاب الذي أنذركم يقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الطاعة والإيمان؛ لأنه يبطل الاختيار ويرفع التكليف، ولا يبقى إلا أن يحل عليكم ما أنذرتكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو أعلم بكم وهو يجزيكم بإجرامكم.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا

﴿٥٦﴾ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال الشَّرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: وعنده علم الغيب الذي لا يعسر عليه عسير، ولا يعزب عنه صغير ولا كبير، ولكنه ضرب المثل بالمفتاح لعلمه كما ضرب المثل بالكتاب لحفظه، وليس ثم كتاب وإنما هو مثل مضروب، قال الشاعر:

في كفه من رقى الشيطان مفتاح

أي معه حيل من عزائم الشيطان حتى يسهل عليه ما يتعذر على غيره فـضرب المثل بالمفتاح - قال الشَّرفي - ومثل هذا ذكر المرتضى عليه السلام، وقال: مفتاح الشيء فهو علمه؛ لأنه لا يوصل إلى ما كان منغلقاً إلا بمفتاحه، وإنما هذا مثل ضربه الله - عزَّ وجل - لخلقه وبينه لعباده بأنهم يعلمون بأن الاغلاق لا يفتحها إلا بالمفتاح، فلما أن كان الغيب منغلقاً عن الخلق والله سبحانه هو العالم، قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ والغيب: هو ما استتر واستجنَّ وغبي فلم يعلم، وذلك لا يعلمه إلا الله - عزَّ وجل - إلا ما دلَّ عليه وفتحته وبينه لعباده وأخبر به» انتهى من (المصابيح).

وما ذكره المرتضى عليه السلام هو التحقيق، فليس لأحد قوة علم الغيب لا استقلالاً ولا بتقوية من الله، ولكن ما أخبر الله به من المغيبات علمه من بلغه الخبر مع حجته كالقيامة وأهوالها، وهذا مخصوص من العموم، ولا دليل على تأويل نفي علم الغيب بنفي الأصالة والاستقلال الذاتي.

جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَرَاهَا وَلَا رَاطٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هذا تفصيل لبعض ما أجمله تعالى في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ بالنسبة إلى ما يغيب من ذلك عن المخلوق، وهو مع ذلك دليل على إحاطة علمه بالمشاهدات المذكورة، لكن الراجح: أن ذكرها لتحقيق سعة علمه، وأنه لا يغفل عن شيء كما يغفل المخلوق، فقد يغفل عن الورقة تسقط بحضرتة والحبة تسقط وتغيب في التراب، أما الله فلا يغفل عن شيء.

وقوله تعالى: ﴿فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَرَاهَا وَلَا رَاطٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي تحت ما يحجب النور من أجزاء الأرض، تنبيه على أن الظلمات لا تغيب عنه شيئاً، وكذلك قوله: ﴿وَلَا رَاطٍ﴾ أي ولا يسقط من رطب ﴿وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علمه لا ينساه، كما لو كان في كتاب مبين لما كتب، وذلك كله يبين صحة الخبر بالبعث والجزاء للأمم كلها أولها وآخرها، كما يبين أنه تعالى هو الذي يعلم عبادة من عبده وطاعة من أطاعه، فهو الإله الحق دون شركاء المشركين الذين لا يسمعون، ولو سمعوا ما استجابوا.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنُكُمْ﴾ ويبعثكم لا شركاؤكم فليس لهم فيكم أي تصرف ﴿يَتَوَفَّنُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ في منامكم فتصير أنفسكم في قبضته ليس لكم تصرف إلا ما أبقاه لكم حال النوم، وهذا معنى توفيههم قبض أنفسهم كما يتوفى صاحب الدين ماله بقبضة من غريمه، لأن النفس حال النوم صارت في قبضة الله وصاحبها لم يبق له تصرف فيها كما كان قبل النوم، فأنتم في قبضته.

﴿وَيَعْلَمُ﴾ حين يتوفاكم ﴿مَا جَرَحْتُم﴾ ما اكتسبتم في النهار من المعاصي أو غيرها فلو شاء بقيت أنفسكم في قبضته ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ في النهار ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتستكملوا أجلاً مسمى حتى تنتهي حياتكم ويحين مماتكم كلكم أو بعضكم؛ لأن منكم من يخترم بإذن الله فيقتل قبل ذلك أو يموت، والبعث هنا: إرسال النفس بعد قبضها بحيث تنتبه من نومها ويرجع لها تصرفها الكامل.

قال الشرفي رحمته في (المصابيح): «قال في (البرهان): قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني في النهار باليقضة ويصرف الروح بعد قبضها بالنوم ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت» انتهى، انتهى من (المصابيح).

قلت: والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ من هذه الآية، كالضمير في قول الشاعر:

تنفك تسمع ما حيي      ست بهالك حتى تكونه  
والمرء قد يرجو الحيا      ة مؤملاً والموت دونه

وقال الشرفي في تفسير (سورة سبأ) من (المصابيح): «ثم قال [الله] مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ..﴾ [آية: ٣٦] أي ويضيق لمن يشاء، وهو يحتمل بسط الرزق وتضييق الرزق على واحد على حسب المصلحة، ويحتمل: أن يراد بمن قدر له الرزق غير من بسط له» انتهى، فقد جوز مثل ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾.

والراجح عندي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩] أي لمن يشاء، ومن أوضح الأمثلة لذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ أي تركتم لينة - وبالله التوفيق.



حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦٦﴾  
ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد قضاء  
الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾ حين ترجعون إليه  
وتقفون في موقف الحساب ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فأنتم في  
قبضته في الدنيا والآخرة فكيف تعرضون عنه وتعبدون غيره وكيف لا تتقونه.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ  
أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾  
الغالب المذل لهم بالموت وغيره من البلاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾  
ليحفظوكم حتى يأذن الله بهلاك أحدهم، فإذا جاءه الموت أخذته رسلنا  
الذين أرسلناهم لتوفيّه ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في شيء مما أمروا به بل يفعلون  
ما أمروا بلا تقصير، فلا تأخير لنفس عن أجلها فله الملك دون شركاء  
المشركين، فلا يملكون موتاً ولا حياة.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾  
﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ بعد الموت ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ﴾ مالكم الذي له ولاية  
التصرف فيهم، كما قال النابغة:

لما رأى واشق إقعاص صاحبه      ولا سبيل إلى عقل ولا قود  
قالت له النفس إني لا أرى فرجاً      وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

واشق: اسم كلب، يعني: أنه أيس من نجاة صاحبه ومن أن يصيد بكلبه،  
أو أراد متولي أمرك، والحاصل أن الولاية هنا ولاية الملك، وردهم إما ردّ  
النفس إليه بمسكها كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا  
الْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٤٢] فيؤخذ منه أن الإنسان هو النفس، وأن الجسد لها آلة

مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْنَمْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣٢﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ

ووعاء؛ لأنه تعالى نسب التوفي إليها في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فالموت أخذها من الجسد وأسند التوفي إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّيْتُهُ رَسُولَنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وإما ردهم إلى الله يوم القيامة، وهذا أرجح لاستعمال الجمع في ﴿رُدُّوْا﴾ بعد الأفراد، ولقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

فظهر: أن المراد رد العباد ليوم الحساب وهو من مصاديق قهره فوق عباده، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور وليس لشركاء المشركين شيء من التصرف في العباد ولغفلتهم جاء التنبيه بقوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ ليعلموا بطلان الشرك؛ لأنه خلاف حكمه تعالى، وليعلموا أنه يحاسبهم ويمجزهم؛ لأن ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لأنه يعلم تفصيل الحساب وأفراد المحسوب وجملته من غير تفكير.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْنَمْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿مَنْ يُنَجِّكُمْ﴾ من المخاوف التي تعرض لكم في ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كأن الظلمات جاءت بها؛ لأنها مشتملة عليها، ولأنها زيادة في هول المصائب، انظر قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩] كالمصائب النازلة في الليل الغالبة التي لا تستطيعون دفعها، ولذلك تدعون الله ينجيكم منها؛ لأنكم بفطرتكم تعلمون أنه القادر على أن ينجيكم، وأنه الذي يسمع دعاءكم وتعدون عند ذلك وعداً مؤكداً، بل تعاهدون عهداً ﴿لَّيْنٍ أَجْنَمْنَا﴾ الله أو ﴿أُنَجِّتَنَا﴾ [يونس: ٢٢] يا الله ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ النازلة ﴿لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك معدودين من الشاكرين وفي جملتهم، وهذا تأكيد للشكر الذي عاهدوا عليه.

أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ  
أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انْظُرْ  
كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ

﴿٦٤﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴿٦٥﴾ يعرض لكم فينفرج أي  
﴿الله﴾ هو الذي ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ مما نجوتم منه من هذه المصائب والكرب لا  
شركاؤكم ولذلك تلجأون إليه وحده إذا اشتد الأمر ولم تجدوا ملجأ ﴿ثُمَّ﴾  
أَنْتُمْ ﴿مَعَ﴾ علمكم بذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ما لا ينفعكم ولا يضركم، والكرب  
الغم الشديد والإنجاء منه يكون بإزالة سببه.

﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ  
أَرْجُلِكُمْ ﴿٦٥﴾ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ يظهر عليكم ويثير ويوقع ﴿عَذَابًا﴾ صادراً  
﴿مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ ولا موجب لحصره على مثال؛ لأن علم الغيب أوسع من  
الأمثلة، وقدرة الله تعالى على كل شيء لا يناسبها تحديد النازل من فوق أو  
الآتي من تحت الأرجل، ومن مصاديقها في هذا الزمان القنابل والصواريخ  
والألغام.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم  
﴿شِيْعًا﴾ في حال أنكم مختلفون فرقا كل فرقة يشايح بعضها بعضاً وأحزاباً  
يتعاون كل حزب ضد الآخرين.

وفي (مفردات الراغب): «والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان ويتشرون  
عنه: يقال: شيعة، وشييع، وأشياع» انتهى باختصار، وقال في (الصحيح):  
«وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، يقال: شايعه كما يقال: والاه من الولي»  
انتهى المراد.

قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

﴿وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ في حال اختلاطكم شيعاً، وذلك بالقتال الذي يكون فيه القتل والجراح والتعويق بالعمى أو الصمم أو قطع الأيدي أو كسر بعض العظام أو غير ذلك من آثار الحرب التي يسلط الله فيها بعضهم على بعض، فهو القادر على ذلك، وإن ظنوا أنهم يحذرون الوقوع في أسبابها ويسعون في السلم ما استطاعوا.

ولعلها تأتي الحرب العالمية الثالثة مع عناية الدول الكبرى في الحذر من الوقوع فيها لما عندهم من أسباب الهلاك العام والدمار الشامل، ولكن الله ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ احتجاجاً تارة، وتذكيراً تارة، وتخويفاً تارة، نحول الآيات من نوع إلى نوع ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أنهم في شركهم على خطر عظيم فيتقوا بأس الله قبل أن ينزل بهم وحين تنفعهم التقوى.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ أي بهذا القرآن وما فيه من الآيات والحجج البالغة والنصائح النافعة لمن قبلها والإنذار القاطع للعلة والبرهان الواضح الفارق بين الحق والباطل، والدال على أن القرآن من الله أصدق القائلين وأحكم الحاكمين ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يعذر من كذب به ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ لم يكِل الله إليّ أمركم إنما أنا رسول منه لأنذركم الإنذار القاطع للأعذار ومع الإعذار بالإنذار وبيان الحق بالحجة، فأمركم إلى الله وحده فهو الذي يحاسبكم ويميزكم بما عملتم.

غَيْرِهِ ۖ وَإِمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾ نَبَأُ اللَّهِ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَمِنْ غَيْرِ ذَلِكَ ﴿مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وَقْتُ اسْتِقْرَارٍ وَتَحَقُّقِ الْمَوْعُودِ بِهِ كَانَ الْمُنْتَظَرُ الْمَوْعُودُ بِهِ مَقْبَلِ الْإِنَاءِ، فَإِذَا حَانَ وَقُوعُهُ فَكَأَنَّهُ وَصَلَ مِنْ إِقْبَالِهِ وَبَلَغَ الْغَايَةَ وَاسْتَقَرَّ وَصَارَ حَاضِرًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُقْبِلًا، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَ الْأَنْبَاءُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ وَالرَّسُولُ ﷺ حِينَ تَرُونَ الْمَوْعُودَ بِهِ، وَهَذَا وَعِيدُ أَمْرٍ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَهُ لِقَوْمِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يَتَكَلَّمُونَ فِي آيَاتِنَا بِالْجِدَالِ أَوْ التَّكْذِيبِ أَوْ الْإِسْتِهْزَاءِ، يَسْتَرْسِلُونَ فِي ذَلِكَ كَمَا يَسْتَرْسِلُ الْخَائِضُ فِي الْمَاءِ، فَإِذَا شَرَعُوا فِي ذَلِكَ تَوَقَّعَتْ مِنْهُمْ زِيَادَةٌ ثُمَّ زِيَادَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ الدِّينِ.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ حَتَّى لَا تَسْمَعَ مَا يَقُولُونَ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أَيِ غَيْرِ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ: الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ حَالِ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ؛ فَإِذَا انْتَهَى فَلَا مَانِعَ مِنَ الْحُضُورِ فِي مَكَانٍ يَوْجِدُونَ فِيهِ لِإِسْمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِبْلَاغَهُمُ الرِّسَالَاتِ وَلِبَعْضِ الْحَاجَاتِ، وَهَذَا قَبْلَ وَجُوبِ الْهَجْرَةِ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ (سُورَةَ الْأَنْعَامِ) مَكِّيَّةً.

﴿وَإِمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَإِمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ فَنَسِيتَ الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ حَالِ خَوْضِهِمْ ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ﴾ التَّذَكُّرِ لَوْجُوبِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، بَلْ قَمِ عَنْهُمْ وَلَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ لَا يَجُوزُ حُضُورُ ظَلَمِهِمْ.

ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا  
وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا  
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ﴾ أصله (وإن ينسبك) (إن) حرف شرط  
(وما) صلة للكلام وتقوية، و(نون التوكيد) كذلك، ولعل فائدة التأكيد  
التحذير من التساهل مع عدم تحقق النسيان وتأكد الغفلة، فالشرط هو  
النسيان المحقق الكامل، وهذا خطاب للرسول ﷺ ويلحق به المؤمنون،  
والدليل قوله تعالى:

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ  
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فلا يرضون  
بالخوض في آيات الله ولا يتأثرون به، بل يكرهونه بقلوبهم فما عليهم من  
حساب الخاطئين لا قليل ولا كثير، ولكن نهى الله عن القعود معهم وأمر  
بالإعراض عنهم تذكيراً للصواب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يثبتون في المستقبل على تقوى الله ولا ينخدعون  
بخوض الخائضين إذا سمعوه ولم يعرضوا عنه، فقد يغتر من استمع لخوضهم  
في آيات الله بمجدهم وينقدح في قلبه الشك، فيصير مريض القلب بعد أن  
كان مؤمناً، فنهوا عن القعود معهم وأمروا بالإعراض عنهم لعلهم يتقون في  
بقية أعمارهم ولا ينقلبون أو يترددون، ونظير هذا قوله تعالى في المنافقين  
الذين ثبطهم عن الخروج مع المجاهدين: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ  
لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].



كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾  
 ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ أي اتركهم أي أعرض عنهم، ولعل هذا بمعنى ترك  
 محادثتهم في غير التبليغ، كقوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]  
 وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ لعلهم الذين قال تعالى  
 فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] المكاء:  
 الصفير، والتصدية: التصفيق.

فهذه الآية تنطبق عليهم على ظاهرها، فلا ينبغي الإشتغال بمحاورتهم  
 لأنهم إنما يتبعون أهواءهم ﴿وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فأثروا أغراضهم  
 الدنيوية على النظر لأنفسهم، والتدبر للقرآن، والإعداد للآخرة؛ بسبب  
 حبهم للحياة الدنيا وجعلها أكبر همهم.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا  
 شَفِيعٌ﴾ ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن مع إعراضك عنهم في غير حال  
 التذكير، والتذكير به قراءة الوعيد ليخافوا ويتذكروا النظر لأنفسهم  
 والإعداد للآخرة ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي ذكر به لئلا تبسل نفس أي ليذكروا  
 ويتقوا فينجوا من إبسا لهم بما كسبوا، فقلوه: ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ تعليل لقوله:  
 ﴿وَذَكِّرْ﴾ أو كراهة أن تبسل نفس، وهي أي نفس تذكرت واتفقت،  
 وابسال النفس بما كسبت: إسلامها للعذاب يوم القيامة، حيث لا شافع ولا  
 دافع ولا بقي لها أي حرمة، بل صارت هدرًا.

قال في (الصحيح): «وأبسلته: إذا أسلمته للهلكة، فهو مبسل، قال عوف  
 بن الأحوص بن جعفر:

وإِسْأَلِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ      بِعُونَاهُ وَلَا بِدَمٍ مَرَّاقٍ

قال في (الصحيح): «وكان حمل عن غني لبني قشير دم ابن السجفية فقالوا: لا نرضى بك، فرهنهم بنيه طلباً للصلح» قال: وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال أبو عبيدة: أي تُسَلِّم، وأنشد للنابغة الجعدي: ونحن رهناً بالأفاقة عامراً      بما كان في الدرداء رهناً فأبسلاً انتهى المراد.

وقال في (لسان العرب) في استعمال (البسل) بمعنى الحلال: أثبت ما زدتم وتلغى زيادتي      دمي إن أحلت هذه لكم بسل أي حلال انتهى، قيل: «بعونه: أي أجرمناه، وقيل: الدرداء كتيبة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي بسبب ما كسبت من الذنوب من الشرك أو غيره، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قطع لأطماع المشركين الذين يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويرجون منهم النصر.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يتدخل بينهم وبين الله بتوليهم أو بالشفاعة لهم، قال تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] أي يسترهم عن الشمس بينهم وبينها، وقال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧] أي بينها وبين أهلها، وقال عنتر:

إِنْ تُغْذِي دُونِي الْقَنَاقَ فَإِنِّي      طَبٌّ بِأَخَذِ الْفَارَسِ الْمُسْتَلْتِمِ

وقد بسطت في إثبات هذا المعنى في كتاب (الإيجاز في الرد على فتاوى الحجاز).

الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۖ قُلْ إِنْ هَدَى

﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ قال الراغب: «وقوله: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] أي ما يعادل من الصيام الطعام، فيقال للفداء: عدل إذا اعتبر فيه معنى المساواة» انتهى.

وقال في (الصحيح): «والعدل الفدية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي تفدي كل فداء، وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] انتهى.

قلت: وانتصاب ﴿كُلِّ﴾ إما على أنه مفعول به، والأصل: وإن تعدل بنفسها كل عدل، وإما على أنه قائم مقام المفعول المطلق، مثل: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤] وعلى هذا يصح أن يكون نائب فاعل ﴿يُؤْخَذُ﴾ ضمير يعود على ﴿عَدَلٍ﴾ بمعنى فدية، فأما جعله مصدرًا فإنه يخرج عن معنى الفدية إلى معنى المساواة أو التسوية قال في (الصحيح): «وعدلت فلاناً بفلان: إذا سويت بينهما» انتهى.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أسلموا للهلكة والعذاب وأهدروا ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الجرائم ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ شديد الحر ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي هذا دلالة على شدة ألمه؛ لأن العذاب من حيث هو عذاب يؤلم المأ شديداً فإذا وصف بأنه أليم دل على أنه فائق لغيره من العذاب في شدة الألم، وهذا الشراب والعذاب هو الذي أبسلوا له ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ كفر النعمة أو كفر الجحود الذي أوقعهم في سائر الجرائم التي كسبوها.

اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

﴿٧٦﴾ ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ احتجاج على المشركين لإبطال الشرك بأنه دعاء من لا يرجى منه خير فيرغب إليه لطلب الخير ولا يخشى منه ضرر فيخضع له لطلب السلامة من ضرره؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، وأبلغ من كونه لا يضر أي ليس من شأنه الضرر أنه لا يضرنا وقد تبرأنا منه ودعونا إلى تركه إن دعاءه رجوع عن سبيل الهدى، فلو فعلناه موافقة لكم أيها المشركون كنتم قد رددتمونا ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ وأخرتمونا عن السير في سبيل الهدى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ وكنا قد اخترنا موافقتكم بالتأخر عن سبيل الهدى على هدى الله لنا إلى سبيل الخير والنجاح والفلاح، فكيف نرضى ذلك لأنفسنا؟ وهذا كقول (مؤمن آل يس) في دعوته لقومه إلى اتباع المرسلين: ﴿أَتُخَذُ مِنْ قُوْنِهِ إِلَهَةً﴾ إلى آخر الآية [يس: ٢٣].

﴿كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُدَّ أَصْحَابُهُ يُدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أُتِّبْنَا﴾ لو أطعناكم وتركنا هدى الله كنا ﴿كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ في الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُدَّ أَصْحَابُهُ يُدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أُتِّبْنَا وهو حيران لا يهتدي بدعوة أصحابه.

قال في (الصحيح): «واستهواه الشيطان: استهامه» انتهى، وقال في (لسان العرب): «وفي التنزيل العزيز: ﴿كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقيل: استهوته استهامته وحيرته، وقيل: زينت له الشياطين هواه ﴿حَيْرَانٌ﴾ في حال حيرته، ويقال للمستهام الذي استهامته الجن: استهوته الشياطين» انتهى المراد.

قلت: هذا تشبيه للضلال في العقيدة والعمل الذي هو الضلال المعنوي بالضلال المحسوس الذي يقع من الذهاب في الأرض وقد ضل الطريق بسبب إغواء الشياطين له حيث وسوسوا له حتى ذهل عن الطريق وذهب لوجهه وصار في حيرة لا يدري أين يذهب، فهو يمشي ﴿حَيْرَانَ﴾ متردداً ﴿لَهُدًى أَصْحَبٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا﴾ وهو في حيرته يخط ولا يجهلهم، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للمشركون أنكون مثل هذا فترك الهدى وتأخر عن سبيل القصد فبقى في ضلال وحيرة عن الحق، والله يدعونا إلى الهدى.

﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ لأنه ينقذ من عذاب النار، ويبلغ أهله جنات النعيم؛ ولأن هدى الله هدى من عالم الغيب والشهادة الذي لا يغلط، هدى من الحكيم الذي لا يخالف الصواب والرأي السديد، هدى من الذي هو بالناس رؤوف رحيم، فالهدى الحسي إلى الطريق في الأرض ليس شيئاً بالنسبة إلى هدى الله لعباده الذي يؤدي من اهتدى به إلى الفلاح والسعادة الدائمة؛ ولأن هدى الله لا يقبل التغير بالإضلال لأن هدى الله كامل قوي يغلب كل تضليل فمن يهدي الله فلا مضل له.

﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ﴾ أنفسنا ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المالك لهم أجمعين، ولا نشرك في أنفسنا غيره؛ لأن رب العالمين هو المالك لهم وحده دون غيره، ليس لغيره فيهم أي مشاركة، والعبادة اعتراف بالعبودية، فالإعتراف بالعبودية لغير رب العالمين باطل مبين، فأمرنا بالإسلام لنسلم لرب العالمين.

قال في (الكشاف) - ونعم ما قال - : «فإن قلت: ما معنى (اللام) في ﴿لِنُسَلِّمَ﴾؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى أمرنا وقيل لنا: اسلموا لأجل أن نسلم» انتهى.

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٦﴾

قلت: ومثله ما قدمت في قول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦٠] وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] فاللام (لام التعليل) ولا نسلم أنها زائدة، ولكن (لام التعليل) تفيد إرادة ما دخلت عليه، فكان فعل الإرادة هو الذي أفادها، فلعل ذلك سبب جعلهم (اللام) زائدة.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا﴾ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ أي وأمرنا أن ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا﴾ أي اتقوا رب العالمين، وهو الذي يجب أن تسلموا له وتقيموا الصلاة له وأن تتقوه؛ لأنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إليه وحده، فيجزىكم بما قدمتم في الدنيا، وفي تخصيص إقامة الصلاة من بين العبادات بالذكر هنا دلالة على عظم شأنها في عبادة الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ ﴿وَهُوَ﴾ أي رب العالمين الذي أمرنا لنسلم له هو ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وحده لم يشاركه في خلقها غيره مما يعبد المشركون ولا من غيره وخلقها بالحق والحكمة والصواب، لم يخلقها عبثاً ولا باطلاً ولا لعباً، ولعل المراد هنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أنه خلقهما ليعبد فيهما، فكيف يعبد غيره.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ لشيء عظيم ﴿كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ﴾ له كن هو ﴿الْحَقُّ﴾ وقوله فيه هو الحق ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ فيه وحده لا شريك له في الملك ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بيان ليوم يقول كن وتفسير له لإبهام المقول



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّي أَرَنكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

له (كن) فظهر: أن المقول له كن هو البعث وأمور القيامة كلها، وهو تعبير عن سهولته في قدرة الله وسرعته، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فلا يغفل عن أحد ممن خلق في الدنيا ولا عن عمل عامل، وخبره عن يوم ينفخ في الصور حق؛ لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فلا يرضى لنفسه شريكاً وهو الحكيم فلا يهمل المحسن والمسيء بدون جزاء، وهو ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بخبر كل مكلف وما يخفيه من نية وعقيدة ونحو ذلك، فالذي إليه مرجع العباد، وهو عالم الغيب والشهادة، وله الملك يوم القيامة، كيف ندعو من دونه ما لا ينفعنا ولا يضرنا؟!

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ هذا ابتداء رد آخر على المشركين ضمن (قصة ابراهيم عليه السلام) وحجته على قومه، وأبوه آزر لعله عمه، ميم بذكر اسمه كما هو الأصل في المجاز أن يقرن بقريته صارفة عن الحقيقة، أما الأب الحقيقي فيكفي ذكره بدون قرينة، ويؤكد هذا أن الكلام هذا ليس فيه من الرفع ما في كلام ابراهيم لأبيه المذكور في (سورة مريم).

واذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟ السؤال سؤال إنكار وتوبيخ، واكتفى فيه بذكر أصنام؛ لأن الصنم جسد لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فأغنى ذكر اسمه عن ذكر حاله؛ لأنه مفهوم من اسمه، ومعنى اتخاذها آلهة: عبادته لها وجعلها شريكة لله في ملكه وعبوديته بدون برهان من عقل ولا سمع، وذلك الباطل الذي لا ينبغي أن يرضاه لنفسه عاقل فقله عليه السلام:

وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي

﴿إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ تعبير فيه نوع رفق ببيان أنه معتمد على اليقين في تضليله وتضليل قومه، وحكمه بأنه ضلال بين، وهو كلام لا يستطيع أن يجيب بمثله، فيقول: بل اعلم يقيناً أنا على هدى إن أنصف؛ لأنه لا حجة له لا من العقل ولا من السمع، فما بقي إلا أن يطالب إبراهيم عليه السلام بالحجة أو يسكت ولا يعارضه بسوء.

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وكما أريناه ما ذكر في قوله: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأنعمنا عليه بتلك الهداية نريه ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما جعلنا له من العقل والهداية إلى النظر المؤدي إلى العلم بملكنا للسموات والأرض ليعين للناس ذلك.

﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بالله، أهل اليقين بالله وأن له كل شيء، وأنه رب كل شيء، وأن لا إله إلا هو، وحين أراه الله ملكوت السموات والأرض وكان من الموقنين جعل بين لقومه ويحتج عليهم:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ كان قومه في جاهلية جهلاء بعيدة أذهانهم عن النظر والتفكير وهم مع ذلك أشداء في شركهم لا يريدون أن يسمعوها إنكاراً له أو جدالاً فيه، فكان الرأي التدريج في الإحتجاج عليهم وجعله في صورة أنه ناظر لنفسه لا في صورة من يعترض عليهم.

فابتدأ عند رؤية الكوكب بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ كأنه اختاره على الأجسام الأرضية لإشراقه، وفي تلك الحال لا بد أنه كان يعرف أن الكوكب سيأفل

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لِّئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ

أي يغيب لكنه تجاهل ذلك ليحصل الإحتجاج بالتدرّج والثاني ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ غشيه وأخفاه ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ﴾ لا أحبه رباً ولا أرضاه؛ لأنني ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ لغيابهم عني وجهلهم بحالي وانقطاعهم عني حال غيابهم.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تكراراً للإحتجاج بصورة احتجاج آخر وتسويغاً للتحويل لأجل التفكير الدال على بطلان القول الأول، ولا بدّ أنه كان يعلم أن القمر الذي بزغ بعد غيابه سوف يأفل كما أفل الكوكب ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ قد اخترته لزيادة نوره: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لِّئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فقد تبين الغلط في الكوكب، ثم تبين الغلط في القمر لو كان ذاك عن جدٍ واعتقاد، ولكنه فرض وتقدير كقول عمر: مات النصراني والسلام، أي افرض وقدّر أنه مات.

فالخوف من تكرار الغلط باعث على اللجوء إلى الله لطلب هدايته والوقاية من أن يكون ﴿مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ الغاوين عن طريق الصواب، وفي هذا دلالة على إيمانه بالله، وأن كلامه في الكوكب والقمر إنما هو جدال لقومه، ولعل قومه لم يكونوا إلا كمشركي العرب يقرون بالله ويدعون الشركاء، فلذلك لم يكن عندهم منافياً لكلامه في الكوكب والقمر لجوئه إلى الله ليهديه.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ لعله اختار الإشارة إلى هذه الجرم الفائق في إشراقه الزائد في حجمه ليعلق افتراض ربوبيته على ما يشاهد منه لا على كونه شمساً يدعي لها المشركون الإلهية باعتبار اعتقادهم فيها فاجتنب إيهام ذلك.

وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٦﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ<sup>ج</sup>  
 قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ<sup>ح</sup> وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن

﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَفَلَتْ﴾ غربت وعند  
 ذلك قرّر أنها لا تصلح للربوبية؛ لأنها تغيب عنه وتهمله في حال غيابها فهو  
 لا يرضاه، فتقرر أنه ليس شيء من المخلوقات يصلح رباً فتراً مما يشركه  
 قومه، وذلك دليل على كمال اقتناعه بأنها لا تنفع ولا تضر ولذلك يتبرأ منها  
 آمناً مطمئناً مؤكداً للبراءة ب(إن) والجملة الاسمية المفيدة للإستمرار والثبات.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا  
 أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ للعبادة وجهته لله، وعبر بقوله:  
 ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ﴾ لأن ابتداءه خلق السموات ﴿وَالْأَرْضَ﴾ دليل  
 عليه؛ ولأن غيره لا يتوهم المشركون أنه فطر السموات والأرض، وقوله:  
 ﴿حَنِيفًا﴾ جاء في (تفسير القاسم عليه السلام) له خاشعاً، وفي بعض المواضع عنه  
عليه السلام خاشعاً محباً.

ولعله مراد الحسين بن القاسم فيما حكاه الشرفي في (المصابيح) حيث  
 قال: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: وجهت وجهي إلى الله بكليتي  
 وصرفت وجهي وهمتي، وليس يريد وجهه دون قلبه ولسانه وغيرهما من  
 جوارحه وبنانه، والحنيف: هو الثابت الذي لا يميل ولا يزيغ عن الطريق ولا  
 يحول، قال الشاعر:

حمدت الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدين الحنيف

وقيل: معنى الحنيف: أنه المائل عن الشرك إلى التوحيد، واحتجوا بالحنف  
 الذي يكون في بعض الأقدام وهو الميل، قال الشاعر:

يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ وَكَيْفَ  
وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُكُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ

والله لولا حنف برجله ما كان فيكم من غلام مثله

وقيل غير ذلك، والقول الأول قول سلفنا وهو المعمول عليه» انتهى.

قلت: وقد مر بعض الرد على تفسيره بالميل، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ﴾ مصارحة لقومه ببراءته من الشرك والمشركين.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ حاجه قومه: جادلوه؛ لدعوته إلى التوحيد،  
ورفض الشرك، وإعلان بطلان الشرك والبراءة منه.

﴿قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ ﴿أَتُحْجُّونِي﴾؟ سؤال توبيخ لهم  
وإنكار عليهم حاجتهم في الله، وقد جعل حاجتهم في الشرك حاجة في الله؛  
لأن الشرك جعل أنداد الله هو منزله في عظمته وجلاله أن يكون له ندٌّ من  
خلقه، ولا سيما تلك الأصنام الجمادات، فمن السفه جعلها أنداداً ﴿لِلَّذِي  
فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ كلمة جامعة لكمال هدى الله له فقد عرف الله  
وآمن به إيماناً كاملاً، وتبين له بطلان الشرك وأنه ظلم عظيم، فم حاجتهم له  
كمحاجة الأعمى للبصير على الطريق والبصير يراها والأعمى يجادل فيها  
﴿إِنَّ الْهَلْهَلَى مُنَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣] ثم ذكر لهم حجة واضحة فقال: ﴿وَلَا  
أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ فطريق الأمن خير من  
طريق الخوف وقد علمت أن الله لا يؤاخذني بعبادتي له وحده واجتناب ما  
سواه، ولو أشركت بغير برهان من الله لخفت أن يعاقبني.



يُنَزِّلُ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ يبين أن الأمر كله لله، وقد علم أن الله لا يشاء ضره من جهة شركائهم، لكن في جعل الأمر كله إلى مشية الله إبطال للأنداد، كقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو يعلم إخلاصي له فلا أتوقع أن يخذلني بإنزال الضر من جهة الأنداد بل أتوقع أن ينصرني ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أنه تعالى لا يخفى عليه من أخلص له ومن أشرك به، بل هو رقيب عليهم، وهذا يكفي لحصول الأمن لمن أخلص له وأطاعه؛ لأن المخلص المطيع يثق بأن الله لا يعذبه على الإخلاص له.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ ﴿كَيْفَ أَخَافُ﴾ ما لا ينفع ولا يضر بل هو جماد كسائر الجمادات، فكيف أخافه مجرد أنكم أشركتم به بدون حجة، وكيف لا تخافون أنكم أشركتم بالله في ملكه ومُلْكِهِ ما لم ينزل الله به عليكم سلطاناً تحتجون به على شرككم، وقد عدل عليه السلام عن أن يقول: (ولا تخافون الله) لأن الله هو الرحمن الرحيم الرؤوف بالناس، ليس من شأنه أن يُخَافَ هو، إنما المخوف عقابه الذي سببه شرك المشرك وجرم المجرم، فعلق الخوف على سببه الذي هو أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطاناً، ولا إشكال في صحة إسناد خوف العباد إلى ربهم، إلا أن هذا احتراس مطابق لمقتضى الحال؛ لأنه في خطاب الجاهلين، ونظيره قول (مؤمن آل ياسين): ﴿إِنْ يُرْذَنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ [يس: ٢٣] فأنكر إبراهيم عليه السلام على قومه اجتماع أن يخاف وهو المخلص لربه ولا يخافون وهم المشركون.



الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ  
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الفريقان: من آمن بالله وأخلص له، ومن أشرك به ما لم ينزل الله عليه به سلطاناً، سألهم إبراهيم عليه السلام: أي الفريقين أحق بأن يأمن بعد ما بين أنه لا يخاف ما أشركوا به، وأنكر عليهم كيف يخافهم والمشركون لا يخافون أنهم أشركوا فبين أنه أحق بالأمن، فسألهم إن كانوا ممن يعلم أن يقرؤا بالحق من هو أحق بالأمن، ثم صرح به، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾ الإيمان الكامل وهو الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر إيماناً يبعث على الطاعة لله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ لم يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ كما هو شأن الإيمان الصادق، عدل عن قوله: (الذين أخلصوا العبادة لله) إلى قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأن العبادة لا تقبل إلا من مؤمن، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤] فذكر الإيمان يشمل إخلاص العبادة وشرط قبولها، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شرط للأمن في حال التكليف أي أن من آمن واتقى الظلم أحق أن يأمن وثوقاً بأنه على الحق وأن الله لا يعذبه على ذلك، وشركاء المشركين لا يضررون ولا ينفعون فهو آمن عذاب الله وضرر غيره، فالإحتجاج بالأمن أي في هذه الحياة وفي حال اختيار الطريقة المرضية التي يكون سالكها واثقاً بها بعد النظر الصحيح؛ وشرط

اجتناب الظلم لأن الظالم يخاف ذنبه، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَنِيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ \* إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْتًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[النمل: ١٠-١١]﴾  
فالظالم ليس له أن يأمن حتى يتوب.

وهذا الكلام لبيان طريقة الأمن ردّ على المشركين يبين: أن الحق الإخلاص لله، والباطل: الشرك، وليس بصدد الأمن في الآخرة ولا بصدد منع الخوف من الذنوب في الدنيا ممن لا يتيقن صحة توبته أو يخاف أن يكون عليه ذنب قد نسيه ولم يتب منه، أو يخاف أن يذنب في المستقبل، فكل هذا لا ينافي المقصود في هذه الآية الذي هو بيان الدين الذي يثق به من كان عليه وهو حقيق بأن يثق لا الجاهل الغافل المعرض فإنه لا يستحق أن يأمن، ولذلك قال ﴿أُولَئِكَ﴾ أي أهل الإيمان واجتناب الظلم ﴿لَهُمُ الْآمَنُ﴾ لهم أن يأمنوا ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ لا من أمن طريقته وهو ضال فليس له أن يأمن بل عليه أن يخاف؛ لأنه في طريق العذاب.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ﴿وَتِلْكَ﴾ أي حجة إبراهيم صلى الله عليه هي ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا﴾ علمناها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ حجة ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ إما جملة حالية أي آتيناه حجتنا حال كوننا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ وإما جملة استثنائية تعليل لإيتاء إبراهيم، وعلى الوجهين يفيد الكلام رفع إبراهيم درجات بما آتاه الله من الحجة، أو بما آتاه ومن جملته الحجة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو يرفع من هو أهل لأن يرفعه ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بمن هو أهل لأن يرفعه درجات، وهي تشير إلى رفع محمد ﷺ درجات بما آتاه الله من الحجة على قومه، أو بما آتاه الله جملة، ومنه الحجة على قومه.

وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۚ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ  
وَسُلَيْمَانَ ۚ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ  
﴿٤٨٠﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٨١﴾ وَإِسْمَاعِيلَ

﴿٤٨١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴿٤٨٢﴾ كُلًّا ﴿٤٨٣﴾ مِنْ إِسْحَاقَ  
ويعقوب ﴿٤٨٤﴾ هَدَيْنَا ۚ أَوْ كَلَّا مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿٤٨٥﴾ هَدَيْنَا ۚ وَهُوَ  
الهدى الكامل بالعلم بالدين كله، والهداية للعمل بالعلم، ومن ذلك الهدى:  
الإخلاص لله تعالى، واجتناب الشرك، ولعله قدم ذكر إسحاق ويعقوب  
احتجاجاً على من أشرك من ذريتهما المدَّعين أنهم على دينهم.

﴿٤٨٦﴾ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۚ فَكَانَ عَلَىٰ دِينِ اللَّهِ غُلُصًّا لَهُ ﴿٤٨٧﴾ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ۚ  
أي من ذرية نوح، وإن كان أكثر المذكورين من ذرية إبراهيم، ولكن لوطاً  
ليس من ذرية إبراهيم وهو من المذكورين، وكذا يونس، أو الضمير لإبراهيم  
ورجحه، في (المصابيح) قال: «وهو قول أئمتنا» انتهى.

﴿٤٨٨﴾ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَلَعَلَّهِ قَدَمَهُمَا لَكُفْرٍ بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِمَا أَوْ  
بِسُلَيْمَانَ ۚ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ هَدَيْنَاهُمْ ﴿٤٨٩﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ ۚ نَهْدِيهِمْ، كما قال في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا  
وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] وكذلك قال في موسى: ﴿وَلَمَّا  
بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]  
فالإحسان سبب للهدى بالحكم والعلم.

﴿٤٩٠﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۚ ﴿٤٩١﴾ وَزَكَرِيَّا ۚ  
وهدينا من ذريته زكرياء ﴿٤٩٢﴾ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنْهُمْ ﴿٤٩٣﴾ مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ  
فهديناهم بسبب صلاحهم، أو لأننا هديناهم كانوا من الصالحين.

وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا ۖ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٢﴾ ذَلِكَ

وفي ذكر عيسى عليه السلام دليل على أنه من الذرية بواسطة أمه، ولذلك فيصح أن الحسن والحسين وذريتهما من ذرية رسول الله ﷺ، وقد جمعتُ الحجج على ذلك في كتاب (الذرية المباركة) في أن الحسن والحسين ابنا رسول الله ﷺ في (تسعة فصول).

قال الشرفي في (المصابيح): «ومثل هذا المعنى من دلالة الآية ذكره زيد بن علي عليه السلام في كتاب (الصفوة) والرازي في (تفسيره) وقال فيه: «يقال: إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف، وعن الشعبي قال: كنت عند الحجاج فأتني يحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلاً في الحديد فقال له الحجاج: أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ؟ قال: بلى، فقال الحجاج: لتأتيني بها واضحة من كتاب الله أو لأقطعنك عضواً عضواً، فقال: أتيتك بها واضحة بينة من كتاب الله يا حجاج، قال: فتعجب من جرأته بقوله: يا حجاج، فقال له: ولا تأتيني بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] فقال: أتيتك بها واضحة من كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ فمن كان أبو عيسى؟ وقد ألحق بذرية نوح، قال: فأطرق الحجاج ملياً، ثم رفع رأسه وقال: كاني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله حلوا وثاقه واعطوه من المال كذا» انتهى من (المصابيح).

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا﴾ أي وهدينا من ذريته إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم ونوح والمذكورين من ذريته كلاً منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ معطوف على جملة قوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وما عطف عليه.

هُدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ

﴿٨٧﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٨﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ عَظْفٌ عَلَى ﴿نُوحًا هَدَيْنَا﴾ أَي وَهَدَيْنَا ذَلِكَ الْهُدَى مِنْ آبَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴿وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ هِيَآئِنَاهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَمَا تَحْتَاجُهُ مَهْمَتُهُمْ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ. وَقَالَ فِي (الصَّحَاحِ): «وَاجْتَبَاهُ: أَيِ اصْطَفَاهُ».

﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيِ كُلِ الْمَذْكُورِينَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ هَدَاهُمْ، هَدَاهُمْ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ وَاحِدٌ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُهُ وَمَعْرِفَةُ دِينِهِ وَعِبَادَتُهُ وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لَهُ وَطَاعَتُهُ وَتَقْوَاهُ، وَقَدْ فُسِّرَ (الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [الشورى: ٥٢-٥٣] فَهَدَى اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ وَمَنْ قَرَابَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الدِّينِ، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْأَدْيَانِ.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَلِذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَسْأَلَهُ فَنَقُولَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وَنَجْتَنِبُ كُلَّ مَا خَالَفَهُ مِنْ دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ كَالشِّرْكِ وَدِينِ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْ كُلِّ دِينٍ مُخَالَفٍ لِدِينِ اللَّهِ.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَكَفَى بِهَذَا تَحْذِيرًا مِنَ الشِّرْكِ وَدَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مَعَ الشِّرْكِ أَيُّ حَسَنَةٍ؛ لِأَنَّهُ يَحْبِطُ كُلَّ حَسَنَةٍ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى حَبْوَاطِ الْعَمَلِ بِالشِّرْكِ وَإِنْ كَانَ مَتَكَرِّرًا وَمُسْتَمِرًّا كَعَمَلِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِينَا وَآلِهِ.



يَكْفُرُ بِهَا هَتُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ أُولَٰئِكَ  
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهَدَنُهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا

﴿٨١﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾  
الموصوفون بالهدى إلى صراط مستقيم ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ﴾ الكتب السماوية  
عبر عنها بالكتاب؛ لأن أصله مصدر ﴿وَالْحُكْمَ﴾ علمناهم الحكم، والراجح:  
أنه جامع لحكم الله في عبادته وعليهم أي الحكم التشريعي فيعم أحكام الدين  
كله، وعطفه على ﴿الْكِتَابَ﴾ ليعم ما اشتمل عليه الكتاب، وما لم يذكر في  
الكتاب مما أوحاه إليهم، وليفيد فهمهم الكامل لمعنى الكتاب ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾  
التي هي الوحي من الله تعالى بالشرائع، فهم أهل الهدى إلى دين الله الذين  
منه التوحيد واجتناب الشرك.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَتُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ﴿فَإِنْ  
يَكْفُرْ﴾ بما آتيناك يا محمد إذ آتيناك ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كما آتيناهم  
فإن يكفر ﴿بِهَا هَتُؤُلَاءِ﴾ المشركون من أهل مكة ومن حولها، فالضمير هنا  
مثله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمُ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي في النهار، فكانه قيل: فإن  
يكفر بالكتاب والحكم والنبوة هؤلاء، والمراد به: ما آتاه الله محمداً ﷺ  
﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم السابقون من ورثة  
الكتاب؛ لأنهم حملة الدين وحماة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ  
اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ  
اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وروى الشرفي في (المصاييح): «عن المرتضى محمد بن الهادي عليه السلام: أن  
الموكلين بها هم الأئمة المعروفة طاعتهم المحكوم من الله - عز وجل - بطاعتهم.



ذَكَرَ لِلْعَلَمِينَ ﴿١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى

قال الشرفي: قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يعني بذلك: أمير المؤمنين وذريته الأخيار الطاهرين، الذين وكلهم الله بالدعاء إلى جدهم بعد أمير المؤمنين والدهم، فهم بالدين والحكمة والنبوة موكلون، وعلى الله سبحانه متوكلون، وبطاعته في ذلك وغيره عاملون» انتهى.

قلت: تاريخهم يشهد بحمايتهم للدين، وجهادهم لأعداء الله المفسدين، فجهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، وحمزة، وجعفر، والحسن، والحسين، وزيد بن علي، وابنه يحيى، ومحمد بن عبد الله، وإبراهيم بن عبد الله، وإدريس بن عبد الله، ومحمد بن محمد بن زيد، والحسين بن علي الفخي، ومحمد بن إبراهيم، والهادي، والناصر الأطروش وكثير من ذرياتهم ظاهر، والله در الهبل حيث يقول:

تفانوا على إظهار دين أبيهم كراماً ولا جبن لديهم ولا بخل

وروى الإمام أبو طالب في (الأمال) بإسناده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان ولياً من أهل بيتي موكلاً يذب عنه يعلن الحق وينوره ويرد كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله» انتهى.

ومعنى ﴿وَكَلَّنَا بِهَا قَوْمًا﴾ جعلناهم للإيمان بها ولحمايتها، وأمرناهم بذلك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ الأنبياء المذكورون ومن معهم هم ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى الصراط المستقيم لا المشركون من هؤلاء وآبائهم ﴿فَبِهِدْنُهُمْ﴾ فبهدى الله لهم ﴿أَقْتَدِ﴾ بأن تحذو حذوه؛ لأنه الهدى إلى الصراط المستقيم.

لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسٍ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا  
أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٦﴾ وَهَذَا كِتَابٌ

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على القرآن ﴿أَجْرًا﴾ فلا عذر لكم  
بمغرم تتحملوه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ من ربهم، ينبههم من  
غفلتهم، ويثير دفين عقولهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩].

قال في (الصحيح): «الذكرى: ضد النسيان» انتهى باختصار، وعلى هذا:  
يكون وصف القرآن بأنه (ذكرى) بمعنى أنه سبب للذكرى.

وفي (لسان الميزان): «والذكرى: اسم للتذكرة» انتهى، وهو المتبادر في  
قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فأما الراغب فقال: «والذكرى: كثرة الذكر، وهو أبلغ من الذكر، قال  
تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] في أي كثيرة» انتهى.

وعلى تفسير (الذكرى) بالتذكرة، يوصف بها القرآن حقيقة، و(العالمين)  
يعم الأمم كلها.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾  
في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا  
عظموه حق عظمتهم» انتهى.

وقال في (الصحيح): «وقال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي  
ما عظموا الله حق تعظيمه» انتهى، وفي (المصابيح): «أي ما عظموه حق  
تعظيمه، عن ابن عباس، والحسن من قولهم: فلان له قدر، أي خطر» انتهى.

وهذا القول: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ قول اليهود، كما يدل عليه قوله تعالى في بقية هذه الآية، ولعل المشركين من أهل مكة سألوهم. وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْلَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] ما يفيد ذلك.

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ كما يليق بعظمته وجلاله وعزته وحكمته وفضله ورحمته، أن لا يهمل عباده ويتركهم في ظلمات الجهل بلا كتاب ولا رسول ولا شيء يهديهم وينير لهم الطريق إلى سعادتهم ويقيم به الحجة على الظالمين.

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاتِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ تدعون وترغمون أنه قراتيس ﴿تُبْدُونَهَا﴾ وتلك القراتيس التي تبدونها ليست كل الكتاب بل إنما هي بعضه ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ لم تبدوه وهو من الكتاب؛ لأنكم تبدون ما لا يخالف هواكم وتكتمون ما يخالف هواكم، وهذا استطراد بديع حكيم يبين أنهم متمردون لا يريدون الحق، فغير عجيب منهم أن يقولوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وقد كانوا يكتمون كثيراً مما أنزل الله على موسى في التوراة.

﴿وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فأنتم تجدون عندكم من العلم ﴿مَّا لَمْ تَعَلَّمُوا﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿وَلَا﴾ علمه ﴿آبَاؤُكُمْ﴾ من عند أنفسهم، فمن أنزل هذا العلم؟ ومن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله، وأنزل كل علم لا يبلغه الإنسان بعقله، فقد تبين بطلان قولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا  
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ﴾ بعد هذا الجواب الحاسم ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ في كلامهم الباطل وجدالهم في الحق ﴿يَلْعَبُونَ﴾ جعل لعباً؛ لأنه مجرد اتباع هوى وهو يلهون به، فأشبهه اللعب بالكرة وغيرها من أنواع اللعب الذي يكون للتلهي به وإعطاء النفس هواها، فأعرض عن محاورتهم بعد الجواب المذكور، واتركهم يقولون ما شاءوا، وهذا كان قبل قوة الإسلام والتمكن من النهي عن مثل هذا المنكر.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ليبقى وتوارثه الأجيال ﴿مُبَارَكٌ﴾ لكثرة فوائده العلمية والروحية وغيرها ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله بـ(التوراة) و(الإنجيل) و(الزبور) وسائر ما أنزل الله من قبل (القرآن) جملة.

﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ يا محمد ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ أهل أم القرى وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومن حول أم القرى فهم في أشد الحاجة إلى إنذارهم؛ لبعد عهدهم بالرسالة ولا كتاب عندهم قبل هذا القرآن مع كثرة الباطل عندهم من الشرك وغيره من أمور الجاهلية، فهذا وجه النص عليهم بعينهم، مع أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، كما دل عليه قوله تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٣﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ  
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ  
الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ  
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ  
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا

ثم قال تعالى بعدها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ إلى  
قوله: ﴿.. فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ  
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٨] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى  
عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وغير ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بهذا الكتاب؛ لأن الإيمان  
بالآخرة يبعثهم على النظر المؤدي إلى الإيمان بالقرآن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ  
تَحَافِظُونَ﴾ كما هو شأن كل مؤمن قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ  
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٧١] وقال  
تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ..﴾ إلى قوله تعالى:  
﴿.. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٩] والمحافظة على الصلاة  
العناية بإقامتها في وقتها حذراً من إضاعتها، وإضاعتها تركها في وقتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ  
إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ سؤال في معنى  
النفي، لأن من الواضح شناعة هذا الظلم؛ لما يترتب عليه من الفساد العظيم  
فلا ظلم أشد منه، والإفراء، والاختلاق: أن يقول على الله بلا مستند عقلي  
ولا شرعي، قال في (الصحيح): «وَفَرَى فلان كذباً: إذا خلقه، وافتراه  
اختلقه والاسم الفرية» انتهى.

ويدخل المشركون إذا زعموا أن الله يرضى شرهم ومن ادعى الولاية من الله على عباده بلا مستند شرعي ولا عقلي، وقوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فهو في معنى المفتري على الله كذباً مع فساد التبرير على عباد الله بالباطل ليتبعوه على باطله مثل مسيلمة الكذاب، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وهذا مفسد بكفره بما أنزل الله ودعواه أنه سينزل مثله كذباً وكفراً وصدأ عن سبيل الله، فهؤلاء الثلاثة قد ظلموا ظلماً عظيماً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هذا تصوير لحال الظالمين عند غمرات موتهم وشدة الملائكة عليهم حين يبسطون أيدهم لإخراج الأنفس، وغمرات الموت، قال في (الكشاف): «شدائده وسكراته، وأصل الغمرة: ما يغمر من الماء، فاستعيرت للشدة الغالبة» انتهى.

وفي قصيدة عنتره:

في حومة الحرب التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غير تغمغم

قال (شارح المعلقات السبع): «وغمرات الحرب: شدائدها التي تغمر أصحابها، أي تغلب قلوبهم وعقولهم، التغمغم: صياح ولَجَبٌ لا يفهم منه شيء» انتهى، فهذا يناسب تفسير (الكشاف) لغمرات الموت.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال فيه الشرفي في (المصاييح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب» ﴿أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي خلصوا أنفسكم من الدنيا [أيدينا - ظن] أي لا تقدرّون على الخلاص» انتهى المراد، وهو مناسب لذكر غمرات الموت، أي أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات.



وتفسير ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ بأنهم باسطوها بالعذاب موافق لقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾ [عمد: ٢٧] ويحتمل: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ لقبض أرواحهم عند معالجتها لقبضها، وقيل: معنى ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هاتوها من أجسادكم، وهذا هو الذي صدره الشرفي، وهو قريب ليكون مفسراً للبط أنه لنزع أنفسهم وهو أوفق لتصوير الحال من حذف ما بسطت الأيدي له، وذلك أوفق لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الذي يوجه الذهن لاستماع شرح حال الظالمين عند النزع، وتصويره للسامع، وسواء كان أمراً حقيقياً لإهانتهم أم تعبيراً عن حالهم عند معالجتهم للنفس لتخرج كانهم أمرون بإخراجها.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الرايح: ١٠] أن هذا حكاية لما يقال لهم عند بعثهم، كأنه مقترن بإخراج أنفسهم وقد طوي ما بينهما من الزمان في الواقع؛ لأنه يوم القيامة كان لم يكن لقلته في نظر الأموات كان لم يلبثوا إلا ساعة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثَا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] ونظيره في طي المدة وتخطيها إلى ما ورائها قوله تعالى: ﴿فَارْسِلُونِ﴾ \* يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ [يوسف: ٤٥-٤٦].

فكان الظالمين خرجت أنفسهم ورجعت في أبدانهم، وقيل لهم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ في وقت واحد، والدليل على هذا قوله تعالى في الآية الثانية ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأفاد أن قد خلقهم المرة الثانية، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠] أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق على أنه عطف على قوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾ و﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ عذاب الهوان، أي الذلة والصغار.

حَوَّلْنَكُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل على أن الذي قال: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ استخف بالقرآن وأنف من الالتفات إليه والنظر في صدقه استعلاءً، فحمله ذلك على قوله: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ جحداً لكونه معجزاً واستخفافاً به.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] فهو تأكيد للوعد بالإشارة إلى ما ذكرهم به في الدنيا من قدرته تعالى على الإعادة كما قدر على خلقهم أول مرة، وقوله تعالى: ﴿فُرَادَىٰ﴾ تنبيه على ضعفهم يوم القيامة، بانفراد كل واحد عن الأنصار والقراة والأعوان والإخوان والعشائر، فهو في حال ذلة بعد التكبر في الدنيا والغرور.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتَكُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال في (الصحيح): «وخوَّله الله الشيء: أي ملكه إياه» انتهى، ومثله في (لسان العرب) ففيه فائدتان:

الأولى: أن أسباب التعزز في الدنيا هي الأصحاب والأموال التي كان مالكا لها فقد ذهبت، وصار كما قال تعالى: ﴿وَتَرْتِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠].

الثانية: تذكيرهم نعمة الله عليهم كأنه لما قال: ﴿حَوَّلْنَكُمْ﴾ قال: أنعمنا عليكم وذلك أبلغ في تبيكتهم؛ لأنهم كانوا يجعلون نعمة الله سبباً لاستكبارهم عن آياته وتكبرهم، وقوله: ﴿وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تحقيق لتركه وارتحالهم عنه إلى الآخرة؛ لأن الراحل عن الشيء التارك له يخلفه وراء ظهره.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وهذا بعد بيان ذلتهم بالإنفراد عن الأعوان والأنصار ومفارقة المال، يبين ذلتهم مع خيبة أملهم بعدم الشافعين الذين كانوا يؤملون شفاعتهم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأعظم من ذلك: أنه يبين بطلان ما كانوا يزعمون، ويذكر بجرمتهم العظمى وهم في يوم الحساب والجزاء، وذلك أعظم أسباب الذلة والصغار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ أي في هذه الحالة التي هي وقت الحاجة إلى الشفاعة، وفيه تهكم بالمشركون وشركائهم حيث نفى حضورهم معهم بنفي رؤيتهم، وفيه - أيضاً - تصوير لتلك الحال، وبيان أنها أمور ستكون مشاهدة وضرورية.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ فيه فائدتان:

الأولى: أنه قد تبين لكم بطلان ذلك الزعم.

الثانية: تذكيرهم بجرمتهم العظمى زعمهم الباطل أنهم فيهم شركاء وهم لم يخلقوا ولم يرزقوا فجعلوا ما هو لله وحده خالصاً له جعلوا بعضه لغيره، وذلك أن عبادتهم زعم أنهم عباد لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [النساء: ١٧٢] فأقام قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ مقام ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ فدل على أن معنى العبادة أن يجعل نفسه عبداً.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي الصلة بين الذين زعمتم أنهم شركاء فيكم وبينكم، كقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي ضاع عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنه يكون لكم من شركائكم من النصرة والشفاعة وما أشبه ذلك، فقد ضاع كله في هذا الموقف الحرج فما لكم من قوة ولا ناصر.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى <sup>ط</sup> تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا

ويحتمل في إعراب ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ﴾ أنه من التنازع فكل منهما يطلب ﴿مَا كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ﴾ فاعلاً له، فالمعنى: تقطع بينكم ما كنتم تزعمون، وضل عنكم ما كنتم تزعمون، وذلك على توزيع ما كانوا يزعمون أي ما كنتم تزعمون من الصلة بينكم وبين شركائكم، التي هي بزعمكم الصلة بين المملوك ومالكه التي من أجلها يحمي المالك مملوكه، وتزعمونه من حمايتهم لكم من أجل هذه الصلة، تقطع ذلك بينكم وضاع عنكم، وفيه تهكم بهم يجعل الصلة منقطعة، والحقيقة أنه لم يكن لها وجود، وإنما كانوا يتوهمونها جهلاً وضلالاً.

كما أن قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ تهكم؛ لأن أصله أن يستعمل في ضياع ما كان موجوداً وهو هنا في ضياع ما كانوا يزعمونه ولا حقيقة له، ولما كان المشركون قد جعلوا لله شركاء، وخوفهم الله عاقبة شركهم أتبع ذلك بالدلائل على الله، الدالة على أنه يجب تنزيهه عن الأنداد التي جعلوها شركاء لله وهي لا تخلق ولا ترزق، وهذه الدلائل دلائل على قدرة الله على إعادة المشركين وجزائهم في الآخرة بما وعدهم، بل تفيد فوائد معرفة الله كلها، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى <sup>ط</sup> تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ لما كانت هذه وما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ احتجاجاً على المشركين، تبين: أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه العليم بكل شيء، التقدير على كل شيء، وتعرض بشركائهم أنهم لم يفعلوا شيئاً مما

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ

عدد في هذه الآيات، كانت على هذا الأسلوب: (فالق الحب والنوى) (مخرج الحي من الميت) (فالق الإصباح) (وهو الذي أنشأكم...) (وهو الذي...) (وهو الذي...) (بعبارة تعيين الفاعل لذلك أنه الله، لا بعبارة أن الله فعل ذلك.

ولما كان إخراج الحي من الميت غامضاً عند المشركين ناسب في الاحتجاج عليهم أن يأتي مفسراً فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ فدل بهذه الآية على أنه هو الذي يفلق الحب فيخرج منه الزرع ويفلق النوى فيخرج منه النخيل والحوخ وغيرها؛ ولكون قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ آية واحدة لم يعطف ﴿تَخْرِجُ الْحَيَّ﴾ بالواو وبخلاف سائر الآيات فهي متعاطفة، فوصف الزرع والشجر بالحياة وبذرهما بالموت بعد انفلاقه كوصف الأرض بالموت قبل نزول المطر والحياة بعده وبعد اخضرارها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ آية ثانية تدل على الله فالمولود الذي يكون قد مات في بطن أمه لم تخرجه هي باختيارها متى شاءت ولكن الله هو الذي يخرج به بتهيئة أسباب خروجه متى شاء.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآتَىٰ تَوْفَكُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القادر العالم الذي دل عليه إخراج الحي من الميت والميت من الحي هو ربكم لا أصنامكم وما تعبدون من دونه ﴿فَآتَىٰ تَوْفَكُونَ﴾ فمن أين توفكون عن الحق إلى الباطل، أي تقبلون وتحولون، فليس لهم خلق، ولا لكم برهان فيهم.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بعد الليل المظلم الذي استمر وقتاً إما طويلاً كما في الشتاء، وإما دون ذلك كما في الصيف، فلماذا جاء الصبح ففلق بضوءه ظلمة الليل؟ إنها قدرة الله تعالى.



لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ  
وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

﴿وَجَعَلَ أَلِيلَ سَكَنًا﴾ لما اشتمل عليه من الأرض والأشجار والمياه  
والحيوان كالبيت الذي يسكن فيه الحي، فالليل يحفظ رطوبة الأرض والأشجار  
وقوة المياه ورطوبة الحيوان، ويعدّل حرارة الشمس وقد سماه الله تعالى:  
﴿لِبَاسًا﴾ [النبا: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

قال في (الصحيح): «والسكن: النار، ثم قال: والسكن - أيضاً - كل ما  
سكنت إليه» انتهى، وفي (لسان العرب): «وقال اللحياني: والسكن - أيضاً -  
سكنى الرجل في الدار، يقال: لك فيها سكن أي سكنى، والسكن والمسكن  
والمسكن: المنزل والبيت، الأخيرة نادرة».

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ والله الذي جعل الشمس والقمر  
﴿حُسْبَانًا﴾ أي حساباً، فلولاهما ما عرف حساب الشهر الواحد، وحساب  
الشهور، والسنة الشمسية، والفصول الأربعة: الصيف، والخريف، والشتاء،  
والربيع، وهذا دليل على قدرته تعالى وعلمه المحيط بكل شيء، فحساب  
الشمس والقمر دقيق محكم مستمر آلاف السنين، فتبارك الله رب العالمين.  
﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ أي فلق الإصباح وجعل الليل  
سكناً والشمس والقمر حساباً كله ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يعارضه  
معارض يغير ما أحكم ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾  
فيهتدى بنورها، ولولا هي لاشتدت الظلمة على المسافرين.. ألا ترى كيف  
تشتد الظلمة إذا حجب نور النجوم سحاب، ويهتدى بالنجوم لمعرفة  
الجهات ليهتدى إلى الجهة المطلوبة للمسافرين وأشد الحاجة إلى ذلك في  
ظلمات البر حيث لا جبال مثل (تهامة) وفي ظلمات البحر.



السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ<sup>١</sup> انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ<sup>٢</sup> إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَصَّلَّنَا الْآيَاتِ﴾ بينها وميزنا بعضها من بعض، فهي آيات عديدة كثيرة يهتدي بها من يعلم، أي من من شأنه أن يعلم لسلامته من الهوى المعمي للبصيرة والخذلان، بسبب الإستمرار على التمرد والعصيان، والإعراض عن النظر في الآيات اشتغالا بأغراض الدنيا، ففي الشمس آيات، وفي القمر آيات، والليل آية، والنهار آية، وفي النجوم آيات عديدة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ من أبينا آدم أنشأنا أوجدنا بعد أن لم نكن ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فلکم في إنشائکم مستقر ومستودع تكثرون بواسطتهما، فالمستقر: بطون الأمهات لإنشاء الذريات فيها وتربيتها حتى تتكامل ثم تخرج بعد كمالها، والمستودع: مستودع النطفة حيث تخلق فتخرج إلى المستقر، وهذه آيات عظيمة، وهذا رأي (صاحب الكشف).

والراجع عندي: أن المستقر: هو محل المعيشة، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] والمستودع: هو القبر؛ لأن الإنسان فيه كالودعة يرد عند البعث.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ الكلام فيفقهون كلام الله في تعديد الآيات وتبيينها، فيعلمون بما فصل من آيات الصنع الدالة على الله الخالق العليم القدير، فالآيات القرآنية تذكّر بآيات الكون لمن يفهم الكلام.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الجو، كقوله تعالى: ﴿فَيَنْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الروم: ٣٨] على تقدير محكم في كيفية نزوله بحيث ينفع ولا يضر، فتراه كأنه نازل من غربال

فيعم البلاد من الحرث والمرايع والمحتطبات بسبب نزوله من السماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي أخرج الله بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزروع والشجر والمرعى، وغير ذلك مما لا يكاد يحصى لكثرة أنواع النبات.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ فأولاً يخرج من الأرض أصفر اللون أو أبيض ثم ينمو فيخرج منه الأخضر ﴿يُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ ﴿يُخْرِجُ﴾ من الخضر بعد تكامله وخروج سنبله الأخضر، نخرج ﴿مِنْهُ حَبًّا﴾ وما هو الحب، وما الفائدة فيه، قد عرفه الإنسان وعرف فائدته فلم يحتج إلى وصفه بأنه طعام الإنسان الذي يعيش به، فتبارك الله رب العالمين يخرج هذا الحب ﴿مُتَرَاكِبًا﴾ في السنبلة تستمد كل حبة غذاءها من السنبلة حتى تكمل وتصلح، فيتراكب لكثرتة واجتماعه في السنبلة.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ﴿طَلْعُهَا﴾ إما أكمائها التي تخرج أولاً وفيها الثمر ثم تشق فيخرج منها العذق، قال في (المصابيح): «وهو [أي العذق] في النخل كالعنقود من العنب، فهو يخرج من الكم، والكم يخرج من النخلة.

وعلى هذا التفسير للطلع، يظهر: أنه مصدر القنو، وإما نفس الثمر الذي في الكم يكون قنواناً، فكأنه - أي الكم - مصدر للقنوان، والقنوان: جمع قنو، قال الراغب: القنو العذق تشيته قنوان، وجمعه قنوان» انتهى.

أي تشيته في حال الرفع كجمعه (قنوان) وقوله تعالى: ﴿دَانِيَةٌ﴾ دانية من الدنو وهو القرب، فإما بمعنى: قرب قطافها؛ لأنها إذا خرجت من الأكماء ينتظر صلاحها ثم تقطف، فتعتبر دانية لقرب قطافها، وإما دانية بالنسبة إلى منابتها ومخارجها من النخلة ومواضع أصولها؛ لأنها تتدلى عند ثقل البسر، كما قال امرؤ القيس:

فَأَتَتْ أَعَالِيهِ وَأَدَّتْ أَصُولَهُ وَأَلَى بِقَنَوَانٍ مِنَ الْبَسْرِ أَحْمَرَا

وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] فهي آية حين تخرج من النخلة وحين تخرج من الأكمام فيرى فيها البسر ﴿مُتْرَاكِبًا﴾ يستمد غذاءه من الشماريخ حتى يتم ويصير رطباً قوتاً لأهل بلده وفاكهة لهم ولغيرهم قد أتقن صنعه صانعه وجعله لذيذاً للإنسان نافعاً، فتبارك الله رب العالمين. ﴿وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وأخرجنا من النبات أو بالماء جنات شجراً ملتفاً يغطي مكانه من أنواع العنب ذوات الألوان المختلفة وأشكال حبها المختلفة والطعم اللذيذ المختلف والنفع للإنسان وفاكهة يستغنى بأكلها عن غيرها أكلة أو أكثر فقد يستغنى بها أياماً، إلا أنها تقوى شهوة الخبز إذا ترك أياماً، فالأعنان آية عظيمة أشجارها وثمارها.

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ وهو يكثر وينمو شجره في الشام فيثمر الزيتون ثمراً يؤكل ويعتصر منه الزيت، فيكون إداماً نافعاً سهل الهضم بالنسبة إلى غيره من الأدهان، ودهناً جيداً نافعاً للإنسان، وقد قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْكَالِينِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقال تعالى: ﴿مِنَ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥] ففي الزيت فائدة ثالثة، وهي أنه يستعمل وقوداً للمصباح. ﴿وَالزُّمَانِ﴾ وهو آية عظيمة في صنعه، حيث يكون حبه الضعيف متراكباً في جيوب يستمد غذاء من أجزاء فواصل هي جيوبه، وجملتها تستمد من أصل الرمانة، ويجمعها خباء كالجلد يحفظها حتى تتم وتصلح، فإذا فلق الأكل خباءه وجده متراكباً مفصلاً في جيوب جميل المنظر منه حلو لذيق نافع للإنسان، ومنه حامض دواء كالخل صنع الله الذي أتقن صنعه وصنع شجرته.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أخرجنا هذا المذكور أي الحب والفواكه بالماء الواحد ﴿مُشْتَبِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً ﴿وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أي بعضه مشتبهاً وبعضه غير متشابه، وذلك تقدير القدير العليم الذي خالف بينه وبين أنواع الصنف الواحد وجعل بعضه مشتبهاً وبعضه غير متشابه صنفاً محكماً مفيداً للإنسان، ففيه آيات مفصلات تدل على أن الله هو الخالق القدير العليم.

وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَتْ بَغِيرَ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠﴾  
بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ

﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ كيف يكون تدبير صنعه من الشجرة التي تخالفه في شكله وطعمه ونفعه ويستمد منها غذاءه وكيف يكون حجمه وطعمه ولونه ﴿وَ﴾ انظروا إلى ﴿يَنْعِهِ﴾ إذا أينع وتم صلاحه للإنسان كيف يختلف عن صفته في حجمه ولونه وطعمه ونفعه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إنزال الماء من السماء وهو واحد، وإخراج نبات كل شيء على اختلاف النبات وتطوير النبات حتى تخرج منه الثمرات النافعات للإنسان من الحب، والتمر، والعنب، والزيتون، والرمان، على صفاتها حين تخرج من أشجارها وصفاتها حين يتم صلاحها ﴿لَآيَاتٍ﴾ مفصلات ودلائل بينات ﴿لِّقَوْمٍ﴾ من شأنهم أن يؤمنوا إذا رأوا الآيات، وسمعوا القرآن يعددها لهم، ويثير دفائن عقولهم ويذكرهم من غفلتهم، فأما المتمردون فما تغني عنهم الآيات، فتبارك الله رب العالمين لقد بين الآيات المفصلات الدالة على أنه الخالق الرازق الذي يستحق العبادة ويستحق الشكر على النعم العظيمة المتواصلة المتنوعة.

﴿وَ﴾ مع هذا كله ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَتْ بَغِيرَ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لما كانت الآيات الماضية تدل على بطلان الشرك وأنه ظلم عظيم عطف عليه ذكر ما عليه المشركون مع اختلافهم في الشرك من جعلهم شركاء لله وبين هؤلاء الذين جعلوهم شركاء بأنهم جن، وبين أن الله خلقهم رداً عليهم.

فالأقرب: أن الجن بيان لشركاء، وسوغ ذلك تطابق البيان والمبين؛ لأن التعريف لفظي لأنه لم يقصد به عموم الجن ولا الحقيقة المعهودة، أو أن عطف

البيان لا يشترط فيه التوافق في التعريف والتنكير بين البيان والمبين كما اختاره الرضي في (شرح الكافية) أو هو بدل وليس المبدل منه ملغي بل هو عمدة كما اختاره الرضي وغيره، والجن إما من كانوا يعوذون بهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجْلٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجْلٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهذا أظهر، وإما الملائكة.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال: قال في (البرهان): ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي أن مشركي العرب جعلوا الملائكة بنات الله شركاء له، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] فسمى الملائكة جنأ لاجتنانهم عن الأبصار» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الراجح: أن الضمير للجن، أي وخلق الجن فهم عباد الله مربوبون، لا شركاء له في عباده.

أما قوله تعالى: ﴿وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ ففي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: اختلقوا» انتهى، أي افتروا.

وقال الشرفي في (المصاييح) حاكياً عن (البرهان) للإمام أبي الفتح الديلمي: «أي كذبوا» انتهى، وفي (لسان العرب): «وخرق الكذب وتخرقه وخرقه كله اختلقه، قال الله - عز وجل - : ﴿وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ﴾ قرأ نافع وحده ﴿وَحَرَقُوا لَهُ﴾ بتشديد الراء، وسائر القراء قرأوا ﴿وَحَرَقُوا﴾ بالتخفيف، قال الفراء: معنى ﴿حَرَقُوا﴾ افتعلوا ذلك كذباً وكفراً، وقال: وخرقوا واخترقوا وخلقوا واختلقوا واحداً، قال أبو الهيثم: الإختراق والإختلاق والإختراص والإفتراء واحداً» انتهى.

ومعناه في (المصاييح) و(الكشاف): «وخرق البنين، جعل عيسى وعزيراً بنين، وظاهر الجمع: أن المشركين قد زادوا غيرهما، واختراق البنات قولهم في الملائكة (عليه السلام): بنات الله سبحانه.

كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾ لَا

وقوله: ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يفيد: قبح قولهم هكذا، من حيث أنه اختلاق وافتراء، ومن حيث أنه قول على الله بغير علم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه لله ودلالة على أن ما قالوه بعيد عن الحق؛ لأن التسييح تنزيه وتبعد عن النقص ﴿وَتَعَالَى﴾ علو الشأن والعزة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن وصفهم له بصفة المخلوق الضعيف وهو القوي العزيز، أي جل وعلا عما وصفوه به.

قال الشرفي في (المصابيح): فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا يبقى بين قوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ وقوله: ﴿تَعَالَى﴾ فرق؟

قيل له: بل بينهما فرق ظاهر، فإن المراد بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ إن هذا القائل يسبحه وينزهه عما لا يليق به، والمراد بقوله: ﴿تَعَالَى﴾ كونه في ذاته متعالياً مقدساً عن هذه الصفات... إلخ.

والظاهر عندي: أن مضمون التسييح: نفي النقص، ومعنى ﴿تَعَالَى﴾ إثبات الكمال وعلو الشأن والغلبة، ولعل هذا مراد الشرفي رحمته.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال في (الصحيح): «أبدعت الشيء: اخترعته على غير مثال، والله تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والبدیع المبتدع، والبدیع المبتدع أيضاً» انتهى المراد.

ومثله في (مفردات الراغب) ورجح في ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، ورجح (صاحب الكشف) أن المعنى: بديع سماواته، ولم يجوزه بمعنى مبدع، بل قال في هذا المعنى: وقيل: البديع بمعنى المبدع» انتهى.



والراجع: أن ﴿بَدِيعُ﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه استعمال كثير شائع بخلاف فعيل بمعنى مفعّل، ومع هذا يصير حاصل المعنى بالالتزام أنه تعالى مبتدع السموات والأرض؛ لأنها لما كانت مبدوعة لزم منه أنه مبدعها، أما مفهوم ﴿بَدِيعُ﴾ فالراجع: أنه راجع إلى اسم المفعول، نعم رجح (صاحب الكشف) أنه صفة مشبهة، فقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف كقولك: فلان بديع الشعر، انتهى.

وهذا أقرب، قال في (لسان العرب): «والبديع، والبذع: الشيء الذي يكون أولاً، وقال قبل هذا: وركي بديع حديثه الحفر - ثم قال -: وسقاء بديع جديد، وكذلك زمام بديع - ثم قال -: وحبل بديع جديد أيضاً، حكاه أبو حنيفة، والبديع من الحبال الذي أبتدئ قتله، ولم يكن حبلاً فنكت ثم غزل وأعيد قتله - ثم قال -: والبديع الزقّ الجديد» انتهى المراد، فهذه المعاني راجعة إلى فعيل بمعنى مفعول، إلا أنها صفات.

﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِبةً﴾ ﴿أَنِّي يَكُونُ﴾ من أين يكون ﴿لَهُ وُلْدٌ﴾ وهذا في نفي الولد أي ولد الصلب، وهو غير نفي اتخاذ الولد بالتبني، وفي نفي الولد بالتبني، فالكل منفي عن الله.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وُلْدٌ﴾ إما أن يكون مستقلاً بنفي الولد، فمعناه: من أين يكون له ولد وهو ليس له جنس فيتكثر بوجود فرع يتفرع منه، والولد إنما يكون من جنس الوالد، وهذا خاص بما يقبل الكثرة والقلّة، وما يقبل القلة والكثرة يقبل العدم، وما يقبل العدم لا يستحق القدم؛ لأنه ليس واجب الوجود فمن أين يكون لله سبحانه فرع وهو لا يقاس على المخلوقين؟

ولما أن يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ مرتبطاً بقوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ فيكون المعنى: أن الولد إنما يكون من الأنثى وليس لله أنثى يتهاى له منها ولد؛ لأنه ليس له صاحبة زوجة أو ما في معنى الزوجة، ولعل هذا كافٍ في نفي الولد؛ لأن المشركين لا يثبتون له صاحبة بمعنى أنثى يجامعها، فيكون له منها ولد، وإن أثبت بعض النصارى أنثى يكون فيها الولد الموجود عندهم من قبل، والذي هو عندهم ابن من قبل أن يكون في بطن مريم، بل هو عندهم قديم، والسؤال وارد عليهم ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾؟! ولم يوجد له بواسطة مريم، فليس جعله ابناً بأولى من جعله أباً؛ لأن الأب والابن عندهم قديمان، فلا وجه لجعل أحدهما أباً دون الآخر، وجعل الآخر ابناً دون من جعلوه أباً، وكذلك ابن التبي أنى يكون ولداً؟! فالتبني لا يثبت للمتبني الولادة فليس ولداً.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكل شيء مملوك له وهو رب كل شيء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ \* إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم: ٩٢-٩٣] وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] والعبودية تنافي البنوة التي معناها يستلزم المشاركة في الجنس ويستلزم للولد مكانة تنافي مكانة العبد، فهو رد على دعوى الولد وعلى دعوى اتخاذ الولد ما ليس ولدأ بالأصالة، ولهذا رد الله تعالى على المشركين بإثبات عبودية شركائهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا لنفي الولد بواسطة التبني؛ لأن من الغلط في الرأي والمنافي للحكمة أن يتخذ عبده ولدأ بجعله شريكاً له في ملكه،

تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا

فمن هو بكل شيء عليم لا يكون منه اتخاذ الولد؛ لأنه لا يغلط، ولا يجهل وجه الحكمة: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلق كل شيء فلا شريك له في مخلوقاته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهو رب كل شيء، فلا شريك له فيكم ولا في غيركم، والإله: هو المعبود بحق فلا تحق العبادة إلا لله؛ لأن معناها: اعتراف بالعبودية للمعبود.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لأنكم عباده وحده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فكلوا أموركم إليه لنفعكم ولدفع الضر عنكم فلا ترجوهما من غيره؛ لأنه لا يقدر على ذلك غيره وهو يقدر على كل شيء، ويعلم أحوالكم، وما تحتاجون إليه، وما ينفعكم وما يضركم، وهو مالككم والمتصرف فيكم كيف يشاء، فهو الوكيل على كل عباده الذي ينبغي أن توكل إليه أمورهم؛ لأنهم لا ينفعهم أحد إلا بإذنه، ولا يضرهم أحد إلا بإذنه، وما أراد لهم من نفع أو ضرر لا يدفعه غيره، فلا وكالة لغيره بهذا المعنى.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ تحقيق لكونه لا يقاس على المخلوقين، فالذين جعلوا له بنين وبنات توهموا أنه يشبه المخلوقين، فجوزوا له البنين والبنات، سواء بمعنى: أنه ولد بنين وبنات،

أو بمعنى: اتخذ بنين وبنات ليكونوا له ريحانة يلتذ بهم كما يلتذ الوالد بالولد ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] فقله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ تنبيه على مخالفته لكل ما تدركه الأبصار، فلا يقاس بال مخلوقين ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لأنه لا يخفى عليه شيء، وهذا تتميم لبيان الفرق بينه وبين المخلوقين، وعدم التشابه بينه وبينهم في الذات؛ لأنها جازت عليهم الرؤية وامتنعت رؤيته، فهذا وجه التمدح بها، فأما من يجعل ذلك لمجرد نفي الرؤية ويقول بإمكانها عليه فقد لزمه أن هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] سبحانه الله وتعالى.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ عن أن تدركه الأبصار ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بخبر كل شيء وغماض سره، فاللطيف هنا بمعنى الخفي كاسمه تعالى الباطن ومن استعمال اللطف في الخفاء قول الحجاج: للطف ما توسلت به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي يدبر لكونه من حيث لا يشعر المخلوق، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْتَلَطَّفُ وَلَا يُشْعِرَنَّكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩] أرادوا أن يترفق، بحيث لا يظهر بسبب إقباله أو تصرفه أو إداره.

وفي (لسان العرب): واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي، فتفسير ﴿اللطيف﴾ هنا بالخفي الذي لا يدرك بالحواس وإنما يعرف بآياته أنسب للسياق من حيث قابل ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ كما قابل ﴿الْخَبِيرُ﴾ ﴿يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وقد أفاده (صاحب الكشاف) وهو من أئمة اللغة العربية.

فأما تفسير ﴿اللطيف﴾ بلطيف التدبير، فهو يلزم منه أنه لا يصلح أن يقال له لطيف؛ لأن اللطيف تدبيره فيكون لطيف التدبير وصفاً جارياً على غير من هو له.

عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وقال (صاحب لسان العرب): «ومعناه [أي اللطيف] والله أعلم: الرفيق بعباده، قال أبو عمر: واللطيف: الذي يوصل إليك أربك في رفق» انتهى المراد. وهذا يستقيم في تفسير ﴿لَطِيفٌ يَعْلَمُ﴾ [الشورى: ١٩] بل هو الظاهر فيه لأجل تقييده بعباده، ولا يلزم اتفاق المقيد والمطلق كما لم يلزم في ﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] و﴿بَصِيرٌ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفي (مفردات الراغب): «وقد يعبر باللطائف [باللطيف] عما لا الحاسة تدركه، ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم» انتهى.

وجعل (اللطيف) بمعنى الخفي الذي لا تدركه الحواس، هو الذي يناسب جعل هذه الآية من البديع كما في (متن التلخيص) حيث جعله من مراعاة النظر، فقال: «ومنها [أي مراعاة النظر] ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه، نحو ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾» انتهى.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ قد جاءكم آيات بينات تهدي البصائر وتنير لها وتقويها، وتكشف عنها ظلمات الجهل وتحييها بإيقاظها للنظر الصحيح، فكان الآيات من هذه السورة ومن غيرها تفيد بصائر وتوجدها في القلوب، والبصيرة للقلب كالبصر للعين، وجمع البصيرة: بصائر، فقد جاء في هذه السورة ما يكفي ويشفي للهداية إلى إخلاص العبادة لله وتوحيده، ورفض الشرك وتقيحه.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ببصيرة قلبه واهتدى للحق ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر أي فائدة ذلك لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ قلبه بعد هذه الآيات فعلى نفسه ضرر ذلك العمى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن العمى وأردكم عن الردى، إنما أنا رسول الله لأبين لكم سبيل الهدى وأنذر وأبشر.

وهذه الآية جاءت على الحكاية لكلام الرسول ﷺ كما جاء على الحكاية لكلام الملائكة (عليهم السلام)، قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿[الصافات: ١٦٥-١٦٦] ولعل ذلك إشارة إلى أن الآيات في هذه السورة قد بلغت النهاية في بيان بطلان الشرك والتحذير منه، وفي إبطال الكفر فما بقي إلا التعقيب من الرسول ﷺ على ذلك الإحتجاج، والبيان الكافي بأنه قد جاء نوراً للبصائر.. إلى آخر الآية.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ كهذا التصريف للآيات في هذه السورة وتحويلها من أسلوب إلى أسلوب، وهي متفقة في المراد كالأيات في أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَدْعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ والآيات في إبراهيم والأنبياء (عليهم السلام)، ثم العودة إلى أسلوب أول السورة بشكل مخالف بعض المخالفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ إلى آية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وبيان جهلهم بالله وقياسهم له على المخلوق، وبيان الفرق بشكل قريب للأفهام يبطل القياس، فكذلك يصرف الله الآيات في القرآن في هذه السورة وفي غيرها.

﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ قال الشريفي في (المصاييح): «معنى ﴿دَرَسْتَ﴾ حفظت وأتقنت فكانوا إذا سمعوا ورأوا ما يجيء به رسول الله ﷺ من آيات الله - عز وجل - وتصرفه من أحكامه وبينه من حلاله وحرامه، قالوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ يريدون أنه محكم لما هو فيه دارس له يوهمون أنه عليه السلام، يتعلم ذلك ويدرسه من أخبار الأولين» انتهى.



وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا<sup>١</sup> وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

وقوله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا﴾ الراجع فيه: أنه مجاز شبه قولهم ﴿دَرَسْتَ﴾ بالغرض المقصود للدلالة على أن الله تعالى صرف الآيات القرآنية وهو يعلم أنهم يقولون من أجله درست، فكأنه صرفها ليقولوا درست، ومن فائدة ذلك: التنبيه على أن الله لا يبالي بقولهم هذا، ولا بضلالهم بعد البيان كما لو كان مقصوداً بالتصريف للآيات.

﴿وَلْتُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نصرف الآيات؛ لأن تصريف الآيات أبلغ في البيان فنصرفها لنبين القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيفهموا ويتفعموا، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي عادتهم أن يعلموا؛ لأن قلوبهم سليمة من موانع العلم.

﴿آتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ<sup>٢</sup> وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿آتَّبِعْ﴾ هذا القرآن وسائر ﴿مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ لأنه أوحى إليك فانت أولى من اتبعه؛ ولأنه من ربك المالك لك، فعليك أن تطيعه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فعليك أن تعبدته باتباع ما أوحى إليك منه ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ تنزهاً عن مخالطتهم وبعداً عن سماع باطلهم وتطهراً عن رجسهم، وليس المراد ترك إبلاغهم الحجة، بل المراد الجمع بين الأمرين الإبلاغ فالإعراض.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فلم يُعصَ مغلوباً، بل هو قادر على أن يحول بينهم وبين الشرك، ولكنه أراد أن يمكنهم من التوحيد والشرك، ويخليهم يختارون لأنفسهم؛ لأن حكمته في ذلك، فلا يحزنك شركهم.

اللَّهُ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ ۖ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ  
مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٠٩﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ فما عليك من شركهم أي ضرر ولا مسؤولية فلا تبال بهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ فتردهم عن الشرك إلى التوحيد أو تصنع فيهم ما اقتضاه رأيك، كما هو شأن الوكيل الذي وكل إليه أمر غيره، إن عليك إلا البلاغ.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ شركاءهم الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ عبادة لهم لاعتقادهم فيهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ كما سببتم آلهتهم عدواناً منهم ﴿بَغِيرَ عِلْمٍ﴾ بل بجهلهم وضلالهم عن الحق.

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلميل طباعهم إليه يغضبون من تقييحه؛ لأن من طبع النفس كراهة سب المحبوب، فأما نسبة التزيين إلى الله سبحانه وتعالى ففائدته الدلالة على أنه تعالى لا يبالي بهم ولا بشركهم، فأما معنى التزيين هنا، فلعله بفطرة النفس على حب ما تعودته وألفته أو اعتقدت أنه صواب ولو خطأ، ولعل مرجع حب العقيدة إلى حب النفس، وذلك من مقدمات الإبتلاء، فنسبة التزيين إليه بهذا المعنى مجاز وفائدته كفايدة نسبة الختم إليه تعالى مجازاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم رحمته الله: معناه: لما أملينا لهم كان إملأونا تزييناً لفعلهم، وإن كنا لم نرضَ مع الإملاء بعملهم، وإنما هذا على المجاز لا الحقيقة، ومعنى أن يكون التزيين من الله هو لما جعل وركب في أنفسهم من الشهوات التي جعلها محنة لهم ليفرق بذلك بين أوليائه وبينهم» انتهى.

جَاءَهُمْ ءَايَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ

أي ليفرق بين من اتبع هواه ومن خالف هواه طاعة لله ﴿ثُمَّ﴾ بعد تركهم يختارون لأنفسهم ما تهواه أنفسهم ﴿إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ ليجزيهم بما عملوا ﴿فَيَنْتِقِئُهُمْ﴾ يوم يرجعون إليه ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وبين لهم حقيقة حتى يعلم أهل الباطل أنهم كانوا في ضلال مبين، وأنهم كانوا كاذبين، أو ينبتهم: يعلمهم بما كانوا يعملون؛ لأنه لم ينس بل ﴿أَخْصَلَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وذلك في موضع الحساب والتقديم للعقاب، وهذا أظهر والكل واقع.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ ءَايَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا﴾ هذا القسم نوع من محاربتهم للرسول والقرآن؛ لأنهم يزعمون أنها لم تأتهم آية، ويجعلون آيات الله لا شيء، أي يجحدون أنها آيات، وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] و﴿جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أبلغ طاعتهم في المبالغة في الحلف.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول المرتضى عليه السلام: هذا إخبار من الله - عز وجل - عن أهل الكفر والنفاق والصد عن الحق والشقاق من أهل الكتاب وغيرهم، كانوا يحلفون بالله ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ ءَايَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ويصدقون بمحمد ﷺ عند إتيانها انتهى المراد.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى عليه السلام: فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ومعنى ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ إنما أراد بها من الله سبحانه.

مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥١﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ  
وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر سبحانه بما علم من سرهم وأحاط به من غامض كفرهم، وأنهم إذا رأوا الآيات لم يؤمنوا بها ولا عند المعاينة لها يصدقونها ولا يرجعون بها، ولقد جاءهم من الآيات والمعجزات مع رسول الله ﷺ ما ثبت له به النبوة والتصديق وزاح به الشك عنه وسوء الظن فلم يتنفعوا بذلك ولم يؤمنوا به، بل ثبتوا على كفرهم وأصرُّوا على معصيتهم.. إلى قوله عليه السلام: .. وإنما كان هذا منهم عبثاً وتمرداً وتعتاً لغير قصد الهدى ولا لطلب التقوى» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ جواب عن مطالبتهم بآية تدل على أنهم كانوا يحلفون مطالبة للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣] فأمره الله أن يجيب عنهم بأن الآيات ليست عنده ﴿إِنَّمَا﴾ هي ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بها متى شاء وذلك لأن مطالبتهم له بالآية مبني على كفرهم بكونها من الله تصديقاً له فرد عليهم هنا وفي (سورة العنكبوت). وقد مرَّ ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وهو يناسب ما هنا.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال في (الصحيح): «وقلبت الشيء، فانقلب: أي انكب» انتهى، وفي (لسان العرب): «القلب: تحويل الشيء عن وجهه - ثم قال - : وقلبه، وقلبه: حوله ظهراً لبطن، وقلبت الشيء، فانقلب: أي انكب» انتهى المراد.

فالمعنى: تغيير القلوب والأبصار عن حالتها الطبيعية، كأنها كُبت كما يكب الإناء فلا يعي شيئاً هذا في الأفئدة، أما في الأبصار فكبها يبطل اتجاهها

إلى المبصر فهي لكتبها لا تراه، وهذا مجاز لأن أفندتهم وأبصارهم لو كبت حقيقة لبطل فهمهم ورؤيتهم لكل شيء، ولذلك فهو مجاز كجعل الصدر ضيقاً.

وحاصل المعنى: أن أفندتهم وأبصارهم صارت بسبب إياهم وامتناعهم من الإيمان عند سماعهم للقرآن ووضوح أنه من الله أنزله مصداقاً لرسوله فلتمردهم عن الإيمان بعد وضوح الحق صارت أفندتهم لا تصلح للإيمان كأنها منكوسة؛ لأن معصيتهم أفسدتها ورائت عليها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قُلْ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ \* كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣-١٤].

فأما نسبة تغيير القلوب والأبصار هنا إلى الله تعالى، فلأنه تركها مع أنه فطرها قابلة للتغير والنفار من الحق، فلما تركها لأهلها يفسدونها بالتوجه إلى الباطل والتعود له واعتباره مطابقاً لأهوائهم وأغراضهم النفسية حتى كرهوا الحق ونفروا منه، كأنهم لا يستطيعون الرجوع إليه لفرط كراحتهم له، فاعتبر ترك الله لهم يفسدون قلوبهم إفساداً لقلوبهم، كما تقول: أفسد فلان ولده، إذا لم يؤدبه وأعطاه من المال والكسوة ولذات المأكول ونحو ذلك مع إهماله عن توجيهه الحسن والتربية الصالحة، فنسب إليه فساد ولده، واعتبر مسبباً له على طريقة المجاز.

فكذلك من هذه الجهة ترك الله للعصاة يفسدون قلوبهم جعل إفساداً منه لها مجازاً، إلا أنه من الله سبحانه وتعالى حسن؛ لأنه عقوبة لهم على تمردهم، وقد مر نحو هذا في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وأفندة: جمع فؤاد وقد فسر بباطن القلب في قوله تعالى: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ تَجَاهِلُونَ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ نتركهم في طغيانهم، والطغيان: تجاوز الحد المعتاد، نحو ﴿لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١] والعمه: الحيرة والتردد، قال الراغب: «العمه: التردد من التحير» انتهى.

وفي (لسان العرب): «العمه: التحير والتردد - ثم قال -: قال رؤية: ومهمه أطرافه في مهمه - أعمى الهدى بالجاهلين العمه»

انتهى المراد. وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يفيد: أنه لا يهديهم بعد فساد قلوبهم، فهو فساد مستمر لا يكون بعده إيمان.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ هذا بيان لكذب الذين أقسموا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فبين تعالى: أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم الآيات العظيمة المذكورة فأنزل الله ﴿إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ﴾ مصدقين للرسول ﷺ ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ أي كلم هؤلاء الخالفين الموتى، فقالوا لهم: إن محمداً ﷺ نبي صادق، وحشر الله عليهم كل شيء مصداقاً له ﷺ.

﴿وَحَشَرْنَا﴾ أي أخرجنا، وهذا عام للأحياء والأموات، فالحشر للأحياء: إخراجها من أماكنها ومكانها كأجرة السباع وأوكار الطيور، والحشر للأموات: إخراجهم من بطن الأرض، وإخراجهم - أيضاً - من أماكنهم بالبعث والإقبال بهم إلى هؤلاء الذين أقسموا، فقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ عام لكل المخلوقات من الحيوانات والجمادات، لو حشرها الله على هؤلاء الذين أقسموا مصدقة للرسول ﷺ ما آمنوا.



وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي لم يكن من شأنهم مبالغة في النفي، كقول إبليس لعنه الله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ [الحجر: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿قَبْلًا﴾ قرئ [بكسر القاف، وفتح الباء] قال الراغب: ومن قرأ ﴿قَبْلًا﴾ فمعناه: عياناً، ومثله في (الصحيح)، وقرئ ﴿قَبْلًا﴾ [بضم القاف والباء] قال في (الصحيح): قال الأخفش: أي قبلاً، قال في (الصحيح): «والقبيل: الجماعة، تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى، مثل الروم، والزنج، والعرب، والجمع: قُبُل» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أصنافاً» قال في (الصحيح): «وقال الحسن: معانية» انتهى، فجعل معنى القراءتين واحدة، ومعنى: معانية، أن يعاين هؤلاء الذين أقسموا كل شيء محشوراً عليهم قد جاءهم مصداقاً للرسول ﷺ ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: وإنما قال ذلك - عز وجل - دليلاً على قدرته عليهم، وأنهم لا يمتنعوا [كذا] بغلبة، ولكنهم اختاروا هلاك أنفسهم، إذ مكنهم من الاختيار لفعلهم» انتهى.

قلت: فالمعنى لكنه شاء أن يخليهم يختارون لأنفسهم ويذرهم في طغيانهم ﴿وَلَيْكِنَّ أَكْثَرَهُمْ جَاهِلُونَ﴾ ظاهر الضمير عوده إلى الذين أقسموا أي ﴿جَاهِلُونَ﴾ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم تلك الآيات العظيمة، فهم عازمون على الإيمان لو جاءتهم آية كما يريدون، ولكن الله عليهم بهم وبما يكون منهم لو جاءتهم، وقد بين سبحانه: أنهم لا يؤمنون ولو جاءت آية كما يقترحون، فلم يكن من الحكمة إجابتهم إلى ما اقترحوا، ولأن الله غني عن إظهارها لبيان كذبهم.

رُبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ

﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٣﴾ وَكَذَلِكَ ﴿١١٤﴾ وكما مكنا هؤلاء الكفار من معاداة الحق وسبينا لها ببيان الحق الذي يغیظهم حتى إنكم لو سببتم الذين يدعون من دون الله لسبوا الله، وحتى أقسموا جهد أيمانهم ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ جحداً لنزول الآيات البينات من القرآن وغيره ملكنا الكفار قبلهم الذين عادوا الأنبياء وجادلوا بالباطل وسبينا لمعاداتهم لهم بما أوحيناه إلى الأنبياء من الحق الذي يكرهه الكافرون ويبغضون من جاء به، كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ﴾ مفعول لـ (جعلنا) أي جعلنا شياطين الإنس عدوًّا، أو عطف بيان كما قدمت في ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] من أنه لا يشترط التطابق في التعريف والتنكير على ما اختاره الرضي.

والشيطان: قال في (الصحيح): «والشيطان معروف، وكل عاتٍ من الإنس والجن والدواب شيطان، قال جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزل      وهن يهوينني إذ كنت شيطاناً

والعرب تسمي الحية شيطاناً» انتهى المراد.

ولعله خاص بما يضر بطريقة خفية، كمن يغوي بتضليله أو بمكره وكيده أو حيلته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي﴾ أي يوسوس أو يقول بطريقة خفية كما هي عادة المضلل يخفي تضليله لئلا يكشف باطله، وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لعله أظهر في وسوسة الجن للإنس، والزخرف: الزينة، فزخرف القول: ما زينوه بوجه مرغّب في قبوله، والغرور: ما يغتر به كما أفاده في (الصحيح) أي يخدع به الغافل صفة لزخرف القول.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي أنه أراد أن يخليهم وشأنهم، ولو شاء لسلبهم القدرة على ذلك فلم يفعلوه، فهو تعالى لم يعص مغلوباً، والضمير لما ذكر من العداوة والوحي ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ذرههم) أي دعهم أي اتركهم وما يفترونه مما يوحى بعضهم إلى بعض، أي اتركهم مع باطلهم أي كل أمرهم إليّ ولا تشتغل بهم، فليس عليك إلا تبليغهم وقد بلغتهم فعادوك وخادعوا ليبتلوا الحق، والواو في قوله: ﴿وَمَا﴾ واو المعية.

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ (تصغى) تميل ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى ما يفترون الذي هو زخرف القول، أو إلى زخرف القول ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فلا يخافون العذاب، فلذلك تميل أفئدتهم إلى سماع الباطل من شياطين الإنس والجن؛ لأنه لا غرض لهم في طلب الحق، ويرضوا زخرف القول ليرغبوا فيه ويقبلوه ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ وليكتسبوا من الإثم بسبب قبولهم لزخرف القول ما هم مكتسبون، أي جعلنا لكل نبي عدواً يفسدون ويضلون ويفترون ﴿لِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ أي أرسلنا وأوحينا ما يغيظ الشياطين فيكونون أعداء للنبي ليترب عليه ما ترتب من محاربتهم للدين وإضلالهم لغير المؤمنين.

أَبْتَنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ  
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ  
﴿١٧﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ

(واللام) إما للتعليل المجازي، أي شبه ذلك بالغرض المقصود في أن الله تعالى أنزل الحق الذي يغيظهم وهو يعلم ما يترتب عليه منهم لكنه لم يبال بهم لغضبه عليهم واستغنائه عنهم، حتى كأنه يريد ذلك منهم، فأكد الدلالة على عدم المبالاة بهم باللام تشبيهاً له بإرادة ما يكون منهم في أنه لم يصرفه عن إنزال الحق الذي يغيظهم، وإما (لام العاقبة) كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] والأول أرجح في هذا السياق.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم رحمه الله: هذا يرجع إلى قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ \* وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ ولكنه من التقديم والتأخير، (والواو) من قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ ليس لها معنى إلا الصلة والزينة للكلام، ومعنى ﴿لِتَصْغَىٰ﴾: أي فعل الشياطين ووحيمهم وكلامهم، وزينوا [كذا] كذبهم ومحالهم لتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوا ذلك ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي ليكتسبوا من الكفر ما هم مكتسبون، أي ليكتسبوا ما كسب شياطينهم، ومعنى ﴿مَا هُمْ﴾ ها هنا اسم لشياطينهم» انتهى، يعني: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿مَا هُمْ﴾ راجع إلى الشياطين.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾  
قد حكم الله بإخلاص العبادة له ورفض الشرك، كما تسمعون في هذه

السورة حكماً مبيناً محفوفاً بالحجة الصحيحة ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً﴾  
أفغير أحكم الحاكمين، وأصدق القائلين، وعلام الغيوب الذي هو الله  
﴿أَبْتَغِي﴾ أحداً شأنه أن يحكم، وأعدل عن الله الذي قوله الحق إلى غيره  
ليحكم ببطلان الشرك أو صحته؟!

وهذا كقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾  
[يوسف: ٤٠] فهو تنبيه وتعليم للجاهلين إنه ليس لمخلوق أن يقول في إثبات  
الشرك بما شاء، فالمقلدون لأبائهم في الشرك اعتمدوا على قول آبائهم بغير  
الحق؛ لأنه ليس لأبائهم أن يحكموا بما شاءوا ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد مر في  
السورة هذه، إلا أنه في هذه الآية كالتفريع على ما مر.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ وهو الذي أقام الحجة، وأتم  
النعمة بأن أنزل إليكم القرآن مفصل المعاني، كقوله تعالى: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ  
فُصِّلَتْ﴾ [مرد: ١] أي واضح الدلالة على سبيل الهدى فقد حكم بالحق وقطع  
العلة، فكيف أعدل عنه حكماً إلى غيره بلا برهان، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ  
إِلَيْكُمُ﴾ ولم يقل: (إلي) ليدل على أنه قد حكم بيني وبينكم بالقرآن الذي  
أنزله خطاباً لكم وحجة عليكم.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَالَّذِينَ  
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ علماء بني إسرائيل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا الكتاب ﴿مُنَزَّلٌ  
مِّن رَّبِّكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والصواب، فهو الحق وخلافه الباطل.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ من الشاكين وهذا خطاب للنبي ﷺ  
يقصد به غير النبي ﷺ؛ لأنه عطف على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ  
إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾.

أَلْعَلِيمُ ﴿١٦٥﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وما أحسن قول المرتضى عليه السلام ذلك، فإنه قال: لم يكن محمد ﷺ من الممترين، ولم يخبر الله سبحانه أنه من الممترين، وإنما قال: لا تكن منهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وهو فلم يشرك ﷺ، وهذا في اللغة جائز...» إلخ.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قرئ ﴿كَلِمَتُ﴾ بالإفراد و﴿كَلِمَاتُ﴾ بالجمع، وهو من العطف على قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾ من حيث هو حكاية لكلام النبي ﷺ، بمعنى: قل: أفغير الله، أو تقول: أفغير الله أبْتَغِي حَكْمًا، فأكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ فكلماته سبحانه: أحكامه فيما أنزل من الكتب، ومنها: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [مرد: ١٤] وأمره: بأن لا نعبد إلا إياه، وكلمته هي هذه التي توارثها الأنبياء، أنزلها على الأنبياء أولهم وآخرهم ﴿صِدْقًا﴾ في معناها ﴿وَعَدْلًا﴾ في قضائها ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ كقوله فيما مر: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤] لأنه الحق لا يبدل لأن خلافه باطل ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لا يخفى عليه قول ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ولعله وعيد على من خالف حكمه تعالى من شياطين الإنس والجن وغيرهم.



﴿وَأِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ هذا - أيضاً - راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ و﴿أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ المشركون وسائر المبطلين، فقد انتشر الشرك في الأرض باختلاف صورته في العرب والعجم وفي أهل الكتابين وغيرهم، وكذلك انتشر الباطل وشاع في الأرض باختلاف أنواعه تبعاً لاختلاف الأهواء، وللجهل، وللشياطين.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ في دياناتهم ومللهم ونحلهم ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ لا البرهان ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ليسوا علماء إنما هم أهل تخمين وتقدير وظن كخرص الثمر وذلك لا يفيد علماً ولا ينجي من الضلال، بل بسببه وقع الضلال والإضلال من التابع والمتبوع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يظنون ويكذبون» انتهى.

قال الراغب: «وحقيقة ذلك: أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال [له]: خرص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه» انتهى المراد.

ولعله يقال: الأولى تفسير ﴿تَخْرُصُونَ﴾ بيكذبون لأن الظن قد ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ والجواب: أن قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ كلام في مستندهم، وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ كلام فيهم أنهم ليسوا أهل علم في أباطيلهم ولا معتمدين على بينة معلومة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ فدل ذلك على أن أكثر أهل الأرض لا يعتمدون على كتاب من الله ولا مستند شرعي.

عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ آسَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ آسَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

وهذا وإن كان قد فهم من قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ لكن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يوضح أنه ليس لهم أصل معلوم يعتمدون عليه في ظنهم، كمن يعتمد على دليل صحيح في أنه من الله، ولكنه إنما يظن دلالته على ما يرى فليسوا كذلك، بل ليسوا أهل علم ولا بينة من الله وإنما هم يخرصون، فقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ كلام فيما يتبعونه.

وقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ كلام فيهم ببيان جهلهم بما يصح اعتماده - والله أعلم، هذا ويحتمل: أنه بمعنى يكذبون، فقد ثبت استعمال الخرص بمعنى الكذب والكذب وسيلة من وسائل الإضلال، وقد قال تعالى: ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤] لكنه سبب للضلال خاص بالسامع فأما الكاذب نفسه فليس سبباً لضلاله، والكلام عام لأكثر أهل الأرض لبيان سبب ضلالهم، فليتأمل.

﴿إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وقد أعلمك بضلال أكثر من في الأرض وأعلمك بسبيل الإهداء، فاستمسك بالذي أوحى إليك.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ آسَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ تفريع على قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ وتأکید ذلك بما عطف عليه لبيان أن حكم الله هو الحق، والتأكيد بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا نحرّم ما حرم الجاهلون من الأنعام التي كانوا يحرمونها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وهذا ابتداء رد عليهم في هذا الشأن بعد الرد عليهم في الشرك.

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١١﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَثَمِ

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَا لَكُمْ﴾ كلمة إنكار واستبعاد، مثل: ﴿مَلِكٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَيِّرُهُ﴾ [الكهف: ٤٩] وهي سؤال عن السبب لترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ وقد بين لكم ما حرم عليكم بياناً كاملاً ولم يحرم عليكم تلك التي حرمتها الجاهلية ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والاستثناء من الضمير المحذوف الذي هو عائد الموصول أي حرمه عليكم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فقد أحله، وقد تكرر في القرآن الأمر بالأكل مما ذكر.

والراجح: أنه كناية عن استحلاله؛ لأن الغالب في السامعين أن لا يمتنعوا من الأكل منه إلا لاعتقادهم تحريمه أو شكهم فيه إذا لم يؤمنوا، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين بما أنزل الله لا يرتابون في حل ما أحله الله وإن حرمه آبائهم، وإذا استحلوه أكلوا منه متى وجدوه لتوفر الداعي وعدم الصارف.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قرأ نافع بفتح ياء (يُضِلُّونَ) ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الإنس والجن ﴿لِّيُضِلُّونَ﴾ عن طريق الصواب ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ التي يتبعونها، فتضلهم عن سبيل الله ﴿بِغَيْرِ﴾ استناد إلى ﴿عِلْمٍ﴾ وهذا لا ينافي اعتمادهم على الظن والحرص لأن اعتماده مما يهوون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿بِالْمُعْتَدِينَ﴾ للحق الظالمين بتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فهذا اعتداء في ملك الله.

وَبَاطِنُهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾

قال الراغب: «والإعتداء: مجاوزة الحق، وقال في (الصحيح): «والعدوان: الظلم الصراح، وقد عدا عليه، وتعدى عليه، واعتدى، كله بمعنى» انتهى، وهذا أقرب فتسمى مجاوزة الحق: اعتداء، من حيث هي ظلم فربك أعلم بالمعتدين؛ لأن علمه محيط بهم، وباعتدائهم، وبسبب اعتدائهم، وبسرهم ونياتهم، فاستمسك بخبره عنهم.

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ﴿ذَرُوا﴾ اتركوا ﴿ظَهْرَ الْإِثْمِ﴾ ما يظهر للناس من بعضهم ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ ما يخفى بإسرار أو كتمان، أو بإضمار في القلب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ قال في (الصحيح): «الإثم: الذنب» انتهى.

وعلى هذا: فهو عام يدخل في عمومه الفواحش والبغى، وكسب الذنب: تحمله، والإقتراف: الإكتساب هنا، وأصل الكسب العمل لتحصيل الرزق، فاستعمل في كسب الإثم لأن الإنسان يطلبه كأنه فائدة يستفيدها، أو هو تهكم بالمدنب، أو مشكلة تقديرية، لأن الذي ينبغي للإنسان أن يسعى لما ينفعه، والمدنب جعل الذنب بدلاً مما ينفعه، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يفيد التكرار، فيدل على أنه لا يدخل في عمومه صاحب الزلة الذي لا يصر عليها.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعم الميتة ونحوها، ويعم ما أهل به لغير الله ولم يذكر عليه اسم الله.

قال الشريفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام: فنهاهم الله سبحانه عن أكل ذبائح الملحددين والجاحدين المشبهين والكفرة المتمردين؛ لأن هؤلاء كلهم غير عارف بالله - عز وجل - ولا مقر، وإنما يعرفه من آمن به وصدق رسله ووحدته، وذبائحهم فميتة غير ذكية لا يحل أكلها، ولا يسع مسلماً الإنتفاع بها» انتهى.

قلت: يعني: أن المشبه غير عارف بالله، فهو إذا سمى يعبر باسم الله عن الصورة التي يتوهمها، فلم يسم الله على الحقيقة.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الذبائح): «فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فحرم بذلك الميتة وما ذبحت الجاهلية لغير الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ يريد: أن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فمعصية» انتهى.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ﴾ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ الأقرب: أن المراد شياطين الجن يوسوسون إلى أوليائهم من الإنس الدعاة إلى ما هو اتباع الشياطين ﴿لِيُجْدِلُواكُمْ﴾ ليغالبوكم بما يوسوسون به من الشبهة والتبليس والتغريير والخداع ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ وإن وافقتموهم على ما جادلوكم لأجله وسلمتم لهم تحليل ما لم يذكر اسم الله عليه ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بتحليل ما حرم الله؛ لأنكم جعلتم الحكم لغير الله، وهو إشراك في ملك الله لغير الله سبحانه.

وقد أكد الحكم بالشرك بـ (إن) و (اللام) فيبعد حمله على المجاز، مع أن الأصل الحقيقة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] فظهر: أن جعل الحكم لغير الله من الشرك الأكبر الذي هو شرك العدل بالله سبحانه.

أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا

﴿١٢٢﴾ ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ هذه الآية الكريمة تبين: أنه لا يستوي من هداه الله للإيمان وعلمه القرآن وسائر ما جاء به الرسول ﷺ، ومن لم يزل في الجاهلية الجهلاء قد أصرَّ على الكفر حتى خذل، فهو لا يزال في ظلمات الجاهلية ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فكأنه في الظلمات لا يبصر الطريق ولا يزال فيها، فقد تراكت عليهم الظلمات: ظلمة الجهل البسيط، وظلمة العقائد الباطلة من الشرك وغيره، ظلمة الجهل المركب، وظلمة الأثام، والظلم التي ترين على القلوب، وظلمة الحواجز بينهم وبين الإيمان من الكبر والحسد والتعصب للأباء ولدينهم الذي نشأوا عليه، وتزيين الشياطين لهم ما هم عليه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا﴾؟! سؤال إنكاري، أي لا يكون من كان ميتاً بالجهل أو بالكفر ﴿فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ هديناه للإيمان فصار مؤمناً حي القلب بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ علمناه ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعمل بالخير مع المؤمنين ويكون مع الصادقين ﴿كَمَن﴾ صفته أنه ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

قال في (الكشاف): «ومعنى قوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كمن صفته هذه، وهي قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ﴾ [محمد: ١٥] أي صفتها هذه، وهي قوله: ﴿فِيهَا أَنهَارٌ﴾ انتهى، فعلى هذا الظلمات مجاز عن الجهل والشرك وسائر ما ذكرت.



فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما زين لهذا الذي في الظلمات ما كان مستمراً عليه ألفاً له من أعماله الباطلة ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ كلهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولعل الكلام الأول في شياطينهم، أو في كبير شياطينهم كأبي جهل، فقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما فهم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو أنه قد زين له ما كان يعمل.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وكما جعلنا هذا الذي في الظلمات حيث هو أي في مكة ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وجعلهم في كل قرية: إسمكانهم فيها حتى صاروا أكابر مجرميها ليمكروا بأهل الحق وبتابعهم من مجرميها، وهذه (اللام) مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَتَصْنَعُنَّ﴾ وقد مرّ قريباً مبسوطاً.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يضر المؤمنين مكرهم فالخصر إضافي، أو الضمير في أنفسهم راجع إلى ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] وهذا لأنهم يضلون بالمكر من يتبعهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ \* مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ \* إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يشعرون أنهم لا يضر مكرهم إلا من هو مثلهم في الإجرام، والأول أرجح، فالمعنى: إنهم يمكرون ضد الإيمان ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هذا المكر ﴿إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن إثمهم عليهم لا يتعداهم، فهم يمكرون بأنفسهم يحتالون في تعذيبها وما يشعرون بذلك.

رِسَالَتُهُ<sup>١</sup> سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup> اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٧٥﴾ قال الشريفي رحمته: «قال المرتضى عليه: هذا إخبار من الله - عز وجل - عن الظالمين الخونة الكافرين أنهم إذا جاءتهم آية من آيات الله سبحانه مع محمد صلوات الله عليه وآله وسلم تبهر العقول وتصحح النبوة ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّى نُؤْتَى﴾ مثلها كما أوتيتها فإذا أوتينا ذلك آمنا وصدقنا أنه من الله - عز وجل - فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أراد أنكم لستم في موضع الرسالة ولا منزلة الطهارة، ولا بأهل ثقة ولا أمانة، فاختار الله سبحانه لرسالته وما أنزل من حجته محمداً ﷺ؛ لأمانته، وفضله، ومعرفته بالله - عز وجل - وقدره عنده، وقد يروى أن الذي قال هذه المقالة: الوليد بن المغيرة المخزومي وأبو مسعود الثقفي» انتهى [أي كلام المرتضى الذي حكاه في (المصابيح)].

وقد مر في السورة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيحتمل أن هذا الجواب هو المراد في هذه الآية، أو كلا المعنيين، وهذا أظهر لاختلاف سبب الجواب، وما ذكره المرتضى عليه من قوله: إنكم لستم في موضع الرسالة، تفيده الآية بطريقة التعريض ومعونة الحال.

فأما أصل السياق فهو يدل على أن محمداً ﷺ أهل للرسالة وأن غيره لا يصلح أن توضع فيه الرسالة، وفيها مدح عظيم لرسول الله ﷺ من حيث دلت على أن الله اختاره للرسالة لأنه محلها الذي يصلح لها.

يُرَدُّ أَنْ يُضِلَّهُ، تَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ۚ  
كَذَلِكَ تَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهَذَا

وقد روي عن رسول الله ﷺ الدعاء بين الجلالتين: «اللهم أقل العثرة، واغفر الزلة، واغسل الحوبة، واقل التوبة، وتجاوز عن الخطيئة، وارحم من لا ناصر له سواك» وهذا الدعاء خضوع لله تعالى، وابتعاد عن العجب أو الفخر، كما قال نبي الله نوح عليه السلام، فيما حكاه الله عنه: ﴿وَقُلْ ارْكَبُوا فِيهَا..﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿صَغَارٌ﴾ حقارة وهوان وذلة وهو جزاء مناسب لتكبرهم عن الإيمان، ومكرهم ضده، والذين أجرموا الذين جنوا وأذنبوا وقوله: ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ عند لقاء الله في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بما تكرر منهم من المكر كله لا يضيع منه شيء، ولعل هذا راجع إلى ما حكاه الله - عز وجل - عن شياطين الإنس والجن وعن أكابر المجرمين وعن القائل: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتَى بِمِثْلِ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وعيد على الكل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ تَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية وتفسيرها يقول القاسم عليه السلام: تأويلها من يرد الله أن يرشده فيزيده هدى على هدى؛ لأنه لا يعطي الهداية إلا من اهتدى، كما قال تبارك وتعالى في زيادته لهم هدى إلى هداهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [عمد: ١٧] والتقوى فمن الهدى، وآتى فمعناها: أعطى، فهو آتاهم التقوى بتبصرته وتقويته لهم على ما عملوا منها، وبمنعه لهم تبارك وتعالى من الضلالة ونهيه لهم عنها.

وليس بين الضلال والهدى منزلة هادية لأهلها ولا مضلة ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ بعد الهدى ﴿يُشْرَحْ﴾ يريد يفسح ﴿صَدْرُهُ﴾ للتقوى ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ بعد الضلالة والعمى ﴿يَجْعَلْ صَدْرُهُ﴾ بما اتبع من الضلالة والهووى ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يفعل الله بأهل الضلالة والاعتداء» انتهى.

وقال الشرفي حاكياً عن المرتضى، عن أبيه الهادي عليه السلام في جملة كلام: «وأما تضيق الصدر الذي ذكر الله سبحانه أنه يفعله بعده، فإنما ذلك خذلان من الله لأهل المعاصي على ما يكون من جرأتهم على الله - عز وجل - وإقدامهم على معاصيه، فإذا حادوا الله وخالفوه وبإظهار المعصية باينوه خذلهم وتبرأ منهم فعدموا التوفيق، فضاقت صدورهم واختلطت عليهم أمورهم بما استجلبوه في معصيتهم جزاء على فعلهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] والله تعالى ليس يظلم عبده، ولا يخرجهم من طاعته، ولا يدخلهم في معصيته، بل طريق الرشدهم هداهم، وسبيل نجاتهم آتاهم، كما قال - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] انتهى المراد نقله من (المصابيح).

وأما ﴿حَرَجًا﴾ فقال في (الصحيح): «مكان حرج، وحرج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية» انتهى.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فاستحقوا بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر، أن يضيق صدورهم عن الإسلام فيثقل عليها، لا بمعنى أنه يخلق الكفر فيها ولا يجبرهم عليه، ولكن يكرهونه لثقله ولضيق صدورهم عنه وعدم رغبتهم فيه، فجعل الرجس هو الإضلال المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾.

صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۖ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٦﴾ هُمْ دَارُ  
السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

فيكون حاصل المعنى: كذلك يضل الله الذين لا يؤمنون، وسمى الضلال رجساً لقذارته، من حيث كونه كالسبب للعصيان والإستمرار على ترك الإيمان. وقد فسر الإمام الهادي عليه السلام جعل الصدر ضيقاً بالخذلان المؤدي إلى الضيق، وذلك لأن الشياطين تزين له الباطل، وتذكره ثقل الإيمان لما فيه من التكليف لرفض الهوى وتحمل التكليف الشرعية والخضوع للحق ورفض الكبر والحسد، وتوسوس له أنه لا يستطيع هذا في حال أنه فاقد للطف قد خلقي بينه وبين شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ \* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿الزخرف: ٣٦-٣٧﴾.

فنسبة التضييق إلى الله كنسبة الإفساد للولد إلى والده إذا أهمل تربيته وتركه يتبع هواه، إلا أن تضييق صدر الذي لا يؤمن حق؛ لأنه عقوبة على تمرده على الله، وفي هذا الكلام دلالة على أن الله غني عنهم لا يبالي بضلالتهم، وأنه قد غضب عليهم وفي ذلك غاية التحذير من التعرض للخذلان.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ طريق ربك أي سنته في الهداية والإضلال ليس له طريق غيره وهو صراط مستقيم لا عوج فيه؛ لأنه إحسان إلى المؤمن وعدل في الكافر ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي قد بينا الآيات بيان تفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ بتذكير الله لهم ويتبهون من غفلتهم ببيان الله لهم فهم الذين يتفعلون بالآيات، وقد فصل الله في هذه السورة وبين عظمته وجلاله واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، وبين سبيل المشركين، وبين ضلالتهم واستحقاقهم للإضلال، وفصل الكلام في ذلك تفصيلاً نافعاً للمؤمنين، وكذلك في غير هذه السورة من القرآن الحكيم.

يَمَعَشَرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْاِنْسِ وَقَالَ اَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْاِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا اَجَلَنَا الَّذِي اَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٰىكُمْ خٰلِدِينَ فِيهَا اِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ اِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذٰلِكَ نُوَلِّى

﴿هُم دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ للقوم الذين يذكرون ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ وهي الجنة التي وعد المتقون، فهي دار السلامة من كل شر ومن كل ضر ومن كل عناء ومن كل هم وغم ومن كل مكروه، قال الشرفي في (المصاييح): «ومعنى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في ضمانه، كما تقول: لفلان عندي حق» انتهى المراد.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي ربهم ﴿وَلِيُّهُمْ﴾ المتولي لرعايتهم وإصلاح شأنهم وصرف كل مكروه عنهم، وإعطائهم من الثواب ما فيه سعادتهم ومن فضله ما يشاء بسبب ما كانوا يعملون في الأيام الخالية، أي أعمالهم الصالحات التي كانوا يعملونها.

﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ واذكر يوم نحشر العباد الذين هديناهم والذين أضللناهم، مجموعين في موقف العرض على الله فنقول:

﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْاِنْسِ﴾ أخذتم من الإنس أتباعاً لكم كثيراً، وقد روي أنهم من بني آدم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون.

﴿وَقَالَ اَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْاِنْسِ﴾ أولياء الجن من الإنس، والمراد بالجن:

شياطينهم، وفي هذا دلالة على كثرتهم بالنسبة إلى الصالحين منهم حتى كأن

الصالحين غير موجودين لقلتهم، وكان شياطينهم هم الجن كلهم، فقال

﴿اَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ أي أتباعهم الذين صاروا معهم في الدنيا ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ

بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتعنا بهم واستمتعوا بنا، أي نلنا بهم أي بسببهم

أغراضاً دنيوية تهواها أنفسنا، ونالوا بنا أغراضاً لهم تهواها أنفسهم، أي

بسببنا، فكأننا طلبنا بهم متاعاً لنا، وكانهم طلبوا بنا متاعاً لهم.



﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ ﴿وَبَلَّغْنَا﴾ نحن والجن ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ والراجح: أن الأجل هنا أجل الحياة الآخرة، وموعد لقائهم لربهم إقرار منهم بذلك حين لا ينفعهم الإقرار، والأجل الواحد: هو موعد لقائهم لربهم ووقوفهم موقف الحساب.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قُلْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فرتب على إقرارهم ببلوغ الأجل إخبارهم بأن النار مثواهم أي مقرهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا مدة الموقف والسؤال فيه والحساب وما يكون فيه من الإحتجاج عليهم، فهو استثناء من المدة المفهومة من قوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لأنه لولا الإستثناء لكان معنى الكلام: أنها مقرهم باقين فيها من الآن.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): وهذا الإستثناء منه في مدة العرض يوم القيامة، وذلك ما بين بعثهم من قبورهم إلى حين مصيرهم إلى جهنم، فكأنه قال: النار مثواكم إلا في هذه المدة التي ذكرها، فإنهم فيها غير خالدين [في النار]...» إلخ كلامه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يجزي على مقتضى الحكمة، ولا يهمل الجزاء بعد تمكينهم في الدنيا من أسباب العذاب من الشرك والظلم وأنواع الفساد في الأرض، وقد علل بعزته وحكمته تعالى في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يفيد: علمه باستحقاقهم العذاب الدائم، وعلمه بما عملوا في الدنيا مما استحقوا به العذاب.

بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٦﴾ يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

﴿وَذَٰلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿نُؤَلِّى﴾ فجعله والياً عليه يستحوذ عليه ويكون له عليه سلطان وقوة على إغوائه، وذلك بالتخلية والتمكين من غير سلب القدرة عن التابع ﴿وَذَٰلِكَ﴾ وكما ولينا شياطين الجن أتباعهم من الإنس ﴿نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ من الجن أو الإنس ﴿بَعْضًا﴾ من الجن والإنس ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي عقوبة بذنوبهم التي كانوا يكسبونها أي تكررت منهم واستمروا وأصروا عليها حتى استحقوا الخذلان والتسليط عليهم، وهذه الآية الكريمة جملة معترضة بين قصة المشركين يوم الحشر.

﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ هذا تصوير لموقف المشركين يوم الحشر من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا سؤال احتجاج عليهم بأن الرسل قد جاءتهم يبينون لهم آيات الله الدالة عليه وعلى توحيده وعلى بطلان الشرك، وينذرونهم ملاقة يوم حشرهم وما فيه من العذاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ قيل: المراد من جملتكم تعرفونهم ويمكنكم التعلم منهم وهم من الإنس، والظاهر: أن الرسل من الثقلين ولا ينافية أن محمداً ﷺ رسول إليهم كلهم؛ لأنه يصدق بالرسول من قبله، ولا مانع من وجود رسل من الجن قبل محمد ﷺ فلا موجب للتأويل.

وقيل: الرسل يعم رسل الله ورسلهم، فرسل الله من الإنس، ولهم رسل من الجن يبلغونهم فيقصون عليهم الآيات وينذرونهم وحثتهم حجة رسل الله، وهذا قريب إلا أن المتبادر من الرسل رسل الله، وليس في القرآن أنهم أرسلوا إلى الجن رسلاً من الجن.

فأما قوله تعالى: ﴿وَأَذْصَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَلَوْ أَنَّ قَوْمَهُمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فليس فيه أن محمداً ﷺ أرسلهم.

فإن قيل: هم رسل الله - أيضاً - إلى قومهم؛ لأنه وجب عليهم التبليغ؟ قلنا: هذا لا يثبت لهم اسم الرسالة من الله حقيقة، كما أن الطائفة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] لم يثبت لها اسم الرسالة من الله، وكذلك المبلغون من العلماء بعد الرسول ﷺ لا يقال لهم: (رسل الله) ولذا قال بعض المشركين: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي من الوحي إليهم وإيتائهم الصحف المطهرة، فرد الله عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فظهر: أن اسم الرسالة خاص بمن أوحى الله إليه شريعة ليلبغها.

وقوله تعالى: ﴿يَقْصُصُونَ﴾ كقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ [الزمر: ٧١] لأنهم يبلغون آيات الله كما جاءت الرسل من الله، قال الراغب: «القصص: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره - ثم قال - : والقصص: الأخبار المتبعة...» الخ.

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ بأن الرسل قد أتتنا كما قال الله تعالى، أقرؤا بما سألهم الله عنه ها هنا، وعلموا أن قد لزمتهم الحجة ولم يبق لهم حجة ﴿وَعَزَّيْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فأثروها على طاعة الله، وهذه جملة ذكرت بين قصة المشركين لبيان سبب إعراضهم عن الرسل المنذرين وردهم لآيات الله ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله ورسله وآياته.

وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ

﴿ذَلِكَ﴾ أي إرسال الرسل إلى الإنس والجن وتبليغهم الآيات وإنذارهم يوم القيامة وما يكون فيه من الجنة والنار والجزاء بهما ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أي لأن لم يكن، أي بسبب ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ ظلماً ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ لم يعلموا لعدم إبلاغهم الآيات والإنذار ولم يأتهم تذكير من غفلتهم.

قال الشرفي رحمه الله في (المصايح): «قال المرتضى رحمه الله: فأخبر سبحانه أنه لا يهلكهم وهم غافلون؛ لأن الإهلاك لهم على غفلة من غير دعوة ظلم، والله - عز وجل - بريء من ذلك، متعال عنه لا يعذب إلا من بعد الإعذار والإنذار... إلخ.

فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] إلا أن هذه الآية تشير إلى أن ما سبق في الدنيا من إهلاكه تعالى للقرى لم يكن إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وهي قرى المشركين من عاد وثمود وأصحاب مدين وغيرهم، كما ذكرها سبحانه في (سورة الأعراف) و(سورة هود) وغيرهما، قال تعالى في (سورة هود): ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ \* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [آية: ١٠٠-١٠١].

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ﴾ من أهل القرى ﴿دَرَجَةٍ﴾ متفاوتة من أعمالهم، فبعضهم أشد عصياناً وتمرداً وكفراً من بعض ﴿وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عن

مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ

أعيان معاصيهم وعددها ومقاديرها في القبح وتسببها لاستحقاق العذاب بل هي محصاة في علمه لا ينساها ذواتها وصفاتها، فهم صائرون بعد إهلاكهم العام بتدمير القرى إلى جزاء كل منهم لكل سيئة بمثلها ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ إِنَّ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وَتَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴿من خلق جديد يستخلفه في الأرض، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فهو قادر على ذلك وغير محتاج إلى عيشكم في الدنيا.﴾

﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ ولو كان محتاجاً إليهم ما أماتهم، ولو لم يكن قادراً على أن يأتي بآخرين يستخلفهم ما استخلفكم في الأرض، ولكنه برحمته يبقيكُم في هذه الحياة إلى آجالكم، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨] فمن الرحمة تأخيرهم تعريضاً لهم على التوبة وتمكيناً منها في بقية أعمارهم مع أنه غني عنهم، أما تأخير المؤمنين فهو أبلغ في الرحمة؛ لأنهم يكتسبون في هذه الحياة ثواب الآخرة وسعادتها الدائمة، ويظهر: أن هذه الآية غير خاصة بالعصاة؛ لابتدائها بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ والظاهر: أنه خطاب للرسول ﷺ.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ إنما توعدونه من الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب لا بد أنه آتٍ؛ لأنه لم يخلقكم في هذه الحياة بطريقة إنشاء قرن بعد قرن يهلك قرناً ويأتي بآخرين لم يخلقكم عبثاً ولا حاجة إليكم، إنما خلقكم تقدماً وإعداداً للآخرة التي وعدتم.

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بل نحن قادرون على إعادتكم وجزائكم بعد الإعادة وقادرون على جزائكم لا تعجزوننا في الدنيا بقوة ولا بعد موتكم، وهذه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ \* وَيَسْتَنْبِثُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٢-٥٣].

قال الراغب في تفسير (العجز): «وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة قال: ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ [المائدة: ٣١] وأعجزت فلاناً، وعجّزته، وعاجزته: جعلته عاجزاً» انتهى المراد.

وهذا هو الظاهر، فتفسير الإعجاز بالقوات، إنما معناه: أنه عجز عن إدراك الفائت.

﴿قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ ذكر (صاحب لسان العرب) و(صاحب القاموس) معنى المكانة: التّؤدة، فعلى هذا يصح تفسير المكانة في الآية بالتّؤدة، بمعنى: الأناة، أي اعملوا على أناتكم في عملكم أي غير معجلين عنه، وهو تأكيد لتركهم على ما هم عليه إحالة لهم إلى الجزاء، وذكر الراغب تفسير المكانة المكان، وحكاه (صاحب لسان العرب) عن بعض أهل اللغة.

وقال (صاحب الكشاف): «المكانة تكون مصدراً، يقال: مكن مكانة إذا تمكن أقصى التمكن، وبمعنى المكان، يقال: مكان، ومكانة» انتهى، وذكر (صاحب القاموس) تفسيراً للمكانة: المنزل عند الملك، وحكاه (صاحب لسان العرب) عن بعض أهل اللغة.



وقال في (لسان العرب): «ابن سيده: وتمكَّن من الشيء واستمكن: ظفر، والإسم من كل ذلك المكانة» انتهى، وحكى في (لسان العرب): «قال ابن برِّي: وقد جاء مكن يمكن» انتهى.

وظاهره أنه غريب، وتفسير المكانة بالتؤدة أنسب؛ لاستعمال (على) في الآية، قال في (اللسان): «أبو زيد، يقال: امش على مكيتك ومكانتك وهيتك، قال قطرب: فلان يعمل على مكيتته: أي اتأده» انتهى.

فأما استعمال (المكانة) بمعنى: المنزل عند الملك، فهو خاص بمحله ولا يناسبه سياق الآية، واستعمال (المكانة) بمعنى: المكان يكون مع (في) أو (الباء) فلو كانت التلاوة: (بمكانتكم) أو (في مكانتكم) صلح ذلك.

ويمكن تفسير (المكانة) بالظفر أي على ظفركم بمطلوبكم من دنياكم، كأنه قيل: على مكانتكم مما نلتكم من المال ونحوه، وهذا المعنى هو الذي اختاره (صاحب المصابيح) إلا أنه فسره بقوله: أي من جهتكم التي أنتم فيها، فصيرها بمعنى المكان.

وقال الشرفي في تفسير (سورة هود): والمعنى: حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة، وفسره في أواخر (سورة هود) ﴿عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ [هود: ٩٣] على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها، انتهى.

فكانه جعلها بمعنى المكان، أما (صاحب الكشاف) فقد فسرها على المعنيين الذين ذكرهما، فقال: «وقوله: ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه» انتهى.

وَالْأَنْعَمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ

قلت: ليس في الآية: (اثبتوا) ولذلك يكون المعنى على كلامه الأخير اعملوا على ما أنتم عليه، وهذا ليس بالقوي؛ لأنه مجمل، والأقوى المناسب للسياق ما قدمته، وهو الذي صدره (صاحب لسان العرب) في تفسير المكانة و(صاحب القاموس) فالمعنى: اعملوا بدينكم متروكين عليه إني عامل بديني، وهو جار مجرى ﴿اعْمَلُوا مَا مِثَّتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَابُ الدَّارِ﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند الموت أو نزول العذاب العاجل أو يوم القيامة ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَابُ الدَّارِ﴾ الآخرة أي ما فيها من العقاب المحمودة، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] أما أنا جزاء على عملي، وأما أنتم جزاء على شرككم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الفلاح: الظفر، والفوز، فلا يفلح الظالمون؛ لأن الظلم ليس إلا سبباً للعقاب لا للظفر بعاقبة الدار.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ ﴿جَعَلُوا﴾ بأن حكموا به ﴿لِلَّهِ﴾ أو نذروا به له ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ مما خلق، فهو في حكم الحق له وحده؛ لأنه الذي خلقه، والحرث: قال الراغب: «الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع، ويسمى المحروث: حرثاً» انتهى المراد.

قال الشرفي في (المصابيح): «والحرث: الزرع هاهنا، ويقال: الحرث: أرض الزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]» انتهى.

مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا

قلت: الزرع هنا عبارة عن النبات المعروف، فجعلوا قوله تعالى: ﴿أَنْ  
اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ [القلم: ٢٢] أي على زرعكم، ولعله تسمية الشيء باسم  
حمله؛ لأن الله تعالى فرق بين الحرث والزرع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا  
تَحْرُثُونَ \* أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الرواة: ٦٣-٦٤].

﴿فَقَالُوا هَذَا﴾ الحرث ﴿لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ بدعواهم وبناء على دينهم  
الباطل لا على الحق إن ذلك كله لله وحده ﴿وَهَذَا﴾ أي الآخر من الحرث  
والأنعام ﴿لِشُرَكَائِنَا﴾ وهذا من باطلهم.

﴿فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ  
يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ ما جعلوه لشركائهم لم ينفقوه لله حباً لشركائهم  
وحماية لحقها بزعمهم، وما جعلوه لله فهو وحده يصل إلى شركائهم لأي  
سبب عندهم، كأن يكون ما جعلوه لشركائهم قد تلف وأرادوا أن ينفقوا  
لألهتهم فينفقون ما هو لله بزعمهم.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما أسوأ ما يحكمون، أي حكمهم الباطل  
الجائر من حيث أنهم جعلوا لشركائهم ما ليس لها ولا تملك شيئاً، ومن  
حيث أنهم يوصلون إليها ما قد جعلوه لله ولا يرضون بالعكس، ومن حيث  
أنهم جعلوا ما رزقهم الله في غير فائدة بل في الضر عليهم، ومن حيث أنهم  
جعلوا ما رزقهم الله في معصيته، ومن حيث أنهم جعلوا شركاءهم أنداداً لله  
سبحانه وتعالى يندرون لهم كما يندرون له، ومن حيث أنهم حكموا بغير  
حكم الله فيما هو لله وحده.

عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ

﴿١٧٧﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ ﴿١٧٨﴾ فِيهِ احْتِمَالٌ: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَوْلَادَهُمْ قَرْبَانًا لَأَهْتَمُّهُمْ، وَإِنَّمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِشُرَكَائِهِمْ: الَّذِينَ يَجْعَلُ الْمُشْرِكُونَ لَهُمُ الْحُكْمَ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ مِنَ الْكُهْنَةِ وَغَيْرِهِمْ جَعَلُوا شُرَكَاءَ لَأَنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُمْ أَنَّ يَحْكُمُوا فِيهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَتْلِ أَوْلَادِهِمْ: وَأَدَّ الْبَنَاتِ، أَيْ دَفَنَهُنَّ وَهَنَ فِي حَالِ الْحَيَاةِ.

﴿لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ (اللام) عَلَى الْإِحْتِمَالِ الْأَوَّلِ هِيَ (لَامُ الْعَاقِبَةِ) أَمَّا عَلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي فَيَصِحُّ أَنَّ تَكُونَ عَلَى أَصْلِهَا، وَأَنَّ تَكُونَ لِلْعَاقِبَةِ ﴿لِيُرْذَوْهُمْ﴾ لِيَهْلِكُوهُمْ بِجَعْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ بِعَمَلِهِمُ الْبَاطِلِ ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الْأَصْلِيُّ الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي وَرَثُوهُ بَعْدَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَا يُوْهُمُ أَنَّ الشَّرْكَ حَقٌّ، أَمَّا إِذَا كَانَ ذَبْحُ أَوْلَادِهِمْ لِأَصْنَامِهِمْ قَرْبَانًا، فَذَلِكَ يُوْهُمُ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ آلِهَةٌ مَا ذَبَحُوا لَهَا أَوْلَادَهُمْ؛ لِأَنَّ الْعَاطِفَةَ عَلَى الْوَلَدِ تَمْنَعُ مِنْ قَتْلِهِ بِغَيْرِ سَبَبٍ صَحِيحٍ، بَلْ لِمَجْرَدِ الْخِرَافَةِ وَالْعَقِيدَةِ الْبَاطِلَةِ، فَهَذَا لَبَسَ عَلَى الْمُقْلِدِينَ لَهُمْ.

وَأَمَّا عَلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي، فَلَعَلَّهُ إِيْقَاعُهُمْ فِي اللَّبْسِ وَظُلْمَةِ الْبَاطِلِ، بِسَبَبِ جَرَائِمِهِمْ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْجَرِيمَةُ الشَّنْعَاءُ الَّتِي هِيَ ظَلَمَ يَرِينَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّبَصُّرِ لِلْحَقِّ، بِإِضَافَةِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ إِلَى جَرَائِمِهِمُ الْآخَرَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيْ هَذَا التَّزْيِينُ لِقَتْلِ أَوْلَادِهِمْ، أَوْ ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الشَّرْكَ الَّذِي زَيْنَ لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ، أَوْ مَا فَعَلُوا مَا ذَكَرَ عَلَى أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى

حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ  
بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ

جملة المذكور، أو ما فعلوا اللبس فلو ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾ لمنعهم؛ لأنه قادر على  
منعهم حتى لا يقع منهم ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تشتغل بهم ولا  
يجزئك افتراؤهم فتحاول صرفهم عما هم عليه بأي وسيلة غير الإنذار  
والحجة والموعظة، والواو هي (واو) المفعول معه كما تقول: اتركه وشأنه،  
أو المراد: اترك أمرهم إلى الله، فهو يتولى جزاءهم على معنى الوعيد لهم،  
والإفتراء: الاختلاق.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ  
بِزَعْمِهِمْ﴾ ﴿حَرْتُ﴾ زرع ﴿حِجْرًا﴾ محجور ممنوع أي محرم ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا  
مَنْ﴾ يشاء الله تفسير للتحريم ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أن الله يشاء لبعضهم أن يطعموها  
دون بعض، وهذا فيما جعلوه لأوثانهم من الأنعام والزرع، ولعل التعبير عنه  
بالحرث؛ لأنهم جعلوا الحرث الذي يزرع لشركائهم - والله أعلم.

قال في (المصاييح): «يعني خدم الأوثان والرجال دون النساء، فهن  
ممنوعات» اه، أي التحريم عليهن خاصة.

﴿و﴾ هذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي حرم ركوبها، ولعله الحامي  
الذي يقولون: قد حمى ظهره، وقد مر تفسيره في (المائدة) ﴿و﴾ هذه ﴿أَنْعَامٌ  
لَّا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ قال في (المصاييح) في الذبيح: «وإنما  
يذكرون أسماء الأصنام» انتهى.

﴿افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ على الله سبحانه وتعالى، أي قالوا هذه الأباطيل افتراء على  
الله، افتراء إما مفعول مطلق لـ ﴿قَالُوا﴾ وإما مفعول من أجله بالنسبة إلى الذين

لَذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ  
 سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا  
 أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا  
 وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤﴾ \* وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّتٍ مَّعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ

ابتدعوا لهم هذه الأكاذيب ومن مائلهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾  
 بافتراءاتهم التي تكررت منهم واستمروا عليها ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ  
 أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال  
 في (البرهان): والذي في البطن أرادوا به الأجنة والألبان، وجعلوا ذلك  
 لذكورهم دون الإناث وأزواجهم، وإنما جعلوا ذلك لأن الذكران كانوا  
 يخدمون الأوثان ففضلوا بذلك للخدمة والذكورة» انتهى.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ ما وصفوا به الأنعام افتراء على الله، وإفساد  
 لأتباعهم، وجعل الوصف كأنه الجزاء لتأكيد الدلالة على التسبب للجزاء،  
 كقول الشاعر:

تردئ ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فجعل دم الشهيد كأنه تحول سندساً ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومقتضى

الحكمة الجزاء وبالعلم لا يضيع شيء بدون جزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ  
 اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قتل الأولاد وتحريم  
 ما رزقهم الله سبب لخسارتهم العظمى التي هي دخول النار وفوات كل خير  
 في الآخرة فاجتمع ذلك لهم مع خسارتهم أولادهم وخسارتهم بعض



ما أحل الله لهم فحرموه فتحققت عليهم الخسارة، فقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ فيه تأكيد وتحقيق، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ ومن هذا الباب قول الشاعر:

فلا وأبي الطير المربة بالضحي على خالد لقد وقعت على لحم

وقوله تعالى: ﴿سَفَهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي أن صنيعهم في قتل أولادهم سخف وقلة عقل؛ لأنهم لو استعملوا عقولهم ما فعلوه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنهم لم يعتمدوا فيه على حجة من الله، بل فعلوه جهالة فهي شناعة عظيمة؛ لأن قتل الأولاد ظلم ومخالفة للفطرة والإنسانية وقسوة شنيعة، وهو مع ذلك إهمال للعقول، ومجازفة بداعي الجهل.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى سبب خسارتهم لما أحل الله لهم من حيث أن الله رزقهم، ومن حيث أنه معارضة لحكم الله؛ لأنه لم يرزقهم إلا وقد أحله لهم، وقوله: ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ﴾ يبين شناعة ذلك التحريم وزيادة قبحه، وكونه سبباً للخسارة العظمى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ تسجيل عليهم بالغواية فيما صنعوه تديناً بأنه تضييع لطريق الحق والصواب وتيه في الباطل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إما بمعنى: أن شأنهم أن يضلوا لأنهم ما كانوا مهتدين قط، وإما بمعنى: الرد لاعتقادهم وظنهم أنهم مهتدون، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَلَى﴾ [طه: ٧٩] وقد كان فرعون قال لهم: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وبعد هذا التسجيل عليهم بالضلال بين الله الحجة البالغة على أن الحكم له في الحرث والأنعام لا لغيره، وبين أنها نعمة من الله يجب شكرها، وهذا مع كونها دليلاً على أنه الذي يستحق العبادة دون شركائهم فقال سبحانه:

مَعْرُوشَتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ  
مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ  
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال الراغب:  
(والإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته) انتهى. ﴿جَنَّاتٍ﴾ أنواعاً من الجنات مختلفة  
وأفراداً كثيرة ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ وهي ما يجعل على عريش كالعنب ﴿وَالنَّخْلَ﴾  
وأنشأ النخل ﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ فالنخل له ثمر مختلف في لونه وطعمه  
وغير ذلك من صفاته، والزرع كذلك، فالحبوب أنواع كثيرة البر أنواع والشعير  
أنواع والذرة أنواع والأرز أنواع والعلس قيل: هو من البر، وقيل: جنس  
برأسه، وذلك الإختلاف تابع لقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته وفضله ورحمته.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أي وأنشأ ﴿الزَّيْتُونَ﴾  
وأنشأ ﴿الرُّمَانَ مُتَشَبِهًا﴾ وهو المتقارب في الصفة مثل نوعي الرمان الحلو  
﴿وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ مثل النوع الحلو والنوع الحامض، والوصف بالتشابه لعله  
عائد إلى جملة الزيتون والرمان إلا أنني لا أعرف أنواع الزيتون، وقد قال تعالى:  
﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] وهو قليل في اليمن.

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ ولا تحرموا شيئاً منه كما فعل المشركون  
﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ﴿حَقُّهُ﴾ ما جعل الله فيه من الحق للفقراء  
والمساكين، ثم جعله لثمانية أصناف، والحصاد قال في (الصحيح): حصدت  
الزرع وغيره - ثم قال - : والمحصد: المنجل، فأفاد: أن الحصد يكون بالقطع،  
كقطف العنب، وفي (لسان العرب): الحصد: جزك البر، ونحوه من النبات  
حصد الزرع وغيره من النبات يحصده.

حَمُولَةً وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ الضمير فيهما عائد إلى المذكور من أول الآية، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ ترخيص في الأكل منه قبل إخراج زكاته ولا يسقط زكاة ما أكل قبل؛ لأنه قال ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ فعاد الضمير إلى المذكور - أيضاً - أو إلى ثمره، فعم المأكول وغيره.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿عُطِفَ عَلَى﴾ ﴿كُلُوا﴾ و﴿وَأَتُوا﴾ فالظاهر: أنه خطاب متعلق بالثمر، فيكون الإسراف إما بإنفاقه في معصية الله كمعاونة الظالم، وإعطاء خدم شركاء المشركين، وإما بالإنفاق الزائد على المنفعة، وهو إتلاف في غير فائدة كما يفعل في بعض الضيافات، وإما بجعله مسكراً، وإما بالإفراط في الأكل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ عام لكل مسرف ولو في أمر خارج عن الثمر كالإسراف في القتل والتبذير بالماء أو غيره، قال في (الصحيح): «والإسراف في النفقة: التبذير» انتهى، وقال الراغب: «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان في الإنفاق أشهر» انتهى.

والأقرب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أنه وعيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] ولعله وعيد بالخذلان وترك الألفاظ - والله أعلم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرَشًا﴾ أي وهو الذي أنشأ لكم ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ تحملكم وتحمل أثقالكم وهي من الإبل، ومن الأنعام

﴿فَرَشًا﴾ والفرش يتخذ من جلود الأنعام ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها، وقال الراغب: «والفرش: ما يفرش من الأنعام، أي يركب» انتهى، وقال في (الصحاح): «والفرش: المفروش من متاع البيت - ثم قال -: والفرش: صغار الإبل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةً وَفَرَشًا﴾» انتهى.

قلت: الآية واردة في سياق تعديد النعم، فجعل الفرش صغار الإبل لا يناسب السياق إلا أن يسمى فرشاً لأنه ينحر ويكون جلده ووبره فرشاً جيداً أفضل من جلد الكبار فهو مناسب حينئذ، قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البلغة): الحمولة الكبار من الإبل والفرش الصغار، ومثله في البرهان» انتهى.

وفي (لسان العرب): «وفرش الإبل وغيرها صغارها - ثم قال -: وقال الفراء: الحمولة ما أطاق العمل، والحمل والفرش الصغار، وقال أبو إسحاق: أجمع أهل اللغة على أن الفرش صغار الإبل، وقال بعض المفسرين: الفرش صغار الإبل وإن البقر والغنم من الفرش.

قال: والذي جاء في التفسير يدل عليه قوله - عز وجل - : ﴿تَمَائِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ فلما جاء هذا بدلاً من قوله [عز وجل]: ﴿حَمُولَةً وَفَرَشًا﴾ جعله للبقر والغنم مع الإبل» انتهى المراد.

قال في (المصاييح): «وقيل: الحمولة ما حمل من الإبل والبقر، والفرش الغنم، قال الشاعر:

وحوينا الفَرشَ من أنعامكم      والحمولات وربات الحجل»

انتهى، فترجح: أن الحمولة ما يحمل من الإبل والبقر، وأن الفرش صغار الإبل، وأن الغنم تسمى فرشاً أيضاً؛ لأن جلودها تصلح فراشاً ولا سيما الضان فهي كصغار الإبل لما ذكر من الدليل على ذلك.

أَتَيْنِ قُلْ ءَ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْرَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُؤُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أُنثَيَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أمر إباحة وتمنن وزيادة فائدة في الأنعام مع الحمل والفرش ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وهذا عام لكل خطوات الشيطان، ويدخل فيه دخولاً أولاً تحريم ما أحل الله من الأنعام من السائبة والوصيلة والحامي.

قال في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والخطوات: مثل مضروب، يراد به: لا تفعلوا مثل فعله، والخطوات - بالتخفيف - هي جماعة خطوة من الخطأ، وليست بجماعة الخطيئة فاعلم ذلك» انتهى.

قلت: لعل فائدة ذكر الخطوات التحذير من إضلال الشيطان التدرجي كأنه يخطو خطوة واحدة فيتبعه فيها من يتبعه ثم يزيد خطوة فيتبعه، وهكذا حتى يصير بعيداً من الصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ تعليل معقول لأن اتباع الإنسان لعدوه خطأ واضح لأن العدو مظنة الإضلال والإضرار، وقوله تعالى: ﴿مُبِينٌ﴾ أي بين العداوة، وكيف لا يكون بين العداوة وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أزواج حمولة وفرشاً من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى، قال الراغب: «يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد [كذا] زوج - ثم قال الراغب - : ﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ أي أصناف» انتهى.

أُنثَيْنِ ۖ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ

قلت: الأقرب أنها سميت أزواجاً لأنها من كل نوع زوجان، كما أفاده (صاحب الكشاف) وهو المناسب للتفصيل الآتي:

﴿مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿مِنَ الضَّانِّ﴾ الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ﴾ التيس والعنز، والنعمة متعددة منها في الضأن جودة اللحم والفرش، ومنها في المعز زيادة اللبن وصلاح الجلد وعاء للماء والسمن لزيادة قوته ولغير ذلك مع أن المعز أقوى في المرعى، فهي لا تكلف أهلها كالضأن.

﴿قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين الذين يحرمون ما أحل الله ﴿ءَالذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ العنز والنعجة ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم الحمل من أولاد الضأن والمعز الذي في أرحام الأنثيين، والأرحام: جمع رحم، وهي وعاء الجنين، اشتملت عليه لتحفظه وتربيته حتى يتم خلقه، أي أم ما اشتملت عليه حرمة الله؟!

﴿نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿نَبِيُّنِي يَعْلَمُ﴾ أي ذلك حرمة الله، فهاتوا ما يفيد العلم من كتاب الله ﴿أَوْ آثَارُهُ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤] عن رسول الله ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم التحريم.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ من الثمانية الأزواج عطف على ﴿مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر من الإبل والأنثى من الإبل ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى عطف على ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ فهنا عطف أربعة على أربعة لتيسير فهم تفصيل الثمانية الأزواج.



قال الشريفي في (المصابيح): «عرفهم الله في الإبل والبقر مثل ما عرفهم في الشا [كذا] والمعز موبخاً لهم ومنكراً عليهم ما فعلوه» انتهى.

قوله: في الشا، يعني في الضأن، ونظير ما هنا من عطف اثنين على اثنين قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فالأصم معطوف على الأعمى، والسميع معطوف على البصير، وهما عطف على الأعمى والأصم، ولذلك قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي من هو أعمى أصم ومن هو بصير سميع.

﴿قُلْ أَذْكُرِينَ حَرَّمَ أَمْرَ الْأُنثَيَيْنِ﴾: الجمل والثور أم الناقة والبقرة ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَدَّكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ التحريم الذي تزعمونه ﴿شُهَدَاءَ﴾ حاضرين على التحريم مشاهدين له أوحاه الله إليكم ﴿إِذْ وَصَدَّكُمُ﴾ به بزعمكم، أي بل أكنتم شهداء وهم لا يدعون ذلك، فمن أين جاءهم تحريم ما حرموا، وليس عندهم من الله وحي بواسطة كتاب ولا رسول ولا بمشاهدة، فقد تبين افتراؤكم على الله بتحريم ما حرمت.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لا أظلم منه لجمعه بين الافتراء على الله والتسبيب لإضلال الناس، أي ليغوي الناس عن طريق الحق بغير علم منهم أنه يغويهم، فهو خيانة لهم من حيث يفترى الكذب فيصدقونه وهو كاذب، مع كونه تسبيهاً لباطلهم ومشاركة في إثمه، فقد بان أنه لا أظلم منكم، وهذا من حسن الجدل من حيث أنه لم يواجههم بأن يقول لا أظلم منكم بل دل عليه بالعموم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تحقيق لكونهم مضلين للناس فهم لا ينالون هدى الله إياهم بالافتراء عليه ليضلوا الناس؛ لأن الله سبحانه لا يجعل الظلم سبيلاً للهدى، فليس افتراؤهم إلا إضلالاً خالصاً.

إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلِنْ رَبِّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ فما حرمتهموه لم أجده ﴿فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ أي إلا أن يكون المحرم على الطاعم ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ فقد وجدت فيما أوحى إليّ تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير.

﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي الذي وجدته محرماً رجساً نجاسة وقذر ليس من الطيبات إذا كان ميتة أو دمًا مسفوحاً أو لحم خنزير، وهذا حين نزلت السورة بمكة قبل نزول (المائدة) وقبل تحريم كل ذي ناب من السبع، وهذا فائدة ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ لثلاث ينفي تحريم غير الثلاثة لأنه إنما نفى الوجدان. ﴿أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ عطف على ﴿مَيْتَةً﴾ أي ﴿أَوْ﴾ يكون ﴿فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ جعل كأنه فسق؛ لأنه ذبح ﴿فِسْقًا﴾ فجوراً وخبثاً؛ لأن الله تعالى لم يحل ذبحه مع الإهلال به لغير الله.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم رحمته الله: يريد - عز وجل - لا يحل لأحد أن يهمل، ولا يتكلم بغير ذكر الله على ذبيحة ولا غيرها، وسمي ذلك الكلام فسقاً أهلاً به ونطق به لغير الله، والإهلال في اللغة: هو الجهر بالكلام» انتهى المراد.

وهو يعني: أن الآية دلت على أن الإهلال لغير الله فسق؛ لأنها دلت على أن المذبوح فسق إذا أهّل به لغير الله وذلك بسبب كون الإهلال لغير الله فسقاً.

وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٦﴾ فَإِنْ

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «والمسفوح: فهو السائل وهو القاطر، وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ فإنه يقول: إنه رجس محرم، وأما [قوله تعالى]: ﴿فَسَقَا أَهْلَ لَيْغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ فالفسق: هو المعصية والجرأة على الله بالذبح لغير الله والخطية» انتهى المراد.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ إلى شيء من هذه المذكورات الميتة وما ذكر بعدها، قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وأما قوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يريد غير باغٍ في فعله، ولا مقدم على المعصية في أكله، ولا متعد لأمر ربه، ولكن من اضطر إلى ذلك فجائز له أن يأكل منه، إذا خشي على نفسه التلف من الجوع فيأكل منه ما يقيم نفسه ويثبت في بدنه روحه إلى أن يجد في أمره فسحة...» انتهى المراد.

فالبغي: الإقدام على المعصية في الأكل من المحرم، والعدو تعدى ما أحل الله إلى ما حرم، كالزيادة على ما اضطر إليه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾

اليهود، والظفر الذي ينمو في رأس الإصبع وبعض الحيوان يقتل به، وبعض الطيور يمسك به أعواد الشجر إذا وقع عليها فقد عم التحريم عليهم أكثر الطيور سباعها وغير سباعها كالذجاج، وكذلك سائر الحيوان الذي له ظفر كالويز، قال الشريفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام: هو ما كان له ظفر يعرف به ويقع عليه اسم الظفر فهو عليهم محرم، ولكن أباحوه وأكلوه وتعدوا فيه» انتهى.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي حرمننا عليهم الشحوم من البقر والغنم إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا وهو أكثر الشحم إن دخل فيه ما علق على الظهر، كشحم الجنوب والإلية.

و﴿الْحَوَايَا﴾ الأمعاء في قول الراغب، و(صاحب الصحاح) و(صاحب الكشاف) وقيل: ما تحوى من الأمعاء كالمباعر أي استدارت فيه الأمعاء فتخرج الدقاق والمستقيم، وقيل: المباعر أي ما فيه البعر، وهذا لأن الحوايا إن كانت جمع حاوية فهي الأمعاء كلها لأن بعضها يحوي بعراً وبعضها يحوي سائلاً يصير بعراً عند مصيره في الأمعاء الغلاظ، وإن كانت الحوايا جمع حويّة فهي خاصة بالمتلوية، أي ما حملت الحوايا من الشحوم ليس محرماً على الذين هادوا.

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ فهو مستثنى كما حملت ظهورهما وذلك مثل ما بين عظام الصدر والرأس والعصعص وهو داخل الإلية المختلط بعظم العصعص فما بقي محرم إلا الذي على الكرش ثوب البطن، والأولى أن ما حملت ظهورهما خاص بما على الظهر فلا تدخل فيه الإلية ولا شحم الجنوب ولا شحم الكلى ولا الشحم الذي على الصدر الطبقة الخارجة فوق عظام الصدر، وإلا لزم أن لا يبقى مستثنى إلا شحم الرأس والعنق والرجلين واليدين؛ لأن الكرش - أيضاً - معلق في الظهر فشحمه معلق معه، وظاهر جمع الشحوم تنوع الشحم، ولا تنوع في شحم العنق والرأس والرجلين واليدين، فظهر: أن المراد أنواع الشحم فالثروب نوع، والإلية نوع، وما على الظهر والجنوب والعنق وخارج الرأس والرجلين واليدين نوع، وشحم الكلى نوع.

كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ  
 الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا  
 آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى  
 ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا  
 الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم جزينا  
 الذين هادوا عقوبة لهم ﴿بِغْيِهِمْ﴾ وتعتديهم على عباد الله ﴿وَإِنَّا  
 لَصَادِقُونَ﴾ وصدق الله العظيم، وكذب اليهود الجاحدون لكونه عقوبة، أو  
 الجاحدون لتحريمه.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ  
 الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ السياق في الذين هادوا فالأقرب أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ  
 كَذَّبُوكَ﴾ أي اليهود ﴿فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ في الدنيا ولذلك  
 يهلككم مع تكذيبكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ إذا جاء المجرمين أي عذابه، أو البأس  
 أعم فيدخل فيه التسليط على قريظة والنظير وخير وغيرهم،  
 و﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ يعم المكذبين وغيرهم، ويدخل فيه المكذبون دخولاً أولياً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا  
 حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ احتجاجاً بترك الله لهم على شركهم، وكذلك تركهم على  
 تحريم ما أحل الله، أرادوا أنه لو كان كارهاً لذلك لمنعهم منه؛ لأنه لا يسكت  
 عليه وهو قادر على منعهم، فقد جعلوه تعالى مقررأ لهم على شركهم وعلى  
 تحريم ما حرموا، وهذه شبهتهم يريدون بها أنهم على حق، وأن الرسول  
 كاذب في تحريم ما فعلوه من الشرك، والتحريم لما لم يجرمه الله.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾  
 ﴿كَذَلِكَ﴾ التكذيب والجدال عنه ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من  
 الأمم الذين نزل بهم العذاب حتى ذاقوا بأسنا، ولم ينفعهم ما شبهوا به  
 ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ ﴿عِلْمٍ﴾ بأن الله رضي  
 تحريمكم وشرككم من كتاب الله، أو إثارة عن رسله، فتظهره لنا ببيان  
 واضح، أي ليس عندكم فهو سؤال في معنى النفي.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون بسبب  
 اتباعكم للظن وما تهوى الأنفس، وقد ترجع أن معنى ﴿تَخْرُصُونَ﴾  
 تكذبون؛ لأنه لو كان بمعنى التخمين لكان من شأنه أن يجعل مع الظن متبعاً  
 يبنى عليه قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ..﴾ إلى آخره، فلما عدل به إلى قوله: ﴿وَإِنْ  
 أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ولم يقل: إلا الظن والخرص، ظهر أن المراد: تخرصون  
 بأقوالكم الباطلة كلها، أو بهذا القول خاصة وذلك لأن الخرص إن كان  
 يستعمل في الكذب على الإطلاق صلح حمله على أقوالهم الباطلة كلها ما  
 استند إلى الظن وما لم يستند إلى شيء، وإنما هو افتراء، وإن كان الخرص  
 خاصاً بالكذب المستند إلى التخمين حمل قوله: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾  
 على قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ..﴾ إلخ.

قال الراغب: «وحقيقة ذلك: أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال  
 [له]: خرص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم  
 يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين،  
 كفعل الخارص في خرصه» انتهى المراد.

وقوله: «ولا غلبة ظن» لعله يعني: ولا قوة ظن.



﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٤٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾ التي قد بلغتكم وبلغت الأمم من قبلكم ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبَدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فأي منع ونهي عن الشرك والطاغوت أبين مما نزله على الرسل، وبلغوا أمهم، وكيف صح مع ذلك أن تدعوا أنه رضي لكم بالشرك وأنه لم يمنعكم.

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ بعد بلوغ الحجة إياكم ﴿لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه قادر على ذلك بطريقة القهر، لكنه شاء أن يخليكم وما تختارون لأنفسكم، فلا حجة لكم في تركه لكم وما تختارون لأنفسكم، بعد بلوغ الحجة وقطع المَعْدِرَة.

﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ ﴿قُلْ﴾ احْضَرُوا ﴿شُهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ عن يقين ومشاهدة لحجة من الله لا من يشهدون افتراء على الله وجرأة على الزور، أي أنه لا يوجد شهداء على ما تدعون.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ لأنفسهم ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأنهم كاذبون ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ يَا مُحَمَّد أهواءهم، ولا من كان مثلهم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ بآيات الله؛ لأن الهدى هدى الله وما خالفه ضلال ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فلا يحجزهم خوف من الرجوع إلى الله والسؤال والجزاء

أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَوْاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

عن تعمد الباطل واتباع ما تهوى الأنفس ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فإن من عدل بربه حجراً أو صنماً أو أي مخلوق ضعيف فقد تبين أنه على باطل، وأنه لا يبالي بالباطل فهو يتبع ما تهواه نفسه من الباطل ولا يبالي، والمعنى: ولا تتبع سبلهم فإن سلوكهم ليس إلا لمجرد الأهواء بلا حجة فعبّر عن سبلهم بالأهواء؛ لأنها سببها، ويحتمل ولا تتبع أهواءهم وتحاول بذلك إرضاءهم فهم ليسوا أهلاً لذلك.

وفي جمع (الأهواء) إشارة إلى اختلافها وتعددتها وذلك مما يصعب إرضاء أهله ولو لم يكن باطلاً، كيف وهم يكذبون ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون، فاتباع أهوائهم يستلزم التكذيب بآيات الله والكفر بالآخرة والعدل بالله - نعوذ بالله.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿أَتْلُ﴾ أتبع بالقراءة ما أوحى فأقرأه عليكم كما أوحى إلي، فهو الحق لا افتراؤكم واتباعكم للظن وخرصكم، وقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ﴾ إن كانت ﴿مَا﴾ مصدرية فظاهر في صحة تفسيره، بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآية، وإن كانت موصولة أي ما حرمه، فالمراد: أتل بيان ما حرمه ربكم المالك لكم والذي له الحكم فيكم وعليكم فتحريمه الحق لا تشركوا نهى يقتضي التحريم، وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ يعم كل ما يشرك المشركون على اختلافهم يجعله شريكاً لله سبحانه وتعالى.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ فلا يقع منكم إساءة إلى أحدهما، وقوله ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ أي أحسنوا بالوالدين ﴿إِحْسَنًا﴾ قال في (الكشاف في تفسير (سورة يوسف): يقال: أحسن به وأحسن إليه، وهذا صحيح؛ لأن الله تعالى قال في (سورة النساء): ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ..﴾ إلى قوله: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] وقيل: معناه: لا تتركوا الإحسان إلى الوالدين، أي لأن السياق فيما حرم الله، ويحتمل أن المقصود النهي عن العقوق فعبّر بالأمر بالإحسان إليهما؛ لأنه أبلغ في الدلالة على قبح العقوق.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ﴾ في (الصحيح) و(لسان العرب) و(القاموس): الإملاق: الفقر، قال (صاحب اللسان): «وأصله: إتلاف المال حتى لا يبقى شيء، فاستعمل في الفقر حتى صار أشهر» وقال في (الكشاف): «من أجل فقر ومن خشيته» انتهى، وقال في (المصابيح): «أي من خوف الفقر» انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: من فقر وفاقة» انتهى.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وهذا وعد من أصدق القائلين فلا ملجئ إلى وأد البنات ﴿وَلَا تَقْرُبُوا أَلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ النهي عن قرب الفاحشة نهى الحوم حولها وعن مقدماتها، قال الراغب: «الفُحْش، والفَحْشاء، والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال» انتهى.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان بحيث يراه الناس أو يسمعون، وما يخفى فليس قبحه خاصاً بالمعلن، والفواحش، مثل: الزنا، واللواط، والربا، واقتراء الكذب على الله، واليمين الفاجرة، وقذف البرئ بالزنا، أو اللواط، والسب الزائد تعدياً، وفي قصيدة النابغة:

لم تؤذِ أهلاً ولم تُفحشْ على جار

قال في (الصحيح): «وكل شيء جاوز حده فهو فاحش» انتهى.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ جعلها حراماً وأثبت لها الحرمة، فليس لأحد أن يعتدي عليها وهي نفس الإنسان الذي لم يقع منه ما يميز قتله من قتل أو شرك بدون ذمة ولا صلح أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ جعل الحق، كأنه آلة للقتل لأنه وسيلته وسببه، وذلك الحكم من الله بقتلها لسبب من الأسباب المذكورة في محلها، وقد عدَّ الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) أسباب استحقاق القتل.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وصف للنفس بأن الله حرّمها وليس للتقييد، لأنه لو كان للتقييد لكفى عن الإستثناء، فقوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ تأكيد للنهي بأن الله حرّمها.

﴿ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع مدلول الكلام الذي ذكر من قوله تعالى: ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَصْنُكُمْ﴾ بمعنى نهاكم وأمركم للمستقبل، كوصية الحي لما بعد الموت، من حيث أنه للمستقبل ليس للمكلف أن ينساه أو يهمله.

قال الراغب: «الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ» انتهى، وفي (القاموس): «وأوصاه، ووصّاه توصية: عهد إليه» انتهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تعقلونه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فالمعنى لعلكم تعقلون هذه الوصايا وتفهمونها؛ لأنها كلام محكم بين يسير الفهم.

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ<sup>ط</sup> وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

﴿١٥٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ﴾

تحذير للطامع من قرب مال اليتيم بتوليّه أو استعماله أو نحو ذلك، فالإبتعاد عنه أسلم له وأقرب إلى تركه.

وقوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قربه بالطريقة التي هي أحسن أو بالفعل التي هي أحسن، وهي طريقة صاحب العدالة والإحسان الذي لا يقرب مال اليتيم طمعاً فيه، إنما يقربه ليصلحه ويحفظه فهي أحسن من تركه. وجازت مع ذلك مخالطة مال اليتيم تيسيراً لمصلحة اليتيم لئلا يؤدي التشديد إلى تركه، وذلك لا ينافي التصرف بالتي هي أحسن ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ﴾ استمروا على تركه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ قوته عند بلوغ النكاح، ولا تأكلوه بداراً أن يكبر، وأشدّه وبلوغه قوته أن يكون قد احتاج النكاح كما في آية (سورة النساء) ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٦] فعند بلوغه أشده يسلم إليه ماله إذا أونس رشفه كما في (آية النساء).

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أمر معطوف على النهي لأن الوزن بالقسط يستلزم ترك الحيف على من يعاملهم بالبيع والشراء وغيرهما، فهي من النهي عن أكل المال بالباطل وخص الكيل والوزن لأن الأخذ بهما مع البخس يكثر ويسهل والإيفاء إكمال لحق من يعطونه من مشتر أو نحوه.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا تضيق عليها بل نكلها ما يسعها، قالوا: والوسع: دون الطاقة، أي أن ما يطيقه المكلف أكثر مما يسعه،

فاكتفى بالوسع تيسيراً على المكلف، وفي هذا دلالة على بطلان الجبر؛ لأنه يلزم من الجبر تكليف ما ليس في وسعه، أي أنه كلف ما ليس في وسعه؛ لأن القدرة عندهم موجبة فإذا لم يقع الفعل دل ذلك على عدم القدرة عليه، وإذا عدمت القدرة عليه فالمكلف لا يطيقه فضلاً عن كونه ليس في وسعه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ﴿فَاعْدِلُوا﴾ لا تجسوروا في قول، والجور يكون في الخبر والإنشاء والصدق والكذب، فالأمر بما لا يحق للأمر ولا مصلحة فيه للمأمور ولا هو حق عليه جور، ومثله النهي عن الحق، والخبر الصدق قد يكون ظلماً كإخبار الظالم بمكان المظلوم ليأخذه أو يأخذ ماله، والكذب كله خلاف العدل إلا من أكره وقلبه مطمئن بالصدق، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي الذي تقولون فيه أو له، فلا تمنعكم العاطفة من العدل في شهادة أو غيرها.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ لا تنكثوا العهد ولا بعضه بل اثبتوا على موجب العهد وأضيف إلى الله لأن الوفاء بالعهد أوجبته الله وهو يعم الموائيق فيما بين العبد وربّه والموائيق بين الناس كالعهد في الصلح والعهد في البيعة للإمام والعهد المأخوذ على الشاهدين أو على الوصي أو غير ذلك، ويحتمل أن عهد الله يختص بما كان باسمه تعالى، كقولك: علي عهد الله، وبما كان لله على عبده، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهذا لأن جعل ما سوى ذلك من عهد لا يظهر وجه لإضافته إلى الله وإن كان يجب لله الوفاء به، وليس كالشهادة التي أضيفت إلى الله في قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] لأن الشهادة بعد تحملها صارت حقاً لله على المتحمل، وأداؤها لله، وليس كذلك العهد إذا لم يكن باسمه ولا بين العبد وربّه، فإن الواجب الوفاء به، أما العهد نفسه فهو على حاله لم يصّر لله واجباً والذي لله يستحقه على العبد هو الوفاء به فقط، والعهد هو الكلام الموثق كالعقد.



مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ﴾ تقدم به إليكم لتعملوا به وثبتوا على التمسك به في المستقبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعلكم في المستقبل تذكرون ولا تنسون أنه قد وصاكم به ولا تغفلون عنه لتعملوا به ما عثتم.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ المتلوه صراط الله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ والإشارة إلى قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآيات، فهو طريق واضح وهو مستقيم لا يعوج؛ لأنه الحق ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فاتبعوا صراط الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المخالفة له التي ليست سبيل الله بل سبل غيره ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فتنفركم ﴿بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي تفرق فيما بينها عادلة بكم عن سبيله، وبذلك تكونون قد تفرقتم عن سبيله فهذا أمر بالتمسك بالمتلوه المذكور ونهي عن التفرق بواسطة اتباع طريقة غيره، وفتح همزة (أَنَّ) لأنه معطوف على منصوب، أي وتعالوا أتل عليكم أن هذا صراطي.

ففي هذه الآيات إشارتان بلفظ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وإشارة بلفظ ﴿هَٰذَا﴾ فلا بد من الفرق، والراجح: أن الفرق ما ذكر فالإشارتان إلى اتباع المتلوه، وهذا إشارة إلى المتلوه نفسه، وقد جعله الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في (الإعتصام) إشارة إلى القرآن جملة وهو قريب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: ٩] ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] والأصل في الإشارة إلى الكلام الذي نقوله في أوله أو آخره أو أثنائه أن تكون بإشارة القريب مثل (هذا) لأنه في معنى الحاضر، فلا يعدل عنه إلا لاعتبار آخر اقتضى تنزيله منزلة الغائب.

الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ  
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

وفي الحديث الشريف في مدح القرآن «وهو جبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم» رواه الإمام أبو طالب في (الأمالي) عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، وعلى هذا: فقلوه: ﴿صِرَاطِي﴾ بضمير التكلم ظاهر فسياق هذه الآية غير سياق الآيتين قبلها إلى قوله تعالى: ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فقط، وضمير المتكلم في ﴿صِرَاطِي﴾ مثله في قوله الشاعر:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري    إني امرؤ صرعي عليك حرام

الشاهد في ضمير (صرعي).

وقوله تعالى: ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي عن السبيل الذي دل عليه القرآن، فيظهر منه أن القرآن جعل صراط الله لأنه بيان صراط الله الذي ارتضاه لعباده، أو لأن القرآن من صراط الله، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ فصراطه تعالى: هو سنته وأقواله، باعتبارها طريقة تقتضيها الحكمة في الأولين والآخرين فهي سنته، ومنها القرآن.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا..﴾ إلى ﴿..سَبِيلِهِ﴾ ﴿وَصَّيْنَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الله وتتقون التفرق؛ لأن تقوى الله هي طاعته وطاعته اتباع كتابه، ومن لازم اتباع كتابه ترك التفرق، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَا بِهِ﴾ من المتلو فلذلك جاء بضمير الغائب.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ تمة للهدى على ما قد أعطاه الله من قبل، وقال الشرنفي في (المصاييح): «والمعنى ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى﴾ بعد هذه التوصية لأنها قديمة يوصي بها كل نبي أمته لم تنسخ،

فصح العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ على ﴿وَصَاكُمُ﴾ كأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب» انتهى.

ولا حاجة لقوله: ثم أعظم من ذلك؛ لأنه قد جعل العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الوقوع بالنسبة إلى توصية الأولين، ويحتمل أن العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ راجع إلى الاحتجاج على الذين حرّموا بعض ما أحل الله بغير علم، كأنه قيل: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات لتأكلوا من ثمره ومن الأنعام حمولة وفرشاً لتأكلوا مما رزقكم الله لم نحرّم شيئاً من ذلك هل عندكم من علم بالتحريم فتخرجوه، ثم بعد ذلك أنزلنا التوراة والقرآن هدى للناس تبين ما أحل الله وما حرم، فعبّر عن إنزال التوراة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وعن إنزال القرآن بقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فاحتج أولاً بأنه خلق هذه النعم للإنسان فحرم الجاهلون بعضها بغير حجة، وثانياً بأنه قد أنزل الكتابين مبينين لما أحل وما حرم.

ويحتمل - أيضاً - أن هذا العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ راجع إلى ما أفاده قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ لتضمنه معنى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ أُعَبِّدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ويؤيد هذا ما يأتي من تعليل إنزال القرآن بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ فإنه كلام في إبلاغ الحجة على المشركين المحرمين من دون الله مناسب، لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾.

فكأنه قيل: قل: فلله الحجة البالغة يبعث الرسل في كل أمة، ثم بإيتائنا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن موسى من بيان تحريم الله للشرك وبيان حل ما أحل الله من الثمرات والأنعام جملة وإنزال هذا الكتاب - والله أعلم.

﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ

وعلى هذا: فالعطف بـ(ثم) وقع لأن إنزال التوراة على موسى مضاف إلى بعث الرسل في كل أمة: ﴿أَنْ أُعْبَدُوا اللَّهُ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] مع تأخرها عن معظم ذلك البعث، وهذا الوجه الأخير أرجح الوجوه عندي، ونظيره في العطف بـ(ثم) على مدلول ما تقدم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

﴿و﴾ آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ محتاج إليه من الدين أي بياناً مفصلاً ﴿وَهُدًى﴾ إلى صراط الله ﴿وَرَحْمَةً﴾ تنقذ من النار ومن ضلالات الجهل ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي قوم موسى ﴿يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ﴾ بحضورهم يوم القيامة موقف السؤال والحساب؛ لأنه موعود به في (التوراة) وهو موقف العرض على الله.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أُنْزِلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فقد بلغتكم به الحجة عليكم في تحريم الشرك وإبطال تحريم ما أحل الله وغير ذلك ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير عظيم الفوائد.

قال الراغب: «والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء - ثم قال -: والمبارك ما فيه ذلك الخير - ثم قال الراغب -: ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحَسَّ وعلى وجه لا يحصى ولا يُحصَر قِل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة» انتهى المراد.

وقد وصفه الله بالبركة في هذه السورة مرتين، وفي (سورة اقترَب) و(سورة ص) تنبيهاً على أن فوائده أكثر مما يقدره الناظر على عدد سوره وآياته؛

مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ

لأن فوائده تكثر من حيث لا يحتسب، مثل كثرتها من حيث إضافة فائدة إلى فائدة، وتفرع فائدة من تلك الإضافة أو فوائد، وأما عظم فوائده فمن حيث أنها تفيد: معرفة أصول الدين، ومعرفة أسماء الله الحسنى، ومعرفة عظمة الله وجلاله، ومعرفة الجنة وطريقها، والنار وطريقها، ومعرفة الطريقة التي هي أقوم الطرائق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ الآية [الإسراء: ٩٠] ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ واتقوا الله باتباعه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بصرف عذاب يوم عظيم.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي وهذا كتاب أنزلناه ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي لثلاث أقوال أو كراهة أن تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِّن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى أنزل عليهم من قبل وجودنا أي وجود المخاطبين بمكة وهم أهلها ومن حولها ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ لبعدها بلدنا عنهم وكون دراستهم بالعبرانية ونحن عرب، وقوله: ﴿عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿كُنَّا﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يوم القيامة ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لأنهم تفرقوا وتقاتلوا وكثير منهم يظهر يوم القيامة أنهم كانوا فاسقين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ هذا الكتاب الذي هو ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية بينة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يدل على أنه من ربكم إعجازه لكم فهو آية بينة على أن محمداً رسول الله وعلى ضلالكم بالشرك ومنكرات الجاهلية ﴿وَهُدًى﴾ للتي هو أقوم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ينقذ من النار ومن ظلمات الجاهلية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ بعد هذا الاحتجاج العظيم فيه عليكم من قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وإلى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُلَّى وَرَحْمَةٌ﴾ أو من أول (سورة الأنعام) وهو أنسب لكونها كلها احتجاج على المشركين، ولكون هذه الآية في أواخر السورة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد وضوح الحجة فيها أنها آياته، وبعد وضوح الحجة على المشركين بما دلت عليه الآيات، وهذا يدل على أنه لا أظلم من المشركين المحرمين لما أحل الله، المكذبين بآيات الله الصادقين عنها.

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ قال الراغب: «صدف: أعرض إعراضاً شديداً» انتهى المراد، وفي (الصحيح): «صدف عني أي أعرض» انتهى، ومثله في (القاموس) وفي (لسان العرب): «الصدوف: الميل عن الشيء»، ثم قال ابن سيده: صدف عنه يصدف صدفاً وصدوفاً عدل، وأصدفه عنه عدل به وصدف عني أعرض. وقوله تعالى: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون» انتهى.

فالعذاب واقع بهم على الإعراض لا على التكذيب بآيات الله وحده ولا عليه وعلى الشرك وتحريم ما أحل الله ونحو ذلك وحده بل على الكل وعلى الإعراض، لأنه جريمة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الآية [السجدة: ٢٢] وذلك لأنه لو لم يعرض عنها بل أقبل عليها ونظر فيها لكان مظنة أن يرجع إلى الصواب إذا لم يكن قد تمرد سابقاً حتى خذل.



يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هل ينتظرون ليؤمنوا ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ كقوله حاكياً عنهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ كقولهم: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] وقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِي يَاللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. فهم يطلبون أن يأتي الله ويؤكد لهم نبوة محمد مشافهة.

﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ التي تضطرهم إلى الإيمان، فهي بعض مخصوص، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ ولعلمهم انتظروا بإيمانهم هذه الآية، حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا﴾ إلى قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢] فجعلوا ذلك آية تبعثهم على الإيمان، ولو سقطت السماء كسفاً لكانوا ملجئين إلى الإيمان فلم ينفعهم إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يحتمل: أنه المذكور أولاً، أي سقوط السماء كسفاً، ويحتمل: أن المراد أعم مما ينتظرون، أي يوم يأتي بعض آيات ربك من الآيات الملجئة إلى الإيمان التي هي سقوط السماء وغيره ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ ويحتمل أن المراد بها غير ما ينتظرون، فيكون كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢] بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١].

وعلى هذا: يصح تفسير ﴿بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ الثانية بطلوع الشمس من مغربها، كما أخرجه أحمد بن حنبل في (مسنده) [ج ٣/ ص ٣١]: حدثنا بن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا... خَيْرًا﴾ قال: «طلوع الشمس من مغربها» انتهى، وفي طلوع الشمس من مغربها روايات عديدة، وأكثرها لا يدل على أن طلوعها من مغربها معنى الآية؛ لاحتمال أنه من التطبيق، بمعنى: أنه داخل في عموم الآية.

أما حديث أبي سعيد - وسنده جيد - فظاهره تفسير الآية به، والتفسير للآية بطلوع الشمس من مغربها روي عن ابن مسعود من كلامه.

فإن كان ﴿ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ الثانية يعم الملجئ وغيره، أي الآيات عام لا البعض، فالتفسير بالبعض الملجئ مناسب لسياق الآية، مع دلالة قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] وهذا أظهر من جعل آيات ربك الثانية خاصاً بالملجئة.

فأما قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ فهو يبين أن انتفاع المؤمن الصحيح بالإيمان بإيمانه وبعمله الصالح أما كسب الخير في حال الإختيار من غير المؤمن فلا ينفع، فإذا جاء بعض الآيات الملجئ لم يكن له ما ينفعه لأن كسبه الخير في الماضي حابط كسراب بقية، وإيمانه حال الإلجاء لا ينفعه، ولا معنى لتقدير كسبه خيراً حال الإلجاء لا ينفعه؛ لأنه لا كلام في كسبهم الخير حال الإلجاء فلا دليل على تقديره مع عدم ذكره في الآية، وليس مفروضاً في غير هذه الآية إنما يفرض الإيمان؛ لأنه أعظم ما يتوسل به عند الإضطراب أما الأعمال التي هي كسب الخير فلا يقدر نفعها عند نزول العذاب الملجئ؛ لأنها منسية حينئذ فلا معنى لتقديرها في الآية ولا دليل عليه فتقديره مجرد دعوى وعطف للقرآن على الهوى، وإن زخرفه أحمد في (حاشيته) على (الكشاف).

شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٦﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وعيداً بأمر ممكن، فاحتاجوا إلى تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وقوله: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

والراجح عندي: أنه حكاية لما يعلقون به إيمانهم كما بينت في أول الكلام في معناها؛ لأنهم جعلوا ما اقترحوه غاية لامتناعهم من الإيمان فكانهم انتظروا بإيمانهم وقوعه، وقد تبين جعل بعضه غاية في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢] فمعناه: أن تركهم الإيمان ممتد حتى يقع أحد المقترحات في الآيتين، فهو بمنزلة المنتظر وإن فرض أنهم لا يتظرونه حقيقة في قلوبهم فيصح تسميته انتظاراً مجازاً من الاستعارة التبعية لمشابهة تأخيرهم للإيمان بتأخير المنتظر به، وبذلك يستقيم ذكر الملائكة وذكر إتيان ربه.

وفيد ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ..﴾ إلى آخر الآيتين في أنه تعليق لإيمانهم بالمقترحات، وأنهم متمردون، والوعيد بعده مناسب بقوله تعالى: ﴿قُلِ أَنْتَظِرُوا إِنَّهُ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي ﴿أَنْتَظِرُوا﴾ بإيمانكم ما علقتموه عليه فهو تهديد ﴿إِنَّهُ مُنْتَظِرُونَ﴾ نزول العذاب بكم لهذا التمرد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ دفع لتوهم تحسين طريقة الطائفتين كليهما، وأن محمداً ﷺ أنزل عليه هذا الكتاب المبارك ليكون هو ومن اتبعه بمنزلة إحدى الطائفتين فيكونوا طائفة ثالثة، لأنهم أهل كتاب كالطائفتين.

فَبَيَّنْ سُبْحَانَهُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مُتَّبِعاً لِهَذَا الْكِتَابِ دَاعِياً إِلَى اتِّبَاعِهِ لَيْسَ كَأُولَئِكَ الطَّائِفَتَيْنِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الْمُتَفَرِّقِينَ لِأَنَّهُمَا وَإِنْ كَانَا أَهْلَ كِتَابَيْنِ مِنَ اللَّهِ يَدْعِيَانِ إِلَى اتِّبَاعِهِ فَإِنَّهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ فِي كِتَابِهِمْ، وَتَرَكُوا اتِّبَاعَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ فَلَيْسَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَهُمْ وَلَا عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي الْإِتِمَاعِ إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَوْلًا بِلا عَمَلٍ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ مَنْزَهُ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْبَاطِلِ.

وقوله تعالى: ﴿شَيْعًا﴾ بمعنى فرقا، كل فرقة شيعية لمتبوعهم وطريقتهم ينصرون متبوعهم وطريقته ويتشايعون فيما بينهم ضد الفرق الأخرى بغياً بينهم بالتعاون ضد الآخرين، فهم أهل أهواء وأغراض سياسية لا أهل دين واتباع لما أنزل الله، فليس رسول الله ﷺ مثل فرقة منهم في شيء من الطريقة والتدين، وهذا الكلام في المتفرقين منهم وهم أكثرهم وجمهورهم وغالبهم، ولذلك نسب إليهم جملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجن: ١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ليحكم بينهم يوم القيامة، ولأن أمرهم إليه تركهم يتفرقون في أباطيلهم ولم يتركهم لأنهم على حق في ذلك ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي أنه عالم به لا ينساه فهو ينبئهم يوم القيامة عند الحكم بينهم فيجزئهم بما كانوا يعملون، وهو وعيد شديد على التفرق في الدين وتحذير منه.

وقد جاءت روايات كثيرة من وجوه عديدة يقوي بعضها بعضاً في افتراق اليهود والنصارى، وهلاك كل منهم إلا فرقة، وأن هذه الأمة ستفترق

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٣٠] قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ

إلى ثلاث وسبعين كلها هالكة إلا فرقة، وقد صححها الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) [ج ١/ ص ١٤] وقال في [ج ٣/ ص ٤٨٠] في سند رواية عوف بن مالك لهذا الحديث: «وهذا إسناد جيد» انتهى.

ثم بين وجه كونه جيداً والعمدة عندنا كثرة الأسانيد، وقال الألباني في [ج ١/ ص ١٤]: «على أن للشوكاني في هذا المقام خطأ آخر أفحش من هذا [أي من خطئه في تقليده للسخاوي في كلامه في هذا الحديث] وهو تضعيفه في تفسيره لهذه الزيادة مقلداً - أيضاً - في ذلك غيره مع أنها زيادة صحيحة وردت عن غير واحد من الصحابة بأسانيد جيدة، كما قال بعض الأئمة» انتهى، وحكى الألباني في [ج ١/ ص ٢٠] رد المقبلي في (العلم الشامخ) على من ضعف هذه الزيادة.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا﴾ فسوف يجزى بالحسنة الواحدة جزاء عشر حسنات ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ أي بقدر جزاء سيئة واحدة لا يزداد مع السيئة تضعيف لها بطريقة الغضب أو لزرع غيره كما يفعل الظلمة.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص من ثواب أو زيادة في عقاب، وسمي نقص الثواب ظلماً والمراد لا ينقصون من ثوابهم؛ لأن العرب تسمي النقص ظلماً، قال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تُظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١] ويحتمل: وهم لا يظلمون أي ظلم حقيقي.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، فهو المستقيم الذي لا عوج فيه طريق واضح لا خفاء فيه يوصل إلى رحمة الله ورضوانه مستقيم لا عوج فيه؛ لأنه الحق فكيف أعدل عنه إلى أباطيل الجاهلية وقد هداني ربي ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ تفسير للصرراط المذكور بأنه دين أي طاعة لله ومعاملة مع الله ﴿قِيَمًا﴾ لا بدعة فيه ولا ميل عن الحق، فوصفه بالإستقامة من حيث هو صراط يمدح باستقامته وسلامته من العوج الذي يسبب طول السير وبعد المسافة، أو يسبب الغلط بانحرافه عن القصد حيث لم يشعر السائر بانحرافه فيتقدم خارجاً منه فهو مدح للمشبه به ليفيد مدح الدين المشبه بأنه خير طريقة.

أما قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فهو يفيد أن الدين نفسه قيم سليم من عيوب الأديان التي تدخلها بسبب الإبتداع والانحراف أو الأديان التي يختارها الإنسان ليست من الله فهي من أصلها معوجة عن الصواب، وهذا على قراءة ﴿قِيَمًا﴾ [بفتح القاف وكسر الياء وتشديد ها].

فأما على قراءة ﴿قِيَمًا﴾ [بكسر القاف وفتح الياء وتخفيفها] فهو بمعنى: قوام، فهذا الدين قوام لي تقوم به حياتي لصلاحه لها وإصلاحه لها وجعلها حياة طيبة لسلامتها من ضرر المخالفة اللازم لها كضرر الخمر والميسر والقوانين الإنسانية المخالفة لدين الله ولسلامتها من تضييع العمر في غير فائدة للمستقبل، وجعل هذا العمر مؤدياً إلى عذاب الآخرة وسلامتها من العيش الضنك الذي لا بد منه لمن أعرض عن ذكر الله، وعلى هذا مرجع القراءتين إلى معنى واحد.



رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢٣﴾ قُلْ أَغْيَرُ اللَّهَ أُنْبِئِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ

فأما الشرفي فقال في تفسير ﴿قِيَمًا﴾: «مصدر بمعنى القيام وصف به وهو أبلغ من قائم» انتهى، فجعل قِيَمًا وقِيَمًا القراءتين، بمعنى واحد. ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِلَّةَ﴾ أَسِيكُم ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي اتفق أهل الملل أنه على الحق وادعى أهل كل ملة أنهم على دينه بلا حجة أو الذي تدعي العرب أنها على دينه خطأ منهم ﴿حَنِيفًا﴾ خاشعاً لله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فزعمكم أيها المشركون أنكم على دينه زعم باطل؛ لأنكم مشركون وما كان من المشركين قط.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ لله وحده فأنا أدعوه في صلاتي وحده ولا أدعو غيره كما يفعل المشركون ﴿وَنُسُكِي﴾ نحري وذبحي له وحده لا أنسك لغيره كما تصنعون أيها المشركون.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ كذلك هما لله، أي منذوران لله تعالى، فسأجعل كل أعمالي في حياتي كلها وفق مراد الله وفيما يحقق لي رضاه، وكذلك أَسْخَرُ موتي فيما يرضي الله وسأجعله في سبيله وأنذره ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المالك لي، وهذا هو الإسلام الكامل في أعلى درجاته إسلام نفسه لله وحده إسلاماً كاملاً؛ لأنه لا يبقى لنفسه من نفسه شيئاً.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرني ربي بأن أجعل حياتي ومماتي له وفي سبيله، ناصراً لدينه ومجاهداً لإعلاء كلمته ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ سابقهم في الإسلام لا يبلغ مبلغني فيه أحد من البشر، أو أول المسلمين في زماني سبقت بإسلامي من اتبعني كلهم وكنت قدوتهم في الإسلام وهذا أقرب.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

﴿١٧﴾ ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي هذا لا يكون مني أبداً، فالسؤال بمعنى النفي كقول (مؤمن آل ياسين): ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ [يس: ٢٣] وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ احتجاج على المشركين بأن الله رب كل شيء فلا يستحق العبادة غيره، ومعنى ﴿أَبْنِيَ﴾ أطلب أن يكون لي رب غيره وجعل (غير) بعد همزة السؤال؛ لأن (غير) محط الإنكار، أي كيف غير الله اتخذ ولياً؟!

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ احتجاج آخر بأنني لو فعلت ذلك ما ضررت به إلا نفسي ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ احتجاج ثالث بأنني لو فعلت ذلك لم يحمل أحد عني ذنبي فهو ردُّ على القائلين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ومعنى ﴿تَزِرُ﴾ تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ حاملة ﴿وَزَرَ﴾ حمل ﴿أُخْرَىٰ﴾ نفس أخرى.

قال في (الصحيح): «والوزر: الإثم والثقل - ثم قال - : وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة حمل أخرى» انتهى.

والدليل على أنه استعير من حمل الثقل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ فقوله: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ استعارة، وقوله: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ترشيح، وفي (لسان العرب): «الوزر: الحمل الثقيل، والوزر: الذنب لثقله - ثم قال -: ووزرت الشيء أزره وزراً حملته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾» انتهى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ترتيب على الإحتجاج الماضي، وعلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ﴾ وما بعدها

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أنت ومن معك والمشركون ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ إليه وحده في الآخرة ﴿فَيَنْتِقُكُمْ﴾ يخبركم في القيامة في مقام الحساب والجزاء ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من طاعة وعبادة خالصة لله ومعصية وشرك لم يخف عليه منه شيء، ولم ينس منه شيئاً، فيبين لكم الذي كنتم تختلفون فيه حين يبين لكم الحق من الباطل مما اختلفتم فيه، كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ ﴿خَلَائِفَ﴾ جمع خليفة، وإضافة الخلائف إلى الأرض لخلافتهم من قبلهم في عمارتها والإصلاح لما يصلحون فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ \* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣-١٤] فالخلافة في الأرض قسمان: خلافة قرن لقرن وأمة لأمة ينتفعون بالأرض انتفاع من قبلهم، وخلافة إنسان لله، كقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

فقوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ الخطاب للموجودين عند نزول الآية وخلافتهم لمن قبلهم معروفة، ولكن بين الله هنا أنه هو الذي جعلهم خلائف لا غيره ممن يعبدهم المشركون أو غيرهم فهو كقوله تعالى: في السورة ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ في آيات عديدة يرد فيها على المشركين ويبين لهم أنهم مبطلون.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزحرف: ٣٢] إلا أن هذه أعم من آية الزحرف.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ عام للنعم كلها من الأموال والأولاد والأزواج ومن القوة والفتنة والعلم والحكمة بل والعقل والسمع والبصر ومن الولاية لما تحت أيديهم من ناس أو أنعام وغير ذلك ونتيجة الإبتلاء الذي هو الإبتلاء بما ذكر: الجزاء لكل نفس بما كسبت، والمغفرة لمن هو أهل في الحكمة لأن يغفر له، فرتب على ذكر البلوى ذكر الجزاء والمغفرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وسرعة العقاب وقوعه عقيب المعصية لمن استحق ذلك، ومن أعظم أنواع العقاب وأشدّه: الخذلان، وإرسال الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزحرف: ٣٦] فهذا نعوذ بالله عقاب عاجل سريع.

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كالنتيجة لما تقدم في السورة كلها خاتمة لها، فقد تبين فيها أنه سريع العقاب بخذلان المتمردين المدلول عليه في السورة، وتبين أنه غفور رحيم بالدعوة للعصاة إلى التوبة والمغفرة لهم والرحمة، وبتأجيلهم وإمهالهم حتى تنهيا لهم التوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دعوة إلى مغفرته ورحمته، وبيان لما في السورة من وعيد المشركين وتقبيح طريقتهم وأعمالهم الجاهلية أنه كله تقبل التوبة منه، ويغفر كله لمن تاب لأنه غفور رحيم، وما في السورة من الإحتجاج عليهم هو نفسه دعوة إلى التوبة ليغفر لهم ويرحمهم، وكذلك يرحم عباده ويغفر لهم بتأجيلهم في هذه الحياة، ولو يؤاخذهم حين يكسبون الإثم

لكان ذلك عظيماً عليهم، ولكن يعرضهم على التوبة بتأجيلهم ويدعوهم إليها ليغفر لهم ويرحمهم فكان التأجيل والدعوة مغفرة ورحمة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَأَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وجعل خاتمة السورة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب لذكر جرائم المشركين وعنادهم وهو يدعوهم ليغفر لهم من ذنوبهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فكأنه يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعجل لهم العذاب وهم كما قد بين في هذه السورة مبطلون ومكذبون ومجادلون ومصررون على باطلهم، معاندون بعد وضوح الحق وقيام الحجة عليهم بهذا القرآن العظيم، فذلك التأجيل والدعوة إلى رحمته مع أنهم كما ذكرنا؛ لأنه غفور رحيم. والحمد لله رب العالمين.





## فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
١	هل في المال حق سوى الزكاة؟	النساء	٨
٢	حكم القذائي أو الإستهادي	النساء	٢٩
٣	حكم الخطأ والنسيان وتحديد الكبائر	النساء	٣١
٤	موثي الحلف وعدم نسخ نصيبه	النساء	٣٣
٥	واللاتي تخافون نشوزهن	النساء	٣٤
٦	شهادة الرسول على الناس	النساء	٤٢
٧	وجوب إحضار الذهن حال الصلاة	النساء	٤٣
٨	مثير والفتن	النساء	٧٧
٩	لتبين للناس ما نزل إليهم لا يعني البيان بالسنة	النساء	٨٢
١٠	فهم القرآن في متناول الجميع	النساء	٨٣
١١	يتبع فهم القرآن في للجميع	النساء	٨٣
١٢	تعريف التحية	النساء	٨٦
١٣	الدية ليست ميراثاً	النساء	٩٢
١٤	معنى تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة	النساء	٩٥-٩٦
١٥	ليس الجهاد فرض كفاية	النساء	٩٥-٩٦
١٦	فلا تميلوا كل الميل	النساء	١٢٩
١٧	تعريف المنافق	النساء	١٣٨
١٨	لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً.. كيف؟ ومتى؟	النساء	١٤١
١٩	في صفات المنافقين	النساء	١٤٢
٢٠	في معنى «اليوم أكملت لكم دينكم»	المائدة	٣
٢١	حكم الأمر بالوضوء تابع للقيام للصلاة	المائدة	٦
٢٢	وأرجلكم إلى الكعبين، الفصل لا يمنع العطف	المائدة	٦
٢٣	وجوب غسل القدمين	المائدة	٦



م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
٢٤	رد على اليهود في دعوى الملكية لأرض فلسطين	المائدة	٢١
٢٥	معنى الوسيلة	المائدة	٢٥
٢٦	إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الإستدلال على نزولها في الإمام علي (ع)	المائدة	٥٥-٥٦
٢٧	رد على المشبهة في معنى (اليد)	المائدة	٦٤
٢٨	آية الولاية وتخريج حديث الغدير	المائدة	٦٧
٢٩	لفتة رائعة في اسم الخمر وحقيقتها	المائدة	٩٠
٣٠	معنى مشيئة الله سبحانه ومعنى الإضلال	الأنعام	٣٩
٣١	الفرح المذموم والمحمود	الأنعام	٤٤
٣٢	الخلافة في الأرض قسمان	الأنعام	١٦٥

محتويات الجزء الثاني			
رقم السورة	السورة المفسرة	الصفحات	
		من	إلى
٤	سورة النساء	٥	٢٢٦
٥	سورة المائدة	٢٢٧	٤٠٨
٦	سورة الأنعام	٤٠٩	٥٧٨
فهرس بأهم المواضيع والمسائل		٥٧٩	٥٨٠
فهرس المحتويات		٥٨٠	

بسم الله

